الجديد

في تفسير القرآن المجيد

تأليف

الشيخ محمد السبزواري النجفي

الجزء السادس

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جمعداری اموال
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
ش-اموال ۵۵۱۹۹

التجديد

في تفسير القرآن المجيد

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ٣٨٥٤٤
تاریخ ثبت :

٣٢

التجديد

في تفسير القرآن المجيد

الجزء الخامس

تأليف
الشيخ علي عبد الرزاق مجيد مرزه

المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سرشناسه	:	مرزه، علی
عنوان و پدیدآور	:	التجدید في تفسیر القرآن المجید / تألیف علي عبدالرزاق مجید مرزه
مشخصات نشر	:	قم: رادنگار، ۱۳۸۵.
مشخصات ظاهری	:	۶ ج.
فروست	:	المؤسسة السلامیة للبحوث والمعلومات؛ ۲۸
شابک	:	978 - 964 - 2818 - 13 - 6
شابک دوره	:	978 - 964 - 2818 - 15 - 0
وضعیت فهرست‌نویسی	:	فیپا
موضوع	:	تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴.
رده بندی کنگره	:	۴۲۵م۴ت ۹۸/ BP ۳
ردهبندی دیویی	:	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابخانه ملی	:	۴۹۱۱۶ ـ ۸۵م

انتشارات رادنگار

هوية الكتاب

اسم الكتاب .... التجديد في تفسير القرآن المجيد / ج٥

المؤلّف .... الشيخ علي عبدالرزاق مجيد مرزه

التحقيق والإخراج الفنّي....... المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات

الناشر.............................. رادنگار

الطبعة .... الأولى / ١٤٢٨ هـ ق ـ ١٣٨٦ هـ ش

المطبعة .... عمران

الكمية .... ١٠٠٠ دورة

شابك: ٦ ـ ١٣ ـ ٢٨١٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨ شابك الدورة: ٠ ـ ١٥ ـ ٢٨١٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات

بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣-٢٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ النصيب: جزء الشيء وقسم وحظ منه.

٢ـ الفريق: قسم من الناس.

٣ـ الإعراض: الترك من دون رضا واهتمام.

٤ـ الاغترار: أ ـ الخديعة. ب ـ الكِبر.

٥ـ الافتراء: الكذب.

س: ما هي المحتملات التي ترد في ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾؟

ج:

١ـ أشارة إلى عدم تماميّة كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، بل كان حصّة من

الكتاب لمدّ يد التحريف فيه بالزيادة والنقصان.

٢ـ أشارة إلى علماء أهل الكتاب الذين لم يعلموا بكلّ الكتاب بل بجزء منه، فما حصلوا عليه من العلم بالكتاب قليل.

٣ـ أشارة إلى علماء أهل الكتاب الذين لم يحصلوا على علم من الكتاب إلّا حصّة منه، وأمّا الباقي فهو من عند أنفسهم وينسبونه إلى الكتاب زوراً وبهتاناً.

٤ـ أنّ نفس الكتب السماوية غير القرآن لو قيست مع القرآن لرأيناها لم يأتِ فيها إلا نصيب من العلم لشمولية علوم القرآن وسعته، فهو دستور الحياة إلى يوم القيامة، وأنّه يحكي عمّا موجود في الكتب السماويّة الأُخرى ومصدّقاً لها، وأنّه الكتاب الجامع، فالعلم المحيط التّام بغير القرآن يبقى نصيباً بالنسبة إلى علم القرآن وما يحويه.

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؟

ج:

في هذا الخطاب يعطي ويبيّن الله من خلاله إحدى التعليلات وأهم الأسباب للذي ذكره سابقاً في حقّ أهل الكتاب من الآيات السابقة، في اختلافهم وأنّه بغي، وفي عدم استسلامهم لله من أجل الوصول إلى الحقيقة والهداية، وتولّيهم وإعراضهم عن الحق، و قتلهم للأنبياء وللذين يأمرون بالقسط من الناس، وهذه الأُمور هي التي تمثّل أُمّ الكفر العملي بالله وتمرّدهم عليه، فاعلم يا رسول الله ﷺ، أنّ هؤلاء أهل

الكتاب من اليهود والنصارى الذين هم أمامك، الذين لم يحملوا التوراة كاملة ولم يحملوا الإنجيل كاملاً، بل بسبب مدّ يد التحريف إليهما بزيادة أو نقصان فقد صار لكلّ واحد منهما نصيب وقسم من الكتاب، أو على ما بيّنا من الاحتمالات في جواب السؤال السابق، وعلى الرغم من هذا فنحن قبلنا إقرارهم به ككتاب الله وعلى ما يحملون منه ودعوناهم إليه عن طريق الأنبياء أو عن طريق آيات التوراة والإنجيل ليكون حَكماً بينهم في انتزاع الاختلاف وقطعه لكفاية ما موجود في كتبهم، وهي على هذه الحالة من التحريف من أجل حلّ الخلاف بين النصارى أنفسهم عندما تدعوهم بالرجوع لكتابهم الإنجيل، أو بين اليهود أنفسهم عندما تدعوهم بالرجوع لكتابهم التوراة، على الرغم من ذلك كلّه تجد فريقاً منهم يترك هذا الأمر المهم ويتخلّى عنه بإعراض وعدم الرجوع إلى الكتاب الذي يؤمن به على أنّه من عند الله، فليس غريباً أن تجد هؤلاء عندما يحاجّوك وأنت تدعوهم إلى الاستسلام لله وهم يتولّون معرضين عن ذلك، فالذي لا يستسلم لكتابه الذي يؤمن ويعتقد به فمن باب أولى أنّه لا يستسلم لطلبك منهم مع أنّ من لازم كون المؤمن بالله أن يكون مستسلماً له، وأنّه طلب طبيعي ليس فيه غرابة على خصوص المؤمنين، بل هو من لوازم الإيمان.

فالتولّي والإعراض عن كتاب الله وعن كلّ شيء يوصلهم إلى الحق حالة سابقة متأصّلة فيهم حتّى أصبح الإعراض مَلَكة يمتلكونها ويتميّزون بها، وأحد الأسباب المهمّة في (ذلك) هي الكذبة والبِدعة التي تركها الأوّلون من اليهود والنصارى حينما ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾، وهؤلاء هم نفس أولئك، تمسّكوا بالكذب والبِدع وتركوا كتاب الله مع علمهم بالكذب وأنّها بِدعة لم ينقلها كتاب سماوي أبداً ولم يقبلها منطق ولا عقل، وأنّهم باقون على هذا الكذب بخداع

واغترار من أنفسهم بمحاولتهم تأييد الأولين وعدم تكذيبهم، وكبر واغترار من أنفسهم في ألّا يذعنوا للحق وإن كان يمثّل الله ورسوله ورسالته، فهؤلاء باقون على غرورهم واغترارهم ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ بسبب ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الأوّلون حين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾، فاليهود هم اليهود، والنصارى هم النصارى، بعضهم من بعض.

فعليك أيّها المسلم ألّا تُدخل البدعة في الدين، ولا تغترّ بالدنيا بوجود الأتباع لك، ولا تتّبع البدع، وادرس الأمور بكلّ موضوعية وتعلّم حتّى تكتشف الصحيح من الخطأ ممّا تركه الأوّلون وحتّى لا تكن إمّعة مع الآخرين.

ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ويل للذين يختلون الدنيا بالدّين، وويل للذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من النّاس، وويل للذين يسير المؤمن فيهم بالتقيّة، أبي يغترّون أم عليّ يجترئون؟ فبي حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تترك الحليم منهم حيران»(١).

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم إسلامي

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾؟

ج:

أنّ تولّي اليهود والنصارى وأي شخص يتولّى ويعرض عن الحق بإمكانه في الدنيا أن يتولّى ويعرض ويعاند ويتمرّد ويعمل كيف يشاء؛ لأنّ الاختيار في الدنيا موجود، وأنّ دار الدنيا دار عمل ولا حساب وأنّها دار امتحان، ولكن هؤلاء ماذا يصنعون لذلك اليوم المعلوم والحتمي الوقوع بلا ريب في وقوعه، وأنّه يوم الجزاء

(١) الكافي ٢: ٢٩٩/ ١.

والعدل، ذلك اليوم الذي يستسلم فيه الكلّ إلى التجمّع فلا تولّي ولا إعراض، ذلك اليوم الذي يكون الكلّ فيه مستسلمين للحساب والمحكمة الإلهيّة، فلا اختيار في الحركة والكلام إلّا مَن أذن له الرحمن، فلا تولّي ولا إعراض، ذلك اليوم الذي سوف تمسّهم النار فيها دائماً فلا يبقى غرور أو تولّي أو إعراض ولا شعار كاذب، فالذي لم يستسلم اليوم لله باختياره فسيستسلم غداً من دون اختيار منه حيث لا ينفع الاستسلام؟.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٢٦-٢٧).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيتين؟

ج:

١ـ تنزع: قلع الشيء عن الشيء.

٢ـ الخير: أـ الاختيار. ب ـ المرغوب المقابل للشر.

٣ـ الولوج: دخول الشيء في شيء بحيث يستره.

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

ج:

لقد مرّ الحديث عن ملك الله للأشياء في سورة الفاتحة والبقرة، والذي نريد أن نقوله هنا بخصوص هذه الآية: إنّه مادام ملك الله حقيقياً وإنّ ملكيّة غيره سبحانه ذات ملكيّة اعتبارية، وكما أنّ ملكيّته مطلقة وتشمل جميع الاتّجاهات التي يمكن للذهن أن يفرضها وما لم يمكن أن يفرضها لمحدودية الذهن وإطلاق الملكيّة لله فإنّه سبحانه ذو قدرة وقيموميّة مطلقة كذلك، فهو المطلق في كلّ شيء على الإطلاق، ومن هذه الحقيقة تتفرّع الأمور التالية:

١ـ أنّه ما من ملكيّة للشيء ممّا يتقوّم ذلك الشيء بها إلّا ولله دخل وإحاطة وتدبير وسلطة؛ لأنّه هو الموجد والخالق والصانع، فهو مالك ملك الأشياء وقوامها الذي تتقوّم به، فهو مالك الأشياء وأسبابها ومسبّباتها الوسطيّة التي تنتهي إليه كما ابتدأت منه سبحانه وتعالى، فهو مالك الملك.

٢ـ أنّه ما من ملكيّة اعتبارية حصل عليها الإنسان ضمن استثمار القانون الطبيعي الذي جعله الله للكون والحياة إلّا ولله دخل فيه ومحيط به، فهو يمتلك ما يمتلكه النّاس بالاعتبار، فهو مالك ملك النّاس ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (النور:٣٣)، ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ (التغابن:١).

٣ـ أنّ من جملة الملك الاعتباري الذي منحه الله للناس العناوين العالية كالسلطة والملوكيّة والخلافة والحكومة والنبوّة والإمامة والولاية والعزّة والكرامة والنصر وغيرها من العناوين سواء التي استخدمها حاملها نحو الشرّ والانحراف أو نحو الله والخير، ففي جميع الحالات أنّ لله دخلاً وسلطة وملكاً وتصرّفاً فيها، وبالتالي فهو سبحانه وتعالى يملك الملوك وما يملكون، فهو مَلِك الملوك ومالكها.

٤ـ ومن كلّ ما مرّ نعرف ومن دون تطويل أنّ لله الحق والقدرة أن يؤتي الملك إلى مَن يشاء وينزعه ممّن يشاء وفي مجاليه وحالتيه بأن يؤتي الملك للإنسان بعزّ أو بذل، وأن ينزع الملك عن الإنسان بعزّ أو بذلّ.

٥ـ كما نعلم أنّه لا إله إلّا هو الخالق والقادر والمالك ...نعلم أنّه القائم بالقسط والعدل والربوبيّة ...وعليه فلا ينزع شيء أو يؤتي بشيء أو يعزّ أو يذلّ على أساس العدل والحكمة والرحمة واللطف ...

ورد عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: قلت له: ﴿قُلِ

اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أليس قد آتى الله بني أميّة الملك؟ قال عليه السلام: «ليس حيث تذهب!! إنّ الله عزّ وجلّ آتانا الملك وأخذته بنو أميّة، بمنزلة الرجل يكون له ثوب فيأخذه الآخر فليس هو الذي أخذه»[1].

٦ـ أنّ هذا الخطاب يعكس الثروة الفكريّة، ويرشد العقل إلى تعريف الله بشيء من التوضيح والتفصيل، ويعمّق الروح العقائديّة، ويركّز الروح الإيمانيّة بما يشبعها يقيناً وثباتاً، ولهذا طرحه الله بصيغة الدعاء ليكون ذكره لهجاً على ألسنة المؤمنين ليستلهموا منه روح العلو الإيماني الذي يزيدهم تواضعاً وهم يعيشون بين صفوف المؤمنين أنفسهم، ويزيدهم تحدّياً وقوّة وثباتاً وهم يواجهون تحدّيات الحياة ممّا يصنعه ويضعه الظالمون أمامهم.

٧ـ أنّ في هذا الخطاب دلالة واضحة في أنّ الله يقع تحت قدرته الخير والشر.

س: لماذا في هذا الخطاب قد أظهر صفة الملك دون غيرها من الصفات لله؟ اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

لأنّ موضوع الآية هو التصرّف بشقيّه وهما أصل التصرف الإلهي من الإيتاء والنزع وكيفيّة التصرّف بعزّة أو بذل، وإنّ حقّ التصرّف وكيفيته لا ينبع إلّا عن الملكيّة السابقة ومن لوازمها.

---

(١) الكافي ٨: ٣٨٩/٢٦٦.

س: لماذا كرّرت الإشاءة (تشاء) في الخطاب؟ اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

١- لبيان وتأكيد أنّه لا أحد يتدخّل في قدرته وإرادته، ولا أحد يؤثّر على إرادته وقدرته، بل بيده الخير أي الاختيار، وما يختاره الله هو الصالح وفيه الصلاح والرغبة وهو الخير كل الخير.

٢- لبيان وتأكيد أنّه ما من شيء إلّا وهو من عند الله.

٣- لبيان وتنبيه الإنسان بألّا يغتر بالسبب الطبيعي ويجعله هو العلّة المتفرّدة بالشيء، بل إنّ الله من وراء الأسباب.

س: لماذا اختصر الخطاب على قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ مع أنّ كلّ شيء واقع تحت قدرة الله من الخير والشر كما ذكرتم ذلك في النقطة السابعة؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

١- أنّ الشرّ وإن كان واقعاً تحت قدرته إلّا أنّه لا يرضاه، فعدم ذكره امّا أن يكون كراهية لذكره، أو استصغاراً وتنكيراً له.

٢- أنّ القدرة على الخير أصعب بكثير من القدرة على الشر، فالذي بيده الخير يكون من باب أولى بيده الشر، فإنّ الخير عملية بناء والشر عملية هدم، والبناء أصعب من الهدم.

٣- أنّ الله قد ذكر أنّه بيده الشر من خلال قدرته على الذلّ ونزع الملك فلا داعي لذكره صراحة.

٤- أنّ الخطاب في موقع الدعاء، والدعاء استجلاب الرحمة والخير فيكون من

المناسب أن يبرز عامل الخير دون الشر.

٥ـ أنّ الشّر لا يلحقه الله إلّا بالأشرار الذين استحقّوا نزول الشّر عليهم فهو شرّ بالنسبة إليهم وهو خير في نفسه وليس بشر بالنسبة للواقع.

٦ـ أنّ الشّر وإن كان واقعاً تحت اختياره إلّا أنّه لم يصدر منه.واقعاً.

س: ما هو المحتمل من التفسير لقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؟

ج:

أولاً: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾

١ـ مظهر من مظاهر قدرته إيجاد الليل والنهار.

٢ـ مظهر من مظاهر الخير الذي بيده اختياره الليل والنهار فإنّ كُلّاً منهما خير.

٣ـ مظهر من مظاهر ملكه هو امتلاكه الليل والنهار.

٤ـ مظهر من مظاهر التفرّد بالمشيئة أنّه وحده سبحانه وتعالى مغيّر الليل والنهار.

٥ـ مظهر من مظاهر الخير والحكمة والرحمة في التصرّف أن جعل الولوج بالليل والنهار، بحيث يظهر كلّ منهما بحركة انسيابيّة دون الظهور المفاجئ، وبشكل لا يؤثّر على الإنسان بالاتّجاه السلبي عليه، فيظهر الليل باختفاء النهار فيه وهو يمرّ بلطافة على الإنسان، كما هو ظهور النهار باختفاء الليل فيه وهو يمر بلطافة على الإنسان، فمع أنّ هذا التغيّر المرتّب يمرّ على الإنسان يوميّاً إلّا أنّه يمر وهو مناسب لتكوين الإنسان ويسير ضمن حاجة الإنسان لمثل هذا التغيير، فيكون في جميع الحالات ظاهرة تمرّ على الإنسان بصورة يوميّة إلّا

أنّها تمرّ من دون ملل وضجر منه، وسواء تمرّ هذه الظاهرة بشكل واضح بحيث يتميّز بها الليل من النهار كما هي في بعض المناطق كالاستوائيّة، أم لم يتميّز فيها الليل من النهار كما في بعض المناطق الأُخرى، فكلّه ولوج إلّا أنّه ولوج مؤقّت على بعض المناطق وطويل على المناطق الأُخرى، والكلّ معلوم لدى الإنسان.

٦ـ أنّ الولوج لا ينحصر وجوده على الظاهرة اليومية للنهار والليل، بل يشمل الولوج الذي يسبّب الفصول الأربعة، حيث تمرّ زيادة أحدهما بنقصان الآخر بشكل خفيّ من دون أن يحسّ بها الإنسان والتي تسبب تلك الزيادة وذلك النقصان عملية تبدّل وانتقال من فصل إلى آخر.

٧ـ أنّ الولوج نِعمة من النِعم الكبرى لما لها من الآثار الإيجابيّة المنسجمة مع حاجة الإنسان من معرفة الوقت وحركته الناشطة نهاراً والساكنة ليلاً، وفيها من التأثير الروحي على الإنسان، وفيه الإيجاب الكثير الذي ملأ الكتب العلميّة المختصّة.

ثانياً: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾

مظهر من مظاهر ملكه وقدرته وصورة أُخرى من صورها حيث يمتلك الحياة والموت تلك الظاهرة التي تملأ الحياة، فكما الله هو الذي يزوّدها بعناصر الحياة هو الذي يزوّدها بعناصر الموت على أساس من العدل والتوازن والحكمة، وهي في نفس الوقت ممّا يقف الإنسان حائراً وعاجزاً أمامها، حين يقف على موت أو على حياة فهي تجري بصورة واضحة منحصرة بيد الله وليس للإنسان دخل فيهما، فهو سبحانه مخرج الحي كالإنسان من الماء المهين، أو آدم من التراب والنبات من التراب الذي لا حياة فيه، وهو مخرج الميّت من الحي حين يخرج الأجزاء الميّتة

التي لا إحساس فيها يخرجها من خلاياها الحيّة كالقرن والصوف في الحيوان وغيرها من الأجزاء الميّتة التي تنفصل عن الجسم الحي، أو هو الذي يفصل الروح عن الجسم عند موته، فهو سبحانه مخرج الجسم الميّت ويفصله عن الروح ذات الحياة الباقية، وقد تكون هناك معانٍ أخرى للموت والحياة لا يدرك حقيقتها إلّا الله سبحانه المحيط بكلّ شيء.

وقد استعار القرآن الموت والحياة واستعملهما فيما هو الأهم، حيث الحياة هي حياة القلوب بالايمان والموت هو موت القلوب بالكفر ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:١٢٢).

ورد عن الرسولﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أنّه قال: «المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن»(١).

ثالثاً: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

١) أنّ الله يرزق مَن يشاء بغير أن يحاسب الذين يرزقهم على أن يعطوه في مقابل ما أعطى، لأنّ الله هو الغنيّ المطلق.

٢ـ أنّ الله يرزق مَن يشاء لا على أساس استحقاق قدّمه الإنسان حتّى يستحق العوض عليه، بل هو تفضّل صِرف من الله.

٣ـ أنّ الله يرزق مَن يشاء من غير حساب، الذي هو كناية عن واسع رزقه وعطائه الكريم الذي لا يحدّه حدّ ولا يمكن أن يحسبه حساب.

٤ـ أنّ الله يرزق مَن يشاء من غير حساب عليه يوم القيامة، لأنّ يوم القيامة لا

---

(١) معاني الأخبار: ٢٩٠.

يحاسب الله على نفس النعمة وأجزائها التي رزقها الله إيّاه، بل على العمل وكيفية استخدام النعمة في حلال أو حرام، وعلى مَن أنفق وكيف أنفق.

ورد عن الأصبغ بن نباتة أنّه قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: «نحن نعمة الله التي أنعم الله بها العباد»[1].

٥ـ أنّ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب يقع من الإنسان، فالإنسان يطلب من الله أن يرزقه وأن يقضي له حاجته من دون أن يحاسب الإنسان نفسه ما قدّم لله في مجال امتثال أوامره ونواهيه، لكن على الرغم من ذلك نجد الله يرزق الإنسان من دون أن يقدّم الإنسان تقرير عمله الذي يستحقّ الرزق عليه، فهو عطاء من طرف واحد، وقد شاء الله سبحانه وتعالى ذلك من دون أن يتدخّل أحد في عطائه.

س: لماذا كرّر لفظ الولوج والليل والنهار مع أنّه يمكن الاكتفاء بمقطع واحد من الخطاب؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ أن يكون لبيان الاختلاف في الحالتين حيث موقع ولوج النهار غير موقع ولوج الليل.

٢ـ أن يكون لبيان أنّه قد يكون الولوج من النهار فحسب فيكون النهار هو الطاغي في اليوم الواحد كما في بعض مناطق العالَم، وقد يكون الولوج من الليل فحسب فيكون الليل هو الطاغي في اليوم الواحد كما في بعض مناطق العالَم الأُخرى.

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٢٩/ ٢٤.

٣ـ أن يكون لبيان الاختلاف في الحالتين من الولوج من حيث الزيادة والنـقصان الذي يكون سبباً للفصل فتمرّ فترة يكون الولوج الذي يسبّبه النهار أكثر بحيث يقرب الفصل إلى الصيف، وبالعكس.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْـمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

(آل عمران:٢٨ـ٣٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الاتّخاذ: أ ـ الاختيار والتعيين. ب ـ الاعتماد والثقة والسير على الطريقة.

٢ـ الاتّقاء: الوقاية للخوف من شيء.

٣ـ تجد: وهو الوجدان المقابل للفقدان.

٤ـ محضراً: حاضراً جاهزاً محفوظاً.

٥ـ الأمد: المدّة الزمانيّة التي لها حدّ ولكنّه مجهول.

● **مبدأ التقية وولاية الكافرين**

س: ما هي الأصناف في الآيات التي تنهى المؤمنين عن اتخاذهم أوليـاء ولم تقرّ بولايتهم أصلاً؟

ج:

١ـ كلّ مَن اتّخذ غير الإسلام عقيدةً ومنهاجاً، وذكر القرآن خصوص اليهود والنّصارى كمثال باعتبارهم أكثر الديانات انتشاراً بين النّاس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١).

٢ـ مطلق أعداء الله والمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة: ١).

٣ـ مطلق غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ١١٨).

٤ـ المشركون، قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣).

٥ـ شياطين الإنس، ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠).

٦ـ مطلق الذين لم يجعل الله لهم حق الولاية، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١)، وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾ (الجاثية: ١٠).

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى: في الآيتين: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ وَإِلَى الله الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ الله وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

ج:

١ـ الولاية هي نحو سلطة وتدبير، وإطلاق الأولياء يعني بأي نحو من الولاية سواء كان على مستوى الدولة أو على مستوى المؤسّسة أو عائلة الأيتام والقُصَّر مثلاً.

٢ـ أنّ أيّ نوع من الولاية للكفّار على المؤمنين فهو منهي اختيار ذلك على المؤمنين، أي لا يجوز للمؤمنين بأن يختاروا الكافر بأن يكون على المؤمنين بعنوان كونه وليّاً وبأي نوع من الولاية سواء كانت بمستوى السلطة أو المسؤوليّة والتدبير أو حتّى الولاية بمعنى الحب والولاء القلبي لهم.

٣ـ أنّ المراد من المؤمن هو المعنى العام، له وهو كل مَن اتّخذ الإسلام ديناً، كما أنّ معنى الكافرين عام وهو كلّ من لم يتّخذ الإسلام ديناً.

٤ـ أنّه لو وقع التزاحم ما بين وليّين أحدهما مؤمن والآخر كافر فيقدّم المؤمن على الكافر، وإن كان الكافر أكثر كفاءة في مجال الولاية من المؤمن، تمسّكاً بإطلاق النهي الدال على الحرمة.

٥ـ أنّه لو كانت الساحة لم يوجد فيها إلّا الكافرون، وقد احتاجت والياً عليها من قبل المسلمين فلا يجوز على المسلم أن يعيّن عليهم والياً إلّا مسلماً، تمسّكاً

بإطلاق النهي.

٦ـ المستثنى من حرمة تولّي الكافرين المذكور في هذه الآية أمران:

الأول: عندما لا يوجد في الساحة إلّا الكافر، فإنّ بقرينة ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الذي يستدعي هذا الخطاب وجود المؤمنين، أي لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء مع وجود المؤمنين.

الثاني: عند التقيّة، أي عندما تزاحم حرمة اتّخاذ الكافر وليّاً مع أمرٍ أهم منه مثل الفتنة في الدّين أو قتل النفس المحترمة أو هتك عِرض، فعند ذلك تسقط الحرمة، وإنّ تعيين الأهم في هذه الحالة يرجع إلى الحاكم الشرعي، فقد يكون في بعض الحالات أن حرمة اتّخاذ الكافر وليّاً هي الأهم فتبقى الحرمة حتّى لو كلّفت المؤمن حياته أو ماله أو عِرضه.

٧ـ أنّ هذه الآية أحد الأدلّة الواضحة على تشريع التقيّة ووجودها الفعلي والواقعي.

٨ـ في الحالات التي يتّخذ فيها الكافر وليّاً تقيّة هذا لا يعني أن نكنّ له الحبّ والود القلبي، فإنّ التقيّة في اللسان والعمل لا في القلوب، وعليه لا يجوز حبّ الكافرين بأي وجه من الوجوه.

٩ـ أنّ مسألة تولّي الكافرين على المؤمنين ليس بالأمر الهيّن في التشريع ولا من حيث النتائج والآثار السلبيّة، بل إنّ عنوان تولّي الكافرين على المؤمنين من الأمور الخطرة جدّاً من حيث التأثير العقائدي على المسلمين وتأثيره على الأجيال التي لا تعرف إلّا هذا الكافر الذي صار والياً عليها، ولأجل هذه الخطورة الكبيرة التي أجملناها يحذّر الله المؤمنين الذين يخالفون ذلك فيتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين مع وجودهم.

١٠ـ أنّ هذا الخطاب الذي يحمل النهي للمؤمنين عن اختيار ولاية الكافرين

والآيات الأخرى التي تحمل البراءة منهم هو حرب من الله وتضعيف لولايتهم، وهذا ممّا يعزّز ويقوّي ويثري ويؤكّد ولاية المؤمنين بعضهم لبعض التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١)، فإنّ التأكيد على ولاية المؤمنين والتخلّص وتطهير ساحة العمل والسلطة من ولاية الكافرين هو الضمان للحفاظ على الكيان الإسلامي ووجوده ووحدته ونشره، وهو الطريق لضمان نشر السلام والأمن والحياة الحرّة على الأرض.

س: ذكرت التقيّة في النقطة السابعة، يا حبّذا لو تشرع بالتعريف الاصطلاحي لها.

ج:

التقيّة: إظهار موافقة الغير بما يلازمه من قول أو فعل أو ترك يجب عليه فعله من أجل دفع محذور أهم مادامت حالة الحذر باقية فقد تطول وقد تقصر وفي الجميع لا تتعدّى من كون التقيّة حالة استثنائيّة.

س: اذكر صوراً من التقيّة.

ج:

لم تحدّد التقيّة بمفردة معيّنة وبمورد معيّن، بل تشخيص ذلك يرجع إلى نفس المكلّف، فالحكم واحد ولكن الموضوع قد يتعدّد، وقد تتعدّد الجهة والمتعلّق، وتحديد ذلك من مسؤولية المكلّف حسب نوع الابتلاء الذي يبتلي به، فقد تدعو التقيّة المكلّف لأن يعمل أحد الأمور التالية:

١ـ كتمان الإيمان وإظهار الكفر، كما هي آية الإكراه التي نزلت في حق عمّار بن ياسر في صدر الإسلام، ورد عن الإمام الصادق‌ؑ أنّه قال: «إنّ المؤمن إذا أظهر الإيمان، ثمّ ظهر منه ما يدلّ على نقضه، خرج ممّا وصف وأظهر، وكان له ناقضاً، إلّا أن يدّعي أنّه إنّما عمل ذلك تقيّة، ومع ذلك ينظر فيه، فإن كان ليس ممّا يمكن أن تكون التقيّة في مثله لم يقبل منه ذلك؛ لأنّ للتقيّة مواضع مَن أزالها عن مواضعها لم تستقم له، وتفسير ما يتّقي مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحقّ وفعله، فكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقيّة ممّا لا يؤدّي إلى الفساد في الدّين فإنّه جائز»[1].

٢ـ كتمان الفكرة أو الأفراد أو الخط الجهادي، ورد عن الإمام الصادق‌ؑ أنّه قال: «أُمر الناس بخصلتين فضيّعوهما، فصاروا منهما على غير شيء: الصبر والكتمان»[2].

٣ـ الإفتاء المخالف للدليل، ورد عن أبي عمرو الكناني أنّه قال: قال أبو عبدالله‌ؑ: «يا أبا عمرو، أرأيتك لو حدّثتك بحديث أو أفتيك بفتيا، ثمّ جئتني بعد ذلك فسألتني عنه، فأخبرتك بخلاف ما كنتُ أخبرتك، أو أفتيك بخلاف ذلك بأيّهما كنت تأخذ؟» قلت: بأحدثهما وأدع الآخر. فقال: «قد أصبت يا أبا عمرو، أبى الله إلّا أن يُعبد سرّاً. أما والله لئن فعلتم ذلك إنّه لخير لي ولكم، وأبى الله عزّ وجلّ لنا ولكم في دينه إلّا التقيّة»[3].

٤ـ الكذب في مستثنيات حرمته، وموارد الاستثناء مذكورة في كتب الفقه

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢١٣٩٧/٢١٦.

(٢) المحاسن ١: ٢٨٥/٢٥٥.

(٣) وسائل الشيعة ٢٧: ٣٣٣٥٠/١١٢.

والأخلاق، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «ليس بالكاذب مَن أصلح بين الناس، فقال خيراً، أو نمى خيراً»(١). وعنه أيضاً: «لا يحل الكذب إلّا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب في الإصلاح بين النّاس»(٢).

٥ـ ستر الاعتقاد الديني أو المذهبي، ورد عن أبي الأعلى أنّه قال: سمعت أبا عبداللهﷺ يقول: «إنّه ليس من احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته من غير أهله، فأقرئهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلى نفسه، حدّثوهم بما يعرفون، واستروا عنهم ما ينكرون ...»(٣).

٦ـ السير بما يعرفه النّاس ومجاملتهم حذراً من غوائلهم، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت دنيا مؤثرة وشحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً وإعجاباً كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك وذر الناس وذر عوامهم»(٤). وعن الرسولﷺ أيضاً: «ثلاث مَن لم يكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخُلق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل»(٥). ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «إنّ مداراة أعداء الله من

---

(١) الترغيب و الترهيب ٣: ٤/٤٨٨.

(٢) البحار ٢٤٣:٦٩.

(٣) الكافي ٥/٢٢٢:٢.

(٤) تفسير نور الثقلين ١: ٤١٣/٦٨٤.

(٥) الكافي ١/١١٦:٢.

أفضل صدقة المرء على نفسه وإخوانه»(١).

٧ـ مجاملة السلطان الظالم وقبول ولايته.

٨ـ تناول المحرّم من المأكول أو المشروب.

س: قلتم: إنّ تشخيص مورد التقيّة هي مسؤولية المكلّف بعد تشخيص موضوعها، فهل كلّ موارد التقيّة بيد المكلّف العام؟

ج:

أنّ الموارد والمواضيع العامّة والنوعيّة المرتبطة بالأحكام الشرعيّة تكون من اختصاصات الولي والحاكم الشرعي فهو المسؤول عن تشخيص الضرر أو الإكراه ومقداره وتشخيص أيّهما الأهم فيقدّمه، وليس للمكلّف العام شأن في ذلك.

س: ما هي حالات مطلق العمل الرسالي وطرقه وأين محل التقيّة فيها؟

ج:

١ـ الإظهار والعلن، عندما يمتلك المؤمن الحرية في العمل وإيصال كلمته وهناك استيعاب أو استعداد للطرح من قبل الطرف الآخر، ففي مثل هذه الظروف الطبيعيّة لا محلّ للتقيّة ولا موضوع لها.

٢ـ الإخفاء والسر، عندما تكون الظروف بعكس الحالة الأُولى، فهناك ملاحقة للمؤمن على إيمانه من التعذيب أو القتل أو غير ذلك فيستعمل المؤمن أُسلوب السر والخفاء للتخلّص من الضرر، وهذا هو معنى التقيّة وموضوعها، ولأجل هذا بدأ الرسول ﷺ بمرحلته السرية في الدعوة إلى الإسلام.

---

(١) مستدرك الوسائل ١٢: ٢٦١/١٤٠٦١.

٣ـ الهجرة، وهي إحدى الطرق للتخلّص من بعض أنواع التقيّة التي يعيشها الإنسان المؤمن، ولأجل هذا هاجر الرسولﷺ إلى المدينة المنوّرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٩٧).

س: ما هي الطرق التي تدعو الإنسان إلى استعمال التقيّة؟

ج:

١ـ الإكراه.

٢ـ الاضطرار.

٣ـ احتمال الأذى.

٤ـ الحفاظ على وحدة الصف وبعض القيم الإسلاميّة، وهذا ما سار عليه أميرالمؤمنينﷺ في أمر الخلافة والسكوت على مغتصبيها أنّه قال: «لقد علمتم إنّي أحقّ بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أُمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»[1]، وعنه أيضاً: «فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت بيدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّدﷺ. فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم، التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، وكما يتقشّع السحاب،

(١) نهج البلاغة ١: ١٢٤/٧٤.

فنهضت في تلك الأحداث ...»(١).

س: ما هي أدلّة الرخصة في التقيّة؟

ج:

أولاً: الكتاب

١ـ قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران:٢٨)

٢ـ قال تعالى: ﴿...إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل:١٠٦)

٣ـ قال تعالى: ﴿...وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥)، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في خصوص هذا الخطاب أنّه قال: «هذا في التقيّة»(٢) أي التقيّة أحد مصاديق امتثال النهي عن الوقوع بالتهلكة.

ثانياً: العقل

١ـ الذي يعتبر جلب النفع على ما لا ضرر فيه أصلاً هي الحالة السليمة دون العكس.

٢ـ الذي يفرض تقديم العمل بالأهم عند التزاحم بالمهم، سواء حصل التزاحم بين

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٦٢/١١٨.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢١٣/٢١٣٩١.

وجوبين أو واجب ومحرّم، ففي جميع الأحوال يكون النظر إلى الأهم في حالة عدم إمكان الجمع بينهما أو ترك أحدهما.

ثالثاً: السيرة العقلائية القائمة على لوم مَن يعرّض نفسه لضرر دون فائدة تُذكر.

رابعاً: سيرة الأنبياء والأوصياء، والنموذج من ذلك:

١ـ في كتمان الإيمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (غافر:٢٨).

٢ـ في كتمان الحق، قال تعالى: ﴿...وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤)، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (القصص:٤٩) فهنا أخفى كونه على حق كأسلوب من أساليب التقيّة حتّى يجرّهم للحوار.

٣ـ في تنكير شخصيّته، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس:٢٠)، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (يس:١٤)، تقول الرواية: «إنّ الثالث جاء متنكّراً، وعاشر حاشية الملك، وقد أخفى مهمّته، وتظاهر بموافقتهم، وكان يدخل في معبد الأصنام، وهناك يصلّي لله، وانسجم مع حاشية الملك، فرفعوا خبره إلى الملك فأنِسَ به. سأل الملك ذات مرّة بأنّه بلغني أنّك حبست رجلين، فهل سمعت ما يقولانه؟ قال الملك: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما، فقال الثالث وهو (شمعون): مَن أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كلّ شيء، وليس له شريك، قال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعيا الله حتّى انشقّ له بصره، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف؟! قال: ليس لي دونك سرّ، إنّ إلهنا لا يُبصر

ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، قال شمعون للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به، فدعو بغلام مات من سبعة أيّام، فقام، وقال: إنّي أُدخلت في سبعة أودية من النّار، وإنّي أُحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا، ثمّ قال: فتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه، يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك : مَن هم؟ قال: شمعون وهذان، وقام شمعون فنصح الملك، فآمن وآمن قومه »[1].

٤ـ في إخفاء الغضب واستحقاق القتل وإظهار القول اللين بدلاً، قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه:٤٣-٤٤).

٥ـ أصحاب الكهف في حياتهم وهم يعيشون في البلاط الملكي الفاسد بعقائده ويكتمون إيمانهم الذي يمثّل منهجية عيسى الخالية ممّا يعتقد به البلاط الملكي والذي كان دقيانوس على رأسه الذي يقتل كلّ مَن يخالفه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾(الكهف:١٣).

٦ـ ورد عن الرسول أنّه قال: «إنّ الأنبياء إنّما فضّلهم الله على خلقه بشدّة مداراتهم لأعداء دين الله وحسن تقيّتهم، لأجل إخوانهم في الله »[2].

خامساً: القواعد الكلية التي تكون التقيّة إحدى مفرداتها:

١ـ قال تعالى: ﴿ ...فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة:١٧٣)، واستنتجت القاعدة الكليّة من هذا الخطاب وهي: (عند الضرورات تباح المحظورات).

٢ـ ورد عن الرسول أنّه قال: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام »[3].

---

(١) البحار ١٤:٢٦٦/٥٦.

(٢) المستدرك ١٢:٢٦٢/١٤٠٦٣.

(٣) الكافي ٥:٢٨٠/٤.

٣ـ قال تعالى: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٣٣)، ومنها استخرجت القاعدة القائلة: (القدرة شرط التكليف)، فإذا كان تكليف لا يطيقه الإنسان فعليه عدم توريط نفسه فيه، فإذا استوجب التقية فليتق، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه»، قيل له: وكيف يذلّ نفسه؟ قال: «يتعرّض لما لا يطيق»[1].

سادساً: مخالفة التقية مخالفة قد توقع المؤمن في مخالفة المنهج التربوي للإسلام منه:

١ـ قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥).

٢ـ قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٣)، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في خصوص هذا الخطاب أنّه قال: «أي للناس كلّهم، مؤمنهم ومخالفيهم، أمّا المؤمنون فيبسط لهم وجهه، وأمّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة، لاجتذابهم إلى الإيمان، فإنّه بأيسر من ذلك يكفّ شرورهم عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين»[2].

٣ـ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (القصص:٥٤)، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «بما صبروا على التقية، الحسنة: التقية، والسيئة: الإذاعة»[3].

٤ـ قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩٦)،

---

(١) الكافي ٥:٦٣/٤.

(٢) المستدرك ٩:٣٦/١٠١٣٦.

(٣) الكافي ٢:٢١٧/١.

ورد عن الإمام الحسن العسكري أنّه قال: «إنّ الرضا عليه السلام جفا جماعة من الشيعة وحجبهم، فقالوا: يابن رسول الله ما هذا الجفاء العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟ قال: لدعواكم إنّكم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون، ومقصّرون في كثير من الفرائض، وتتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتّقون حيث لا تجب التقيّة، وتتركون التقيّة حيث لابدّ من التقيّة»(١).

٥ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية أنّه قال: «الأحسن: التقيّة»(٢).

سابعاً: السنّة

١ـ ورد في الحديث: أخذ مسيلمة الكذّاب رجلين من المسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال مسيلمة لأحدهما: أتشهد أنّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم. قال مسيلمة: أتشهد أنّي رسول الله؟ قال: نعم. وكان مسيلمة يزعم أنّه رسول بني حنيفة، ومحمد رسول قريش، فتركه ودعا الآخر. فقال له: أتشهد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أنّي رسول الله؟ فقال: إنّي أصم، ثلاثاً. فقدّمه وقتله. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «أمّا هذا المقتول، فمضى على يقينه وصدقه، فهنيئاً له. وأمّا الآخر فقبل رخصة الله، فلا تبعة عليه»(٣).

٢ـ ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «وضع عن أُمّتي تسعة خصال: الخطأ والنسيان

---

(١) وسائل الشيعة ١٦:٢١٧/٢١٤٠٠.

(٢) المحاسن ١:٢٥٧/٢٩٧.

(٣) البحار ٢٩:٤٠٤.

وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطرّوا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكير في الخلق والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد »[١].

٣ـ ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «إنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه »[٢].

٤ـ ورد عن حمّاد بن واقد اللحام أنّه قال: استقبلت أبا عبدالله عليه السلام في طريق فأعرضت عنه بوجهي، ومضيت فدخلت عليه بعد ذلك، فقلت: جُعلت فداك إنّي لألقاك فأصرف بوجهي كراهة أن أشقّ عليك، فقال لي: «رحمك الله، ولكن رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا، فقال: عليك السلام يا أبا عبدالله ما أحسن ولا أجمل »[٣] أي لم يحسن ولم يعمل جميلاً.

٥ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقيّة ترس المؤمن، التقيّة حرز المؤمن، ولا إيمان لمَن لا تقيّة له، إنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيدين الله عزّ وجلّ به فيما بينه وبينه، فيكون له عزّاً في الدنيا ونوراً في الآخرة، وإنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيذيعه فيكون له ذلاً في الدنيا، وينزع الله عزّ وجلّ ذلك النور منه »[٤].

٦ـ ورد عن أبي بصير أنّه قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ...﴾ قال: «اصبروا على المصائب، وصابروهم على التقيّة، ورابطوا على مَن تقتدون به ﴿وَاتَّقُوا الله

---

(١) الكافي ٢: ٤٦٣/٢.
(٢) وسائل الشيعة ١: ١٠٧/٢٦٣.
(٣) الكافي ٢: ٢١٨/٩.
(٤) الكافي ٢: ٢٢١/٢٣.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»[١].

٧ـ ورد عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال: «...والمؤمن مجاهد، لأنّه يجاهد أعداء الله عزّوجلّ في دولة الباطل بالتقيّة، وفي دولة الحق بالسيف»[٢].

٨ـ ورد عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال: « يا معلّى، أكتم أمرنا ولا تذعه فإنّه مَن كتم أمرنا ولم يذعه أعزّه الله في الدنيا، وجعل له نوراً بين عينيه يقوده إلى الجنّة. يا معلّى، إنّ التقيّة ديني ودين آبائي، ولا دين لمَن لا تقيّة له. يا معلّى ، إنّ الله يحبّ أن يعبد في السر كما يحبّ أن يعبد في العلانية والمذيع لأمرنا كالجاحد له»[٣].

٩ـ ورد عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال: «ليس منّا مَن لم يلزم التقيّة ويصوننا عن سفلة الرعيّة »[٤].

١٠ـ ورد عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال: «عليكم بالتقيّة فإنّه ليس منّا مَن لم يجعلها شعاره ودثاره مع مَن يأمنه، لتكون سجيّته مع مَن يحذره »[٥].

١١ـ ورد عن مسعدة بن صدقة أنّه قال: قيل لأبي عبدالله‌عليه السلام: إنّ الناس يروون إنّ عليّاًعليه السلام قال على منبر الكوفة: «أيّها الناس، إنّكم ستدعون إلى سبّي فسبّوني، ثمّ تدعون إلى البراءة منّي فلا تتبرّؤوا منّي»، فقال‌عليه السلام: «ما أكثر ما يكذب النّاس على عليّ‌عليه السلام» ثمّ قال: «إنّما قال: إنّكم ستدعون إلى سبّي فسبّوني، ثمّ ستدعون إلى البراءة منّي وإنّي على دين محمّدصلى الله عليه وآله. ولم يقل: لا تتبرّؤوا منّي».

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٠٧/٢١٣٧١.

(٢) علل الشرائع ٢: ٤٦٧/٢٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٢١٠/ ٢١٣٧٩.

(٤) وسائل الشيعة ١٦: ٢١٢/٢١٣٨٣.

(٥) وسائل الشيعة ١٦: ٢١٢/٢١٣٨٤.

فقال له السائل: أرأيت إن اختار القتل دون البراءة؟! فقال: «والله ما ذاك عليه وما له إلّا ما مضى عليه عمّار بن ياسر، حيث أكرهه أهل مكّة وقلبه مطمئن بالإيمان، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ فقال له النبيّ ﷺ عندها: يا عمّار، إن عادوا فعد، فقد أنزل الله عزّ وجلّ عذرك، وأمرك أن تعود إن عادوا»(١).

س: ما هو نوع الحكم الشرعي للتقيّة؟

ج:

١ـ الحكم الأوّلي للتقيّة هو الإباحة المتروك اختيارها للمكلّف في أن يعمل بها أو يتركها، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: « ...وأمّا الرخصة التي صاحبها فيها بالخيار فإنّ الله نهى المؤمن أن يتّخذ الكافر وليّاً، ثمّ مَنّ عليه بإطلاق الرخصة له عند التقيّة في الظاهر ...فهذه رحمة تفضّل الله بها على المؤمنين، رحمة لهم، ليستعملوها عند التقيّة في الظاهر »(٢).

وورد في (الوسائل) عن عبدالله بن عطاء أنّه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: رجلان من أهل الكوفة أخذا فقيل لهما: ابرءا من أميرالمؤمنين عليه السلام، فبرئ واحد، وأبى الآخر، فخلّي سبيل الذي برئ وقُتل الآخر. فقال عليه السلام: «أمّا الذي برئ فرجل فقيه في دينه، وأمّا الذي لم يبرأ فرجل تعجّل إلى الجنّة »(٣).

٢ـ في بعض المواقف قد يجب استعمال أُسلوب التقيّة، ذلك حينما يكون الحفظ

---

(١) الكافي ٢: ٢١٩/ ١٠.

(٢) وسائل الشيعة ١: ١٠٧/ ٢٦٣.

(٣) الكافي ٢: ٢٢١/ ٢١.

على دماء المؤمنين ورقابهم وعرضهم وأموالهم متوقفاً على التقيّة، ورد عن النبيّ عيسى عليه السلام أنّه قال: «إنّ التارك شفاء المجروح من جرحه شريك جارحه لا محالة ... فكذلك لا تحدّثوا بالحكمة غير أهلها فتجهلوا، ولا تمنعوها أهلها فتأثموا، وليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعاً لدوائه، وإلا أمسك»(١).

٣ـ في بعض المواقف قد يحرم استعمال التقيّة، ذلك حينما تكون التقيّة تجلب الإهانة والذلّة والضعف والركون إلى الظالم فليس فيها إلّا الضرر على الإسلام والمسلمين، أو في مسألة القتل أي التقيّة التي تؤدّي إلى قتل الآخرين وإراقة دمائهم، فهنا لا تكون التقيّة إلّا حراماً فلا يجوز للإنسان أن ينقذ نفسه تقيّة ويوقع الآخرين في القتل، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّما جعلت التقيّة ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فليس تقيّة »(٢).

س: لماذا أصبحت التقيّة سمة للمذهب الشيعي أكثر من غيره من بقيّة المذاهب الإسلاميّة؟

ج:

الظروف الصعبة التي مرّ بها أصحاب مذهب التشيّع أكثر من بقيّة المذاهب نتيجة لولائهم لأميرالمؤمنين عليّ عليه السلام، ومن تلك الظروف الصعبة هي:

أولاً: بعض الخلفاء من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أسّسوا أساس الظلم والجور على أميرالمؤمنين عليه السلام وتحريفهم لسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وإبعاد أصحابه والتضييق عليهم

---

(١) الكافي ٨: ٥٤٥/٣٤٥.

(٢) الكافي ٢: ١٦/٢٢٠.

ونفي الآخرين منهم حتّى وضعوا الشيعة في قفص الاتّهام أمام أكثر المسلمين.

ثانياً: حكّام الدولة الأمويّة والعباسيّة وحكمهما الذي كان له الدور الكبير في ملاحقة أصحاب هذا المذهب والمروجين له وكلّ مَن أيّده ونصره، وكان لهم الدور الكبير في تحريف أحاديث الرسول ﷺ وقتل المخالفين لهم، حتّى وصل الأمر أن يقال للمسلم: يا يهودي، أو يا زنديق أهون عليه من أن يقال له: يا ترابي ـ وهي الكنية التي كنّى بها رسول الله ﷺ أميرالمؤمنين ؑ ـ أو يا شيعي.

ثالثاً: الحكم الطائفي على طول الخط، والذي يراقب تعامل الحكّام في منهجهم وتعاملهم مع هذا الخط يجد ذلك واضحاً. فالتشريد والملاحقة والتعذيب وطلب البراءة والإعدام والسجون هي الحالة التي تلاحق الشيعة أين ماحلّوا.

رابعاً: بعض الفرق التي صنعها الاستكبار العالمي باسم الإسلام، كما هي الحركة الوهابيّة التي كانت منذ تأسيسها تثير الشبهات والأكاذيب والاتّهامات الباطلة بين الحين والآخر مع تكرارها والإصرار عليها إلى هذا اليوم، بل هم يحلّلون سفك دم الشيعي ويعلنون ذلك بين الحين والآخر. ممّا صنعت هذه الأُمور حاجزاً أمام بعض المسلمين المغفّلين لأن يفهموا واقعيّة المذهب الشيعي والاطلاع عليه، وممّا جعلت المسلم الشيعي الذي يعيش في وسطهم أن يستعمل أُسلوب التقيّة في بعض المواقف تحاشياً من إثارة الضرر على نفسه أو حفاظاً على وحدة المسلمين.

س: ما هو الفرق بين التقيّة والنفاق؟

ج:

١ـ إذا كان المقصود من النفاق أي النفاق العقائدي فيكون الأمران هنا متعاكسين، حيث التقيّة إظهار الكفر وإخفاء الإيمان، بينما النفاق هو إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر.

٢ـ إذا كان المقصود من النفاق أي النفاق العملي أي المخالفة بين باطن الإنسان وظاهره، فهنا لا توجد حرمة في ذلك إلّا في حالات استثنائيّة، وبعض العلاقات الاجتماعيّة قائمة على ذلك، فكم إنسان لا تحبّه ولكن تظهر له مودّتك لأجل غايات أهم، وكم من فرد تقدّم له معروفاً وأنت تكرهه، وكم من فرد يستحق القتل وأنت تستعمل القول اللين معه ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٣-٤٤)، وعلى هذا المنوال تكون التقيّة.

س: اذكر صور التحذير الذي ينقلها الله في هذه الآيات لمَن يتّخذ الكافرين أولياء.

ج:

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الأولى: منه ما يرجع إلى إيمان المؤمن وتشريع الله.

١ـ ما يرجع إلى إيمان المؤمن، ذلك حين يخالف الحرمة فإنّ من جملة ما يجازي الله عليه المخالف هو قطع إيمانه وارتباطه بالله بحيث يقطع ارتباطه به بأي جهة محتملة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾، وقد يلازم ذلك حبط كلّ الأعمال كذلك، حيث استعمل الشيء نكرة بالإضافة إلى شموليّة الشيء.

٢ـ ما يرجع إلى تشريع الله، فقد يكون ﴿فِي شَيْءٍ﴾ تعني اسماً خاصاً وليس هو الفعل والاتّخاذ وإنّما هو التشريع من الله، فيكون المعنى: أنّ أي اتّخاذ للكافرين كأولياء ليس له أي مبرّر شرعي من الله، فليس من الله في شيء، وإنّ الله بريء عن مثل هكذا عمل إلّا ما ذكره من الاستثناء في حالة التقيّة، والمخالف

لشريعة الله معروف جزاءه.

الثانية: مباشريّة عقاب الله وعذابه الشديد، حيث لم يحذّر الله بملائكته الغلاظ مثلاً أو بناره وغير ذلك، بل قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، وهو الخوف من غضبه وسخطه وسطوته، والتي قد تشمل الدنيا قبل الآخرة، والذي تستشفّ من هذا الخطاب أن هناك عذاباً خاصاً يلحق بالمخالف لهذا النهي، ولا أحد يتدخّل بالكيفيّة الزمانيّة والمكانيّة والفعليّة بما يصدر منه سبحانه؛ لأنّ مرجع كلّ ذلك إلى نفسه سبحانه وتعالى ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾.

الثالثة: نوعيّة المخالف، حيث ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ من دون أن يذكر المؤمنين؛ إمّا صوناً لهم من فعل مثل هذه المخالفة، أو إشارة إلى إنّه كان مَن يكن من المؤمنين ومهما كان قريباً من الله فعندما يخالف هذه الحرمة ويولّي الكافر فإنّه ليس من الله في شيء.

الرابعة: الرصد الإلهي، فإنّ تولّي الكافرين من قبل أيّ أحد فهو يعلمه الله، وكذلك يعلم دافع بعض المؤمنين لاتّخاذهم الكافرين أولياء إن كان على الموازين الشرعيّة أو مخالفاً لها، وذلك للحقيقة الكليّة التي يمتلكها الله دون غيره وهي ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا الخطاب يستبطن التحذير والحذر الدقيق كما هو واضح من لحن الخطاب، بالإضافة إلى أنّ الخطاب قد قدّم العلم بما تخفي الصدور وما يبديه الإنسان على علمه بما في السماوات والأرض لمناسبة موضوع الآية التي تتحدّث عن التولّي والفعل الخارجي للمؤمنين والذي يحذّر الله منه، ورد عن

الرسول ﷺ أنه قال: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[١].

الخامسة: علم الله بما في السماوات وما في الأرض يلازمه العلم بالمصلحة لعباده، ومن جملة مصلحتهم ألّا يتّخذوا الكافرين أولياء لعلمه سبحانه بأنّ ولاية الكافرين لا تجلب أي نفع لهم لا من الناحية العقائدية وهو واضح ولا من الناحية المادّيّة وإعمار البلاد التي يَعِدُ الكافرون بها المؤمنين؛ لأنّ الكافر لا يريد الخير والمصلحة للمؤمنين بأيّ لحاظ كان، ودافع الكافرين هذا حالة مستقرّة في نفوسهم ومستمرّة معهم في أي زمان كانوا.

السادسة: حضور الأعمال يوم القيامة مع تكرار تحذير الله نفسه كما سيأتي في الآية التالية قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

س: لماذا هذا التهديد والوعيد والحرمة الشديدة على اتّخاذ الكافرين أولياء؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ أنّ الكفّار أنفسهم لم يكونوا إلّا أعداء للإسلام وللمسلمين، فليس لهم طريق واحد واتّجاه واحد مع المسلمين، وهو العداء الكامل لهم ولدينهم ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة:١٠٩).

٢ـ أنّ أحد الطرق المهمّة لتجسيد ولاية الله على الأرض أن يجعل المؤمن ولاية أخيه المؤمن في أيّ ساحة من ساحة العمل، فإذا بذّل المؤمن ذلك معناه قد

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠٣.

سعي في نفي الولاية لله من الناحية العمليّة لعدم اجتماع ولاية الله مع ولاية الكافر، وإنّ ركيزة الإيمان في أن تكون الولاية لله، فتبديلها بولاية الكافر معناه قد قطع أي ارتباط مع الله من خلال قطع ما يمثّله على الأرض، وإنّه بدّل الحركة الإيمانيّة بحركة الكفر والفساد، وعند ذلك لا تجد قيمة لإيمان المؤمن الذي يفعل هذه المخالفة.

٣ـ أنّ مخالفة هذه الحرمة معناه فتح الطريق لانتشار الطغيان في الأرض، لأنّ تولّي الكافرين لا يرجى منه خير إلّا عمليّة الإفساد والطغيان، والواقع العملي الذي نشاهده خير دليل على ذلك، فإنّ الحكّام المسلمين الذي ركنوا إلى الكفّار وجعلوهم أولياء عليهم وعلى المسلمين لا تجد منهم أحداً إلّا طاغية من طغاة الأرض، والله لا يسمح ولا يتسامح بحركة الطغيان أن تسير باطمئنان عليهم، بل الله لهم بالمرصاد، لأنّ الطغيان أهم عامل يدخل في إفساد دين الناس وانحرافهم عنه.

٤ـ أنّ اتخاذ الكافرين أولياء يوجب المعايشة معهم والاختلاط معهم، وهو ما يجلب في كثير من المواقف التودد والتذلّل والتحبّب لهم والتوسّل بهم، وهذه الأمور وغيرها كما تقرّب المؤمن إلى الكفّار فإنّها تبعّده عن دينه، وبالتالي يكون المؤمن مثلهم وكأحدهم فيكون عنصراً من عناصر الفساد.

٥ـ أنّ تولّي الكافر على المؤمنين معناه قد جعل نوعاً من العلو للكافرين على المؤمنين ونوعاً من العزّة للكافرين على المؤمنين، وهذا النوع من العلو والعزّة مرفوض شرعاً، لأنّ الله أراد من الإسلام أن يعلو ولا يعلى عليه، وأن تكون العزّة للمؤمنين والذلّة والصغار للكافرين.

٦ـ أنّ الله أمر المسلمين من خلال أمره للرسول ﷺ بأن يجاهد الكفّار والمنافقين

وأن يشدد عليهم، وجعل الولاية لهم من قبل بعض المؤمنين صريح في مخالفة هذا الأمر.

٧ـ الخطر الذي تؤدّيه نفس الولاية، فإنّ الولاية التي يسعى لها المؤمنون وترغّب عليها الشريعة لما لها من الأثر الكبير في سرعة التغيير الاجتماعي وسعة دائرته نحو الإيمان والتكامل، فإذا أُعطيت الولاية وفسح لها المجال للكافرين فهذا يعني ستتّسع رقعة الكفر والكافرين، وهذا ما يضاد الهدف الذي خلق الله الناس من أجله، وإنّه سير نحو النقصان والانهيار.

س: قالوا: إنّ المقصود من معنى ولاية الكافرين هنا هو الصداقة التي تنتج الحب والودّ للكافر فقط لا مطلق الولاية، ما هو جوابكم على ذلك؟

ج:

أولاً: ولاية الكافرين هنا مطلقة فلا داع لتخصيصها من دون مخصّص.

ثانياً: أنّ هذا التحذير والوعيد الذي ذكرناه بعدده ونوعه لا يناسب هذا القليل من المعنى وإن كان يشمله كما ذكرنا.

ثالثاً: ذكر التقيّة من المستثنيات لا يناسب هذا المعنى، بل إلى الإطلاق أنسب.

رابعاً: أنّ هذه الآية لها شبيهاتها وهي إلى الإطلاق أقرب، منها: قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾(النساء:١٣٨-١٣٩)، فإنّ المنافقين لا يؤمنون بالله ولا بالمؤمنين من الأصل فكيف يبشّرهم بالعذاب لكونهم لم يحبّوا المؤمنين أو لم يتّخذوهم أصدقاء؟! فأمر ولاية الكافرين التي تعني به هذه الآية بما هو أكبر من ذلك وأخطر وهو بما ذهبنا إليه من الإطلاق.

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾؟

ج:

أولاً: وحدة السياق، فإنَّ هذه الآية لها وجه ارتباط مع الآيتين السابقتين، حيث ينقل الله صورة من صور المصير ورجوع الكلّ إليه ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ وصورة من صور علمه ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ ...﴾، وصورة من صور قدرته ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، حيث يوم القيامة المختصّ به علماً وقدرة ومصيراً، فلا خبر لنامنه سبحانه، وبما أنَّ وعده الحق وقوله الصدق فيكون ما ينقله من صور الآخرة أمراً واقعاً لابدَّ منه.

ثانياً: حضور العمل يوم القيامة، فإنَّ المخاطب في يوم القيامة هو الإنسان نفسه وهو المقصود بالحساب، وإنَّ الحساب على العمل الذي قدّمه الإنسان مؤمناً كان أو كافراً، وإنَّ العمل سيكون محضراً محفوظاً بما هو بوجوده الواقعي وتدوينه بصورة لا يدخل فيه الشك والاحتمال، جميع العمل محفوظ صغيره وكبيره من دون حذف ولا زيادة، العمل الممحوق أو المتبدّل والمحبط سيكون واضحاً من حيث المحلّ والسبب، العمل محفوظ بجميع ما يحيط بالعمل من الدافع والحركة والسكون والقول والاعتقاد والزمن والمكان والآثار وقد تجتمع هذه الأُمور في العمل الواحد وقد يفترق البعض منها، والعمل محفوظ بشقيه الخير والشر ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(سبأ:٢١)، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:٢٢).

ثالثاً: حيث لا ينفع الندم والتمنّي، فإنّ صورة من صور يوم القيامة تكون علاقة الإنسان بالعمل السيّء الذي قدّمه في الدنيا علاقة النفرة وعدم القبول به، فهو من ندمه يتمنّى لو أنّ بينه وبين سوء العمل بعداً كبيراً لما شاهد من ترتّب الجزاء عليه وما نظر من الخوف والمكاره المحيطة بيوم الحساب، وهذا يستبطن الإقرار التام من الإنسان على عمله حيث لم يُشكِل على التدوين ولا على شيء آخر يخص حفظ الله للعمل، وإنّ كلّ ما قدّمه فهو محفوظ ولا يمكن تغييره؛ لأنّه يوم الحساب، فلا يجد أمامه إلّا التمنّي الذي يبعده عن ذلك العمل الذي اقترفه ولكن في محلّ لا ينفع فيه ندم النادمين، والتمنّي هذا يشمل المؤمن على ما اقترفه من بعض السيئات ويشمل الكافر والفاسق على ما اقترفه من كثير من السيئات.

رابعاً: أنّ الله قد كرّر التحذير ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، لتأكيد التهديد والتخويف وشدة العذاب الذي جهّزه الله للعاصين، ويحذّركم الله نفسه من باب نصحه لكم ورأفته عليكم ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، فهو وحده الذي يعلم شدّة العذاب الذي سيحصل عليه العاصون، فلذلك يخبركم لتحذروا العصيان وما يقرّبكم إلى عذاب الله، فأرفقوا بأنفسكم وإنّكم أولى من غيركم بالرأفة عليها.

خامساً: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فإذا كان كذلك فتوبوا إلى الله بما عصيتم، واستثمروا رأفته في الدنيا قبل أن تنقطع عنكم يوم الحساب، فالله عندما يخبر عن عذابه، لا حبّاً به ولا كرهاً لعباده وإنّما هو استحقاق قد قطع الله على نفسه الوعد بأن يقدّمه إلى مستحقّيه، فلولا رأفته بالعباد لما أخبركم ولما حذّركم الله نفسه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣١-٣٢).

• **حبّ الله**

س: ما هو المحتمل من التفسير لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟

ج:

١ـ الحب أعلى رابطة تربط الإنسان بغيره، الحب هو الذي يستدعي جلب الجهة وحصوله عليها لانجذابه لها، ولما كان الله لذاته محبوب، ومحبوباً لكونه مصدراً وأصل كلّ جهة من جهات الخير والعطاء، فلابدّ أن يكون حبّه على رأس كلّ حب، بل من حبّه وعلى حبّه يتفرع حب الآخرين، فالله مَن ولهت القلوب به بأعلى درجات الحب والعشق.

٢ـ أنّ من لوازم الحب الالتساق والاتّباع، فإنّ النفرة والابتعاد من منافيات الحب ومن لوازم الكره والبغض، فلمّا لم يكن المقصود من الاتّباع هو اتّباع الأثر التكويني، بل هو الأثر التشريعي لله، لأنّ الله ليس بجسم، ولمّا كان الرسولﷺ وشريعته هو أثر الله على الأرض وواسطة الفيض الإلهي، وإذا كان لابدّ من الحب من اتّباع المحب حبيبه فلابدّ من اتّباع الرسولﷺ وشريعته، فحب الإنسان لله يتجسّد من خلال حبّه للرسولﷺ واتّباع شريعته.

٣ـ أنّ حب الرسولﷺ هو بالإضافة إلى أنّه يتجسّد من خلال اتّباع شريعته التي

هي شريعة الله، فإنّه يتجسّد كذلك بحب شخص الرسولﷺ واتّباع سيرته الذاتيّة من أقواله وأفعاله؛ لأنّه القدوة والمثل الأعلى في كلّ ما هو خير ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)، فهو أكثر المستسلمين لله بشهادة الله ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:٢٠)، وأكثر الناس أخلاقاً بشهادة الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، وأقرب الناس لله، وأكثر الناس استقامة، وكلامه كلام الله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣ـ٤)، فحب شخص الرسول واتّباع سيرته هو تجسيد لحب الله.

ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «مَن أحبّني فقد أحبّه الله... ومَن أبغضني فقد أبغضه الله»[1]. وورد عن الإمام الصادقﷺ أنه قال: «مَن سرّه أن يعلم أنّ الله يحبّه فليعمل بطاعة الله وليتّبعنا، أما يستمع قوله عزَّ وجلّ لنبيّهﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾»[2] فلا فصل بين حبّ الله وحبّ رسولهﷺ.

٤ـ الحب الذي يربطك مع الله يختلف عن كلّ حب، فهو لم يكن حبّاً بالمشاعر والأحاسيس والعواطف فحسب، ولا حبّاً يختصر على كلمات الشفاه فقط، ولم ينحصر بالعلاقة الكهنوتية المغلقة بين جدران الكهوف، بل الحب الإلهي منطلق من الأرض التي عيّنك الله خليفة عليها، فهو حب لابدّ أن تجسّده خلافتك على الأرض، حب لا ينفصل عن العمل بل العمل، هو رافد الحب الإلهي إلى

---

(١) الصراط المستقيم ١:١٩٨/١٣.

(٢) البحار ٧٥: ٢٢٤.

القلوب، فكلّما ازداد الإنسان كدحاً وإخلاصاً إلى الله كلّما ازداد حبّاً وامتلأ القلب عشقاً إليه، وربّما أحلى ما يريده الحبيب أن يسمع كلمات الحب من محبوبه، فإذا كنت تحبّ الله مخلصاً وصدقاً بحيث لا تجد في الوجود غيره سبحانه فإنّك تشتاق إلى أن تسمع كلمات الحب من محبوبك وهو الله سبحانه وتعالى، لأنّ الحب الكامل يكون عندما يتبادل الطرفان كلمات ومعاني الحب، فلا تسمع كلمات الحب الإلهي إلّا من خلال العمل، وعنده تذوق حلاوة الحب والإيمان وتسمع لأحلى كلماته وأكثرها فائدة، فعند صلاتك تسمع كلمات الحب الإلهي، وعند صومك تتذوّق الحب الإلهي، وعند عطائك الحق المالي تحصل على الحب الإلهي، وعند حجّك بيت الله يقصدك الحب الإلهي، وعند جهادك النفس تشعر براحة الحب الإلهي، وعند جهادك بالنفس يتلقّاك الحب الإلهي، وزيارتك لصلة الرحم أو لمريض أو أخ لك في الله تجد نفحات الحب الإلهي ...وهكذا كلّ عمل مأمور به تطرقه تسمع من خلاله نغمات الحب الإلهي وهي تملأ قلبك وتزيدك عشقاً إليه.

ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «هل الدين إلّا الحب، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾»(١).

٥ـ أنّ ما يحجب حب المحبوب عن حبيبه عندما يتصرّف المحب بفعل يكرهه المحبوب، وعندما يتبنّى أفكاراً أو سلوكاً لا تنسجم مع ما يتبنّاه المحبوب، فالذي يحب الله معناه لابدّ أن يكون منسجماً فكراً وسلوكاً مع ما يريده الله ويحبّه ويتبنّاه، والمعصية التي هي الكلمة الجامعة لسبب انفصال الحب عن الله،

---

(١) الخصال ١: ٢١/٧٤.

فكلّما حصلت المعصية حصل الابتعاد من الطرفين، الله عن الإنسان والإنسان عن الله، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «ما أحب الله مَن عصاه»[1].

ولمّا كان حب الله للإنسان لا يقاس بشيء فلا يريد أن يبتعد الله عنه، وبهذا جعل باب الغفران والتوبة مفتوحاً أمام العبد، فإذا كان حبّك للآخرين ينفصل ويفشل أبداً بمجرّد اشتباه أو غلطة في قول أو فعل، فإنّ حب الله للعبد موجود ودائم على الرغم من كثرة اشتباهات العبد وأخطائه مع الله، فالله يحبّ عبده قبل أن يحبّه عبده، وحب الله دائم للعبد مادام العبد سائراً في طريق حبّه إليه، ومن علامات دوام حبّ الله للعبد أن جعل له التوبة ومهما كانت كثرة معاصيه فهو يغفرها، وبهذا نعرف سبب مجيء قوله تعالى: في محل الحب الذي هو موضوع هذه الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾؟

ج:

١ـ كما قلنا سابقاً في أنّك لا تسمع كلمات الحب الإلهي إلّا من خلال امتثال أوامره ونواهيه، وبعبارة أُخرى: من خلال طاعتك لله، فهذه الآية تدعو إلى تجسيد الحب لله، فإنّ المحب لمَن يحب مطيع، وإنّ عدم الطاعة والتمرّد يعني إذا كان للحب وجود في القلب فهو حب كاذب ولا يعترف به الله، بل يجعل صاحب هذا الاتّجاه في الحب هو الكفر والجحود وعدم الارتباط، فالذي لا يحب الله أو يحبّه في القلب دون الطاعة فلا يسمع كلمات الحب من ربّه، بل لا يسمع إلّا

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ٣٠٨/٢٠٥٩٦.

كلمات الرفض والابتعاد ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

٢ـ أنّ طاعة الله في أوامره ونواهيه لا تكون إلّا عندما يجعل العبد الولاية لله. فالذي لا يجعل الولاية لله هو الكافر؛ لأنّه لا بديل لولاية الله إلّا ولاية الطاغوت والهوى، وإنّ كلّ مَن تولّى عن ولاية الله فإنّه لا ينال حبّ الله؛ لأنّه كافر.

٣ـ أنّ حب الله لا يكون إلّا بطاعته، ولا طاعة إلّا بولايته، وأنّه لا طريق لحب الله وطاعته وولايته إلّا بحب الرسول وطاعته وولايته، وأنّ التولّي عن حب رسول الله ﷺ وطاعته وولايته كالتولّي عن حب الله وطاعته وولايته، أي أنّه كافر فلا يحبّه الله. ومن هنا سُمّي مَن لم يتّخذ الإسلام دينا كافراً. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ومَن سرّه أن يعلم أنّ الله يحبّه فليعمل بطاعة الله وليتّبعنا، ألم يسمع قول الله عزّ وجلّ لنبيه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ...﴾»(١).

(١) الكافي ١/١٣٨.

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (آل عمران:٣٣-٤١).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الاصطفاء: الاختيار والاستخلاص والاجتباء وأصلها من الصفاء.

٢ـ الآل: خاصّة الأهل.

٣ـ الذرية: الانتشار، واستعملت للأولاد لانتشارهم من مصدر واحد.

٤ـ محرّراً: أـ من الحرارة. ب ـ من الحرية. جـ ـ التحرير من النقص والفساد كتحرير الكتاب.

٥ـ تقبّلها: أخذ الشيء على وجه الرضا.

٦ـ أنبتها: أنشأها.

٧ـ الكفالة: الضمان.

٨ـ المحراب: أـ المكان العالي. ب ـ أشرف مكان المجلس.

٩ـ لدنك: عندك.

١٠ـ السيّد: من السواد، أي ساد يسود فهو سيّد أي مطاع.

١١ـ الحصر: الحبس، والحصور الحابس نفسه.

١٢ـ العاقر: عدم الحمل، ويطلق على الرجل الذي لا ولد له.

١٣ـ الرمز: التحرك، وهنا تحرك شيء لأجل الإفهام.

١٤ـ العشي: من زوال الشمس إلى الصباح.

١٥ـ الإبكار: الطرف الأوّل من النهار.

● امرأة عمران وزكريا ويحيى عليهم السلام

س: ما هو التفسير المحتمل لقوله تعالى في الآيتين: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؟

ج:

١ـ الاصطفاء هو الاختيار الذي يستبطن التفضيل، وبدأ الله بالاصطفاء تمهيداً لسرد

قصّة ولادة مريم وعيسى عليهما السلام، فلقد اختار الله الأنبياء واصطفاهم على العالمين على أساس من العدل والعلم لما علم الله ما فيهم من الاستعداد الكامل لتحمّل هذه المسؤولية.

٢ـ أنّه ما من مهمّة في دنيا الكسب تعطى لشخص في الحياة إلّا وكانت مهمّة النبوّة تفوق تلك المهمّات؛ لأنّ مهمّة الأنبياء ليست متوقّفة على تبليغ الرسالة بل على تحمّل الرسالة، وتجسيدها عملياً كذلك، فالنبيّ يتحمّل الأذى ولا يزعزعه شيء عن ذات الله ولو على مستوى التصوّر الذهني، والنبيّ يجسّد الرسالة من أوامرها ونواهيها في السّر والعلن وفي الباطن والظاهر، وهناك أمور أخرى لا يقدر عليها أحد إلّا هم ولهذا اصطفاهم دون غيرهم من العالمين.

٣ـ أنّ الله اصطفى آدم على العالمين كأوّل إنسان خلق من تراب، وأوّل مَن عاش تجربة الحياة في السماء قبل الأرض، وأوّل نبي على الأرض، وأوّل خليفة لله على الأرض وهو يمثّل الخلافة الخاصّة والعامّة، واصطفى نوحاً حيث تفرّد بطول العمر الذي قضاه في خدمة التبليغ لله ومواجهته للشرك والإلحاد الذي له دلالات من أهمها عظيم صبره وثباته على الحق فيما قبل الطوفان وما بعده، واصطفى إبراهيم على العالمين للحنيفية ودين التوحيد ولبناء بيته ولتحطيم عناصر الشرك، واصطفى موسى على العالمين لبني إسرائيل ...وهكذا كلّ الأنبياء حيث لم يكن اصطفاؤهم اصطفاءً تشريفياً، بل هو عمل لا يجسّده إلّا هم ولا ينجزه بنجاح إلّا هم ولا يليق إلّا بهم.

٤ـ ذكر (آل) في آل إبراهيم وآل عمران دون آدم ونوح لوقوع سلسلة الأنبياء وبالعدد الكثير من آل إبراهيم وآل عمران، أو قد يكون إشارة إلى أنّه ليس

الاصطفاء قد وقع على جميع ذريّة إبراهيم وعمران، بل على الخلّص منهم وخاصّتهم الذين ولدوا من إبراهيم وعمران، فعهدُ الله لم يشمل الظالمين من الذريّة والأهل والآل، ثمّ أنّ عمران هو والد مريم وأنّه نبي من الأنبياء.

٥ـ الأنبياء وذريّة الأنبياء متّصل بعضه ببعض من حيث النسب فيرجع أحدهما للآخر، فهم مطهّرون من كلّ دنس يدخل في النسب، وأنّهم كلّهم ذوو حركة جسّدت التوحيد بفكرها وعملها ودعوتها، وكلّهم ذوو درجة عالية من جهة أنّه لا يمكن لأحد من العالمين أن يكون بدرجتهم فلو كان واحد موجود فهو منهم حتماً.

٦ـ أنّ الله يفتخر باصطفائه لهؤلاء، فأنّه صورة من صور عدله، حيث أنّه صورة من صور تطابق الاصطفاء والاختيار بين منهج الشخصيّة وشخصيّة المنهج، فالعصمة في المنهج والشخصيّة، فكما الكمال ملء المنهج فهو ملء الشخصيّة، وهذا النوع من الاصطفاء له دلالاته منها:

أوّلاً: أنّ الكتب السماويّة لم تكن خارجة عن قدرة الإنسان، بل يمكن تطبيقها بالكامل، وهذا النموذج من الأنبياء لدليل على ذلك.

ثانياً: أنّ الله عندما اصطفى الأنبياء من أجل الناس، فهم حركة في المجتمع ونبراس للأمم، فالاصطفاء من أجل وجود حالة الارتباط بين الأنبياء والأمم لا حالة انفصال لا شأن للإنسان بهم وأنّهم عاشوا وماتوا لِزَمَنهم فإنّ الأمر ليس كذلك. فالأمر من قبل الله بالإيمان بهم جميعاً بحيث لا نفرّق بين أحد منهم يستدعي العمل على خطاهم وبالكيفيّة التي جسّدوا من خلالها منهج السماء مستلهمين من نور سيرتهم على ما نقله الله عنهم، فهم الكتاب الناطق، فدراسة حياتهم هي دراسة للكتاب السماوي، وكلّما تعمّق الدارس بحياتهم ومواقفهم

كلّما قرب من المراد الإلهي وكشف ما خفي عليه. فليكن اطلاعنا على حياة الأنبياء أكثر، وليكن تمسّكنا بما تركوه لنا أكثر، وليكن كلّ مؤمن نبوياً بنسبة ما تمكّن من الاطّلاع عليه وبما تسع قدرته وظروفه على ذلك، ولتكن المجتمعات والأُمم التي كما تفتخر بأنبيائها فلتفتخر بالتمسّك بأنبيائها، فعندما اصطفى الله الأنبياء لتجد الأُمّة ما يتميّز به الأنبياء لتكتسب منهم ذلك.

فالأنبياء كلّهم علماء حلماء كرماء شجعان ذائبون في الله وطاعته ... وهكذا، فلتكن الأُمّة كذلك وهي تكتسب العلم والحكمة والقرب لله والعمل والمثابرة والشجاعة، فما نشاهده اليوم من التخلّف والانفصال من الأُمم هو سببه الأُمّة التي تخلّفت عن حركة أنبيائها في سيرها ومنهجها ممّا سبّب لها التقهقر والتذلل والتخلّف في جميع مجالات الحياة، وإنّها تركت كتاب الله وما أوصى به النبيّون.

٧ـ أنّه اصطفاء ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي أنّه اصطفاء ولاية على النّاس بعدما كان اصطفاء منهم، فهذه العبارة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تستبطن اصطفاءين، أي اختار منهم وجعلهم عليهم، ولكن هل لجميعهم أم لبعض منهم؟ هذا شيء آخر يحتاج إلى دليل آخر خارجي.

س: ما هي المحتملات التي ترد في سبب مجيء هذه الآيات التالية والتي تحكي عن امرأة عمران وولادة مريم‘ وما يحيطها من الأحداث والمواقف؟

ج:

١ـ ليعرض الله نموذجاً من الذين اصطفاهم.

٢ـ ليعرّف الله النّاس أنّ الاصطفاء لهؤلاء دون غيرهم كان على أساس من الحكمة والعدل والعلم.

٣ـ ليعرّف الله النّاس الملكات والاستعدادات التي تمتلكها شخصيّة النبيّ والإمام التي وصلت إلى أعلى مراحل كمالها.

٤ـ ليعرّف الله الناس عجزهم بالوصول إلى ما وصلت إليه الشخصيّة النبوية عندما يطلعهم الله على الدفين الدقيق والطاهر الذي تحمله الشخصيّة النبويّة والإمام من الإخلاص والذوبان في الله. ليثبت فعلاً أنّ هؤلاء هم المستحقّون لأن يكونوا المثل الأعلى للعالمين دون أفراد العالمين.

٥ـ ليعرّف الله الناس أنّ اصطفاءه قد وقع على النساء كما وقع على الرجال، فكما بإمكان أن يكون الرجل المثل الأعلى للعالمين فكذلك المرأة، وإنّ ملاك الاصطفاء واحد في الطرفين إلّا أنّه لا نبوّة ولا إمامة للنساء.

٦ـ ليعرّف الله الناس النسب الطاهر الذي ينتمي إليه هؤلاء الأنبياء وأنّهم ذريّة بعضها من بعض.

٧ـ ليدحض الله النظريات الكاذبة التي اتهمت مريم أو التي جعلت من عيسى ﷺ إلهاً.

٨ـ ليثبت الله حقيقة وجود كلّ الأنبياء الذين نكرهم اليهود.

٩ـ ليعرّف الله الناس أنّ طريق الأنبياء والصالحين وطريق الحق لم يكن مفروشاً بزهور الراحة ومحاطاً بأسباب الترف، بل هو طريق المعاناة من الحرمان وجهاد للنفس والعدوّ واستعداد للتضحية، وعلم يبلّغ به الناس ويحاجج به الخصوم وهجرة وتبعيد وسجون وتعذيب.

س: اذكر ما تعرفه عن قصّة ولادة مريم ويحيى عليهما السلام وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً... وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

ج:

في بلاد الشام وعلى مقربة من القدس وبيتها المقدّس كان يعيش عمران وهو نبيّ من الأنبياء وصالح من الصالحين وشخصيّة من الشخصيّات الكبيرة في بني إسرائيل، وفي أواخر عمره الشريف أوحى الله إليه أنّه سيرزق ولداً من امرأته التي قد يكون اسمها حنّة، ولم يكن ذلك الولد ولداً كعامّة الأولاد، بل إنّه رسول نبيّ لبني إسرائيل ... يا لها من بشرى عظيمة بشّر بها عمران، وياله من شرف عظيم أن يكون صلبه يحمل نطفة نبي وأحد رسل العالمين وأئمّتهم ... أخذته فرحة البشرى حتّى امتلكت كلّ مشاعره وهو على يقين منها لأنّه وحي إلهي، ولكن هل يبشّر الناس بهذه النعمة العظيمة وهي ولادة نور من الأنوار الإلهيّة وسيّدٍ من سادات العالَم ولهم منه فوائد؟ ... إنّه يعرف حركة اليهود وما يحيط بها من الجو المادّي والمعاند الفاسد الذي يقف موقف المحارب والمانع لمثل هذه الولادة ولكلّ حركة جديدة لعالَم الغيب ... فكّر طويلاً فلم يجد إلّا أن يزفّ البشرى إلى زوجته سرّاً لتأخذها العناية الفائقة بالوليد الجديد، وإنّها الطرف الآخر المعنيّ بالولادة؛ لأنّ الله اختار رحمها لأن يكون وعاءً للوليد الجديد ...قرب عمران من زوجته ذات ليلة وهمس بأذنها وهو ينقل كلمات البشرى.

ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى جلّ جلاله أوحى إلى عمران إنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله،

وإني جاعله رسولاً إلى بني إسرائيل. قال: فحدّث عمران امرأته حنّة بذلك...»[1].

أخذت امرأة عمران البشرى بحملها اليقين بذلك، لأنّها تعرف زوجها أنّه نبيّ من أنبياء الله يوحى إليه، ومرّت الشهور حتّى حملت امرأة عمران ... ومرّت الأيّام وفي أثناء حملها توفّي عمران، وفارقت روحه الطاهرة الحياة الدنيا، ولم يبقَ أنيس لتلك المرأة إلّا الله وما رزقها من الحمل حيث لم يسبق لها أن حملت ... وتفرّدت المرأة بالحمل وهي تعلم ما هو مستقبل ما تحمله، لم ترسم لأحلامها الجميلة على أساس من العُجب والتباهي على ما تحمله، ولم ترتسم صورة من صور حبّ الدنيا وهي تنظر لنفسها الأمّ والطرف الوحيد الذي يمثّل هذا الوليد الذي تيقّنت من مستقبله الاجتماعي الرفيع.

وإذا كان هذا هو الحمل الأوّل فهو الأخير لها، ولهذا فلا يمكن للقلم أن يعكس مشاعر الأمّ وأحاسيسها وينقلها على حقيقتها وهي تحمل مثل هذا الحمل الوتر ... تلك المشاعر التي تطوف عليها بين الحين والآخر وهي تنقل لها صوراً من صور رضاعتها للطفل ... وأخرى لحضانتها له ... وأخرى تتصوّر ضحكته وبكاءه ...وأخرى جمال وجهه ولطيف حركاته ... تحمله وكلّ ما نقل لها ذهنها من الصور في أنّها تشترك بشيء واحد في أنّ الحمل هو ذكر كما بُشّرت هي بذلك، وهذا ممّا يزيدها عزّة وحبّاً وتعلّقاً بما تحمله لحاجتها إلى رجل في بيتها يقوم بشؤونها يملأ البيت اطمئناناً وحماية، ويكون كفيلاً وناظراً حيث وفاة زوجها قد ترك فراغاً كبيراً.

هذا بالإضافة إلى كون حملها ذكراً وأنّ حمل الذكر بالنسبة إلى الأمّ يكون أكثر فرحة واعتزازاً به ... وربّما كانت تبتسم مرّة عندما يعرض شريط أحلامها كيفيّة

---

(١) الكافي ١:٥٣٥/١.

خضوع بني إسرائيل لابنها ...وربّما تذرف الدّموع أخرى وهي ترى ما يتلقّى ابنها من ألم المعاناة فيعتصر قلبها لذلك.

هذا ما خطّه القلم عن امرأة عمران وهي حامل بمثل هذا الحمل، ولم يكن ما خطّه القلم على أساس من الوهم والخيال، بل هو استقراء لمشاعر النساء وهي تحمل مثل هذا الحمل، بل ولابدّ من الزيادة في امرأة عمران في مشاعرها وأحاسيسها وعواطفها وارتباطها مع طفلها؛ لأنّ حملها من النوع العظيم.

ولننتقل إلى حقيقة شخصيّة امرأة عمران لنرى مكان مشاعر عامّة النساء فيها، ولنرى سبب اصطفاء الله لمثل هذه الشخصيات المهمّة دون غيرها، أن فترة مابين الحمل والوضع تعكس الارتباط العميق لهذه المرأة بالله، وأنها من أصحاب الدرجات العليا فيه. لنرى العجب كلّ العجب ونحن نقرأ عنها النصّ التالي ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ... يا للعجب ! إنّها لم تعش علم نوع الطفل على أنّه ذكر على الرغم من يقينها من أنّه ذكر، فهي لم تعيّنه لله وإنّما قالت: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ لإيمانها بأن الأمور قبل فعليّتها وتحقّقها خارجاً متروكة لمشيئة الله، فقد تتحقّق وقد لا تتحقّق، وإذا كانت متيقّنة بالتحقيق فلا يقين لها بعدم التبديل، فإنّه سبحانه هو مالك الملك يفعل ما يشاء ولا يُسأل عمّا يفعل، إنّه منتهى المعرفة والاستسلام الواعي لله.

ولننظر مرّة أخرى إلى هذا النّص ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ لنرى من خلاله أنّ امرأة عمران لم تكن تعيش حالة أحلام التربية والحضانة والرضاعة كما ظننا أنّها كبقيّة النساء في هذا المنحى، بل نذرت كلّ ذلك لله وهي على حملها، وانفصلت بنذرها عن أحلى ما تطمع به الأمّ في أن تمارس حقّها في الرضاعة والحضانة، قدّمته نذراً وكان بإمكانها أن تقدّمه من دون نذر ولكن ألزمت نفسها

بالنذر لتأكّد إصرارها على تحريره منها وحتّى تمنع من أن يداخلها شيء في نفسها ليمنعها عن التحرير.

ولا ننسى ما قلناه: إنّه قد يكون الحمل الأوّل والأخير لها لننظر إلى مستوى الارتباط معه وهي تقدّمه نذراً، نذرت وهي على علم بالحكم الشرعي بأنّ النذر لا يقع على الوليد لأنّه حرّ والحرّ لا يُملَك، وإنّ من شروط النذر أن يقع على شيء مملوك أو قابل للتملك، ولهذا هي نذرت وكان متعلّق النذر ﴿مُحَرَّراً﴾ الذي هو الحق الذي تمتلكه هي وهو حقّ الرضاعة والحضانة؛ لأنّ التحرير كان ظاهرة وعملية سائدة في ذلك الوقت في أنّ بيت المقدس يؤخذ الطفل من اختيار أهله عندما يقدّمونه إلى البيت المقدّس فيتبنّاه مدّة وهو منفصل عن أهله، فيقوم الموظّفون بالبيت المقدّس من خدّام بتغذيته وتدبير شؤونه، وعندما يكبر الوليد فهناك علماء وأساتذة يقومون بتربيته وتركيز أُسس العقائد الدينيّة والعلميّة في ذهنه وشخصيّته، حتّى يكبر الوليد ويصل إلى مرحلة البلوغ فيختير بين البقاء في خدمة البيت حتّى يصبح أحد علماء البيت، أو يتّخذ طريقة أُخرى في الحياة كبقيّة النّاس، وإنّ عملية التحرير هذه لها اختصاص بالذكور دون الإناث، أو أنّ عمليّة التحرير قائمة على أساس أنّها تستلم الذَّكَر بعد البلوغ ليكون موقوفاً للبيت المقدّس وهو ينتقل بين خدمة البيت والدراسة والتدريس على اختلاف في النقل التأريخي لعملية التحرير، ولكن النقل مهما اختلف فهو متّحد في بيان الهدف من هذه العمليّة، وهو أنّ التحرير عمليّة تطهير وعزوف عن الانشغال بالدنيا وبناء شخصيّة روحيّة للوليد تتمّ في البيت المقدّس مع فصل ولاية الوالدين عن ولدهما.

قدّمت الأمّ هذا الحق على أنّه ذَكَر وعلى ما أُخبرت بأنّه نبيّ رسول، فرأت المكان المناسب لمثل هذا الوليد في أن ينشأ بين أجواء الأنبياء الطاهرة والأساتذة

الروحانيّين الموجودين في البيت المقدّس، فإنّه نذر عن وعي ودراية وعلم بعيد كلّ البعد عن الأجواء العاطفيّة والمشاعر التي تمتلكها عامّة الأُم.

نذرت ولم تترك نذرها كما نتركه كأصحاب منّة على الله بأننا نذرنا وكأنّ الله محتاج إلى ما تنذر به، بل قدّمت تلك المرأة يد التوسّل والتضرّع إليه سبحانه بأن يتقبّله منها ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، وتضع الله شاهداً على إخلاصها في عملها ونيّتها في العمل في أنّه لم يكن فيما تقدّمه ممتزجاً معه إلّا محض التقرب إليه ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، بنيّتي ودوافعي وقولي وعملي ومعاناتي.

المرأة بطبيعتها تمتلك عواطف وأحاسيس متميّزة وهي حاملة بهذا النوع من الحمل الذي يزيدها عاطفة وأحاسيس ومشاعر تتعلّق به وسوف تنفصل عنه مدّة خمس عشرة سنة على نظام التحرير، أو أنّها ستنفصل عنه بأي نوع من أنواع التحرير ممّا يضيف له حناناً وحبّاً ليس له مثيل. قدّمت كلّ ذلك وهي على يقين أنّه لم يدخل في قلبها إلّا حبّ الله وكيفية نجاح المهمّة الإلهيّة التي أُلقيت على عاتقها بحيث تُشهد الله على كلّ ما صدر منها ظاهراً وباطناً. هذا النوع من الصدق والإخلاص لا يمتلكه إلّا مَن اصطفاهم الله لمثل هذه المهمّات.

فكانت امرأة عمران حيث يقف العقل عاجزاً عن وصف إخلاص هذه المرأة ودرجة ذوبانها في الله. هكذا يكون الاصطفاء الإلهي على العالمين، وعلى مثل هذا فليسعَ الساعون ... وكانت تلك المرأة تنتظر وليدها بفارغ الصبر ... وقربت لحظات الولادة ... واستقرّت الأُمّ يوماً في مكان لها وقد أحسّت بألم الطلق، فصرخت صرخة، وهاهو الوليد يخرج حتّى استقرّ على الأرض ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، نظرت إليه وإذا به أُنثى ...

أنا الكاتب الضعيف الإيمان قد وضعت كلمة (وإذا) الفجائية، ولكن لنرى امرأة

عمران هل فاجئتها عملية التبدّل هذه من الذكر الذي بشّرت به إلى الأُنثى التي وضعتها؟! وهل شغلتها الوليدة عمّا عاهدت الله عليه؟! وهل أصابها الارتباك والزلل أو نوع من عدم الارتياح حين رأت أنّ موضوع النذر قد تبدّل لعلمها أنّ عملية التحرير مختصّة بالذكور؟! كلا، لا هذا ولا ذاك، بل إنّها كانت تعيش مع السماء وخالقها وهي تتحدّث معه حديث القريب منها بمنطق العلم واليقين الراسخ وبالقلب المستسلم لله الذي لا يزلزله هذا التبدّل والتحوّل على ما حصلت عليه هي من البشارة والإخبار، بل كانت تحتمل ذلك مسبقاً حينما قلنا: أنّها لم تعيّنه في النذر ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾، ولهذا لم نجد تلك المرأة أن فصلت بين ولادتها للأُنثى وبين كلامها مع الله بسكوت أو تأمّل، بل قالت ومن دون فاصلة: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ...ولا تريد من قولها هذا أن تخبر الله بما وضعت لعلمها بأنّ الله هو الخالق وهو العالِم بما يخلق قبل خلقه للمخلوق، وأنّه يعلم ما تحمل الأرحام قبل أن تحمل ومع ما تحمل وما بعد أن تحمل لعلمه المطلق ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾. هذا الخطاب المعترض وهو قول الله جاء لبيان عظمة الوليدة وتكريماً لها ...وأرادت من إخبارها هذا أن تعرض خجلها واستحياءها من الله معتذرة بأروع صور الاعتذار ذلك حين نسبت الوضع إلى نفسها ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾، مع علمها أنّ الواضع والخالق هو الله، وأنّ ليس لها أي دور في الحمل إلّا الوضع، فأصل عملية التبدل والتعويض هي منك يارب العالَمين.

قالت قولها هذا وهي تفسّره ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، في أن يكون نبيّاً رسولاً؛ لأنّ ذلك ليس من اختصاص المرأة، وليس الذكر كالأُنثى في عملية التحرير، لأنّ البيت المقدّس لا يقبل إلّا الذُكور، وأنّ كلّ هذا لا يثنيني عن عزمي وتصميمي على ما ألزمت به نفسي من أن أُقدّم شيئاً يرضيك يا ربّ عنّي، وأن أكون مساهمة في

صنع الرسول وفي المهمّة الرسالية التي بُشّرتُ بها، وها أنا ذا مستمرّة بنفس الدافع على ما عاهدتك به، وها أنا ذا أُقدّم الدليل، فإذا كانت أسماء الرموز العالية والقريبة منك من الأنبياء والصالحين مكتوبة عندك، وإنّ أسماءهم بيدك ومن عندك فاسمح لي يا سيّدي ومولاي أن أسمي هذه الوليدة لأُقدّم صدق إخلاصي لك، أو اسمح لي يا سيّدي ومولاي أن أمارس حقّي الطبيعي الذي منحته للوالدين في أن يسمّوا أولادهم ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، الذي يعني بلغتهم العابدة والخادمة، أي أنّها موقوفة لعبادتك وخدمتك ياربّ.

فإذا كانت النساء تنتظر لتختار أجمل الأسماء ثمّ بعد ذلك تنظر إلى ما يحتويه الاسم ... وإذا كانت الأسماء الشخصيّة توضع من دون ملاحظة المناسبة بين الاسم والمسمّى ... فأنا قاصدة المعنى والمحتوى قبل الاسم، فإنّي مداومة على ما عاهدتك به على ما في بطني في أن يكون محرّراً وها أنا ذا سميتها مريم فلا استعملها إلّا خالصة فيما يرضيك، ولا خادمة إلّا لرسالتك، ولا عابدة إلّا إليك، فإنّ الحق الذي مرجعه لي من الولاية المختصّة بي من الحضانة والتربية واستخدامه في الأُمور الخاصّة لي فقد نذرتها جميعاً لك، وإنّي لسائرة في قراري وحبّ المساهمة فيما تريد أن تحقّقه على الأرض.

وهذا كلّ ما يتعلّق بي ويقع تحت استطاعتي، وأمّا ما لا علاقة لي به ولم يقع تحت سيطرتي وحقّي واستطاعتي فإنّي أتوسّل إليك في أن تقبل أن أجعلها لاجئة إليك واعتصمها بك ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾، لتكون أنت المتولّي لها في تربيتها وحمايتها من الشيطان الرجيم فأنت الذي تعطيها، وأنت الذي تمنع عنها ما لا يكون في صالحها في حاضرها ومستقبلها ... ولمّا كنتُ أنا على يقين من بشرى عمران من أنّ رسولاً سيولد مني فإنّ يقيني لا زال موجوداً، ولهذا فأنا على يقين من أنّ

هذا الرسول لابدّ أن يلد، فإن لم يولد منّي فسيولد من مريم أو من ذريّتها المتّصلة بي حيث لا علم لي بذلك ... فعلى جميع المحتملات في المصداق الذي سيولد منه وباليقين بالوقوع فإنّي أتوسّل إليك في أن ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ... فيا ربّ هذه هي طهارتي في التعبير والعمل والدافع والعزم والتصميم.

سكتت امرأة عمران من كلامها النور بسكوت القرآن عن ذلك ... وهل يعني السكوت هذا أنّ جسدها الشريف هو الآخر قد سكت عن حركة الحياة؟ وكأنّ امرأة عمران قد خلقت لتلد مريم بهذا المستوى العالي من الطهارة والإخلاص، ليبيّن الله مولد مريم وأنّه كان مزيجاً من ماءين، ماء النبي عمران وماء امرأته العظيمة التي أخلصت في ولادتها بحالة ليس لها مثيل بحيث دوّنه الله في كتابه وبأحرف من النّور، وليبيّن الله من خلاله دقّة وصدق وعدل اصطفائه الأوّل لمريم حين قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؟ كلّ ذلك قد سكت الله عنه ولم نعلمه ... ولكن أخيراً قد رحلت الام وهي فائزة بقبول الله نذرها وكلّ ما قدّمته قرباناً لله، رحلت وهي تتنقّل بين رياض أحسن القبول الذي لا علم لنا به سعة ومقداراً وكيفيّة إلّا هو يعلمه ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ . رحلت تاركة تلك الطفلة بين يدي أختها حنانة امرأة زكريّا.

وترعرعت الطفلة في ذلك البيت النبوي حيث تقبّل الله مريم كما تقبّل أمّها بقبوله الحسن الذي يزيد كثيراً على ما طلبت الأمّ به ...وأنبت مريم نباتاً حسناً ذلك عندما أمر الله بأن يتكفّلها أعلى شخصيّة اجتماعية وأقربهم إليه سبحانه ذلك هو زكريّا ... تكفّلها بتلك الروح الحيويّة واليد النبويّة على الرغم من جسمه النحيف الذي أخذه طول العمر والذي زاد على المائة عام، وكان عمله التجارة.

ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «كان زكريّا نجّاراً»(١).

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ حتّى قربت مريم مبلغ النساء، وزكريا النبي وزوج خالة مريم يعلم بحديث هذه الطفلة في أنّها أمانة الله محرّرة للبيت المقدّس ... ولكن كيف يدخلها في البيت وأنّها أُنثى وقانون البيت المقدّس لا يسمح بذلك؟ ويعلم أنّ هناك مخالفين لا يقبلون بذلك وأنّه نبيّ يعرف أنّ المستقبل الرسالي مذخور عندها فهو يعرف منها ما لا يعرفه الآخرون، ولم يكلّفه التفكير في ذلك طويلاً لأنّه هو النبيّ وهو الوجه الوجيه لتلك الوجوه.

ذهب إلى البيت المقدّس تقوده خطى اليقين والثقة بالله ليعلن أمام الناظرين على البيت أنّه يتكفّل مريم داخل البيت، حصلت النقاشات المتوقّعة فوضّح لهم زكريا أمر مريم ... فما كانت نتيجة الحوار إلّا أن شاهد زكريا التنافس على كفالة مريم، أخذت الفرحة زكريا وعلم أنّ الله له الدخل المباشر في هذا التحوّل الذي لم يسبق للبيت أن يتقبّل أنثى، بل وبهذا التنافس الشريف على كفالتها ...

نعم، لقد تقبّلها ربّها بقبوله الحسن، وكان تزاحم الحوار والتخاصم يشغل البيت وخارجه ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وزكريا يعلم أنّ كفالتها لا تكون إلّا على يده لأمر الله بذلك وفي نفس الوقت يرى هؤلاء مصرّين على كفالتها ...واستقرّ أخيراً الحوار والتخاصم بينهم على أن يُقرع بينهم، وقَبِل زكريا بهذا الاقتراح والحَل ليقينه بما يريده الله في أن تقع الكفالة على ما يريده الله ... وذهب المتنافسون الستة جميعاً إلى الهدف الذي عيّنوه ليلقوا سهامهم عليه، أو ذهبوا إلى نهر ليلقوا أقلامهم فيه فأيّهم يثبت قلمه وعوده في الماء فهو الفائز بكفالة الطفلة مريم ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ

---

(١) كنز العمال: ٣٢٣٢٩.

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران، ٤٤)، فكانت نتيجة القرعة ـ التي هي الحل الوحيد لكلّ شيء يبقى مشكلاً في مثل هذه الأمور ـ كما أرادها الله.

بدأ زكريا بالعمل في كفالتها داخل البيت المقدّس وأوّل ما بدأ به بناء تلك الغرفة والمقصورة العالية التي لها بابٌ داخليّة عالية تنتهي إلى مقدّمة المعبد لبيت المقدس ليحجب النظر بما في داخل الغرفة، ولها باب خارجيّة يتمّ الدخول والخروج من خلالها بواسطة سلّم قليل الارتفاع كذلك ... وجاء زكريا بمريم وسكنت البيت وظلّت تعبد الله من خلال غرفتها التي حولتها إلى محراب لا لكون غرفتها جزءاً من المعبد وفي مقدّمته، بل إنّها لو حلّت مريم في أي مكان لحولته إلى محراب ومعبد تعبد الله من خلاله، فهي على صغر سنّها كانت واعية الإيمان بالله الذي امتلك قبوله إليها كلّ مشاعرها وأحاسيسها بل كلّ وجودها.

مكثت في ذلك المكان وهي مشغولة بين خدمة البيت وعبادة الله بين صلاة ودعاء وتفكّر ووعظ من زكريا وممّا تركه موسى من التوراة التي تحمل أصول العقائد وفروعها، وما يلهمه الله في قلبها وفكرها وروحها وما ينزله الله من ملائكة لتعليمها.

وظلّت مريم مدّة وهي على هذه الحالة المنقطعة لله حتّى اجتازت مراحل القرب من الله والوعي بالعقيدة وروحها بأسرع ما وصل إليه الصالحون من رجال البيت المقدّس على الرغم من صغر سنّها ... وكان لا يدخل غرفتها ومحرابها إلّا زكريا وهو يجلب الطعام والشراب ويقضي لها كلّ ما تحتاجه.

بقيت على هذه الحالة مدّة ...وكانت أحلى فرصة لديها عندما تكون محدّثة مع الله من خلال عبادتها وتكون محدّثة مع ملائكة الله الذين كانوا ينزلون عليها لتسليتها وتعليمها ... فكانت تعيش في عالَم غير عالمها فلا تركن إلى ما تركن إليه

النساء من الملذّات والشهوات ولا يشغلها شاغل إلاّ السمو في الروح والارتقاء إلى ما يرتقي إليه الأنبياء في صلتهم بالله ...فحصلت على ما لم يكن بحسبان أحد أن تحصل عليه وهي في دنيا الحياة ... ومن جملة ما حصلت عليه أنّ المعجزة كانت تعيش في بيتها كظاهرة طبيعيّة يوميّة أو بين الحين والآخر، وكان هذا المعجز لم يجلب لها العجب والاعجاب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾. زكريا ولمدّة طويلة ومنذ أكثر من سنة يلفت نظره أنّه كلّما دخل غرفتها ومحرابها وجد عندها أشياء غريبة هو لم يجلبها لها، ولا يمكن لغيره أن يأتي بها لها لاستحالته في ذلك الزمن في أن يجد مثلاً فاكهة الصيف بالشتاء أو بالعكس، أو يجد عندها نمواً جسمياً سريعاً، أو أي رزق غريب بحيث يثير التساؤل لعظمته ولاستحالة وجوده ضمن الظروف الطبيعية لمطلق الزمن أو لزمنهم بالخصوص، أو أنّ الطعام عادي ولكن نزوله من السماء كان حتمياً، ومريم لم تخبره بذلك ...فهذا الرزق وإن كان نعمة كانت تشكر الله عليه إلاّ أنّه لم يدخل بما يثير اهتمامها كشيء دنيويّ يأخذها الفرح أو العُجب به أو التفاخر حتّى تحتاج إلى الإخبار به إليه ... ولكن استغراب زكريا لهذه الحالة أو أراد العلم بأنّ ما كان يجده عندها هو ثمرة دعائِه الذي يدعو الله به بأن يتكفّل الله رزقها، أو عدم علمه لمستوى مريم التي توصّلت إليه من القرب لله بحيث يرزقها متى أرادت ممّا جعله يثير السؤال ...فقال لها يوماً: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فكان جواب مريم النابع من روح اليقين ويقين الروح ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إنّه جواب لمريم كما تؤكّد فيه المعجزة التي لا تكون إلاّ للعالين والقريبين عند الله فهو عطاء يحمل الخصوصيّة، فهي تنفي هذا العلو والقرب عن نفسها تواضعاً

حين تجعل هذا الرزق عطاءً عمومياً يمنحه الله لعباده، فهو منتهى ذوبان شخصيتها بالله.

فرح زكريا عند ذلك وعرف أنَّ وجود مريم في هذا المحل كان بأعلى ممّا كان يأمله، وعرف نتيجة كفالته التي أمره الله بها أنّها كانت في أعلى مستويات النجاح. ذهب زكريا عنها وقد ازداد حرصاً وخوفاً على مريم، وأخذ يفكّر طويلاً بحركة اليهود التي لم تسلم من المعاداة لحركة الدين والتديّن، وهاهو الكفيل لمريم، وهاهي مسؤولية الدين والتديّن على عاتقه، وهاهي مريم يضيّق عليها في البيت المقدّس حسداً. وبوادر الحقد اليهودي قد بدأت واضحة وهم يعاملون مريمعليها السلام معاملة قاسية بالضرب مرّة وأخرى بالتنكيل والمنع من ملاقاتها للفقراء والمحتين حتّى لا يتّسع تأثيرها في النفوس الذي لا يمتلكونه ....

وهاهو زكريا يأكل الكبر كلّ جسمه ولم يتركه يابساً نحيفاً ...وهاهو وحده حيث لم يكن له ولد يخلفه ليدير الأمر من بعده ...ولم يسأل الله الولد في طول هذه الفترة لاستسلامه لله الذي هو أعلم بحاله وحال دينه، ولكن لا يعني الاستسلام لله أن يعيش الإنسان في اللامبالاة ويغلق مسألة التفكير بعواقب الأُمور ضمن الظروف الطبيعيّة، فزكريا كلّما كبر أكثر ولم يجد بديلاً عنه يخلفه كلّما شعر بالحاجة إلى مَن يخلفه أكثر، وهذا النوع من التفكير والحرص ينبثق من أي عاقل حريص على دينه وهو في مستوى المسؤولية عنه. أخذ زكريا التفكير في ذلك طويلاً ويزداد عمقاً فيه كلّما تقدّم في العمر ... وفي أحد الأيّام وهو لا زال يدخل على مريم ولا زال يجد عندها رزقاً ومعجزة، بل معاجز تتكرّر كلّ يوم أو بين الحين والآخر، أخذت المعجزة تعيش في ذهنه حتّى ربطها بضرورة حاجته الرسالية الملحّة، فرأى بعد دراسة محيطة بالموضوع من جميع جوانبه أنَّ أفضل طريق يسلكه في تحقّق ذلك

أن يطلب من الله الولد عن طريق المعجزة ... ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (آل عمران:٣٨)، ورأى أنّ أفضل مكان يستجاب فيه الدعاء هو ذلك المحراب التي تنزل المعاجز فيه على الدوام بالإضافة إلى كونه نبياً فإنّه مستجاب الدعاء ... فكان رزق مريم مكاناً وكيفيّة هو المنبّه لزكريا لأن يتّخذ قرار طلب الولد ... وقرّر الدخول إلى بيت المقدس وهو قاصدٌ المحراب للدعاء ... وبدأ عمله العبادي الذي يؤهّله لمثل هذا الطلب، فكان بين الصلاة والتسبيح والتهليل ... ومن بين إحدى الصلوات رفع زكريا يديه إلى السماء وبذلك الصوت الخفي ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾(مريم:٣) ... وكانت أوّل الكلمات أن يقدّم تقريره لله الذي يوضّح سبب ما يطلبه بأسلوب الدعاء ليظهر إخلاص الدافع ووعيه وحرصه الخالص ...﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(مريم:٤)، لم يكن يوماً قد إنطلق الدعاء منّي إليك جزافاً وانطلاقاً من ترف الطلب فإنّ ذلك من علامة الأشقياء، ولم أرَ طلباً يردّ عليّ من قبلك دون استجابة منك فإنّ المشقّة لم تصبني عندما أدعوك، فقد عوّدتني الاستجابة ولم تردّني يوماً خائباً. وهذا هو الذي جعلني أطمع في دعائك وأُمارسه ولم أكن شقيّاً مبتعداً عنك ... ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾(مريم:٥)، وإنّي خفت لما سيحصل من بعدي حسب تقديري في أنّه سيحصل الخلاف بين كثرة الموالي الذين يدّعون تولّي الأمر من بعدي ومَن هو سيرث آل يعقوب حيث الساحة خالية من خليفة بعدي، ويكون الوليّ الأقوى الذي يسدّ أفواه الخلاف ذلك عندما يكون الخليفة من صلبي بحيث يرثني.

وبهذا اطمأن بوجود المصلح المسؤول والحجّة على أرضك ... ولا أريد ذلك الوليّ رضيّاً عندك ويكون لائقاً بالولاية ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾(مريم:٥ـ٦) ... وإني أطلب مَن يرثني على الرغم

من أنّني أعلم استحالة أن يوجد ذلك ضمن القانون التكويني الطبيعي للإنسان وذلك لسببين:

الأوّل: السبب العرضي الذي أصابني من طول العمر، وقد يبس كلّ شيء له اتصال بعملية ماء الرجل؛ لأنّه قد وهن العظم منّي الذي صار ليس له القابليّة على إعطاء القوّة وقذف الماء وتكوينه الذي يرشّحه العظم في الكيس المنوي.

الثاني: السبب المتأصّل الذي هو عيب تكويني من الأوّل في زوجتي وهي أنّها عاقر ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾(مريم:٥)، فإذا يوجد احتمال في أن يكون عندي ماء الوليد فلا احتمال في وجوده عند زوجتي لأنّها عاقر وأنّها كبيرة السنّ ـ ولم يذكر زكريا كبر سنّها في دعائه لأنّ العقر يكفي ويغني عن ذكره ـ ولهذا أنا أطلب منك يا ربّ طلب المعجزة في أن يكون هذا الولي من ذريّتي هبة صرفةً منك ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾(آل عمران:٣٨)، ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾(الأنبياء:٨٩)، فأريده منك يا ربّ وأنت تُسقِط كلّ الأسباب الطبيعيّة حيث يكون من خالص قدرتك ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ ... وإنّ الأمر متروك إليك، وإنّي راغب فيه، وإنّك المجيب لدعائي ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(آل عمران:٣٨).

وما أسرع الاستجابة ...فإنه ما أن انتهى من تقديم التقرير والطلب بإخلاص الأنبياء وهو في الصلاة نزلت عليه الملائكة تبشّره ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾(آل عمران:٣٩) ... وهذا ليس غريباً على الله الحاكم على كلّ الأسباب، وكيف لا تكون الإجابة سريعة وقد حصلت جميع جهات استجابة الدعاء، المكان هو المسجد، والزمان هو وقت الصلاة، وفعل الدعاء في فعل الصلاة، والداعي نبيّ ، والغرض عام رسالي أكثر من كونه شخصياً، وإنّه نابع من ضرورة الحاجة الملحة بعد تشخيصها من قِبَلِه، وكان يعرض زكريا دعاءه على الله بحالة المضطر إليه.

صحيح أنّ زكريا لم يصرّح بالولد الذكر وإنّما جعل صراحته منتشرة بخفاء بين ما قدّمه من الأسباب والمبرّرات، وهذا من أدب الأنبياء، والله يعلم بكلّ ذلك، ولهذا كانت الاستجابة على ما بيّنه ويريده وهو الولد الذكر منه ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾ (مريم:٧) .

لقد طلبتَ منّي أن يكون رَضيّاً، وهاهو رضيٌ في اسمه ووجوده إلى نهاية حياته، أمّا اسمه فلم يكن أحدٌ يسمّى باسمه وقد أسميناه يحيى ﴿اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ (مريم:٧)، وأمّا هو ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:٣٩)، ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ (مريم:١٣ـ١٥) ... وكان كلّ ذلك هبة منّا كما طلب زكريّا في أن يكون هبة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ (الأنبياء:٩٠) .

ولا تظن أيّها المؤمن أنّ استجابة مثل هذا الدعاء العظيم أن تكون علّته التامّة هو نبوّة زكريا أو إخلاصه في الدعاء، أو ما بيّنه زكريا من السبب، بل هناك علل أخرى ومن أهمّها أنّ زكريا وامرأته كانا منذ نعومة أظفارهما من الدرجة العالية بالإيمان والعمل، فهم لا من أهل الخيرات فقط، بل هم من المسارعين إليها، وهم على حركة دائمة في العبادة والعمل في قضاء حوائج الناس، وهم في خشية من الله وخوف منه وطمع لما عنده سبحانه، فهما في حالة حركيّة متوازنة بين الله والناس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء:٩٠).

بهذه التفصيلات وبوجود هذه الملائكة الإلهية تيقّن زكريا من الولد، وفهم أنّ الولد سيكون منه، ولكن أراد أن يؤكّد ذلك لنفسه حيث البشارة بيحيى جاءت

مطلقة ولم تؤكّد إنّه منه مع عظمة البشارة وسرعة الاستجابة، كلّ ذلك جعله يريد أن يؤكّد ذلك في نفسه على أنّه سيكون منه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(مريم:٨)، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾(آل عمران:٤٠)، فأجابه الله بثلاثة أجوبة من خلال ملائكته وهي:

الأوّل: أنّ الأمر لله وبيد الله، فهو يفعل ما يشاء فلا يسأل عمّا يفعل، وإنّ قدرته مطلقة، فمنها ما يقع ضمن طبيعة القانون، ومنه ما يخرق القانون الطبيعي ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(آل عمران:٤٠).

الثاني: أنّ يحيى كان مذخوراً لك قبل طلبك، وأنّه أمر مفروغ عنه، لأنّ ذلك كان قد دخل في قضاء الله، وهذا ما يستبطنه نفس الخطاب ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، الذي جاء مرتّباً ما بعد البشارة بالغلام وأنّ مجيئه كان معلّقاً على دعائك الذي يعلم الله بحدوثه من قبل.

الثالث: يا زكريا أنّك تؤكّد على كبرك وعقور امرأتك، ولكن أيّهما أصعب بنظرك أن أعيد الحياة لجزء من أعضائك أم أصل خلقك حين لم تكن شيئاً؟! وأكيداً سوف تجيب أنت بأنّ الثاني أصعب، ولكن اعلم يا زكريا وليعلم كلّ الخلق أنّ هذا الذي يدور في خاطرك بخلق الخلق وفي أي حال من الأحوال كلّه هيّن وبسيط عليّ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(مريم:٩).

عرف زكريا أنّ الولد الذي بُشّر به سيكون منه، وعرف أنّه سيكون من خلال إحياء الأعضاء المرتبطة بالولادة ...ولكن لا يعلم آلية ذلك فهل يكون برجوعه وامرأته إلى الشباب مثلاً؟ أو هما على كبرهما ولكن يأتيه من الله مثلاً وينسبه إليه؟

أو بأي شيء آخر لم يفهمه زكريا؟ ولهذا احتاج إلى دليل حسّي لتعلّق الأمر بتكوينهما واحتاج إلى معرفة آلية ولادة الوليد ليكون له صورة ذهنية مسبقة ليكون مستعداً لها في المستقبل ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾(آل عمران:٤١) ... وكان الجواب ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾(آل عمران:٤١)، وإذا كانت هناك ضرورة للتكلّم مع النّاس فلا تكلّمهم عن طريق النطق وإنّما كلّمهم عن طريق الإشارة أو أي شيء رمزي بحيث يفهموا ما تريد أن تقول ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾(آل عمران:٤١)، وأن تكون هذه الأيّام الثلاثة متتابعة لا تلفيق فيها فهي مع لياليها ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾(مريم:١٠)، وهذا نهي بعدم الكلام مع الناس، وأمّا مع الله من خلال الصلاة والدعاء فإنّ هذا النهي لا يشمله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾(آل عمران:٤١).

انتهى الدعاء وانتهى طلب زكريا ... وذهبت الملائكة لربّها بعدما أنجزت مهمّتها ... وانتهى زكريّا من عمله العبادي بعد أن استسلم لله في أمره ونهيه بألّا يكلّم الناس سواء عرف الغرض من هذا النهي أو لم يعرف.

نهض زكريّا وأراد الانصراف، جعل المحراب خلفه ونظر إلى الأمام وإذا المعبد وصالة البيت المقدّس محتشدة بالقوم وهم سكوت احتراماً لشخصية زكريا التي تضفي عليها هيبة الله وعزّته ... وإنّه لأمر مهم حيث كانوا يسمعون دعاء زكريا ولم يسمعوا الجواب، فهم عرفوا أصل الطلب وسببه ولكنّهم متشوّقون إلى النتيجة، ويريدون أن يعرفوا الجواب فهم زكريا ذلك من خلال نظرته السريعة إليهم، فأجابهم وهو يمتثل النهي الإلهي بعدم الكلام، ولهذا هو أوحى إليهم بما فهموا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾(مريم:١١) ... إنّه جواب يستبطن النتيجة الإيجابيّة حيث أمرهم بالدعاء، ومضاعفة جهودهم به، فإنّ الدعاء

بكرة وعشيّة بالنسبة إلى الأنبياء حالة طبيعيّة، ولكنّه بالنسبة إلى عامّة النّاس أمر غير طبيعي، بل ينمّ عن ترقّب حدوث أمر جديد ومهمّ وهو كما عرفه القوم من نبيّهم زكريّا، وبما أنّه أمر معجز ونعمة عظيمة لهم فهو يحتاج إلى توسّل مضاعف وجوّ روحي طاهر متّصل بالله يشترك الجميع به، ولهذا أمرهم بالدعاء والتسبيح والعبادة.

وبقي زكريا وامرأته تلك الأيام بلياليها يحييهما عبادة وتوسلاً إلى الله وهما ينتظران العلامة والآية المعجزة من الله حتّى كانت اللحظات الأخيرة لليوم الثالث حيث أحسّت امرأته بشيء حتّى تيقّنت فأخبرته بحدوث الحيض عندها ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (الأنبياء:٩٠) ...وزكريّا هو الآخر قد أصلح الله أمره ولكنّ الله لم يذكره كما أنّه سبحانه لم يذكره من الأوّل، بل قال: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ (مريم:٩)، وذلك لأدب القرآن وخلقه العظيم.

واستمرّ الإصلاح التكويني بين الزوجين حتّى جاء يحيى منهما، وزكريّا مستمر بهمّته الرسالي ومتواصل الخدمة للناس بأخلاقه النبويّة العالية، وتزداد همومه يوماً بعد يوم حتّى وصلت إلى أعلى درجاتها حين ابتليت مريم بولادة عيسى عليه السلام، وما أن ولد عيسى عليه السلام حتى ازدادت حركة اليهود التمرديّة على الله من خلال معاداتهم لأنبيائه ورسله، فقد عرفوا عيسى لأنّه موجود اسمه ودوره في التوراة، وعرفوا أنّ دور عيسى عليه السلام سيكون ناسخاً للتوراة، وهذا ما يرفضونه رفضاً قاطعاً وإن كان النسخ يمثّل أمر السماء؛ لأنّهم يعتقدون أنّ وجودهم قائم على التوراة، وأنّ مراكزهم ومواقعهم الاجتماعيّة والسياسيّة قائم باسم التوراة، وأنّهم يعيشون على الدين وباسم الدين، فنسخ التوراة هو نسخ لوجودهم، وهذا ما لا يرضون ولا يسمحون لأيّ أحد أن يتحرّش به، وزكريّا هو الداعم الأوّل والمتكفّل الأوّل والمسؤول الأوّل عن

عيسى وأمّه مريم.

بدأت المؤامرات تحاك ضدَّ هذه الشخصيّة النبويّة فبدأت التهم تلاحقه حتّى كاد القتل يتوقّعه زكريا بين الحين والآخر ...وبعد مرور سنتين من ولادة عيسى نجحت إحدى مؤامرات قتله بقطع الشجرة بمنشار بعد أن أدخلوا زكريا فيها، وفاضت روحه الطاهرة وذهبت إلى الله راضية مرضيّة، ذهب إلى الله وهو مضرّج بدمه الطاهر شهيداً ونبيّاً صابراً ومن الصالحين.

وكان يحيى حجّة الله على أرضه من بعد زكريا النبيّ الذي بلغ من العمر سبع سنوات ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾(مريم:١٢)، ويصف الله شخصيّة هذا الصبي النبي وسيرته بين الناس وعلاقته مع أبويه ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾(مريم:١٣-١٥)، سار يحيى شوطاً من حياته كنبيّ بين قومه وهو يزداد ولاءً لعيسى ويؤكّد نبوّته ويبشّر بمستقبل عيسى النبوي، فكانت شخصيّة يحيى هي الشخصيّة الثانية المستهدفة بعد أبيه من قبل اليهود، وكلّما تزداد الأيّام تقدّماً كلّما شعر يحيى بالخطورة أكثر حتّى وصل الأمر بخطورته إلى ذروته.

هجر يحيى قومه ووطنه، وأخذ يجوب الأرض على قدميه، ولم يمرّ على قرية أو قوم إلّا ودعاهم إلى الله، ويبشّرهم بنبوّة عيسى، وينقل لهم المواعظ والأحكام ... وبقي على هذه الحالة سنوات وهو يمسح الأرض بقدميه متنقلاً من مكان إلى آخر.

صادف مَلِكاً لقوم من أقوام بني إسرائيل، أحبّه الملك عندما شاهد فيه المعاني الطيّبة من العلم والذكاء والشخصيّة القويّة، ضمّه إلى قصره كسيّد من سادات القصر وكان يأخذ رأيه ويلتزم بنصائحه ... وبقي يحيى ناصحاً له عدّة سنوات في القصر ... وقع الملك في حب امرأة وافتتن بها حتّى أراد أن يتزوّج بها ... وكانت تلك المرأة

من المحرّمات عليه في أن يتخذها زوجة. ويقال: إنّها ابنة أخيه. تقدّم يحيى إلى الملك بعد أن عرف خبر الملك ليقدّم له النصيحة فوضّح له الحكم الشرعي وأثره الاجتماعي السلبي عليه فنهاه عن ذلك. التزم الملك بنصيحته وترك أمر الزواج منها ... وكانت هذه النصيحة سبباً في أن يدخل الحقد والبغضاء على البنت وأهلها بعد أن عرفوا أنّ يحيى هو السبب في المنع .

بدأت المؤامرات تحاك ضد النبي يحيى من قبل البنت وأهلها ... فكان في يوم أن زيّنتها أمّها بأحسن الملابس وأجملها وزيّنت وجهها وشعرها بما يأخذ بمجامع قلب الملك. أدخلتها الأم على الملك بعد أن اتّفقت معها على مؤامرة ضدّ يحيى ... دخلت البنت على الملك وقد ازداد جمالها جمالاً وحركتها ميوعة وصوتها رقّة وأنوثة ... وما أن شاهدها الملك إلّا ونهض لها معجباً وقد تملّكت كلّ أحاسيس الملك ومشاعره، واختلى بها حتّى طلب منها ما هو متوقّع عندها وعند أمها. قالت له البنت: أسألك رأس يحيى ولك ما تريد، وما أن مرّت الأيّام القليلة إلّا وقد وضع الملك بين يدي عشيقته وابنة أخيه طست من ذهب وهو يضم رأس يحيى هدية لها.

س: ما هو التوضيح المحتمل لصفات يحيى وأنت تقرأ قوله: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؟

ج:

اولاً: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾

١ـ المراد من الكلمة هنا وهو النبي عيسى ﷺ ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥).

٢ـ أنّ يحيى وعيسى سيعيشان زمناً واحداً، وأنّ يحيى ﷺ سيكون مصدّقاً ومؤمناً بنبوّة عيسى ﷺ وأنّه سوف يدعو لرسالته.

٣ـ أنّ الله قد بشّر زكريا ببشارتين ولادة يحيى وولادة عيسى من مريم عليهم السلام جميعاً.

٤ـ أنّ في هذا الخطاب دلالة على أنّ الأنبياء كلّهم وحدة واحدة، وأنّ السابق يبشّر باللاحق ومؤمناً به.

ثانياً: ﴿وَسَيِّداً﴾

١ـ أنّ يحيى زعيم قومه وسيّدهم، أمّا إنّه يتولّى أمرهم، أو أنّه سيّدهم بحيث يكون مطاعاً ومسموع الكلام، أو أنّه سيدهم أخلاقاً وعلماً وشرفاً وكمالاً وشخصيّة روحيّة، أو أنّه سيد من سادات العالَم لكونه نبيّاً، أو أنّه سيد المؤمنين، وعلى الجميع فإنّ فيه دلالة على علو شخصيّته وكفاءته في الإدارة وتسيير أمره ونهيه وتوصيل أدبه وما يتبنّاه للآخرين، فإنّ السيادة نابعة من شخصيّته وجهد ذاته لا عنوان منحه الآخرون له.

٢ـ أن تكون كلمة السيّد إشارة إلى أنّه سيكون له منصب لأحد ملوك بني إسرائيل وإنّه كان يحبّه حبّاً جمّاً، وكان يأخذ برأيه، وإنّ أمر ونهي يحيى كان مطاعاً في قصر الملك، ولكنّ الملك أخيراً قتل النبيّ يحيى للسبب الذي ذكرناه سابقاً.

ثالثاً: ﴿وَحَصُوراً﴾

١ـ الحصور هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، وهذه الصفة تكون ممدوحة في بعض الأحيان عندما تكون لهدف أسمى من الزواج وأهم منه، وعندما شخّص يحيى ذلك أيّد الله تشخيصه بمدحه بأنّه حصور، وهذا لا يعني أنّ الحصور صفة ممدوحة على الدوام وإلا لما حفظ النوع البشري، بالإضافة إلى أنّ نفس عمليّة الزواج محبوبة عند الله، فمدح يحيى بأنّه حصور حالة مختصّة به.

٢ـ الحصور هو مطلق حبس النفس عن الملذّات الذي هو عبارة أُخرى عن زهد يحيى وجهاده للنفس فلا يطمع بما في أيدي الناس ولا يمتلكه شيء من حطام الدنيا، بل هو حرّ منها، فهو بذلك منتهى العبوديّة والخلوص لله،ورد عن حارثة الأنصاري أنّه قال للرسول ﷺ: «إنّي أصبحت مؤمناً حقّاً، فقال له الرسول ﷺ: لكلّ حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا بما فيها فاستوى عندي حجرها وذهبها»[1].

رابعاً: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

إنّها الصفة الجامعة لكلّ ما مرّ من الصفات التمهيدية المتقدّمة ؛ لأنّ النبوة هي أعلى المقامات التي تقع تحتها الصفات التي ذكرت، كما ربّما أنّ الصالحين هو مقام من المقامات العالية التي طلبها إبراهيم الخليل ﷺ بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣).

س: قال تعالى: ﴿اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٧) هل تخبر هذه الآية عن خصوصيّة في اسم يحيى؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

من حيث أصل جعل الاسم لم تكن هناك خصوصيّة، فإنّ جميع أسماء الأنبياء والخاصّين به من غير الأنبياء من جعل إلهي إلاّ في مريم، وقد بيّنا سبب ذلك في أثناء سرد قصّة ولادتها، وقد يكون الاسم المجعول من قبل الله كاشفاً عن معجزة خفيّة يحملها الاسم، حيث ما من اسم إلّا وهو يحمل صفة لأهم حدث يمرّ بها أو إشارة إلى حقيقة من حقائقه، فمثلاً: آدم، سمّي بذلك إما لكونه يأكل الطعام أو لكون

---

(١) المحجّة البيضاء ٧: ٣٥١.

القرابة من الإنسان ستخرج منه. ونوح إشارة لطول تحمّله ومعاناته من أجل هداية النّاس، محمّد إشارة إلى المقام المحمود .... وهكذا، وقد مرّ في المجلّد الثاني في قصّة موسى سبب تسميته. ونحن إذ نبحث عن سبب التسمية لأنّه جعل إلهي فلابدّ فيه من ملاحظة المناسبة واكتشافها، فإنّ الله ليس كأحد الواضعين للاسم الشخصي ومن دون ملاحظة المناسبة.

أمّا التسمية بيحيى فقد تكون لأحد الأسباب التالية:

١ـ أنّه أحيى به رحم أمّه.

٢ـ أنّه سينال الشهادة، والشهداء أحياء عند ربّهم.

س: قال تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾، لقد جعل الله لزكريا هذه الآية، فهل لهذه الآية علاقة ببشارة زكريّا بالغلام؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

أوّلاً: أن يكون زكريا بعد لم يمتلك الدليل الحسّي الذي يجعل الآخرين يصدّقون ويتيقّنون، ممّا قد يثير الجدل الذي قد يؤدّي إلى تكذيب زكريا، وبالتالي تتحوّل البشارة إلى فتنة، ولهذا تجد زكريّا لم يجب القوم بما نقلته الملائكة إليه من البشارة بل أمرهم بالتسبيح.

ثانياً: علم زكريا بأنّ المعجز سوف يحصل وخلال هذه الثلاثة أيّام، ولكن هل هو في إحياء أعضائهما الزوجية أم بغيره؛ لأنّ الله قال: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كجواب لزكريّا لا لتعيين المعجزة، فإنّ ذلك تحت مشيئة الله فهو الذي يختار ما يريد وكيف يريد، والنّاس تريد الحجّة والتفصيل وهو لا علم له إلّا المقدار الذي أوحي إليه.

ثالثاً: لو أراد التكلّم فهو لا يخرج عن الجهتين عن جواب الله وهي البشارة وعن الأُمور التفصيلية بالكيف لغرابة القضيّة. فأمّا جواب البشارة فقد أعطاه زكريا من خلال الإيحاء لهم ، وأمّا التفصيلات حيث لا علم له بها.

فإن قلت: إنّه لو نقل المقدار الذي يعرفه لكفى.

أقول: إنّ غرابة القضيّة لا تجعل القوم يكتفون بنقل ما عرفه، بل ستثار عليه تفصيلات ربّما تسبّب حتّى الإهانة له ولزوجته؛ لأنّه كبير وزوجته عاقر، وأنّ المسألة تختصّ بالعلاقة الزوجية وكيفيّة الاتصال بينهما وغيرها من الأُمور التي هي من لوازم الحديث، فالأفضل أن يسكت ليغلق الباب عن مثل هذا الحديث، فإنّ التفصيلات إذا لم يكن فيها بأس عند عامّة الناس فإنّ فيها البأس الكثير عندما تكون مع الأنبياء، وخصوصاً فيما يمسّ أدب الأنبياء وإن كان أصل الفعل مباحاً.

رابعاً: أنّ الإعلام للحدث قد يكون عن طريق النطق بالكلمات كما هي الطريقة السائدة والأكثر استعمالاً. ولكن في بعض الأحيان وبعض المواقف يكون طريق السلب أكثر إعلاماً من طريق الإثبات، ففي بعض الأحيان يكون الإضراب عن الطعام أو حجز النفس والاعتصام في مكان ما أو الإقامة الجبريّة وغيرها من مثل هذه الأُمور تكون أكثر تأثيراً وإعلاماً للآخرين، فعدم تكلّم زكريا بهذه المدّة سوف يثير التساؤل ويجلب اهتمام النّاس أكثر وخصوصاً أنّهم عرفوا موضوع زكريّا وطلبه المعجز ممّا يثير عند النّاس أفكاراً واحتمالات وتساؤلات وأجوبة وانتظاراً وأخذاً وردّاً، وعندما تأتي المعجزة فهي لم تكن محصورة بين زكريا وزوجته أو بين قوم مخصوصين وقد يُكذّبون في المستقبل، بل سيكون كلّ فرد من النّاس هو جزء من المنتظرين للمعجزة وعندما تأتي سيكون تأثيرها عامّاً شاملاً لأوسع رقعة من الناس، وبهذا سوف يكون للمعجزة عُمق أكثر يزرع فيهم عامل الارتباط بالغيب

كما هو أهم هدف في إيجاد المعجزة.

خامساً: أنّك يا زكريّا، كلّم الناس في أمورك العامّة والخاصّة والعباديّة وغيرها، ولكن عندما يسألونك عن هذا الموضوع الذي عرفوه لا تكلّمهم بصراحة عنه وإنّما كلّمهم رمزاً ليعرفوا أنّك لا تريد الخوض في مثل هذا الحديث، وخصوصاً في الأيّام الثلاثة الأُولى الذي يكون الحديث عنه في أعلى درجات حرارته ممّا قد يجرّ الحديث عنه إلى ما لا تحمد عقباه بأي وجه من الوجوه، وبعد الثلاثة أيّام تكون المسألة قد هدأت ورتّبت بحيث بإمكان زكريّا أن يسرّب الخبر لمَن يريد فينتشر بشكله الانسيابي المؤدّب والبعيد عن أخلاقيّاته السلبيّة التي تصدر من هنا وهناك بشكل مقصود من المنافقين أو غير مقصود من عامّة النّاس.

س: قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾، لماذا تحاول من خلال كلامك أن تجعل الرزق غير طبيعي؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

١ـ كان الرزق مثاراً لاهتمام زكريّا في أن يسأل.

٢ـ تسليط الله الضوء على الرزق وتدوينه في القرآن يعني أنّ فيه شيئاً من الخصوصيّة المناسبة لعلو مريم وقربها من الله.

٣ـ أنّ الرزق هو الذي دعا زكريّا لأن يطلب الولد عن طريق المعجز ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾، أي لابدّ أن يكون الرزق حالة غير طبيعيّة ملفتة للنظر بحيث دعته لأن ينتقل منه إلى طلب المعجز.

٤ـ جواب مريم ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾، يدلّ على وجود نوع وخصوصيّة غير طبيعيّة فيه.

س: ألم يكن زكريّا عالماً بقدرة الله ومعاجزه، فلماذا صار رزق مريم مدعاة لدعاء زكريّا بالولد؟ اذكر المحتملات من الجواب على ذلك.

ج:

١ـ أنّ زكريّا يعلم بما ذكرتم وأكثر، ولكن يحتاج النبي في بعض الأحيان إلى محفّزات فكان رزق مريم هو المحفّز للدعاء.

٢ـ أنّ زكريّا عالِم ومؤمن بالقدرة والدعاء ولكن هذا لا يلزم حتميّة الوقوع والاستجابة، فكان رزق مريم قرّب إليه حتميّة الوقوع لتشخيصه بأنّ رزق مريم ليس بأهم ممّا يطلبه ومحتاج إليه من الولد الخليفة والولي.

٣ـ أنّ زكريّا عندما شاهد رزق مريم عرف أنّها أصبحت قريبة من الله، ويعرف أنّ للقرب كما له أثر في الحياة الآخرة فإنّ له أثراً في الحياة الدنيا وهذا هو رزق مريم، فكان ذلك محفّزاً لأن يكتشف زكريا قربه من الله بطلب المعجز منه، فقد يكون زكريا كان يطلب من الله إلاّ أنّه لا بمستوى هذا الطلب المعجز. ونحن نقول بأنّ رزق مريم كان محفزاً وليس علّة تامّة لطلبه.

س: ما هو أهم موقف لزكريا في نظركم يكشف عن قوّة شخصيّة زكريا في ثقته بالله؟

ج:

هو أن تقدّم إلى ربّه بالدعاء وطلب الوليد منه بالتحقّق وهو لا يحمل إلاّ الآليّات التي مرّت أكثر من مائة سنة على اليأس منها في أن تحقّق الوليد.

س: لماذا عبّر الله عن عيسى عليه السلام بأنّه كلمة منه ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ ألّا تكون الكلمة فيها خصوصيّة لعيسى، بل انّ الأنبياء جميعاً قد جاؤوا بمهمّة واحدة مبلّغين ومنذرين وداعين لله بالكلمة، وأنّ ما عاناه الأنبياء وما جسّدوه في حركتهم وهم يدعون إلى الله من أجل تثبيت هذه الكلمة مثل قوله: قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا، فالكلمة هي كلّ الكلام الصادر من الله وقد جاء بها الأنبياء لاختصاصهم بذلك وعلى النّاس أن يصدّقوا بما ينقله الله إليهم عن طريق الكلمة، فكما أنّ عيسى كلمة من الله فإنّ كلّ الأنبياء كلمة من الله، حيث أنّهم يمثّلون كلمة الله على الأرض فهم السفراء وهم الواسطة بين الله وخلقه.

٢ـ أن يكون عيسى قد خلق بكلمة (كن فيكون)؛ لأنّ ولادته لم تكن ضمن توسّط الأسباب الطبيعيّة، بل كان منه بإرادته التكوينيّة المباشرة: (وكلمة منه)، وهذه الكلمة هي التي ميّزت عيسى عن غيره ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾(النساء:١٧١)، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩).

٣ـ أنّ الكلمة عندما تسند إلى الله تأتي بمعنى الذات والحقيقة والإظهار والبروز، فـ (كلمة منه) أي أنّ عيسى عليه السلام حقيقة ومعنى وذات من الله كبقيّة الحقائق من الإنسان وبقيّة الخلق، وأنّه مظهر من مظاهر إرادته وقدرته؛ لأنّه أوجده من دون توسط الأسباب، فهو ليس إلهاً ولا ابن إله.

٤ـ أنّ كلمة الله نوع مدح لعيسى، فكما أنّه روح الله وعبدالله فإنّه كلمة الله ومظهر من مظاهر قدرة الله.

٥ـ أنّ هدف الكلمة من الله من أجل هداية الناس إلى الحق والإيمان، ومهمّة الأنبياء جميعاً هو هداية الإنسان إلى الله وإلى طريق الحق، فتأثيرهم على الناس كتأثير كلمة الله عليهم في الهدى.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۞ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢ـ٦٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ المسيح: أ ـ من مسح الشيء لتطهيره. ب ـ يطلق على مَن كان أحد شقّي وجهه ممسوحاً فلا عين فيها ولا حاجب.

٢ـ الوجيه: صاحب وجاهة وشرف ومقبوليّة.

٣ـ المهد: أ ـ البساط والفراش. ب ـ مضجع الطفل.

٤ـ الكهل: ما اجتمعت وكملت قوّته ونموّه.

٥ـ الإنجيل: التعليم أو البشارة في لغة بني إسرائيل.

٦ـ البرء: الشفاء.

٧ـ الأكمه: الأعمى.

٨ـ الأبرص: من البرص وهو المرض الجلدي.

٩ـ الادّخار: ما يجمعه الإنسان ويحتفظ به في مكان آمن.

١٠ـ أحسّ: ما يقع تحت الحس.

١١ـ الحواريّون: أ ـ الحور أي الخالص. ب ـ بياض الشيء.

١٢ـ المكر: الفعل المخادع.

١٣ـ التوفّي: من الوفاء وهو حفظ الشيء على صورته التامّة.

١٤ـ الرفع: مقابل الوضع، أي فصل الشيء إلى جهة العلو.

١٥ـ الذكر: ما يكون حافزاً للتذكّر.

١٦ـ المثل: الشبه.

١٧ـ الإمتار: الشك والتردّد.

● **اصطفاء مريم عليها السلام وعيسى عليه السلام**

س: اذكر قصّة ولادة عيسى وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ ... ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ج:

صورة أخرى يطرحها الله من صور اصطفائه ... صورة متّصلة الأحداث والمواقف مع ما سبقها من الاصطفاء القبلي من امرأة عمران وزكريّا ويحيى ... اصطفاء يكشف الرموز الحقيقية للإنسانية وقدوتها في الحياة ... اصطفاء النسب وحركة الارتباط بالدين مع الله ومع الناس ... فكانت مريم عليها السلام ثمرة هذا الأصل الطاهر نسباً وكفالة حتّى وصلت مستمرّة بجهاد نفسها أن تكون متفرّغة لعبادة الله وأن تكون قرينة لملائكة الله حين تسمعهم يتحدّثون معها ورزقها الذي يدرّ عليها من الجنّة بدون حساب ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾(آل عمران:٤٢)، وطهّرك من كلّ رجس مادّي ومعنوي ومن كلّ ما قاله اليهود فيك، فأنت بذلك معصومة من المعصومين.

وتبتدئ صورة جديدة واصطفاء جديد يمهّد له الله لمريم لتكون من خلاله بمنزلة الأنبياء من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران عندما اصطفاهم على العالمين ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ... فهو اصطفاء جديد لجهة جديدة ذلك حينما تكون وعاء يحمل عيسى ﷺ ... اصطفاء لا يمرّ بورود منتشرة ولا من خلال قصور زاهرة، اصطفاء لا يمرّ بضربات تؤلم الجسد، بل من خلال سهام تضرب الروح بضربات لا تتحمّلها كلّ النساء وعلى اختلاف طريقتهنّ في الحياة.

إنّه اصطفاء ينبثق من بين طهارة النسب والعلم والروح والبدن الذي بلغ أعلى درجاته ومن بين المعاناة من أقذر اتّهام يلاحقها ..إنّه اصطفاء من أجل أن تحمل بين جنباتها روح الله ليكون لبني إسرائيل مبشّراً ونذيراً ... وكلّ هذا وما سنرى يحتاج إلى توكلّ واستعداد وأخذ شحنات روحية عالية إضافيّة من الله والتصاق به أكثر تتناسب مع هذا الحمل الثقيل، وأحبّ ما يرى الله فيه الإنسان عابداً، ذلك حينما يكون سجوده وركوعه مع الساجدين والراكعين من رجال ونساء وهم مجتمعون في المسجد من دون اختلاط بينهما، فإنّ الصلاة بهذا الشكل ليضمن المصلّي من خلالها عطاء تلك الشحنات والطاقة الروحيّة ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

يا رسول الله محمّد ﷺ، إنّا ننقل لك هذه النماذج من الاصطفاء وبهذه الدقّة والصدق والأمانة نقلاً لا ينقله حتّى مَن اطّلع عليه؛ لأنّ نقلنا يشمل العمل ودوافعه في ظاهره وخفاياه، وهذا لا يقدر عليه إلّا عالِم الغيب والشهادة ذلك هو الله، هذا مع البُعد الزمني بينك وبين ما ننقله لك من المواقف والأحداث بشخصيّاتها ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. فكما لم تكن بجانب الطور ولا بالجانب الغربي لتسمع تكليم الله لموسى ونزول التوراة عليه كذلك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، فيا رسول الله محمد ﷺ، أنت ناقل للأنباء ومَن قال: إنّك مؤلّف للآيات فقد كذب. يا رسول الله محمد ﷺ، إنّ ما تنقله لك من أنباء الغيب فهو الصدق لا ما كتبته أيادي التحريف وتنقله على أنّه توراة أو إنجيل، فخذوا ممّا يكتبه النقل الصادق من القرآن وسيّد الكتب السماويّة، وها هي ولادة عيسى تنقلها كما هي ولبعضها المهم منها لتكون حجّة على الذين جعلوا عيسى إلهاً أو ابناً له، تنقلها من عالَم الغيب على لسان الوحي جبرئيل وبخطّ رسول الله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾(مريم:١٦).

نزلت الملائكة على مريم ولم يكن نزول تسلية أو لجلب رزق لها هذه المرّة، بل نزلت الملائكة على مريم وهي تحمل بشارة الله الكبرى اتزفّها إليها في أنّ هناك فعل من الله وشخصيّة منه ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾، وأنّ تلك الشخصيّة والذات هو ذَكَر من الذُكور وأنّ له أسماً من الله ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾، واسمه المسيح؛ لأنّه ما تمرّ يده وتمسح على ذي عاهة ومرض إلّا ويبرأ، أو إنّه سيمسح الأرض كناية عن أنّه سيجوب البقاع مشياً، وأنّه سيولد منك ويكون ابناً لكِ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ .

ولم يكن عيسى من الناس العاديين بل له وجاهة في الدنيا؛ لأنّه سيكون سيّدهم ونبيّهم وصاحب المعجزات والبركات، وفي الآخرة كذلك؛ لأنّه من وجهاء يوم الحساب فيشفع لمَن يريد ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وله معجزاته الكثيرة من الله حيث ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لمّا كانت البشارة من الله وإنّ قرار الفعل كلّه من الله، رفعت مريم رأسها إلى الله تسأله بكلّ عطف وحنان يملؤه الاستغراب ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فجاءها الجواب منه ﴿قَالَ﴾؛ لأنّها سألته ولكن بواسطة ملائكته،

وجواب الله لها كان يجري في الجهتين:

الأولى: الجهة العامّة الصريحة، وهو أنّ فعل الله لا يسير ضمن اتّجاه واحد وضمن القانون الطبيعي دائماً فهو المختار وهو القادر، ففعله مطلق ويسير ضمن القانون الطبيعي وغير الطبيعي إذا رأى الحكمة في ذلك ﴿كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وكل الأمر والفعل يرجع إليه سبحانه ولا تتعلّق قدرته وإرادته على شيء ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثانية: الجهة الخاصّة المستبطنة، وهي أنّه يا مريم، إنّ أمر ولادتك لعيسى قد انتهى لأنّه وقع تحت قضاء الله وأنّه لابدّ أن يكون من دون تخلّف أبداً، وما عليك إلا الاستماع لما تنقله الملائكة.

واستمرّت الملائكة تكمل صفات الوليد ومريم مستسلمة لقدر الله وهي تصغي إلى ما تنقله الملائكة ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ... كملت البشارة وفرحت لها مريم وعكست تفكيرها بصعوبة الأمر من خلال مضاعفة جهدها بعبادة الله ركوعاً وسجوداً وقنوتاً كما أوصاها وأمرها الله بذلك لتذخر منها قوّة واستعداداً للمستقبل المجهول المذخورة لها في أن تقف أمامه موقف الصامد الذي يجعلها بمستوى في أن تكون أهلاً لتحمل مسؤولية هذا الوليد الذي نقلت الملائكة لها صفاته.

ومرّت الأيام وهي على هذه الحالة وهي لم تعلم متى وكيف ستلد، هل من طريق طبيعي وزواج، أم أنّه عن طريق غير طبيعيّ لا علم لها بذلك حيث جاءتها البشرى من دون تفصيل وإشارة إلى ذلك؟ نعم، جواب الله لها كان يوحي بذلك وأنّها عالمة بحيث عرفت أنّ الله عندما ابتدأ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني أنّه سيجيء بطريق غير طبيعي، فإذا كانت مضطربة التفكير في ذلك فإنّها ترجّح الطريق غير الطبيعي، ولكن

كيف ومتى وأين لا علم لها بذلك؟!

ومرّت الأيّام والسنون وفي ذلك المكان الشرقي للبيت المقدّس كانت لمريم ساعات تقضيها هناك في مكان مؤمَّن من ناحية الناظرين ،ممّن هو قريب عليها، وأمّا البعيد فليس له شغل في مريم إلّا من خلال زكريّا فهو باب اللقاء مع مريم ... مكان معروف لمريم فلا أحد يتقرّب منه حيث السماء والزرع الأخضر وطبيعة بلاد الشام الخلابة الذي تتسلّط نظرات مريم عليه ... ومن أجل تنبيه الغافلين من المارّة كان هناك حاجز وحاجب يحيط بالمكان ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً..﴾ (مريم:١٦-١٧).

لم يكن المكان لمريم يمثّل حالة ترفيه تنشر مريم أحلامها من خلاله لتطلق خيالها كما يطلقه المترفون، كلا وإنّما كان ذلك المكان لتصهر مريم فيه جمالها بجمال الله من خلال نظراتها إلى ما تركته الطبيعة من جمال، تفكّر في آلاء الله ونعمه، تفكّر بتفكير الأنبياء وهم محجوبون عن غيرهم في خلوة مع الله، تفكّر ماشية مرّة وجالسة أخرى وتتجوّل بكلّ اطمئنان وحريّة حيث لا ناظر تخشى منه مريم لأنّها مريم، وفي مكانها الخاص وهناك حجاب يستر عنها النّاظرين، ولم تفكّر أنّ في يوم ما يحدث حدث غريب في مكانها لطبيعة وضعها ومجتمعها وقانونها ومنزلتها وغيرها من الأمور التي تمنع من وجود أضعف احتمال في أن يدخل عليها رجل غريب ومن دون إذن، وفترة سيرها الماضية سائرة على ذلك.

وفي يوم مُشرق دخلت مريمعليها السلام كعادتها إلى مكانها الشرقي، وانطلقت مريم مشغولة التفكير والنظر وأخذها العمق فيهما حتّى أصبحت في جوّ لا يعرفه ولا يحسّ بطعمه إلّا العرفاء بالله ... وفي ذلك السكون التام والصفاء الروحي لم تحس مريم إلّا ورجل غريب واقفاً أمامها ! لم تأخذها مفاجأة الموقف الذي يأخذ النساء

منهنّ من الخوف والفزع والارتباك الجسمي وارتعاشه ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾(مريم:١٧)، ولم يأخذها الهروب لتلتجئ إلى أحد من النّـاس، ذلك لأنّها تعيش اليقين مع الله وأنّها على يقين من أنّها تحت كفالة الله وحمايته تعيش منه قريبة ويكون قريباً منها، فهو خير حام وهو خير قدير ولهذا لم ترد على ما ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ﴾(مريم:١٨)، فهي لم تقل: أعوذ منك بالرحمن. بل قالت: أعوذ بالرحمن حيث الرحمن مصدر قوّتها الأوّل والأخير فهو لجوء مباشر إليه ولا نظر لسواه، فاليقين بالحقّ وحقّ اليقين يعطي هذه المواقف العظيمة على بداهتها لحاملة، وأنّ في جوابها صورة أُخرى تحمل العلم إضافة إلى التقوى ذلك حـين أضـافت الشرط إليه ﴿إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾(مريم:١٨)، فإنّ الاستعاذة بالله واللجوء إليه والاعتصام به لا يقيّمه ولا يخشى منه إلّا من كان تقيّاً فيكون رادعاً له إن كان يحمل غرضاً سيّئاً، وفي نفس الوقت تكشف من هذا الخطاب أنّ مريم أرادت أن تكشـف شـخصيّته وغرضه والدافع الذي جاء به إلى مكانها الذي تتفرّد فيه مريم، في الوقت الذي لم تمسّ الرجل بشيء يسيء إليه حيث دخل من دون إذن منها وأمامها وعلى غفلة منها وهي امرأة على ما عرفت من علوّها في كلّ جهات الخير والشرف والطهارة.

ويمكننا أن نكتشف شيئاً آخر من هذا الخطاب، وهو أنّ مريم قد رجّحت أنّ الذي أمامها هو رجل من المتّقين اعتماداً على علامة تـوجب التـرجـيح؛ لأنّ الله عندما أرسل جبرئيل متمثّلاً لها بأنّه بشر رجل كامل سوي وأرسله لذلك المكـان الذي يعلم الله أنّها وحدها وأنّها مريم التي لابدّ أنّه سبحانه قـد راعـى مشـاعرها وأحاسيسها بتمثيل الرجل الذي وقف أمامها، فهي قد رأته بما ينسجم مع الخُـلق الربّاني للتمثيل لا مطلقاً، كأن يكون وقوفه بعيداً عـنها مـنحني الرأس مـتواضـع الوقوف خاشع البصر مع روح جبرئيل المتمثّل أمامها، وكلّ ذلك وغيره يجعل مريم

بحيث لو نظرت إليه رجّحت فيه عنصر التقوى قبل غيره ابتداءً، وجبرئيل هو الآخر لم يتأخّر بالجواب بل ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾(مريم:١٩)، صدقته مريم مباشرةً لما كانت تعيش في ذهنها وقلبها وكلّ مشاعرها بشارة الملائكة لها سابقاً، وأنّ ما ينقله هذا الرسول هو نفس ما نقلته البشارة الأولى إليها، بالإضافة إلى أنّ ما قاله جبرئيل بأنّ الذي ترينه أمامك لم يكن رجلاً واقعاً بل تمثّل لك ذلك نتيجة ما أثّر على ذهنك، أما الواقع الخارجي فأنا مَلَك من الملائكة وأنا رسول ربّك إليك، وإنّ دور هذا الرسول هو المنفّذ لما بُشّرتي به، وأنّه يريد أن يحوّل البشارة إلى فعل، فإذا ظلّت البشارة هذه السنين التي مرّت إنشائيّة فالآن قد جاء دورها الفعلي حيث قال لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ وهو رسول رحمة من ربّ رحيم ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾(مريم:١٩).

ولكن كيف ستهب لي هذا الغلام وأنّ الطريق الطبيعي له هو امتزاج بين الرجل والمرأة، فأمّا من طرف الرجل حيث لم يكن رجل مسّني مطلقاً، وأمّا من طرفي كامرأة فلم أكُ يوماً قد دار في ذهني الحاجة حتّى أكون ممّن تطلب النكاح ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾(مريم:٢٠)، فلا تأثير خارجي ولا واعز نفسي فلا يبقى طريق لذلك الآن إلّا الطريق غير الطبيعي وهو طريق المعجز، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾(مريم:٢١). نعم، هو كما توصّلت إليه، إنّه طريق غير طبيعي ولا يأخذك الاستغراب أو العجب في ذلك؛ لأنّ كلّ طريق يسلكه الله هو هيّن وبسيط عليه سبحانه، وأنّ الطريقين الطبيعي وغيره كلّه معجز لأنّه إيجاد من العدم إلى الوجود، وأنّ ما تريد أن تقوم به أبسط من ذلك؛ لأنّ عيسى قد خلق وأنت مخلوقة فالعمليّة التي تريد أن تقوم بها ما هي إلّا انتقال موجود في موجود ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾(مريم:٢١)، وهذه العمليّة لا حاجة لنا بها، وإنّما هي من أجل النّاس لتكتمل

عندهم صورة القدرة الإلهيّة المطلقة التي منها أنّ الله سبحانه وتعالى كما خلق آدم من دون أبوين فإنّ بإمكانه أن يخلق عيسى من دون أب ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ (مريم:٢١).

هذا بالإضافة إلى الرحمة التي سيحملها هذا المولود معه للناس قال: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، وإنّه أمر لابدّ أن يكون لوقوعه تحت قضاء الله فلم يكن أمامك إلّا الاستسلام لأمره وقضائه ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ (مريم:٢١)، وفي كلّ هذا الأمر ما دوري إلّا ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ (مريم:١٩)، وما دوري إلّا ناقل لكلام الله ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ (مريم:٢١)، فأنا الآخر مثلك لا علم لي بالكيف والقدرة. نعم، أنا منفّذ لأمر الله بما زوّدني من قابليّة بحيث أكون آلة في نقل قدرته ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾ (مريم:١٩) .

اسلمت مريمعليها السلام أمرها لقضاء الله واستعدّت لتحمّل المسؤوليّة بكلّ صبر وثبات، أسلمت وهي تحاول أن تنسى مجتمعها الذي لا يخلو من حاسد أو منافق أو عدوّ يتربّص لها أو صاحب عقل متحجّر، فإنّ علمها بمجتمع بني إسرائيل مليء بذلك ... مريم التي أحصنت فرجها قد أحسّت بهزّة في بطنها وهي في حالة استسلامها لقضاء الله، ذلك عندما نفخ الروح الأمين بنفخة التكوين بإذن الله ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ (التحريم:١٢)، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ (الأنبياء:٩١)، نفخة الروح من الروح بروح دخلت عن طريق فرجها إلى بطنها فاستقرّ روح الله عيسى في بطنها ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ (مريم:٢٢).

ذهب الرسول وذهبت هي إلى غرفتها لا يعلم سرّها إلّا الله، وهي ما بين السعادة والحيرة، فحينما تنظر إلى السماء وتتذكّر ملائكة الله وحركة أنبيائه ورسله وكتبه،

وهذا المستوى الإيمانيّ الروحي، وهذا الخط النوراني الذي من أجله خلق السماوات والأرض وما بينهما تغمرها السعادة والفرح حيث أوجد الله لها موقعاً فيه بمستوى يطمح إليه كلّ المؤمنين والمؤمنات بأقلّ منه عند الله فتزداد مريم خشوعاً وعبادة وتضرّعاً شكراً لله أن اختارها لهذا الموقع ولهذه المهمّة بالخصوص دون غيرها ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٤٢).

وعندما تنظر مريم إلى الأرض وترى من حولها تزداد حيرة وخوفاً ممّا ستواجهه من عقول بني إسرائيل، وخصوصاً أنّ الظاهرة التي ابتليت فيها مريم لم تجد لها شبيهاً مسبقاً ليخفّف عنها المعاناة التصدي والمقاومة لما سيحدث عليها، بل هي الظاهرة الوتر قبلاً وبعداً ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:٩١).

وكلّما تمرّ الأيّام أكثر كلّما تزداد الأمور تعقيداً على مريم حيث تجد بعض النساء أنّ حركة مريم على غير طبيعتها وأنّ علامات الحمل تظهر عليها يوماً بعد يوم ممّا تزيد الجوّ وجوماً وارتباكاً، وخصوصاً على المقرّبين لبيت المقدس وسدنته حيث يرون من مريم رمزاً من رموز مفاخر عزّهم وشرفهم وكبريائهم الاجتماعي والديني وأنّ فيهم الرشيد الحليم وفيهم على العكس من ذلك.

وما أن مرّت بعض الشهور حتّى تيقّن الجميع بحمل مريم من غير زوج ... ويزداد الأمر خوفاً واضطراباً على زكريا الذي بقي هو المدافع الوحيد من النّاس عن مريم ويذود عنها بعدما أفشت سرّها إليه دون غيره ... ويزداد الأمر سوءاً على مريم وهي ترى بعض النساء يهربن منها ولا يتقرّبنّ إليها، لأنّها أصبحت محل تهمة لا تتحمّلها أبسط النساء ....وليس أمام مريم إلا اللجوء إلى محرابها لتصبّ حرارة دموعها بين يدي ربّها لتستمدّ القوّة والعون من خلال لجوئها إليه.

وبقيت مريم تقاسي هذه المعاناة وهي تدخل شهرها السادس، وقد صعدت

حدّة التوتّر ضدّها حتّى وصلت الخطورة إلى ذروتها، وأخوف ما تخاف مريم عليه هي نفسها لا لذاتها وإنّما كمهمّة رسالية ألقيت على عاتقها لتخرج فيها بنجاح، فإنّها تحمل رحمة الله لبني إسرائيل أمانة في بطنها لتقدّمها إليهم سالمة صحيحة تامّة وأنّ كلّ مسؤوليتها وفوزها وتمييزها عن نساء العالمين متوقّف على ذلك، ولهذا عندما وصلت المرحلة إلى هذه الدرجة من الخطورة كان لزاماً على مريم عليها السلام أن تتّخذ موقفاً يلائم المحافظة على ما تحمله من خلال المحافظة على نفسها.

خرجت مريم من غرفتها ومدينتها خفاء وهي متستّرة بظلام الليل بعيدة عن عيون المدينة النائمة، خرجت وقد وجّهت وجهتها لله مفوّضة أمرها إليه لا تعلم المسير ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ (مريم:٢٢) ... وما أن أصبح الصبح إلّا وازداد الأمر سوءاً على زكريا الذي أصبحت أصابع الاتّهام تُشار إليه وسهامه تصبّ عليه... ومريم وحدها تصعد جبلاً وتهبط وادياً نهاراً ثمّ ليلاً وهي بنت حامل تبحث لتجد مأمناً ولا مؤمّن لها في تلك الغابات وبطون الوديان إلّا الله ... فهي إن تخلّصت من مؤامرات أهل المدينة عليها فقد واجهت مخاوف الطبيعة ووحشة الوحدة.

وتسير مريم وكلّ يقينها أنّ الوقت الباقي للحمل في بطنها هو أكثر من ثلاثة أشهر كما هي مدّة بقاء الحمل الطبيعي للنساء ...هي وإن كانت مطمئنّة برعاية الله وحفظه ولكن أين تقضي هذه المدّة، وكيف تقضيها وهي وحدها تجوب هذه الطبيعة المخوفة المجهولة المصير ولا أحد بجنبها يسلّيها ولا بيت موجود تلتجئ إلى أهله، فهي تفكّر بكل هذه الأمور كما يفكّر فيها أي بشر حتّى لو كان يمتلك تجربة السير في مثل هذه الأجواء، ولكنّ لله حساب آخر ومقادير أخرى من غير أسبابه الطبيعيّة ... فمريم وهي تنتقل من مكان إلى آخر حتّى وصلت إلى جذع نخلة جاءها ما لم يكن بحسبانها ففاجأها مثل هذا المجيء بوقته النادر ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ

النَّخْلَةِ﴾(مريم:٢٣) ... سندت ظهرها إلى جذع النخلة وبدأت بحركات الطـلق، ولا يحسّ بألم الطلق إلّا النساء اللواتي مررن به، بل وإنّ ما تمرّ به مريم لهو أكثر ألماً من كلّ ما مرّت وتمرّ به النساء بهذه الحالة، حيث أنّها لا زالت محصنة لفرجها وهي حامل، وإنّها وحدها، وفي ذلك المكان الموحش، ولم تكن لها تجربة سابقة، ولم يوجد ما تستعين به من الآلات، وكلّما ازداد الطلق قرباً كلّما ازداد صراخها من ألم الطلق ... ووصل أمر الألم بها حتّى أنّها لو خُيّرت بين هذا الطلق وبين الموت وأن لم تكن شيئاً يذكر لاختارت الموت وأن تكون نسياً منسيّاً، فإذا كان في الموت أن يتجرّع الإنسان فيه مرارة واحدة فهي تذوق مراراته مرّات ومرّات في عملية الطلق هذه، وأن تكون نسياً منسياً ولا شيء يذكر حتّى لا تمر بهذا الطلق الذي تمرّ بـه الآن ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيّاً﴾(مريم:٢٣)، ووصـل الطـلق والألم إلى ذروته وهاهو الوليد قد بان من بطنها عند ذلك جاءتها رحـمة الله مـن خلال سماعها لوليدها وهو يكلّمها الذي أنساها كلّ الألم والحزن ﴿فَنَادَاهَا مِـنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي﴾(مريم:٢٤).

ورد عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال: «لم يولد لستّة أشهر إلّا عيسى بن مـريم، والحسين بن عليّ‌عليه السلام»(١) ... وإذا كانت الملائكة مسلّية لها بالأمس فقد جاءها اليوم ما هو بديل عن الملائكة في تسليتها، وإذا كانت الملائكة ورسل الله بالأمس تنقل إليها ما يريده الله منها فاليوم قد جاءها نبي الله ورسوله فهو الذي ينقل إليها ما يريده الله منها.

ولم تستغرب مريم أو يأخذها العجب من كلّ ذلك؛ لأنّ تفصيل ذلك قد نقلته

---

(١) الكافي ٤٦٤:١/٤.

بشارة الملائكة لها قبلاً، فهي مؤمنة ومصدّقة بعيسى قبل وبعد ولادته ...وهاهو الرسول المبارك يخبرها ويريها أوّل المعاجز لتسليتها وليذهب عنها ألم الحاضر وحزن التفكير في المستقبل، فقد ضرب برجله الأرض وهذا هو النهر قد جعله الله من أجلك لا تحتاجين إليه سعياً ولم يكن عميقاً يخاف الدخول فيه فقد جعله الله أخفض منك وتحتك ﴿لَقَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ (مريم:٢٤)، فانزلي فيه واغتسلي ممّا أصابك من غبار المشي بهذه المدّة، واغسلي عرق الطلق الذي أصابك، واغسلي لتشعرين بالراحة، واغسلي ما أصاب ثيابك من هنا وهناك، واشربي من هذا النهر ما تريدين أن تشربي ... ففعلت وامتثلت ما قال لها، وبعدها شعرت بالراحة التي أذهب عنها كلّ المشقّة ... وعندما شعرت براحة البدن والتفكير قال لها عيسى وقبل أن تحس بالجوع والضعف ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ (مريم:٢٥)، نظرت مريم إلى النخلة فإذا هي يابسة ميّتة، بل حتّى لو كانت النخلة خضراء فهل يقدر الرجال الأقوياء على هزّ جذع النخلة حتّى تتمكّن هي على هزّها، فهي امرأة وقد أخذ الجوع والنفاس وسير الطريق ووحشته مأخذه منها، ولو فرضنا أنّها تمكّنت من هزّ الجذع فهل الرطب يسقط بمجرّد الهزّ أم أنّ رطب النخل يحتاج إلى عمليّة أصعب من ذلك ليتساقط؟!.

ومن كلّ ذلك وغيره عرفت مريم أنّ أمر عيسى ما هو إلّا إخبار عن إعجاز آخر يقدّمه الله من أجلها لا يحتاج إلّا إلى هزّة من يدها ليحقّق الله المعجز في نفس مريم ولتكون عملية الهز مع تساقط الرطب عليها تسلية يدخل الفرح على قلبها والابتسامة على شفتيها وتنتشر ضحكات الفرح من فمها الطاهر. وحصل ما كان يريده الله لها ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ (مريم:٢٦).

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به

أفضل من الرطب، قال الله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾» الآية[1].

وبادرها الوليد عيسى عندما رآها قد استقرّ بها الحال وهي تريد أن تفكّر بالرجوع إلى قومها ومدينتها فقال لها: عندما تريدين الرجوع بي إلى القوم سوف لا يتركونك من دون طرح إشكالات وتهم وهم يرونك قد جئت بوليد من دون أب له، وتصدّيهم هذا أمر طبيعي الوقوع لغرابة القضيّة، وردّ تصدّيهم لا يمرّ عبر الدليل والبرهان النظري لأنّ أمر هذه الولادة غيبي صرف، ومهما حاولتي أن تدخلي الصدق عن طريق الإخبار لهم بأنّ سبب ذلك هو من عالم الغيب فلا يصدّقونك إلّا القليل منهم لثقتهم بك لا لكونهم هضموا القضيّة وأنّها أمر معجز.

هذا بالإضافة إلى ضعف هذا الطريق، لأنّ الاتهام لا يسقط إلّا من القليل الذي قد يكون لا أثر له فيرجع الاتّهام كما كان ويبقى كما هو، كما شاهدت نموذجاً منه عندما كنتِ بينهم وأنت حامل بي حيث لم يصدّقوك، ولهذا أنّ رد تصدّيهم واتّهامهم يحتاج إلى صدمة قويّة وصعقة تسكتهم فلا رادّ لهم إلّا المعجز، ولا يثبت هذا المعجز إلّا بمعجز آخر بحيث لا يحذف الاتّهام عن أذهانهم وقلوبهم فحسب، بل يحوّله إلى أمر مقدّس متّصل بعالم الغيب كما هو عليه واقعاً.

وبما أنّ مصبّ الموضوع وكلّ المقدّمات التي حصلت لك هو من أجل عيسى فلذلك تكون هذه المهمّة موكولة لي، فأنا الذي أكون مسؤولاً عن طرح المعجز أمامهم وما عليك إلّا السكوت في ذلك اليوم الذي تتجمّع فيه الناس وهم يلقون اتّهامهم وحججهم عليك، وعليه ومن أجل أن تؤدّي السكوت جيّداً اجعليه نذراً لله

---

(١) وسائل الشيعة ٢٥: ٣١/٣١٠٧٧.

وأنّ ذلك من الأمور المباحة فيصح النذر به ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ (مريم:٢٦).

ورد عن الإمام الصادق؈ أنّه قال: «إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده ـ ثمّ قال ـ: قالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ أي صوماً صمتاً، فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم ...»[١].

تناولت مريم؈ وليدها بعد أن سمعت أوامره فهو حجّة الله عليها، وبدأت تشق طريقها إلى المدينة وهي على ثقة بنصر الله لها، واضعة وليدها تحت قماش خمارها الطويل ... وهاهي يشرف وصولها إلى أبواب المدينة، وكلّما قربت أكثر كلّما ازدادت خطاها ثباتاً ودفعاً للأمام ... وهاهي قد رآها أحد الأشخاص من بعيد وهي قادمة، ذهب إلى قومه فناداهم بقدوم مريم، تجمّع الناس مع قياداتهم الدينيّة والعشائريّة وكلّ يخبر الآخر بقدوم مريم. وهاهي مريم تشاهد الناس وهم مضطربون بحركاتهم ونظراتهم الحادّة، وبعضهم يحبسون دموعهم الرؤوفة على مريم خوفاً وخصوصاً أولئك الضعفاء الذين كانت مريم ملجأ لهم ...رفعت مريم رأسها بنظرات إلى السماء وقالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ (مريم:٢٦)، ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم:٢٧)، وهي تشقّ صفوفهم تتقاذفها الكلمات اللاذعة التي تخترق أذن أقرب الناس إلى الله وأطهر من طاهرهم ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ (مريم:٢٧).

دخلت غرفتها وقد إنشغلت بشغل يختلف عمّا هو مشغول به الناس بموضوعها وما سمعته منهم، حيث هي الآن مشغولة في صنع مهد للطفل وتحضّر لما يحتاجه

---

(١) الكافي ٤:٨٧/٣.

الرضّع من التجهيزات وترتيب أمورها المنزليّة التي تركتها لعدّة أيّام، فإنّ صعوبة الموقف لا يمنعها بأن تسلك بسيرها المطلوب منها وضمن أسبابه الطبيعيّة.

وهي على هذه الحالة إذ دخل عليها جمع غفير من قادة الناس وممثّليهم من كلّ جهة بعد أن اتّفقوا جميعاً على سؤالها ... دخلوا عليها وهم ما بين مَن يريد أن يعرف الحقيقة ومنهم الشامت الذي لا يقطر منه إلّا حقداً عليها، ومنهم الجاهل الذي سيطرت الأعراف والتقاليد عليه من دون علم ورويّة، وهاهم الآن وقد ظفروا بها وجهاً لوجه بعدما لم يقدروا على مواجهتها وجهاً لوجه وهي حامل لوجود زكريّا المدافع عنها وكفيلها، وهاهم يتجاوزون زكريا حيث جاءت مريم بطفل فلا ينتظرون إلّا الانتقام لما جاءت به مريمعليها السلام، فانبرى أحد كبرائهم من دون أن يقدّم لانتقامه كلمة مؤدّبة تعكس وجود حسن الظنّ بها في قلبه ولو قليلاً، دخل مباشرة بكلمات الاتّهام المتوقّع ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم:٢٨)، هل هذا الخطاب كناية كان يستعملونه لمدح حيث هارون رجل من الصالحين فأصبح مضرباً للمثل؟ أم كناية للذم باعتبار أنّ هارون كان من أهل الفحش والفساد حتّى أصبح مضرب مثل يستعملونه للذم؟ الله أعلم بذلك. يا مريم، يا أخت هارون ما كان عمران إلّا نبيّاً من الصالحين وما كانت امرأته من الباغيات الفاسدات ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ (مريم:٢٨)، فإنّ دلالة الاتّهام واضحة، وقد فهمتها مريم ذات الطهارة والشخصيّة الربانيّة العالية.

تماسكت دموعها لمثل هذا الاتّهام وأن تكون بهذا المستوى من الدناءة في نظرهم وهي تعلم أنّها على نذر بالسكوت ... ساكتة من التكلّم ولكن كلّ عضو من أعضائها تضطرب ثباتاً وتثبيتاً للحق المتيقّنة حدوثه، فكانت أغلب جوارحها تشير إليه حتّى رفعت إصبعها بشكله الانسيابي الهادئ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ (مريم:٢٩).

لم ينظروا إلى ما أشارت إليه لعلمهم أنّه ابن يومين أو ثلاثة أيّام، فماذا يستفيدون منه، بل ظنّوا أنّ مريم لا تزيدهم إلّا إهانة واستصغاراً ولامبالاة بهم حين تحوّل جوابها إلى وليدها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(مريم:٢٩). سكتوا ولم يحكِ منهم إلّا الغضب الصاعد الذي ترى شرارته في أعينهم المتسلّطة على مريم ... ومن بين ذلك الوجوم انبرى الوليد بكلمات النور والحجّة الساطعة بعدما سمع كلّ ما دار من الحديث وقذف الاتّهامات منهم على أمّه الطاهرة البريئة، بدأهم بكلمات ليس لها علاقة بإثبات ولادته فإنّ نطقه وهو بهذا العمر يكفي في تحقيق البراءة، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾(مريم:٣٠). كلمات العجب والاستغراب تجلب انتباه القوم ونظراتهم وتهزّ كلّ وجودهم إليها، وتمتلك حركاتهم وهم يقتربون إليه، وتفتّحت أسماعهم وأبصارهم على أوسع أبوابها وهم يصغون إليه، كلمات لا تثبت المعجز فحسب، بل تلزمهم بالطاعة له ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(مريم:٣٠).

إنّ لغته لغة الأنبياء العظيمة التي تخبرهم بالخير والبركة التي سوف تنزل عليهم ببركة وجوده بينهم، وأنّ الخير هي الصفة الثابتة بالنسبة إلى ما يصدر منه فلا يصدر منه إلّا ما فيه الخير والبركة؛ لأنّ البركة هي صدور الخير واستقراره ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾(مريم:٣١) ... وأنّه موصى من قبل الله بما أوصى الله بقيّة الأنبياء به بأحب الأمور إلى الله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(مريم:٣١)، وأخذ ينزّه ساحة والدته من أي اتهام. فهذا عيسى النبيّ قد أمره الله بأن يبرّ والدته وألزمه أن يقدّم كلّ الإحسان إليها ولا يكون عاقّاً لها، فإنّ عقوق الوالدين من علامات الجبّار الشقي ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾(مريم:٣٢-٣٣) ...

وأنت ترى أنّ عيسى يفصّل في الكلام وقد تحدّث عن حياته بأروع الإجمال

ليركّز المعجز في نفوسهم، وهم يسمعون أنّ الكلام يصدر منه على الحقيقة حتّى لا يبقى شك في نفوسهم، وبهذا الكلام برّأ عيسى والدته وأخبرهم بمستقبل حياته في أنّه نبيّ من الأنبياء، وأنّ سيرته سيرة الأنبياء، وأنّه سيكون من حملة الكتاب الجديد.

وما أن انتهى الوليد عيسى من كلامه إلّا وقد خرج الجميع وهم ينشرون ويبثّون يقينهم للناس بما رأوا وما سمعوا، وراح البعض يقدّم اعتذاره إلى ذلك الرجل النبي زكريّا الذي أخذه الكبر وهو يتلقّى اعتذارهم بكلّ انشراح صدر وقبول فهو حجّة الله لهم.

هذه هي أهم الأحداث لقصّة ولادة عيسى وهذه هي حقيقة عيسى ينقلها الله لكم كما هي وبكلّ صدق وأمانة ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ (مريم:٣٤)، وانتهت فترة الولادة لعيسى وانتهت فترة رضاعته حتّى كبر عيسى والله يلهمه العلم والحكمة ويعلّمه ما في التوراة وواعده بالإنجيل ككتاب من الله ينزله عليه، وأمره بأن يصدّق بالتوراة التي نزلت على موسى وهو في الميقات ككتاب تشريع وأن يحمل الإنجيل الذي فيه نسخ بعض أحكام التوراة التي شقّت على اليهود بسبب ظلمهم، وفيها الحلّ لأهم الأُمور التي اختلف اليهود فيها لمدّ يد التحريف إلى التوراة التي جعلتهم مختلفين.

ويبتدئ عيسى بالعمل كرسول لبني إسرائيل بعد أن هيّأه الله لذلك وبعد صمت من كلامه وهو في المهد مدّة دامت سنوات، وصار مستعدّاً بعد أن منحه الله المعاجز التي تثبت صدق دعواه، نزل عيسى إلى الساحة ليعرّف نفسه كنبي من الأنبياء وهو في مقتبل العمر والجسم وعمق في الفكر والتقوى، وكان أوّل مَن آمن به وصدّقه قبل ذلك هو النبي يحيى﵇ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (آل‌عمران:٣٩) ... وكان عيسى

يدعو الناس إلى طاعة الله وطاعته باعتباره نبيّاً رسولاً بعثه الله إليهم جميعاً ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران:٤٩)، وكان يدعوهم إلى التصديق بنبوّته من خلال ما يعرضه من المعاجز ...﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (آل عمران:٤٩).

شاهدوا أيّها الناس، هذا تراب أجمعه وهذا ماء وها أنا ذا أخلطه وأمزجه ليكون طيناً، ثمّ ها أنا ذا أُشكّل منه مجسّماً يشبه الطير ﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ (آل عمران:٤٩)، فانظروا إليه ليس هو إلّا طيناً وتراباً مهيّأ على هيئة تشبه الطير، ويشاهده الكلّ ويلمسه الكلّ فهو كما يقول عيسى، والآن أنظروا إليه فإنّه بنفسه سيكون خلقاً آخر وطيراً حقيقيّاً، وذلك لم يقدر عليه أحد من الناس وأنّه من فعل الله، نظر الجميع إلى عيسى وهو ينفخ بنفخته التكوينيّة التي أفاضها الله عليه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩)، حتّى صار الطين طيراً بإذنه، وقد شاهد الجميع حقيقة الطير الجديد وهو يطير بين أيديهم وفوق رؤوسهم، وقد يكون الطير متعدّداً وليس بواحد؛ لأنّ الطير يصدق في الحالتين، وذهب الجميع وهو يتحدّث عن معجزة عيسى.

ويستثمر عيسى موقفاً آخر حين يدخل على مجتمع ويأتيه مرضى الناس فيداوي الأكمه الأعمى منهم وكذلك الأبرص صاحب المرض الجلدي وغيرهم، فبمجرّد أن تمرّ يده المباركة على المريض إلّا ويشفى من مرضه ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾، بل تجتمع النّاس لمهمّة مختلفين عليها لقتيل أو ميّت لهم ويمرّ عليهم عيسى ليحلّ مشكلتهم بإحياء ذلك الميّت ليدلي الذي كان ميّتاً بشهادته أو يخبرهم بما يريدون أو ليخبرهم بعالم الموت وما شاهده فيه ليعمّق عيسى في نفوس النّاس عالم الغيب والشهادة من خلال المعجز ومن خلال ما يخبر به الميّت بعد الإحياء ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، فيقف عيسى بعدما يتأكّدون من موت ميّتهم ويبدأ عيسى بمسح

يده على بدن الميّت أو على قبره فتترشّح قوّة الحياة من الله على يديه ... وعيسى عليه السلام يكرّر بأنّ الذي يقوم به هو ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، ليضرب عمليّة الغلو الذي قد يقع فيها بعض الناس في الآن أو في المستقبل ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (غافر:٧٨).

وإذا كانت هذه الآيات الأربعة نموذجاً للمعجز المختصّ بالفعل، فهناك آية ومعجز أخر مختصّ بالقول والإخبار، وإذا كانت تلك الآيات هي سحر كما تقولون، فهذه آية أُخرى ليس للسحر علاقة بها أصلاً حيث من دون سابق خبر أو علم أو أيّ شيء اعتمد عليه فأنا أخبركم بما تأكلون الآن وأنتم في بيوتكم وأخبركم بما تدّخرونه في خفايا بيوتكم ومخازنكم التي لا تحبّون أن يطّلع عليه أحد، ولم يكن ذلك إلّا باستعانة عالم الغيب ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران:٤٩).

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ عيسى كان يقول لبني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم وإنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرئ الأكمه والأبرص، والأكمه هو الأعمى، قالوا: ما نرى الذي تصنع إلّا سحراً، فأرنا آية نعلم أنّك صادق، قال: أ رأيتكم إن أخبرتكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ـ يقول: ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا وما ادّخرتم بالليل ـ تعلمون أنّي صادق؟ قالوا: نعم، فكان يقول: أنت أكلت كذا وكذا أو شربت كذا وكذا ورفعت كذا وكذا، فمنهم مَن يقبل منه فيؤمن، ومنهم مَن يكفر وكان لهم في ذلك آية إن كانوا مؤمنين»(١).

---

(١) تفسير القمي ١: ١٠٢.

وكان عيسى يحمل هذه الآيات الخمسة بل وغيرها أين ما يذهب ليدعو النّاس إلى التصديق به كنبي لهم، وأنّ اليهود يؤمنون بعالم الغيب ويؤمنون بالله ومبشّرين من قبل موسى وغيره من الأنبياء بولادة عيسى وبعثته، وأنّ التوراة هي الأُخرى تنقل تلك البشارة وما عليهم إلّا أن يؤمنوا بعيسى ذلك لمَن يؤمن بالله وبأنبيائه ويطلب رضا الله ويخضع لأوامره، وأنّ الإيمان بعيسى والتصديق به أحد أهم أوامر الله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:٤٩)، وعيسى هو الآخر مؤمن بالتوراة وحامل لها كما حملها موسى وما عيسى إلّا مصدّق للتوراة الذي هو كتابكم الذي تؤمنون به ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾(آل عمران:٥٠)، وأنّ عيسى هو الموضّح لما موجود في التوراة لما ألهمه الله بالعلم والحكمة وآتاه النبوّة وعلّمه التوراة، فليس هناك مَن هو أعلم منه بها.

وبما أنّ عيسى له وحي جديد فقد يكون له دور أعلى من التوضيح الصادق للتوراة، فهو باعتباره نبيّاً وله وحي خاص به فقد أنزل عليه الوحي نقلاً وكتاباً جديداً ليكون ناسخاً لبعض آيات التوراة، وخصوصاً تلك الآيات التي دوّنت كحالة استثنائية مخصوصة لأُولئك الذي عاشوا في زمن موسى فحرّم الله عليهم ما حرّم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾(النساء:١٦٠)، ولمّا انتهت تلك الحالة فلابدّ من حكم جديد من الله ينسخ ذلك الحكم وهذا فيه راحة لكم حين أحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم عن طريق الوحي ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وأنّ الناسخ والمنسوخ كلّه من الله، فلا تكون حالة التطبّع والاعتياد والتقليد على شيء هي الحاكمة عليكم، ولا تجعلوا الإشاعات وما يقال من هنا وهناك هو المؤثّر عليكم ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، التي هي أقوى ممّا أنتم عليه فاقلعوا ما في نفوسكم من الشك والترديد واحذروا الله بتقوى الله وعدم تكذيب نبيّه

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وإنَّ الربّ الذي تعبدونه وتريدون أن تتّقوه هو بنفسه وذاته الذي أؤمن به وأدعو إليه، وهو بنفسه جعلني نبيّاً عليكم، والطريق هو الطريق والمنهجية هي المنهجية فكلّه من الله، وأنّ الطريق إلى الله هو أن تخضعوا له وتطيعوه وتعبدوه، وهذا هو الطريق المستقيم الموصل لله ومرضاته، وأنّ طريق الله المستقيم وعبادته والخضوع إليه يتجسّد الآن بالتصديق بي ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٥١)، وأنّ من الآية التي جئتكم بها هو أن أدعوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الصراط المستقيم وهذه الدعوة هي دعوة الأنبياء جميعاً. فها أنا ذا أمامكم إسألوني، وهذه آياتي ومعاجزي فصدّقوني كنبي الله بُعثت إليكم، وأنا أعبدالله الذي تعبدونه فلا يأخذكم الغلو بي ، وهذه مجموع دعوتي إليكم وهذا هو الصراط المستقيم الذي أدعوكم إليه.

إنّ بني إسرائيل لم ينكروا عيسى وأنّهم يعرفونه من خلال خبر ولادته التي انتشرت معجزتها بينهم، ويعرفونه من خلال ما تنقله التوراة عنه، وعرفوه من خلال آياته التي يعرضها أمامهم ويشاهدونها بأُمّ أعينهم، ويعرفون أنّ دعوته هي دعوة الأنبياء وأنّه الصادق وأنّه من تلك الأُسرة النبويّة التي تمثّل أعلى سلطة دينيّة بينهم، وأنّ أمّه الطاهرة سيدة نساء العالمين وزكريّا النبي ويحيى النبي قد آمنوا به، وبمجموع هذا وغيره فلا طريق لتكذيبه من قبل بني إسرائيل، ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل من العناد واللجاجة وعداوتهم للأنبياء باسم الدين، فإذا سكتوا عن زكريّا بهذا العمر الطويل فلأنّ زكريّا لم يتحرّش بالتوراة كمغيّر لها ولم يجابه شخصيّاتهم الدينيّة بل كان دوره دور المصلح والمصحّح لأخطاء الآخرين من زعماء الدين وقادته.

وما أن سمعوا بولادة عيسى إلّا وقد قتلوا زكريّا لمعرفتهم بمستقبل عيسى الذي يدعمه زكريّا، وعيسى قد قال لهم: ولأُحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم، وهذا يعني أنّه يريد أن يغيّر التوراة وبالتالي يكون دين عيسى هو الدين وأنّ عيسى هو السيّد عليهم كما أخبرت التوراة عنه ذلك، وهذا ما يرفضه استكبارهم كلّ الرفض وإن كان من الله، ولهذا تجدهم كلّما نجح عيسى بإظهار آياته كلّما ازدادوا حقداً وكراهيّةً وحسداً لعيسى فيتّهموه بأنواع الاتّهامات ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الصف:٦)، بل يلجؤون إلى عقد مؤامرة تلو أُخرى ليحاولوا من خلالها القضاء عليه بقتله.

وتمر السنون بمخاطرها على عيسى ولم يكن هناك مجيب لدعوته والتصديق به، فقيّم عيسى الوضع بأنّ جهوده لم تنفع إلّا مع الفراد النادر الوجود بينهم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾(آل عمران:٥٢)، وأنّهم مصرّون على تكذيبه كما هم مصرّون على قتله، بل أحسّ عيسى من خلال المحاولات والعمليات التي كانت تستهدف قتله لولا حماية الله له ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾(المائدة:١١٠)، هنا احتاج عيسى إلى اظهار هذا الفرد النادر ليقوموا بنصرته والدعوة إلى الله ويكونوا معه أين ما حلّ ويرسلهم أين ما يرسلهم ويمتثلوا أوامره، وهذا ما يحتاج إليه كلّ قائد لمسيرته.

ومهما يكن فإنّ عيسى لا يقدر على دفع الضرر عنه وهو بمفرده وضمن الحالة الطبيعيّة، فبدأ بدعوته إليهم حين أسمع الجميع وهو يقول: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، فمَن الذي يتقدّم ليقول: أنا من أنصارك وهو يعيش بين قوم يعرف أنّهم يقتلونه من كلمة التأييد الأُولى التي يتفوّه بها، إنّه جوّ إرهابي رهيب صنعه بنو إسرائيل ضدّ عيسى، فلولا فضل الله ورعايته لبقي عيسى وحيداً متخفّياً حتّى القتل،

حيث أوجد الله الشجاعة وزرع الطمأنينة في قلوب أولئك البعض النادر من الأفراد حين أوحى في قلوبهم وأوجد الدافع فيهم ليعلنوا إيمانهم وهاهم الذين سماهم الله الحواريين ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾(المائدة:١١١).

استسلم الحواريون لله حين زرع الله في قلوبهم الاطمئنان بإعلان إيمانهم بالله ورسوله عيسى وقد أشهدوا الله على استسلامهم له وهم يشقّون خطوات الخطر بأقدامهم ليعلنوا إيمانهم ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(المائدة:١١١)، ويبدؤوا يظهرون بين الحين والآخر فرداً فرداً بين يدي النبي عيسى؈ ليعلنوا إيمانهم وتصديقهم بنبوّته على أنّهم أنصار الله مستسلمون له من خلال استسلامهم لعيسى في امتثال أوامره وهم يقدّمون العهد إلى النبيّ عيسى؈ من خلال طلبهم بالشهادة عليهم ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٥٢).

وعندما كمل عددهم الاثنا عشر كرّر عليهم القول مَن أنصاري إلى الله، ويؤكّد عيسى سؤاله عليهم ليختبر إيمانهم وصبرهم وقوّتهم في الله وليؤكّد بأنّ حركته لا طمع من ورائها إلّا رضا الله ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾(الصف:١٤)، فلم يشاهد منهم إلّا العزيمة على الثبات على موقفهم البطولي واستعدادهم العالي للتضحية في سبيل الله وهو يسمع كلماتهم وردود فعلهم المفرحة ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾(الصف:١٤).

وهاهم الحواريّون يتبعون الرسول ويؤمنون به ويذهبون معه أينما يذهب فيقطعون معه الصحارى والجبال مشياً على الأقدام، يجوعون جوعه ويشبعون شبعه ويتحمّلون الأذى إلى جنبه ممّا يواجهونه من ملاحقة اليهود لهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(آل عمران:٥٣)، وفي هذا الخطاب دلالة

على الدافع الذاتي للمساهمة في اتّباع الرسول من قبل الحواريين، وفيه دلالة على الدرجة الإيمانيّة التي يمتلكها الحواريّون بحيث يطلبون من الله أن يكتبهم ويجعلهم من الشاهدين. وهذا الطلب هو طلب الأنبياء؛ لأنّ من معنى الشاهد هو مَن يشهد على أُمّته يوم القيامة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣)، وهذه الدرجة لا تكون إلّا للمقرّبين لله والذين يمتلكون مساهمة فعّالة في صنع المتّبعين لعيسى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾(النحل:٨٤)، فهم وإن لم يكونوا أنبياء ولا أوصياء أنبياء إلّا أنّ طلبهم هذا يكشف عن رتبهم الإيمانيّة العالية.

وحتّى بلغ الرسول عيسى‎ؑ من عمر دعوته الشريفة بين بني إسرائيل الثلاثة والثلاثين عاماً، وقد وصل حقد اليهود إلى ذروته، وأنّهم ـ كما قلنا ـ أعداء كلّ دين باسم الدّين، فهاهم بنو إسرائيل يلاحقون عيسى وحواريه من مكان إلى مكان، وعيسى والحواريّون يظهرون على القوم بأماكن مدن وقرى متعدّدة لا يخافون أحداً إلّا الله ولا يحذرون من أحد إلّا من الله، يبيّنون رسالته ويدعون إليه بكلّ حدث أو موقف يمرّون به، وكان تأثير عملهم يتّسع يوماً بعد يوم على الرغم من الإرهاب الذي يحيط بهم من كلّ حدب وصوب.

ومرّوا على هذه الحالة وهم بين مرارة آلام التشرّد والهجرة وحلاوة التبليغ والدعوة إلى الله وإلى رسوله ونقل المواعظ والأحكام التي يحملها الإنجيل، وممّا زاد الطين بلّة عليهم من قبل بني إسرائيل أنّهم من حين نزول الإنجيل يرون عيسى وحواريه يبشّرون بنبيّ آخر يأتي من بعد عيسى اسمه أحمد ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف:٦).

فأخذت الملاحقة من قبل بني إسرائيل تشتدّ وأخذت المراقبة تأخذ طريقها وهي تقترب إلى عيسى وجماعته ﴿وَمَكَرُوا﴾(آل عمران:٥٤)، حتّى بدأ الهجوم عليهم

وهم مجتمعون في بيت من بيوتات مدينة القدس، فأخذوا عيسى مقبوضاً عليه وأودعوه وجماعته السجن، وكان قرار الإعدام قد سبق القبض عليه بفترة من الزمن، نشر جنود ملك بني إسرائيل خبر صلب عيسى بين الناس، وهاهم أخرجوه من السجن والنّاس تتقاذفه بالحجارة والشتائم، وعلّقوه على الصليب الخشبي وبقي عيسى نهار ذلك اليوم أمام أعين الناس، وبدأ مكر الله الخير جزاء مكرهم الذي لا يكون إلّا في شرّ وخبث ﴿وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤).

وهذه صورة من صور فعل الله وقدرته ومكره الخير ﴿إِذْ﴾ أنزل الله جبرئيل على عيسى لينقل له بشرى السماء، وقول الله، والمتفرّجون لا يرون ذلك ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران: ٥٥).

وما أن جنّ الليل إلّا والصليب خالٍ من عيسى، أدخل خلو الصليب من عيسى الذعر في قلوب شخصيات حكومة الملك الذين أمروا بالبحث عن عيسى ميّتاً أو حيّاً، وأخذ حرّاس الملك وجنوده يبحثون عنه في كلّ الشوارع والأزقّة والبيوت فلم يعثروا عليه حيّاً ولا ميّتاً، وإذا أصبح الصبح ولم يعثروا عليه فهذا يعني أنّ أمر عيسى سيزداد تأثيراً في قلوب الناس وأنّه في نفس الوقت يعدّ هزيمة كبيرة بالنسبة إلى الحكومة حيث قوّتهم وحراستهم المتشدّدة لم تقدر على المحافظة والسيطرة على رجل واحد وهو على الصليب تحيط به عيون الحرّاس من كلّ جانب، ولهذا اضطرّوا للقبض على أحد الحواريين الذي له شبه بعيسى ووضعوه على الصليب بعد قتله، وما أن أصبح الصبح إلّا ويقول جواسيس الملك وجنوده هذا هو عيسى، وصدّق الجمع من المتفرّجين بأنّ هذا المصلوب أمامهم هو عيسى،

ولكن الحقيقة لا كما رأوا ولا كما قاله الملك وجنوده ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٨).

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام واستودعه النور، والعلم، والحكم، وعلوم الأنبياء قبله وزاده الإنجيل، وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله ورسوله، فأبى أكثرهم إلّا طغياناً وكفراً، فلمّا لم يؤمنوا دعا ربّه وعزم عليه فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم يزدهم ذلك إلّا طغياناً وكفراً، فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم ويرغبهم فيما عند الله ثلاث وثلاثين سنة حتّى طلبته اليهود، وادّعت أنّها عذبته ودفنته في الأرض حيّاً، وادّعى بعضهم أنّهم قتلوه وصلبوه وما كان الله ليجعل لهم سلطاناً عليه، وإنّما شبّه لهم، وما قدروا على عذابه وقتله ولا على قتله وصلبه؛ لأنّهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾، بعد أن توفّاه»[1].

س: اذكر بعض الوقفات التي تحمل الدلالات على علوّ مريم وقوّة شخصيّتها الإيمانيّة.

ج:

الوقفة الأولى: أنّها نشأت يتيمة الأبوين، ولم يحفّ من حولها أخوة ولا أخوات ولا جمع من النساء القريبات، وعاشت لوحدها في تلك الغرفة المنعزلة عدّة

(١) إكمال الدين ١: ٢٢٤/ ٢٠.

سنوات وهي بنت صغيرة، ونشأت مستمرّة على هذه الحالة، فلو عرضت هذه الحالة على الواقع لمثيلاتها من البنات، أو عرضت هذه الحالة على علماء النفس، لاحتملوا جميعاً بخروج هذه الإنسانة وهي تحمل عدّة أمراض نفسيّة وانحرفات سلوكيّة، بينما نحن نجد أنّ مريم عليها السلام قد انفتحت بروحها وفكرها على آفاق الأرض وملائكة السماء، وأنّها وصلت إلى ما وصل إليه الأنبياء من طهارة الروح وسلامة القلب الذي يضفي على أعدائه حناناً ورحمة.

الوقفة الثانية: لو قذفت امرأة بالقول فقط وهي تستحق القذف فعلى الرغم من استحقاقها لذلك فهي تتألّم نفسيّاً فكيف إذا كانت امرأة لا تستحق مثل هذا القول من القذف؟! ومريم حامل من غير زوج بين وسط اجتماعي لا يرحم، وهي سيّدة النساء شرفاً وعفّةً، وتسمع القذف وهي لا تمتلك الجواب ولمدّة أقلّها أربعة أشهر بعد ظهور علامات الحمل عليها، وهي كفيلة زكريا، ومتنافس كفالة الشخصيّات الدينيّة، وفي وسط المركز الديني وهو بيت المقدس ...وغير ذلك ممّا هو لا ينسجم مع وضعها الاجتماعي ولا الديني، فكيف تحمّلت هذه الشّابة وصمدت أمام هذه المعاناة؟!.

الوقفة الثالثة: طبيعة المرأة الخوف والحذر فهي لا تسير لوحدها في صحراء أو غابات مظلمة لعدّة أمتار، ومريم خرجت من أجل حملها ولوحدها وهي بنت شابّة تلاحقها الاتّهامات ويترّصد لها الأعداء، خرجت ولا تعلم أين المسير وإلى مَن تلتجيء، ولم تكن من أهل هذا النمط من السير فلا تجربة سابقة لها، سير وجوع وعطش أيّام وليالٍ ولوحدها، فما هي قوّة ثقتها بالله؟!.

الوقفة الرابعة: الامرأة صاحبة الزوج وبين الأهل والأحبّة ولها سابقة في ذلك إذا جاءها الطلق ترى الخوف يصدر منها والاستعداد له في أتمّ درجته وتمدّ لها

الأيادي لمساعدتها، ومريم البكر ولوحدها وفي تلك الآفاق من الأرض وتعب السير قد أخذ منها مأخذه، ولم تكن تمتلك تجربة سابقة وقد فاجأها الطلق الذي جاء مبكّراً، فكيف تجرّعت آلام الطلق وعاشت بروح بحيث جاءت بوليدها في أتمّ الصحة والراحة؟!.

س: ما هو المحتمل في ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾؟

ج:

أنّ المراد منها هو المسيح عيسى، وذلك باعتبار أنّه قد ولد بكلمة (كن) وهي توجيه الإرادة والقدرة إلى إيجاد عيسى من دون توسط الأسباب ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١)، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)، وقد مرّ توضيح ذلك مسبقاً في قصّة يحيى لمحتملات أخرى فراجع.

س: ما هي المحتملات التي ترد في ما هو سبب تسمية عيسى بالمسيح؟

ج:

١ـ المسيح كلمة معرّبة، وأصله (مشيح) بالعبرانيّة، وهو لقب عيسى ابن مريم كما في كتب العهدين.

٢ـ أن يكون المسيح اسماً لعيسى توسّعاً، وعليه يكون اسمه: المسيح عيسى.

٣ـ ذكرت وجوه لسبب تسميته بهذا الاسم، وهي:

أوّلاً: من جهة ما مسح غيره عليه، وهي:

١ـ أنّه مُسح بالتطهير من الذنوب.

٢ـ أنّه مُسح بدهن زيت بورك فيه، وكان الأنبياء يمسحون به، وفي ذلك روايات.

٣ـ أنّ جبرئيل مسح عليه بجناحيه حين ولادته ليكون عوذة من الشيطان.

ثانياً: من جهة ما مسح هو على غيره، وهي:

١ـ أنّه كان يمسح رؤوس اليتامى.

٢ـ أنّه كان يمسح على عين الأعمى أو على جلد الأبرص وكلّ ذي عاهة فيبرؤ.

س: أنّ عيسى عندما يتكلّم وهو في المهد فإنّها آية ومعجزة ولكن إذا تكلّم وهو كهلاً فأين هو العجب والمعجزة في ذلك؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ أنّه إخبار وليس لبيان المعجز، أي أنّ عيسى سيمرّ بحالة التغيّر من الولادة والطفولة والصبا ثمّ الكهولة، والذي يمرّ بهذه التطوّرات من التغيّر لا يكون إلهاً كما قيل عن المسيح.

٢ـ أنّ الخطاب ليس لبيان المعجز، بل لبيان أنّ الكلامين مختلفان، حيث الأوّل جاء لبراءة أُمّه وإخبار عن نبوّته، والكلام في الكهولة كلام عن الوحي والنبوّة والتصدّي الفعلي لرسالته الجديدة.

٣ـ أنّ الخطاب ليس لبيان المعجز وإنّما لبيان حقيقة وهي أن يكون كلام عيسى وهو في المهد هو نفس كلامه وهو كهلاً ويجري على مستوى واحد من العلو والنبوّة والمعاني الإلهية الملقاة من الوحي، فهو متّصل الشخصيّة ومعانيها بلا فارق يذكر بين ما هو في المهد وبين ما هو كهلاً، ويلازم ذلك أنّه مفترض الطاعة وهو في المهد مستمرّة إلى الكهولة.

٤ـ أنّ الخطاب جاء لبيان معجز وهو أنّ عيسى سيبلغ مرحلة الكهولة.

٥ـ أنّ الخطاب جاء لبيان معجز وهو أنّ عيسى سيتكلّم في مرحلة الكهولة بظهور

جديد ومرحلة جديدة يبعث بها عيسى بعد رفعه إلى السماء، وذلك عندما يظهر الإمام المهدي عجل الله فرجه فيكون عيسى معه ليؤدّي دوره مع المسيح ليوحّد المجتمع على الدين، ويكون عيسى عليه السلام مناصراً للإمام المهدي عجل الله فرجه وربّما على يديه يقتل المسيح الدجّال ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء:١٥٩).

س: عندما قال عيسى عليه السلام في سورة مريم: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ هل هذا الإتيان والجعل فعلي أم أنّه إخبار عن المستقبل؟ اذكر المحتمل في ذلك.

ج:

١ـ أن يكون إيتاء الكتاب وجعل النبوّة ما هو إلاّ إخبار عن المستقبل؛ لأنّ الغرض من تكلّمه وهو في المهد لا لأجل أن يعرض نبوّته، بل لأجل إثبات براءة أمّه مريم.

٢ـ أن يكون إيتاء الكتاب وجعل النبوّة إخباراً عن المستقبل في أنّه سيكون نبيّاً ورسولاً، لأنّ نزول الكتاب من مختصّات كون النبي رسولاً.

٣ـ أن تكون النبوّة فعليّة، والرسول وإيتاء الكتاب مستقبلاً؛ لأنّ النبوة شيء لا يلازمه أن يكون رسولاً وأن ينزل الكتاب عليه، فقد يكون نبيّاً منذ نعومة أظفاره ويكون رسولاً في المستقبل كما عليه الرسول محمّد صلى الله عليه وآله.

ورد عن يزيد الكناسي أنّه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم حين تكلّم في المهد حجّة الله على أهل زمانه؟ فقال: «كان يومئذٍ نبيّاً حجّة الله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي

نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾».

قلت: فكان يومئذٍ حجّة لله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد، فقال: «كان عيسى في تلك الحال آية للناس ورحمة من الله لمريم حين تكلّم فعبّر عنها وكان نبياً حجّة على مَن سمع كلامه في تلك الحال، ثمّ صمت فلم يتكلّم حتّى مضت له سنتان، وكان زكريّا الحجّة لله عزّ وجلّ على الناس بعد صمت عيسى بسنتين ثمّ مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبيّ صغير، أما تسمع لقوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾، فلمّا بلغ عيسى سبع سنين تكلّم بالنبوّة والرسالة حين أوحى الله إليه، فكان عيسى الحجّة على يحيى»[1].

٤ـ أن تكون النبوّة وكونه رسولاً فعليّة ولكن إيتاء الكتاب مستقبلاً؛ لأنّ فعليّة النبوّة والرسول لا يلازمه الفعليّة الآنية للكتاب، فإنّ موسى صار نبيّاً رسولاً في الوادي المقدّس ولم تنزل عليه ألواح التوراة إلّا بعد أكثر من أربعين سنة في الميقات.

٥ـ أنّ إتيان الكتاب لعيسى يجب أن يكون مستقبلاً؛ لأنّ يحيى أخذ الكتاب بقوّة وعمر عيسى سنتين، وأنّ يحيى مأمور بأن يكون مصدّقاً بكلمة من الله أي بعيسى، فلو كان نزول الإنجيل فعلياً وهو في المهد فلا معنى لكتاب يحيى، وهذا يعني أنّ عيسى قد كبر ونزل عليه الإنجيل، فعند ذلك كان يحيى مصدّقاً به.

٦ـ ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾ التي تستشف منها

---

(١) الكافي ١: ٣٨٢/١.

أنَّ عيسى قد جعل رسولاً في المستقبل، لأنَّ وجه هذا الخطاب يكون هكذا: ويكون رسولاً إلى بني إسرائيل في حال كونه يحمل المعاجز والآيات وفي حال يقول: أنّي قد جئتكم بآية ...

س: ما هي المحتملات التي يمكن أن نستنتجها من قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾؟

ج:

١ـ أنَّ عيسى لم يكن من اختصاصه عملية صنع المجسّم، بل هو كأيّ إنسان عادي يصنع من الطين فتكون النتيجة من صنع الهيئة الخارجيّة للطير شبيهة للطير من جسمه ورأسه وجناحيه.

٢ـ أنّه مهما يكن الإنسان في أن يكون مختصاً بصنع المجسّم لا يمكنه أن يأتي بهيئة الطير بما هي، بل تبقى شبيهة بهيئة الطير لما تحمل الهيئة من دقّة وأخاديد وتفرّعات يعجز الإنسان أن يأتي إلّا بالشبه لكليّات الهيئة. فقول عيسى ناتج عن العلم بهذه الحقيقة، ولهذا قال:كهيئة الطير.

٣ـ ليبيّن الله أنَّ الخلق الذي يكون على يدي عيسى ليس منه بل هو من الله، فإنَّ العاجز على صنع هيئة الطير بما هي فهو أعجز من أن يكون خالقاً للطير.

س: هل يمكن أن يكون عيسى عليه السلام هو الخالق للطير والمحيي للموتى؟ اذكر المحتملات في الجواب على ذلك.

ج:

هنا يوجد احتمالان، وهما:

١ـ أن يكون الخلق والإحياء من الله؛ لأنّها من مختصّاته، ولهذا يكرّر عيسى الإذن

لكلّ عمليّة يريد أن يقوم بها ولا تقوم عمليّة إلاّ بإذنه؛ لأنّها حالات استثنائيّة يراد من الله أن يقوم بتنفيذها فهي تحتاج إلى طلب إذنه ليقوم بها، وبما أنّ الله قد جعل مثل هذه الحالات كمعجز لعيسى فكان الله يستجيب لأيّ طلب من هذا النوع يريده عيسى منه سبحانه، وهكذا جرت مثل هذه الاستجابة للرسولﷺ وللأئمّة سلام الله عليهم أجمعين، وتجري حتّى لأوليائه الصالحين إذا كان الأمر بمستوى من الأهميّة التي تتوقف نصرة دينه عليه، وهذا هو الأرجح عندنا.

٢ـ أن يكون الخلق والإحياء من عيسىؑ، لما زوّده الله من العلم الخاص بالخلق والإحياء، كمعاون الطبيب والطبيب، فإنّ معاون الطبيب هو المباشر للعمليات الطبيبيّة وهو القائم بها على أحسنها بما علّمه الطبيب بإذن الطبيب، لكن تقول في خصوص الخلق والإحياء هذا ما يحتاج إلى أدلّة مشبعة لا من قرائن لفظيّة تحتمل الوجوه. راجع سورة البقرة آية ٢٦٠ تجد توضيحاً إضافياً لذلك.

س: اذكر المحتملات في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

ج:

أوّلاً: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾

عندما أحسّ عيسى بكفر بني إسرائيل به وتكذيبه،وقيّم ذلك من خلال محاولات كثيرة لقتله ومحاصرته وتشويه سمعته وغير ذلك ممّا رآه وشاهده وسمع به، فتقييمه بكفرهم كان قائماً على أساس الحس الذي عاشه عيسى.

ورد عن الإمام الصادقعليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أنّه قال: «أي لمّا سمع ورأى أنّهم يكفرون. والحواس الخمس التي قدّرها الله في النّاس: السمع للصوت، والبصر للألوان وتمييزها، والشم لمعرفة الروائح الطـيّبة والمـنتنة، والذوق للطعوم وتمييزها، واللمس لمعرفة الحار والبارد واللّيّن والخشن»[1].

ثانياً: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾

١ـ أنّ عيسى كان بحاجة إلى أنصار يستعين بهم لغرضه الرسالي العـام، والحـالة الطبيعيّة المطلوبة لمثل هؤلاء أن يكونوا على درجة من التقوى بحيث يعملون لله وطلب مرضاته.

٢ـ أن يكون عيسىعليه السلام قد دخل مرحلة الصراع والمواجهة مع اليهود، وبما أنّه يمثّل الخط الإلهي فدعا مَن يريدهم أنصاراً يقاتل بهم، فقال هذه الكلمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤).

٣ـ أنّ هؤلاء الأنصار قد ربّاهم عيسىعليه السلام على يديه وكانوا معه يغذّيهم بعلمه ومن روحه وإيمانه، فجمعهم يوماً حين أحسّ عيسى بالقتل وقال لهم هذه الكلمة ليأخذ منهم العهد على أن يكونوا أنصاراً له بعد رفعه للسماء، أي مَن أنصاري بعدي في حال كوني ذاهباً إلى الله.

٤ـ أنّ الذي يحتاج إلى أنصار من الناس ليدفع بهم الضرر الناتج من مؤامرات اليهود لم يكن إلهاً ولا ابن إله، فكيف تزعمون أيّها المسيحيّون أنّ المسيح إله أو ابن

---

(١) تفسير القمي ١٠٣:١.

إله؟!

٥ـ صحيح أنّ الله ناصر دينه ورسله وجميع المؤمنين به، ولكن من خلال أسبابه الطبيعيّة من توفّر عناصره، ولم يتدخّل الله بتدخّله ونصره الخاص إلّا في الحالات الخاصّة، وعلى هذا يسير عيسى، ولهذا فهو يطلب الأنصار.

ثالثاً: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾

سمّي الحواريّون بالحواريين وذلك:

١ـ لأنّهم خلاصة بني إسرائيل، فإنّ حواري الشيء خالصه.

٢ـ لأنّ لون بشرتهم الجلديّة ناصعة البياض أو قلوبهم ناصعة البياض وأنّها نقيّة لخلوصها، أو لكون ثيابهم ناصعة البياض؛ لأنّ حور الشيء بياضه الشديد.

ورد عن ابن فضّال عن أبيه أنّه قال: قلت لأبي الحسن الرضا‌عليه‌السلام: لِمَ سمّي الحواريّون الحواريين؟ قال: «أمّا عند الناس فإنّهم سمّوا حواريون لأنّهم كانوا قاصرين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأمّا عندنا فسمّي الحواريّون الحواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير»[1]. وورد عن الإمام الرضا‌عليه‌السلام أنّه قال: «أنّهم كانوا اثني عشر رجلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم لوقا»[2].

رابعاً: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾

١ـ أنّه جواب بالمثل عندما قال عيسى‌عليه‌السلام وهو يبيّن غاية النصرة: ﴿مَنْ

---

(١) علل الشرائع ١: ١/٨٠، وسائل الشيعة ١٦: ٢١١٦٦/١٣٢.

(٢) الاحتجاج ٢: ٢٠٣.

﴿أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾.

٢ـ أنّه جواب يكشف عن عدم طمعهم في شيء من حطام الدنيا، بل كلّ توجّههم واندفاعهم إلى الله وطمعاً بما في يده وعطائه سبحانه.

٣ـ نحن ننصر الله بنصرك، ونصر الله متجسّد بنصرك، وبما أنّ الغاية هو الله فنحن أنصار الله، ولا نشرك بدوافعنا شيئاً. وما أنت أيّها الرسول إلّا واسطة بين الله وبيننا، وقد أمرنا بطاعتك وولايتك، وقد جعلك الله شاهداً على الناس يوم القيامة فاشهد بأنّا مستسلمون لطاعة الله وطاعتك.

خامساً: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

أنّهم جاؤوا إلى عيسى بمحض اختيارهم، وأنّهم قد آمنوا بالله بمحض ما تقتضيه الضرورة العقليّة، وأمّا العمل بالإيمان فها هو موقفهم الحق حيث أنّهم مستسلمون لله ولنبيّهم استسلام الواثق به بحيث يجعلون عيسى شاهداً عليه، وهذا يعني أن ارتباطهم بعيسى ليس حالة مستجدّة لهم ولا عاطفيّة ولا ناتجة عن طمع في دنيا، وإنّما هو الإيمان والإسلام الواعي الذي يمتلكه الحواريّون.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ... الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؟

ج:

أوّلاً: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾

١ـ (إذ) متعلّق بمكر الله ونقل صورة من صوره كما قلنا ذلك سابقاً.

٢ـ (قال الله) بواسطة جبرئيل عليه السلام .

ثانياً: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾

١ـ أنّي حافظك من خلال رفعك إليّ.

٢ـ أنّي رافعك إلى مكان في السماء بتمام الحفظ والطمأنينة من دون إحساس منك بالرفع، ونسب المكان إليه ليبيّن عظمة مكانه في السماء في أنّه مع الملائكة وتحت رعاية خاصّة بعيداً عن مؤثّرات الأرض السلبية فتبقى على ما أنت عليه من المحافظة على روحك وبدنك.

٣ـ أنّي رافعك بجسمك وروحك إليّ وبتمامك من غير نقص؛ لأنّ الوفاة هي أخذ الشيء من دون نقص.

٤ـ أنّي مميتك ورافعك بعد إحياء، ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «إنّه ما شبّه أمر أحد من أنبياء الله وحججه على الناس إلّا أمر عيسى وحده؛ لأنّه رفع من الأرض حيّاً وقبض روحه بين السماء والأرض، ثمّ رفع إلى السماء، وردّ عليه روحه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾»[1].

وقال الله حكاية عن عيسى يوم القيامة: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثالثاً: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

١ـ مخلّصك من قتل الذين كفروا.

٢ـ مخلّصك من التجسين بالنجاسة المعنويّة وهو كفرهم بعدم التصديق بك

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢:١٩٣/٢.

ومحاولتهم قتلك.

رابعاً: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

١ـ وجاعل كلّ مَن آمن بك كنبي لله فوق كلّ مَن كذّبك ونكر نبوّتك.

٢ـ وجاعل الذين اتّبعوك بما بشّرت به فتبعوا الرسول محمّداً ﷺ فوق الذين كفروا حين لم يلتزموا بما بشّرت به وبما ينقله الإنجيل عن الرسول ﷺ، فستكون منهجية الدين الإسلامي هي المنهجية السائدة والمؤثّرة في الناس، وسوف يكون هو الدين الذي يعلو ولا يعلى عليه بالعزّة والكرامة وهو الباقي إلى يوم القيامة.

٣ـ أنّه إخبار غيبي عن ذلّة اليهود التي ستبقى إلى يوم القيامة.

خامساً: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

يذكّر الله الجميع بيوم الفصل ذلك اليوم الذي يرجع فيه الناس إلى ربّهم وهو يوم المحكمة الكبرى الذي يتولّى الله فيه الحكم ليعطي كلّاً حسب عمله بجزاء العدل، ومن بين صور ذلك اليوم أن يظهر الله للناس الموضوع الحقيقي الذي اختلف فيه الناس، ومن جملة ما اختلف فيه الناس هو عيسى ﷺ حيث صار ما بين مكذّب به ومغال فيه.

سادساً: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

وهذا الخطاب كثيراً ما يكرّره الله للناس ليكون حجّة لكلّ الناس فمنهم مؤمن ومنهم كافر، وليكن كلّ منهم على بيّنة ممّا هو عليه وما هو فيه، فليس للكافرين العذاب الشديد لأنّه من الله وفي النّار، وألّا يجرّهم الغرور بالاعتقاد بمنقذ لهم يوم القيامة وهم على كفرهم حيث كتب الله بألّا نصرة ولا شفاعة لهم من أيّ

أحد. وأمّا الذين آمنوا فعلى العكس من الشريحة الأُولى حيث يوفيهم أُجورهم التي وعدهم بها بأن يعطيها لهم وهي مضاعفة الحسنات. فلا وجود للظلم يوم الآخرة ولا وجود للظلم لأُولئك ولهؤلاء؛ لأنّ الله لا يحب الظالمين فلا يفعل الظلم وحاشاه من ذلك.

سابعاً: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

أنّ قصّة ولادة عيسى عليه السلام وما سبقها من القصص وما يتلوها من القصص كلّها حقائق وفيها مواعظ وحِكَم وأنّها آيات من القرآن الكريم، وهذا ما يدلّ على عظمة هذه القصص حينما أشرنا بها ﴿ذَٰلِكَ﴾ وحينما جعلناها ضمن آيات الذكر الحكيم الذي لا يدوّن فيه إلّا ما كان عظيماً ومهمّاً.

ثامناً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

١ـ أنّ خلق عيسى عليه السلام مثل خلق آدم في أنّ خلقهما خارج عن الطبيعة، وأنّ خلقهما كان بأمر الله وإرادته وقدرته بلا توقف على الأسباب.

٢ـ أنّ خلق عيسى عليه السلام لم يكن بأعجب من خلق آدم، حيث خلق آدم من تراب من دون أب ولا أم، وأنّ خلق الاثنين لم يكن إلّا هيّناً عند الله بقوله سبحانه كن فيكون.

٣ـ يا بني إسرائيل لا تتهموا مريم لاستغرابكم بولادة عيسى من دون أب، ويا أيّها النصارى لا تتخذوا عيسى إلهاً ولا ابن لله، فإنّ في خلق آدمَ موجود ما هو أكثر استغراباً حيث خلق من غير أب وأم، وأنّ الاثنين مخلوقان لله، وأنّ الاثنين أنبياء الله، فلا راجح موجود لما ذهبتم إليه أيّها اليهود حين أنكرتم عيسى، ولا راجح موجود لما ذهبتم إليه أيّها النصارى حين جعلتم عيسى إلهاً من دون الله.

تاسعاً: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

إنّ أمر عيسى من الله هو حق وعين الصدق، وأنّ أمرك يا رسول اللهﷺ من الله هو حق، وأنّ الآيات التي تتلوها عليك من الله هي حق، وأنّ كلّ ما يصدر من الله هو حق، فلا يوجد في القرآن وفي سرد هذه القصص من الله ما يوجب الشك والترديد والشبهة، وسبب توجيه الخطاب إلى الرسولﷺ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ مع عدم وجود مثل هذا الاحتمال فيه، فيه وجوه، منها:

١ـ أنّ كثيراً من الخطابات القرآنية موضوعة من باب ﴿إيّاك أعني واسمعي ياجارة﴾ فهي دعوة لكلّ قارئ للقرآن ألّا يدخل إليه الشك والريب وهو يتلو آيات الله.

٢ـ يريد الله أن يسمع كلّ مَن يتّهم الرسولﷺ بأن وضع هذه القصص هي من تدوين الرسولﷺ، فإنّ كلّ ما دوّنه الرسولﷺ في القرآن هو ما تلاه الله عليه وأنّه الحق والصدق.

٣ـ أن يكون نوعاً من التربية الإلهيّة المتلاحقة لنبيّه من أجل أن يحافظ على أعلى درجة اليقين التي توصّل إليها الرسولﷺ دون غيره من النّاس، وقد ذكرنا ذلك في مبحث الإمامة المجلّد الثالث في أنّها إحدى المقوّمات.

س: كان بإمكان الله أن يرفع عيسىﷺ من دون حاجة إلى تشبيه رجل مثله ليقتل، فما هو سبب ذلك؟ اذكر المحتملات في الجواب.

ج:

١ـ معجزة الرفع كان المنظور إليها هو عيسىﷺ فقط، وأمّا غير ذلك فإنّه يجري ضمن الأمور الطبيعيّة.

٢ـ أن يكون المعجز متعلقاً بعيسى وأنّ القتل الذي وقع على الرجل نتيجة الشبه الواقع بينه وبين عيسى يعتبر سبباً من أسباب الموت الطبيعيّة الذي وقع

عليه.

٣ـ أن تكون المعجزة مركّبة من جزئيين، رفع عيسى وإلقاء الشبه على ذلك الرجل، وهذا تشريف للرجل حيث أختاره الله لأن يحظى بهذا الشبه لينال الشهادة في سبيل الله والتضحية من أجله.

٤ـ أنّ عمليّة الرفع والتشبيه كانت عملية يريد الله من خلالها امتحان عباده ليميّز المستسلمين له عن غيرهم.

س: اذكر نموذجاً ممّا ورد في السُنّة عن عيسى عليه السلام.

ج:

١ـ ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أوّل نبيّ من بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى»(١).

٢ـ ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يا أمّ أيمن، أما علمت أنّ أخي عيسى كان يخبئ عشاء لغداء ولا غداء لعشاء؟ يأكل من ورق الشجر، ويشرب من ماء المطر، يلبس المسوح، ويبيت حيث يمسي، ويقول: يأتي كلّ يوم برزقه»(٢).

٣ـ ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام: فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع ، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال

---

(١) معاني الأخبار: ٣٣٢/١.

(٢) كنز العمال ١١: ٥٠٤/٣٢٣٥٨.

يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه »[١].

٤ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وكان شريعة عيسى أنّه بعث بالتوحيد والإخلاص، وبما أوصى به نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وأُنزل عليه الإنجيل، وأُخذ عليه الميثاق الذي أخذه على النبيّين. وشرع له في الكتاب إقام الصلاة مع الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحريم الحرام، وتحليل الحلال، وأُنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال وليس فيها قصاص ولا أحكام حدود، ولا فرض مواريث. وأُنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى عليه السلام في التوراة، وهو قول الله في الذي قال عيسى بن مريم لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾. وأمر عيسى مَن معه ممّن اتّبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعته التوراة والإنجيل»[٢].

س: لم تذكر قصّة نزول المائدة من السماء التي طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام فما هو سبب ذلك؟

ج:

سوف تأتي في محلّها إن شاء الله، وعدم ذكرها في هذا المحل لا يؤثر على مجموع القصّة، وأنّ فيها دروساً كثيرة.

س: اذكر مجموع ما قاله القرآن عن عيسى عليه السلام.

ج:

١ـ كان نبيّاً. ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ (مريم: ٣٠).

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٥٨/ الخطبة ١٦٠.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٧٥/ ٥٢.

٢ـ كان رسولاً، ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ﴾ (آل عمران:٤٩)، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾.

٣ـ كان صاحب كتاب وشرع سماوي وهو الإنجيل ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ﴾ (المائدة:٤٦).

٤ـ سمّاه الله بالمسيح عيسى ﴿مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران:٤٥).

٥ـ كلمة الله وروح منه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء:١٧١).

٦ـ كان إماماً ومن أولي العزم يأمر الله الناس بالاقتداء به ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (الأحزاب:٧)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:٩٠).

٧ـ كان من الشهداء على الناس ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء:١٥٩)، ومن الشهداء على الأعمال ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ (المائدة:١١٧).

٨ـ كان مبشّراً بالرسول محمد ﷺ، بل هي على رأس المهمّات ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦).

٩ـ كان وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران:٤٥).

١٠ـ كان من المصطفين ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣).

١١ـ كان من المجتبين ومن الصالحين ﴿وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام:٨٥)، ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٨٧).

١٢ـ كان زكيّاً ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾ (مريم:١٩)، وآية للناس ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ (مريم:٢١)، ورحمة من الله ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ (مريم:٢١)، ومباركاً ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ (مريم:٣١)، وبرّاً بوالدته ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي﴾ (مريم:٣٢)، وكان مسلّماً عليه وأنّه يمرّ بسلام في جميع مراحل حياته ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ

وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:٣٣).

١٣ـ كان ممّن علّمه الله الكتاب والحكمة ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:٤٨).

١٤ـ أنّه خلق من خلق الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩).

س: اذكر بعض من كلمات عيسى عليه السلام التي تركها لنا.

ج:

١ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «قام عيسى بن مريم خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، لا تحدّثوا الجهّال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»(١).

٢ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «قال عيسى بن مريم عليه السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل ويلكم علماء سوء، الأجر تأخذون والعمل تضيّعون، يوشك ربّ العمل أن يقبل عمله، ويوشك أن يخرجوا من ضيق الدنيا إلى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم مَن هو في مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضرّه أحب إليه ممّا ينفعه؟!!»(٢).

٣ـ ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «قال عيسى بن مريم عليه السلام: أنّ صاحب الشّر يعدي وقرين السوء يردي، فانظر إلى مَن تقارن»(٣).

---

(١) الكافي ١:٤٢/٤.

(٢) الكافي ٢:٣١٩/١٣.

(٣) الكافي ٢:٦٤٠/٤.

٤ـ ورد عن النبي عيسى عليه السلام أنّه قال: «لا تتخذ الدنيا ربّاً فتتخذكم عبيداً، أكنزوا كنزكم عند مَن لا يضيعه لكم فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة »[1].

٥ـ ورد عن النبي عيسى عليه السلام أنّه قال: «يا معشر الحواريين، إنّي قد أكببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، واعلموا أنّ أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً »[2].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١و٢) مجموعة ورام ١: ١٢٩.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (آل عمران:٦١-٦٣).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ حاجّك: أـ طلب المحاجّة والدليل. ب ـ طلب الخصومة والمجادلة.

٢ـ تعالوا: أصلها العلو، أي المجيء إلى مرتفع.

٣ـ الابتهال: الدعاء بالهلاك ثمّ استعمل لمطلق الدعاء.

٤ـ القصص: جمع قصّة، وهي مجموعة من المعاني يتابع بعضها أثر بعض ومرتبط به، فأصلها من قصّ أي يتّبع أثره.

٥ـ التولّي: الإعراض عن الشيء.

• **المباهلة وأهل البيت**

س: ما هو التفسير الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾؟

ج:

أيّها الرسول، هذه هي آيات الله، وهذه هي القصص الحق التي نريد أن ننشرها للناس سواء كان المتعلّق بمريم أو بعيسى أو بغيرهما، وهذه الآيات التي

تتلوها عليك وقد حصل لك العلم بها بعد نزولها عليك، وأنّه وحي من الله، وهذا ممّا يوجب اليقين، وبالإضافة إلى كونه وحياً من الله قد أرفدناه بدليل وبرهان ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل‌عمران:٥٩)، فإذا كان مَن يريد المحاججة معك حول إلوهيّة عيسى عليه السلام بحيث لم يؤمنوا بالوحي ولا بالدليل ولم تصلوا إلّا إلى طريق مسدود بحيث لا الدليل ينفع ولا الحوار ولا النقل ولا العقل ولا الوجدان، وأنّه لابدّ من أن يصل أحدكما إلى نتيجة قاطعة وحد فصل ينهي أحد الطرفين كليّاً ويقطع دابره من الأصل بأبنائهم ونسائهم وأنفسهم، فهنا إذا كان ولابدّ فقد طلبوا هم الملاعنة ـ كما سيأتي دليل ذلك ـ فأنت يا رسول الله، استجب لما التمسوه منك ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ...﴾ الآية.

س: اذكر قصّة حدث المباهلة بصورة إجمالية وأنت تسلّط الضوء على أهم المواقف فيها.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ج:

المباهلة حدث تأريخي عظيم، ابتدأ من المدينة المنوّرة إلى نجران... ونجران مدينة من المدن العربية، ومن المدن التي تقع خلف اليمن من جهة مكّة، كانت بلدة زراعيّة وصناعيّة، تصنع فيها أقمشة الحرير والأسلحة والجلود والحلل اليمانيّة، وكانت نجران طريقاً تجاريّاً مهمّاً يمتدّ إلى الحيرة ... جاءتها النصارى عبر البحار وبلاد الشام، حتّى صارت كعبة المسيحيين في المنطقة العربية ... وكانت تحت حماية الحبشة من الجنوب والروم من الشمال ...وكانت ثلاث شخصيّات هي التي تدير أمر نجران، وكلّ شخصيّة من هؤلاء الثلاث يحمل عنواناً مشيراً إلى مهمّة، السيّد: وهو المتولّي للأمور الخارجيّة والعسكريّة لنجران، وكان الرجل الذي يحمل

هذا العنوان اسمه وهب، العاقب: وهو المتولّي للأُمور الداخليّة وكان الرجل الذي يتولّى هذا المنصب اسمه عبد المسيح، الأسقف: وهو المتولّي للأُمور الدينيّة وكان الرجل الذي يحمل هذا العنوان اسمه أبو حارثة أو هي كنية له، فإذا حصل أمر مهمّ لنجران فالمسؤول عن القرار هؤلاء الثلاثة ... انتشرت فيها الأساقفة، وكان يتفرّع منها تنصير المدن الأُخرى، وكانت حركة التبشير فيها نشطة، وقد تأثّرت بهم عشائر من العرب.

عندما جاء الإسلام بقيادة الرسولﷺ، وبعد فتح مكّة واستقرار الرسولﷺ بالمدينة، صار مستعدّاً لأن يدعو كافّة الناس على اختلاف أقوامهم ومدنهم؛ لأنّ رسالته رسالة إنسانيّة لا تقتصر على قوم دون قوم، بدأ الرسولﷺ يرسل رسله إلى الدول القريبة والبعيدة والقويّة والضعيفة كملك الروم والفرس والحبشة والحيرة واليمن ...وكان من بين الذين أرسل الرسولﷺ لهم الرسل هي مدينة نجران، حيث توالت عليهم رسل رسول اللهﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا فإخوان في الله، وإن أبوا فإلى الجزية يقدّمونها ويدفعونها عن يدٍ وهم صاغرون.

كانت الرسل تتلوا عليهم وهم يحملون إليهم آيات من الذكر الحكيم التي تترك الأثر الكبير في نفوسهم وتهزّ أعماقهم، وكل ما يحمله الرسل إلى الأقوام يجمعها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ...دخل الذعر والخوف من الرسولﷺ في قلوبهم، وكانت انتصاراته في الغزوات تملأ أسماعهم ... وهاهم الرسل نموذج من جنوده أمامهم حيث العلم والتقوى والشجاعة، يتلون على الأساقفة نموذجاً من آيات الذكر الحكيم وهي تجذب أعماق قلوب أساقفة نجران وتسحر البيّنات مشاعرهم.

اجتمع عند ذلك رؤساء نجران واجتمع معهم الكثير من أصحاب الرأي والتأثير الاجتماعي من رؤوس القبائل، وانعقد مؤتمر نجران لليالي وأيّام بين حدّة النقاش تارة وهدوء التفاهم والتعقّل أخرى، وأخيراً اتّفق الجميع على البيان الختامي للمؤتمر، وأهم ما جاء في البيان هو: تمسّكوا بدينكم حتّى يكشف لنا دين محمّد وسنسير إلى يثرب وننظر ما جاء به وفيما يدعو إليه.

وبعد مرور أيّام خرج السيّد والعاقب والأسقف مع أربعة عشر رجلاً من كنيسة نصارى نجران وسبعون رجلاً من الأشراف وهم متوجّهون إلى المدينة المنوّرة. وصلوا إلى أشراف المدينة ونزلوا إلى قرب نهر اغتسلوا فيه، وبدّلوا ثيابهم، وزيّنوا خيولهم، ووضعوا أسلحتهم عرضاً على خيولهم، وتوجّهوا إلى المدينة وهم يريدون التباهي أمام المسلمين ليدخلوا هيبتهم في نفوس المسلمين وهم من أجمل العرب صوراً.

أقبل القوم على المدينة حتّى دخلوا المسجد، وحانت صلاتهم فضربوا ناقوسهم في المسجد وقاموا يصلّون إلى المشرق ...ولم تدخل هيبة دخولهم وزينتهم في نفوس أصحاب الرسولﷺ ولم يتأثّروا بشيء منه، بل أراد بعضهم أن ينهوهم عن صلاتهم في المسجد فكفّهم الرسولﷺ.

طلبوا مهلة ثلاثة أيّام من دون سؤال من الرسولﷺ، فأمهلهم الرسولﷺ تلك المدّة، وكانت الغاية من هذه المهلة أن يروا سيرة الرسولﷺ ويروا صفاته المنقولة عندهم، فهي فترة أرادوها للفحص والاختبار.

انتهت الأيام الثلاثة ... حصل اللقاء بينهم وبين رسول اللهﷺ، دعاهم الرسولﷺ إلى الإسلام في هذا اللقاء، فقالوا: يا أبا القاسم ، ما أخبرتنا كتب الله عزّ وجلّ بشيء من صفة النبيّ المبعوث من بعد الروح عيسىؑ إلّا وقد تعرّفناه فيك

إلّا خلّة هي أعظم الخلال آية ومنزلة، وأجلاها إمارة ودلالة!! قال رسول اللهﷺ: وما هي؟ قالوا: أنّا نجد في الإنجيل من صفة النبيّ من بعد المسيح أنّه يصدّق به ويؤمن به، وأنت تسبّه وتكذّبه وتزعم أنّه عبدالله، قال الرسولﷺ: بل أُصدّق به وأؤمن به، وأشهد أنّه النبيّ المرسل من ربّه عزّ وجلّ وأقول: أنّه عبد لا يملك نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً . فقالوا: وهل تستطيع العبيد أن تفعل ما كان يفعل؟ وهل جاءت الأنبياء بما جاء به من القدرة القاهرة؟ ألم يكن يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، وينبّئهم بما كانوا يكنّون في صدورهم، وما يدّخرون في بيوتهم؟ فهل يستطيع هذا الأمر إلّا الله عزّ وجلّ أو ابن الله؟!

فقال الرسولﷺ: قد كان عيسى أخي كما قلتم يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخبر قومه بما في نفوسهم وبما يدّخرون في بيوتهم، وكان ذلك بإذن الله عزّ وجلّ، وهو عبدالله..غير مستنكف، فقد كان لحماً ودماً وشعراً وعظماً وعصباً وأمشاجاً، يأكل الطعام ويظمأ وينصب، والله باريه وربّه الأحد الحق الذي ليس كمثله شيء، وليس له ندّ، فقالوا: أرنا مثله جاء من غير فحل ولا أب؟ قال الرسولﷺ: هذا آدمﷺ أعجب منه خلقاً من غير أب ولا أم، وليس شيء من الخلق بأهون على الله عزّ وجلّ في قدرته من شيء ولا أصعب، وإنّما أمره إن أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ...﴾ فقالوا: فما نزداد منك في أمر صاحبنا إلّا تبيّناً، وهذا الأمر الذي لا نقرّه لك.

تشاور القوم فيما بينهم حتّى قرّروا المباهلة ...تقدّموا نحو رسول اللهﷺ وقالوا له: هلم فلنلاعنك أيّنا أولى بالحق، ونجعل لعنة الله على الكاذبين، فإنّها مُثلة وآية معجّلة ...هنا نزل الوحي على رسول اللهﷺ وغشيه وهو يتلو عليه قوله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(آل عمران:٦١) ...وبعد أن أفاق من غشيته بذهاب الوحي الأمين تلا عليهم ما نزل في طلبهم وقال: أنّ الله أمرني أن أصير إلى ملتمسكم وأمرني بمباهلتكم إن أقمتم وأصررتم على قولكم، فقالوا: ذلك آية ما بيننا وبينك، وإذا كان الغد باهلناك.

وانصرفوا إلى أماكنهم في المدينة وهم ما بين مصدّق بالرسول ﷺ بعد أن سمع لآية الله تتلى عليه، ومنهم لا زال في شك، ومنهم مكذّب لشهوة الرئاسة التي غلبت عليه والتي جاءته من ملوك النصارى وهو يقول لأصحابه: أما رأيت ما فعل بنا هؤلاء القوم ـ أي ملوك النصارى ـ كرّمونا وموّلونا ونصبوا لنا كنايسنا وأعلوا فيها ذكرنا، فكيف تطيب نفوسنا بدين يستوي فيه الشريف والوضيع ...

وطال الحديث بين النجرانيين في تلك الليلة التي باتوا فيها بالمدينة ...وكان القول الفصل لرشيد منهم حين قال: قد جاءكم محمّد بالفصل من أمره وأمركم فانظروا أوّلاً بمَن يباهلكم؟ أبكافة أتباعه أم بأهل المكانة من أصحابه، أم بذوي التخشّع والصفوة ديناً وهم القليل منهم عدداً؟ فإن جاءكم بالكثرة وذوي الشدّة فإنّما جاءكم مباهياً كما يصنع الملوك، فالفلج إذاً لكم دونه، وإن جاءكم بنفر قليل ذوي تخشّع فهؤلاء سجية الأنبياء وصفوتهم وموضع مباهلتهم، فإيّاكم والإقدام إذاً على مباهلتهم، فهذه لكم إمارة فانظروا حينئذٍ ما تصنعون بينكم وبينهم.

أذّن صبح صباح اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجّة، ورد عن الإمام الباقر ﷺ أنّه قال: «السّاعة التي تباهل فيها ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[١] ...

---

(١) الكافي ٢:٥١٤/٢.

أخذت الناس تجتمع حيث حديث وفد نجران قد أخذ منهم مأخذاً عظيماً فإنّه أصبح حديث السّاعة، بل اللحظات آنذاك ...إنّه يوم الفصل الذي ينتهي به أحد الصفين ...إنّه يوم التحدّي والمباهلة ...إنّه يوم استجابة الله الدعاء لأحد الفريقين ليتمّ فيه تدمير الطرف الآخر ، ولم يعلم أحد ماذا سيحصل من تدمير وبلاء، فإنّ دعوة الأنبياء مستجابة، بل وقل ما شئت عن عظمة هذا اليوم وخطورته. فالقلوب كلّ القلوب واجفة لترقب نتيجة هذا اليوم.

وقفت الناس بصغيرهم وكبيرهم بنسائهم ورجالهم وهي تنتظر الحدث الأكبر ... ومع بزوغ الفجر ووضح السماء اتّجهت كلّ الأبصار وقد تقدّم وفد نجران بضخامة موكبه المزيّن، إنّه موكب جميل بصورته الظاهريّة التي تذكّر المشاهد بترف الدنيا ونعيمها وبهيبة الملوك الجبابرة ولا شيء من وراء ذلك، ويرى المشاهد لهم جديّة الموقف على حركاتهم وهمساتهم وقسمات وجوههم ...وازدادت السماء نوراً حينما ابتدأت الناس بالتهليل والتكبير وهم ينظرون إلى الشعاع النوري الذي يحيط بشخصيّة الرسولﷺ وهو يتلألأ من بين تلك البيوتات الصغيرة، يمشي على سكينة ووقار وتواضع ... وتهف القلوب إلى ذلك الموكب المتواضع بملبسه وهي تتلقّاه بالدموع لهيبة الله التي تحيط به. ويزداد وفد نجران هزّة عنيفة داخليّة وهو يسمع التهليل والتكبير الصادر من حناجر المسلمين وهي تعلو السماء، وأخذتهم الدهشة وهم ينظرون إلى ذلك الموكب المحمّدي المهيب.

تقدّم رسول اللهﷺ وبيده اليمنى الطفل الصغير الامام الحسن بن عليّ عليه السلام وبيده اليسرى الطفل الصغير الامام الحسين بن عليّ عليه السلام وخلفه ابنته سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وكان خلفها زوج الطاهرة البتول وسيد الوصيّين وأميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وقف موكب الرسولﷺ أمام ما يشبه الخيمة التي نصبها الرسولﷺ بنفسه في الليلة قبل هذا اللقاء، وهي عبارة عن كساء أسود نصبه الرسولﷺ بين شجرتين ...دخل الرسولﷺ ومَن معه في ذلك الكساء وفي تلك الخيمة وقد قال الرسول لهم: إذا دعوت أمّنوا، أي قولوا: آمّين ...والنّاس ووفد نجران كلّهم اشتركوا بالخوف والوجل والاضطراب حيث حان وقت المباهلة.

الكلّ ينظر إلى السماء تارة وإلى الأرض والأشجار تارة أخرى وهم يسمعون إلى الصوت الغير طبيعي، إلى الرياح، بل كلّ شيء أخذوا يشاهدونه أو يسمعونه برؤية وسماع غير طبيعي؛ لأنّهم لا يعلمون بأيّ آلة سيقلب الله الأمور، فإنّها مباهلة وجعل لعنة الله على أحد الفريقين وأنّ الاستجابة يقينيّة لا شك فيها.

وهاهي لحظات الصفر قد قربت ... خرج الرسولﷺ من كسائه وقد شعّت أنوار النبوّة منه وهو على ذلك الاطمئنان والثقة بالله وبالنفس وبتلك القوّة الشخصيّة التي لا تضاهيها شخصيّة، فهو أبو البشر وسيّدهم وأقربهم إلى الله ...

دعا رسول اللهﷺ بالسيّد والعاقب والأسقف للابتهال. تقدّم العاقب والسيّد يقول أحدهم للآخر: لم يأتِينا أبو القاسم بأهل الكبر والشدّة من أتباعه، وإنّما جاءنا بأهل التخشّع و سجية الأنبياء والصفوة المختارة، وهذا ممّا زادهم اضطراباً وخوفاً، بل ويقيناً بأنّه آخر يوم يعيشونه، ومع ذلك فهم أرادوا التأكّد والتعرّف أكثر على موكب الرسولﷺ ووفده الذي يريد أن يباهل بهم.

تقدّموا إلى رسول اللهﷺ وهما يقولان: يا أبا القاسم، بمَن تباهلنا؟! قال رسول اللهﷺ: أباهلكم بخير أهل الأرض وأكرمهم على الله، هؤلاء، وقد أشار إلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين ...تقدّم الركب إلى الكساء ليلقوا نظرتهم الأخيرة ... إنّهم قلّة في العدد، وبساطة في ملبس، وهيبة وقوّة وثقة وعزّة وكبرياء وروحانية

ليس لها مثيل في الرؤية والتأثير ...إنّها تزيد المؤمنين بهم حبّاً وولهاً ولا تزيد أعداءهم إلّا رهبة وصَغَاراً.

رجعا إلى رسول الله ﷺ وقالا له: فما نراك جئت لتباهلنا بالكبر ولا الكثرة، ولا أهل الشارة ممّن نرى ممّن آمن بك واتّبعك، وما نرى هنا معك إلّا هذا الشاب والمرأة والصبيّين، أبهؤلاء جئتنا نباهلك؟!، قال الرسول ﷺ: أجل بهؤلاء، وهم خير أهل الأرض وأفضل الخلق.

سكت الجميع وتأكد السيّد والعاقب من أنّهم هم أُولئك الذين يخافون دعوتهم كما توقّعوه في ليلة الأمس حيث قدّم الرسول ﷺ أعزّ ما في الوجود عنده وأحبّهم إليه ... رجع السيّد والعاقب إلى قومهم ليتشاوروا في الأمر ... ماذا ترى أيّها الأسقف أبا حارثة؟ قال أبو حارثة: ماذا أرى، إني لأرى وجوهاً لو سألت الله بها أن تزيل جبلاً من مكانه لأزاله، أفلا ترون محمّداً رافعاً يديه ينظر إلى ما تجيئان به؟! وحقّ المسيح إن نطق فوه بكلمة فلا نرجع إلى أهل ولا إلى مال، أفلا ترون إلى الشمس تغيّر لونها، والأُفق تتجمّع فيه السحب الداكنة، لقد أطلّ العذاب، والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمّداً نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالأمر الفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيّاً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن وكان الاستئصال، وإنّما عهدكم بإخوانكم حديث وقد مسخوا قردة وخنازير، ويحكم لا تباهلوه.

رجع السيّد والعاقب إلى رسول الله ﷺ وقالا له: يا أبا القاسم، رأينا ألّا نباهلك... قال لهم الرسول ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين ...قالا: لا نسلم، ولا نترك دين آبائنا، ولكن نصالحك على ألّا تغزونا، ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك في كلّ عام ألفي حلّة، ألفاً في صَفَر

وألفاً في رجب وثلاثين درعاً عاديّة من حديد ...فصالحهم الرسول ﷺ على ذلك مع بعض الشروط وقد كتب بذلك كتاباً لهم ...

وانتهى الموقف بما أراده الله، وقد شاهد الجميع نصر الله للرسول ﷺ ...بدأ المسلمون يتجمّعون قرب تلك الخيمة وذلك الكساء وفرحة النصر تملأ قلوبهم قد سيطر الصمت والسكون عليهم فلا تسمع منهم إلّا همساً هيبةً لأهل الكساء ... وقفوا وهم يسمعون الرسول ﷺ يتلو هذه الآية ويكرّرها عليهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

خرج الرسول ﷺ من كسائه على الناس وهم فرحين بنصر الله، فقال لهم كما روى أبو بكر ذلك: رأيت رسول الله ﷺ خيّم خيمته وهو متكئ على قوس عربيّة، وفي الخيمة عليّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: «يا معشر المسلمين، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، وحرب لمن حاربهم، ووليّ لمن والاهم، لا يحبّهم إلّا سعيد الجدّ طيّب المولد، ولا يبغضهم إلّا شقيّ الجد رديء الولادة»(١) ...

وتتناثر الكلمات في هذا اليوم الذي سجّله التأريخ بأحرف من نور وهو يسجّل الكلمات التي تنطلق من هنا وهناك التي لها تعلّق بالحدث وما يحيط حوله، ومن تلك اللقطات التي سجّلها التأريخ أن يُسأل الرسول ﷺ عن سبب استعانته بعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام جميعاً، فقال الرسول ﷺ: «لو علم الله تعالى أنّ في الأرض عباداً أكرم من عليّ وفاطمة والحسن والحسين لأمرني أن أُباهل بهم، ولكن أمرني بالمباهلة مع هؤلاء ـ وهم أفضل الخلق ـ فغلبت بهم النصارى»(٢).

---

(١) بناء المقالة: ٢٣٣.

(٢) مودة أهل البيت مركز الرسالة: ٩٤.

س: لماذا أمر الله الرسولﷺ أن يأخذ معه علياً وفاطمة والحسن والحسين مع أنّ وجود الرسولﷺ لوحده كان كافياً لدعائه المستجاب بدون شك؟ اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

١ـ لبيان انتساب هؤلاء إلى الرسولﷺ، حيث عرفنا عن طريق هذه الآية المتّفق نزولها على هؤلاء وبهذه القصّة أنّ علياًﷺ هو نفس الرسولﷺ وأنّ فاطمة الزهراءﷺ تمثّل النساء وهي ابنته وأنّ الحسن والحسينﷺ هما أبناء رسول اللهﷺ، فإذا كان عيسىﷺ ينتسب إلى الأنبياء عن طريق الأمّ فكذلك الحسن والحسين هما أبناء رسول اللهﷺ بنص هذه الآية.

٢ـ لبيان أهمية هؤلاء عند الأمّة الإسلاميّة، حيث قد يكون أنّ كلّ الحدث قد صنعه الله من أجل بيان حقيقة هؤلاء من منزلتهم عند الله، وما يجب على الأمّة أن تعرف منزلة هؤلاء في الإسلام، ومن جملة شواهد ذلك أنّ المسلمين المعاصرين للحدث كان جلّ اهتمامهم ليلة الحدث وصباح يومه أن ينظروا إلى مَن سوف يعيّنه الرسولﷺ للخروج معه للابتهال كما قرأنا في قصّة النزول، وشاهدنا كيف استثمر الرسولﷺ ما بعد الحدث بالتعريف بهؤلاء، هذا مع أنّ الحدث كاد أن يقوم وأنّه لم يكن في وفد نجران نساء ولا أبناء كما عرفنا ذلك من القصّة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الله يريد أن يلفت نظرنا إلى جهة الرسولﷺ فحسب، وأنّه مَن يمثّل جهة الرسولﷺ نفساً ونساءً وأبناءً ولا شيء يمثّل موضوع الآية إلّا هذا، ولهذا أمر الله الرسولﷺ أن يخرج هؤلاء دون غيرهم.

٣ـ أنّ مسلمي المدينة المنوّرة أكثرهم إن لم نقل كلّهم قد سمعوا بوفد نجران وبنزول

هذه الآية وكان الحدث هو حديث الساعة آنذاك لعظمته الواقعيّة، وعلى الرغم من ذلك لم نرَ الرسول صلى الله عليه وآله قد بلّغ أصحابه حتّى الخاصّين منهم بل كانوا جميعاً يخمّنون كعامّة الناس بمَن يخرج مع الرسول صلى الله عليه وآله، وإن كانت الكفّة الراجحة في تخمينهم هم هؤلاء أهل البيت دون غيرهم لمعرفتهم بهم شخصيّاً ومن خلال القرآن ومواقف الرسول صلى الله عليه وآله التي كان يؤكّدها عليهم قولاً وفعلاً بين الحين والآخر، ولم يتقدّم إلى الرسول صلى الله عليه وآله أحد للمشورة أو المعونة أو يعرض نساءه أو ابناءه أو أي شيء آخر، ولم نجد أحداً تقدّم ولو قريباً منهم صباح الحدث، فليس في وسط ساحة التحدّي إلّا طرفان، وفد نجران من جهة وهؤلاء الخمسة من جهة أُخرى، وأمّا البقيّة فهم متفرّجون كان مَن يكن، وهذا يعني أنّ الكلّ بخاصّتهم وعامّتهم يعرف أنّ هذا أمر الله لا شأن لغير هؤلاء فيه وأنّه أمر لم يكن قابل للمساهمة فيه غير هؤلاء، فإذا كان المتقدّمون قد فهموا هذه الخصوصيّة فلماذا يأتي المتأخرون ليعمّموها؟!!.

٤ـ أنّ العموميّة غير جائزة أصلاً؛ لأنّها لو كانت ملحوظة في الخطاب لكان من الواجب على الرسول صلى الله عليه وآله أن يأتي بأكثر من هؤلاء ليمتثل الأمر، لأنّ الصيغ المستعملة في الخطاب هي صيغ جمع لا مفردة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وآله عُدّ ممتثلاً للأمر على الرغم من أنّه جاء بالمفرد فهو قد جاء بعليّ عليه السلام وأنّه مثّل الأنفس وبفاطمة عليها السلام وأنّها مثّلت النساء وبالحسن والحسين عليهما السلام وأنّهما مثّلا الأبناء، وهذا يعني أن اختيار هؤلاء دون الجميع لا يفسّر إلّا بأحد الأمور التالية أو جميعاً:

أولاً: أنّ هناك أمراً إلهياً بهؤلاء دون غيرهم، وإطلاق العام وإرادة الخاص له استعماله الكثير في القرآن.

ثانياً: أنّ المراد من الرسولﷺ أن يمتثل أمر الخطاب بأدق وأصدق الأفراد كما هي سجيّة الرسولﷺ في امتثال أيّ أمر إلهي، وأنّ الرسولﷺ غير مستعدّ أن يخلّ بامتثال الأمر من أجل مراعاة عواطفه أو أيّ دافع شخصي ذاتي له، ومن هنا لم يجد الرسولﷺ إلّا هؤلاء، فيكون الخطاب منحصراً بهم دون غيرهم لتشخيص الرسولﷺ، والرسول لا يخطأ لا بفهمه للخطاب القرآني ولا بتطبيقه على أحسن الوجوه.

ثالثاً: أنّ طلب المباهلة من قبل وفد نجران كان متعلّقاً بالرسولﷺ، كما أنّ نظر الرسولﷺ هو وفد نجران لا غيرهم، وكان الغرض من المباهلة أن يستأصل أحدهما الآخر من خلال استئصال الرأس الذي يمثّل حركة الكذب والاتّباع، وليس لكلّ من الطرف له شأن بمطلق التابعين؛ لأنّه عندما ينزل العذاب على أحد الطرفين فإنّ حركة التابعين ستنتهي وهم يشاهدون العذاب قد نزل على أعلى سلطة دينيّة تمثّلهم نتيجة كذبهم.

وبعبارة أخرى: أنّ حياة الإسلام قائمة بهؤلاء الخمسة فلو نزل العذاب عليهم لم يبقَ للإسلام اسم ولا رسم، فالرسولﷺ قدّم كلّ الوجود الإسلامي طبقاً للمراد من المباهلة وتحقيقاً لهدفها الذي هو الاستئصال.

٥ـ هناك فوائد فرعيّة يمكن للإنسان أن يستفيد من خروج هؤلاء مع الرسولﷺ منها:

أوّلاً: إبراز الإخلاص واليقين والصدق الذي يحمله الرسولﷺ في نبوّته ودعوته للإسلام، فنحن نرى أن الحياة العاديّة للإنسان في العيش مع أسرته، ويتعب الإنسان نفسه ويكافح مشاكل حياته من أجل أن يوفّر العيش الرغيد لأبنائه ونسائه وبالتالي لنفسه، ويحاول أن يحافظ عليهم ويدافع عنهم حتّى

الموت ويحاول جهد إمكانه ألّا يفرّط بهم في أي موقف يحتمل فيه هلاكهم، والرسول ﷺ يدعو ويُخرج في المباهلة ما هو أعزّ شيء عنده مقدّماً ترتيب الأعزّ فالأعزّ، أبناؤه ثمّ نساؤه ثمّ نفسه.

ثانياً: أنّ سنّة الاستئصال بالابتهال تشمل الأولاد والنساء والأنفس ولا تبقي شيئاً للمدعو عليهم.

س: مَن قال: إنّ علياً عليه السلام هو نفس الرسول ﷺ وليس المراد من ﴿أَنْفُسَنَا﴾ في الآية هو نفس الرسول ﷺ لا غير؟

ج:

١ـ أنّ الرسول ﷺ هو الداعي، فلو كان المقصود من (أنفسنا) هو نفس الرسول ﷺ لزم اتّحاد الداعي والمدعو وهو أمر غير عقلائي، فلابدّ أن يكون الداعي غير المدعو، وهو هنا لا يوجد رجل يمثّل ذلك إلّا أميرالمؤمنين علياً عليه السلام الذي شاء الله أن يبيّنه في هذه الآية وفي ذلك الموقف العظيم أنّه نفس رسول الله ﷺ.

٢ـ الأحاديث المستفيضة عند الفريقين التي تشير إلى خروج عليّ بن أبي طالب عليه السلام معهم وهو يمثّل نفس الرسول ﷺ لا غير.

س: لقد عرفنا من خلال هذه الآية أنّ أميرالمؤمنين علياً عليه السلام هو نفس الرسول ﷺ فما هي الفائدة من ذلك؟

ج:

أنّ كلّ ما هو مفروض للرسول ﷺ من جهة قربه لله ومن جهة موقعه عند الناس ومن جهة ما تحمل شخصيّته من مميّزات فهي بنفسها موجودة عند أميرالمؤمنين عليه السلام إلّا النبوّة والوحي، وما هي إلّا التأكيد على ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام، ورد في أسئلة

المأمون للإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: ما الدليل على خلافة جدّك علي بن أبي طالب؟ قال الإمام: «آية أنفسنا»، قال: لولا نساءنا، قال الإمام: «لولا أبناءنا»، سكت المأمون وقد فهم الجواب[1]، أي (أنفسنا)جعل نفس عليّ عليه السلام بمنزلة نفسه صلى الله عليه وآله، وقول المأمون: (لولا نساءنا) فإنّها صريحة في الاختلاف، فتكون كذلك أنفسنا، فأجابه الإمام عليه السلام: «لولا أبناءنا» فنزل أبناء عليّ عليه السلام أبناء نفسه صلى الله عليه وآله، وهكذا يكون في عليّ عليه السلام.

س: في بداية الحديث وفي التفسير الإجمالي لآية المباهلة تريد التأكيد على أنّ المباهلة كانت طلباً من وفد نجران وعندما قرأنا القصّة رأينا فعلاً أنّ هناك كلمات كثيرة دلّت على ما تقول، ولكن لماذا هذا التأكيد؟

ج:

أنّ نتيجة المباهلة قائمة على المعجز من الله سواء كان بواسطة الدعاء أو بغيره، والأسلوب المعجز في مثل هذه الأمور لم يكن الأسلوب المحبب ولا المفروض من قبل الله على الأنبياء، بل أراد الله من كلّ الحركة أن تقوم بأسبابها الطبيعيّة وقد وضع الله الحلول الكثيرة لعلاج القضايا والمشاكل، فلو كانت طريقة هلاك الآخرين تندرج ضمن الحالات الطبيعيّة والمتوقّعة من الله لأهلك الله جميع المعاندين منذ البداية من دون توسط دعاء الآخرين ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾(الأعراف:١٥٥).

إن قلت: ماذا تقول في إهلاك الله للقرى والأقوام التي يتحدّث القرآن عنها؟

قلت: إنّ الهلاك من قبل الله إمّا أن يكون بالمباشرة ومن دون توسط دعاء، فهذا

---

(١) مستدرك سفينة البحار ١٠:١١٨.

قائم ويجري ضمن حكمة الله وعلمه وقيموميّته، وهذا خارج عن موضوع البحث الذي هو الهلاك المعجز الذي يقع نتيجة المباهلة بالخصوص، وإمّا أن يكون هلاك القوم بتوسط دعاء أحد الأنبياء وهذا هو الابتهال كما حصل لنوح وصالح ويونس وغيرهم أن دعوا على أقوامهم بالهلاك والاستئصال، ولكن يختلف عن آية المباهلة في أُمور منها:

١ـ أنّ المباهلة حصلت بين طرفين مؤمنين بدين الله ولهذا كان الطرفان مستسلمين للدعاء لله ويختلفون في بعض التفاصيل، ولهذا عبّر في آية المباهلة أن تكون اللعنة على الكاذبين لا الجاحدين، بينما الذي حصل مع الأنبياء لم يمثّل طرف المباهلة إلّا واحداً وأنّ الطرف الآخر جاحد بالله ومنكر للدين جملة وتفصيلاً.

٢ـ أنّ ابتهال النبي له شروطه، فهو لا يأتي في بداية حركته ولا في وسطها ولا في نهايتها، وإنّما يأتي في نهاية النهاية وفي النقطة الأخيرة من النهاية، أي بعد اليأس القطعي من قبل النبي بأنّ القوم لم يؤمنوا ولم يولد أحد منهم مَن يُرتجى منه الايمان ضمن ما ألهمه الله من العلم ومعرفة الخطوط العريضة في تشخيص ذلك؛ لأنّ المباهلة عمليّة استئصال تحتاج إلى يقين بأنّه لا يلدوا منهم إلّا فاجراً كفّاراً ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح:٢٧)، ولهذا تجد الأنبياء بدعاتهم أنّهم يقدّمون تقريرهم الكامل إلى الله وهو يعكس وجهة نظرهم الأخيرة القطعيّة عن قومهم في أنّه قد وصل إلى حد اليأس منهم ضمن البرنامج الذي رسمه الله له في معرفة الوصول لهذه الحقيقة، وفوق كلّ ذلك إذا علم الله باختلال أحد الشروط التي لم يطّلع النبيّ عليها فلا تقع استجابة لابتهال النبي كما حصل ذلك مع النبي يونس﴿ع﴾ ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧).

٣ـ من النقطة الثانية نعرف أنّه من المستحيل أن يكون النبي ﷺ هـو الذي طـلب المباهلة لعدم يأسه منهم وقد أسلم بعض الوفد عند رجوعه إلى نجران، ومن علمه بأنّ نجران ستتحوّل إلى مدينة من المدن الإسلاميّة، وبمعنى آخر. أنّـه سيولد منهم مؤمن بالله وبالإسلام، وهذا ـ أي عدم اليأس من القوم ـ أهم ركن من أركان المباهلة والاستئصال للقوم وقد كان منفيّاً لعلم الرسول ﷺ بـذلك، فيستحيل طلب المباهلة من الرسول ﷺ.

٤ـ أنّ تنازل الرسول ﷺ مع وفد نجران ولم يجعل النتيجة تصل إلى نهايتها وهي استئصال الوفد، يكشف عن عدم طلبه للإبتهال من الأوّل؛ لأنّه لو كان طـلبه لكان قائماً على أُسسه وعلى ما يعرفه من وصول الوفد إلى حدّه النهائي، وأنّ لازم ذلك أن تكون النتيجة من الهلاك واقعاً حتمياً عليهم ولا ينفعهم تنازلهم إلّا بالايمان قبل نزول الهلاك، بينما نحن نرى أنّ النتيجة لا هلاك عليهم ولا إيمان صدر منهم، فإذا كان وفد نجران يريد هلاك الرسول ﷺ فإنّ الرسول ﷺ كان يريد حياتهم لأجل أُولئك المؤمنين الذين سيولدون منهم والذي ينظر إليهم الرسول ﷺ ببصيرته وببصر الوحي والإلهام الإلهي له.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؟

ج:

١ـ أنّ الذي نقصّه من قصص عيسى ﷺ وغيره هو الحق ومنحصر الصدق فيه دون

غيره ممّا يقال من هنا وهناك سواء كان منقولاً على لسان اليهود أو النصارى.

٢ـ أنّ النتيجة المستخلصة من تدوين مثل هذه القصص كآيات في القرآن والتي يجب على كلّ إنسان أن يذعن لها وهي أنّه لا إله إلّا الله، فلا شريك له بابن كما قالته اليهود والنصارى، وأنّه موجود واحد متفرّد بذاته وفعله ليس كمثله شيء، وهو العزيز الوحيد بكلّ شيء خلقه وهو العزيز القاهر لكلّ شيء، فهو الخالق وغيره مخلوق، وهو المدبّر لكلّ شيء بحكمته.

٣ـ هذه هي الحقيقة وهذا هو قول الحق فمَن آمن بذلك والتزم به فهو على حق وعلى فوز ونجاح في الدنيا والآخرة، وإن تولّى وأعرض عن هذه الحقيقة وهي حقيقة التوحيد وعن هذا الحق الذي ينزل على رسوله ﷺ من الكتاب بما فيه من البرهان والدليل وأنّه من وحي الله، فالله عليم بالمفسدين الذين يقعون تحت وعيد الله فلا منجي لهم، كما هو علمه بوفد نجران بأنّهم سيتولّون ويعرضون عن الحق مع بقاء البعض منهم على فساد عقيدتهم.

س: هل للمباهلة صيغة معيّنة يتلفّظ بها المباهل؟

ج:

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «تشبك أصابعك في أصابعه ثمّ تقول: اللّهمّ إن كان فلان جحد حقّاً وأقرّ بباطل فأصبه بحسبان من السماء أو بعذاب من عندك. وتلاعنه سبعين مرّة»(١).

(١) الكافي ٢: ٥١٤/ ٣.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله
وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً
وَمَا كَانَ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا
النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالله وَلِيُّ الْـمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ * وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى الله أَنْ يُؤْتَى
أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ
تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ
عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ
أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ الله يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله

وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤ـ٧٨).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الأرباب: جمع رب.

٢ـ ها: حرف تنبيه.

٣ـ أولى: من الأولويّة والتقدّم والأفضل.

٤ـ ودّت: من الود وهو التمنّي الممزوج بالحب.

٥ـ الطائفة: جمع من الناس.

٦ـ وجه النهار: وقت الصبح والغداة.

٧ـ آخر النهار: وقت الظهر وما بعده.

٨ـ الفضل: كلّ ما يعطيه الإنسان من منفعة غير ملزم به، وإذا نسب إلى الله فهو مطلق عطائه لأنّه كلّه فضل.

٩ـ الدينار: سكّة ذهبيّة تزن مثقالاً شرعياً من الذهب تعادل اليوم ٤/٢٥غرام من الذهب.

١٠ـ يلوون: يميلون.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؟

ج:

يعلّمنا الله أسلوب المحاجّة مع المخالفين أيّاً كانوا، ويدعونا الله إلى نبذ الخلاف أيّاً كان ليفتح أمامنا أمل اللقاء والتفاهم والوحدة والتآخي، وأنّ ظهور الخلاف هي حالة طبيعيّة تحدث للبشر لاختلاف الفهم والتصور العلمي والعملي وورود المزاج المختلف، وهناك عوامل أُخرى للخلاف، وأنّ الخلاف بما هو خلاف وبنسبة لا ينفك عنه إلى يوم القيامة مادام الاجتماع قائماً في الحياة، ولكن يعلّمنا الله من خلال هذه الآية أنّ الخلاف الذي يحصل بين الطرفين لا يكون عقيماً بحيث يسدّ كلّ أبواب التفاهم واللقاء، بل على الإنسان أن يبحث دائماً عن نقاط الاشتراك بينه وبين الطرف الآخر، فإذا وجدت نقطة اشتراك بينه وبين الطرف الآخر المختلف معه سوف تنفتح له آفاق الحب واللقاء على هذه الأُسس المشتركة التي بينه وبين المخالف معه، بل وكيف إذا وجد أهم العوامل والعناصر المشتركة بينه وبين مخالفه بأن كانت تمثّل أُم الارتباط والانسجام والحب والتآخي، تلك هي النقاط والعناصر الإيمانيّة والعقائديّة التي تهزّ عنده دعوة الانفتاح على الآخرين وتضعه على طاولة المسؤوليّة، وهذا ممّا يحطّم ويُذوِب الكثير من ترسّبات الضغينة والحقد والتشنّج ويجعله يتعامل مع الأُمور الفكريّة والمواقف العمليّة بكلّ تعقّل وانشراح صدر فتنصهر تحته الأُمور الخلافيّة شيئاً فشيئاً.

فالمخلص لله ولعقيدته ويحب الناس أن تعمل بما يؤمن به عليه ألّا يضع نقاط

الاختلاف بوجه مَن يخالفه، وإلا فإنّ ذلك يعني الحرب والابتعاد، وإنّها لغة الخائفين على أنفسهم من الضياع تحت وطأة البراهين والأدلّة التي يمتلكها الطرف الآخر عليه، وليست لغة الأقوياء بأدلّتهم وقناعتهم بما يؤمنون، فالقويّ والواثق بما يحمله يدخل مع الآخرين على الأُسس المشتركة بينه وبين غيره ثمّ بعد ذلك يعرض ما يريد أن يعرضه أو يكون مستعدّاً للجواب على ما يُعرض عليه من نقاط الاختلاف.

فعندما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ لم يكن يقصد أن تناديهم من مكانك البعيد وأنت تجلس في مكانك وتريد من الآخرين أن يأتوا إليك، بل هو النداء العملي الذي يريده الله من المؤمن بأن يكون داعية إليه وهو يخوض الصراع المختلَف فيه على أساس من الحوار والتفاهم والانفتاح من خلال ما يشترك فيه الطرف الآخر معه، وما أهل الكتاب إلّا نموذج يطرحه الله ليعلّم من خلاله الإنسان المؤمن كيف يلتقي وكيف يحاور وكيف يحب الآخرين على أنّهم جميعاً خلق الله، وكيف يطهّر نفسه من الأحقاد والأوهام التي تعتريه لو بقي معزولاً عن حياة المجتمع، فكانت الكلمة الكبرى والجامعة لكلّ المختلفين ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾، فهل تجد مؤمناً لا يحب هذه الكلمات ولم تجمعه هذه الكلمات؟! وهل تجد جاحداً إذا كان عنده ذرّة من العقل والعقلانيّة لا يحب أن يتحرّر من عبادة المخلوق ليكون عبداً لله المطلق؟! وهل تجد مُنصفاً من أهل الكتاب يتململ عندما تقول له: ألّا نجعل لله شريكاً؟! وهل يكره أحد أن تقول له: تعال إليَّ أن نلتقي على العقل والوجدان والدليل والبرهان بعيدين كلّ البعد عن المؤثّرات الخارجيّة التي تصطدم مع هذه الوحدات الإنسانيّة وتجعلنا أُسراء التعصّب والحقد والأنانيّة والابتعاد وعدم فهم الطرف الآخر؟!

نعم، إنّ هناك كثيرين يرفضون هذا المنطق السليم الذي تسالمت عليه الفطرة والعقل، وأنّ أكثرهم للحق كارهون والذين هم عن ذكر ربّهم غافلون ومعرضون، ولكن ليعلموا أنّ توليهم هذا سيكون وبالاً عليهم في يوم لا يجلب لهم إلّا الدمار والعذاب، فإذا كانوا يشعرون بلذّة وبمنافع في دنيا الشيطان فإنّه سيكون عليهم حسرة في يوم مّا.

وليشهد الجميع بأنّا مسلمون ومستسلمون لأمر الله الذي أمرنا باللقاء، فلا زالت أبوابنا مفتوحة للّقاء على هذا الأساس من النقاط المشتركة التي طرحها الله بيننا وبينكم، وسوف تكون شهادتنا حجّة على كلّ مَن سمع نداءنا، واتّهموا أنفسكم بالوحشيّة والإرهابيّة والتخلّف قبل أن تتّهموا غيركم وأنتم تمتنعون من اللقاء، وأغلقتم على أنفسكم كلّ أبواب التفاهم والحوار ولم تفتحوا أمام الآخرين أبواب الهمجية ولم تتعاملوا مع الآخرين إلّا بلغة الحرب والدمار مغترّين بكثرتكم وقوّتكم وسلطانكم، ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لا لكم وإنّما لله ولدينه، واشهدوا أنّنا لا زلنا ندعوكم إلى هذه الكلمة وهي الكلمة التي تضمن السلام للعالَم وأنتم المعرضون عنها.

وما حوار الحضارات والتقريب بين المذاهب وغيرها من المؤسّسات الوحدويّة الذي طرحه علماء الإسلام إلّا نموذجاً، ووضع الخطوة الأُولى على طريق التجسيد العملي لوحدات هذه الآية التي بين أيدينا.

ورد أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً ...﴾ الآية، قال عدي بن حاتم: ما كنّا نعبدهم يا رسول اللهﷺ، فقال رسول اللهﷺ: «أما كانوا

يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟». قال: نعم، فقال النبيّ ﷺ: «هو ذاك»(١).

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ... هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؟

ج:

أوّلاً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أسلوب استعمله أهل الكتاب لتضليل أهل ملّتهم، ولدعوى اليهود أمام النصارى وبالعكس، ولتضليل مشركي عرب الجاهليّة ليحصلوا الكسب الجماهيري إلى اتّباع دينهم، والتضليل قائم على أساس أنّ إبراهيم عليه السلام هو منتمٍ إليهم ليعطوا لأنفسهم العلو والقدسيّة والامتداد الروحي الذي يتّصل بإبراهيم، وجاء الإسلام ليثير نقطة عقليّة قد غفل عنها البسطاء الذين انطلت عليهم هذه المغالطة فانخرطوا مع اليهود أو المسيحيين تأثّراً بهذه الدعوى ليفضح الله من خلالها الزيف الذي تحمله دعوى انتساب إبراهيم عليه السلام إلى اليهوديّة أو إلى المسيحيّة، يكشف الله زيفهم من خلال استفهام استنكاري ينكر عليهم المحاجّة في إبراهيم في أنّه ينتسب إلى أحدهما، بأنّ إبراهيم كان سابقاً على اليهودية والنصرانيّة فكيف ينتسب السابق الميّت للاحق؟! أفلا تفكّرون وتعقلون أيّها البسطاء وأيّها الداعين لهذه الفكرة، أنّ الدعوة إلى الدين لا يأتي عن طريق الكذب والتمويه على البسطاء من الناس.

ثانياً: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ

---

(١) مجمع البيان ٢: ٣١٢.

عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

شرط آخر يعرّفه الله لنا في الدعوة إلى الله والحوار مع المخالفين، يعرّفه الله لنا من خلال عرضه لأحد الأساليب التي كان أهل الكتاب يتّخذونها في دعوتهم الآخرين إلى دينهم، فقد كانوا يطرحون حججهم على أساس من الكتاب وعلى أساس من التعلّم الذي اكتسبوه من الكتاب، وهذا هو الأُسلوب الطبيعي والمنطقي للدعوة إلى الله وإلى دينه، ولكن لم يبقَ هذا الأُسلوب معهم، بل انحدروا إلى ما فيه الجهل وعدم العلم فأخذوا يفترون القصص والخيالات والأوهام ويصنعون الأمانيّ وأخذوا يروّجون لها حتّى صارت هذه الأُمور المفتعلة هي الدين والعقيدة، فصار عزير ابن الله وصار المسيح ابن الله وصارت الجنّة لا يدخلها إلّا اليهودي أو النّصراني، وأنت ترى أنّ هذه الأُمور كلّها من الأُمور الاعتقاديّة التي لا يعلمهاالله ولا يخبر بها إلّا الله ولا يجوز الأخذ بها إلّا عن الطريق الشرعي لها، ولا يجوز البثّ بها إلّا أن يكون الإنسان الداعية محيطاً بها إحاطة العالِم بها، وإلا يكون قولاً بلا دليل وعلم، والله يحذّر من أمثال أُولئك الذين يحاجّون الناس ويتصدّون للحوار ولم يمتلكوا الإحاطة الكافية بموضوع الحوار، فإنّ ذلك يؤدّي إلى الهزيمة التي تؤثّر أثرها السلبي على الحق وأهله.

ثالثاً: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

١ـ ينفي الله ما زعمته اليهود والنصارى من أنّ إبراهيمعليه السلام ينتسب إليهم، ويثبت الله أنّ إبراهيم كان موحّداً لله مستسلماً له، وكان دينه صرف التوحيد والحنيفية لله، فلم يدخل في عقيدته شبهة في الفكر ولا واقعاً في العبوديّة ممّا يجعله مشركاً بالله كما فعلت اليهود والنصارى.

٢ـ أنّ الأسماء ليست لها قيمة بقدر ما تحمل من المضمون وتدعو إلى العمل، فليس عنوان اليهوديّة والنصرانيّة ولا غير ذلك من المسمّيات بكافٍ في التقييم عند الله وتدخل في رضاه، وهذا إبراهيم حيث لم يحمل أسم دين متميّزاً به بل هو حنيفي ومستسلم وموحّد لله وما كان من المشركين، وهذا هو الأصل في التقييم والدخول في رضا الله، وهذا هو الذي يريده الله من الإنسان في عقيدته حنيفياً في عقيدته مستسلماً لله في عمله.

٣ـ بُعدنا الزمني وامتداد يد التحريف إلى الكتب السماويّة أصبحنا بحاجة إلى مصدر يكون أم الكتاب نرجع إليه، ومن لطف الله قد أمّن لنا هذا المصدر وهو يرعاه برعايته ويحفظه بحفظه فلم تمتدّ إليه إلّا كلمات الوحي ويد الرسولﷺ، وبهذا يعتبر الصدق والحق في كلّ ما ينقله، وكان الأمّ لجميع الكتب السماويّة، فما صدّقه القرآن هو الصحيح وإلا فهو مرفوض.

وهذا هو القرآن يخبرنا عن حركة الأنبياء وما كانوا عليه سيرةً وعقيدةً، يا أهل الكتاب إذا كانت شخصيّة إبراهيمؑ تطرحونها باعتبارها الشخصيّة المتّفق عليها بينكم فهو لم يكن له مساس باليهوديّة ولا بالنصرانيّة التي عليها اليوم، فلم يكن يدعو إلّا لله الواحد الأحد الفرد الصمد ولم يجعل له ابناً ولا ما هو أقلّ أو أكثر من ذلك، فمن أين جاءتكم عقيدة تأليه الشخصيّات؟!! وهذا هو إبراهيمؑ لا يختلف عن جميع الأنبياء في أنّه حنيفي مسلم، وعليه موسى وعيسى وكلّ الأنبياء في أنّهم حنفاء مسلمون لله، لا يدّعي أحدهم من إنّه إله أو أبن له أو ما هو أقل من ذلك، فمن أين جاءكم هذا النوع من الإشراك بالله الذي دخل في عقيدتكم؟!! فإذا كان الله ينفي عنه القول بمثل هذه العقائد المشركة وينفي ما تنسبون إلى الأنبياء فاعلموا أنّكم تسيرون بسير عقائدي يخالف الله

وأنبيائه، وأنّ انتسابكم إليهم انتساب كاذب ومرفوض عند الله وعند موسى وعيسى.

ورد عن أميرالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً﴾ أنّه قال: «لا يهوديّاً يصلي إلى المغرب ولا نصرانيّاً يصلّي إلى المشرق، لكن كان حنيفاً مسلماً على دين محمّد »[1].

رابعاً: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ليس الانتساب وحده يكفي في كسب الفضيلة والشرف عند الله، بل قد يدخل النار وإن كان سيّداً قرشيّاً ويدخل الجنّة وإن كان عبداً حبشيّاً، كما ورد ذلك عن الإمام عليّ بن الحسين. إنّ أفضل الانتساب للنبي هو طاعته والاستنان بسنّته وجعله وليّاً تمتثل بما أمر وتنتهي عمّا نهى، وعليه يكون أولى النّاس بإبراهيم هم أُولئك الذين اتّبعوه بخالص الاتّباع على طول خطّ دعوة إبراهيم وما بعده من موسى وعيسى، واتّبعوا هذا النبي محمّداً حيث الكلّ على ملّة إبراهيم حنفاء مسلمين، واتّبعوا المخلصين من الذين آمنوا من اليهود الذين لم يشركوا بالله الذين اتّبعوا موسى على ما كان عليه وممّا جاء به من الله، واتّبعوا المخلصين من الذين آمنوا من النصارى الذين اتّبعوا عيسى على ما هو عليه وممّا جاء به من الله، واتّبعوا المخلصين من الذين آمنوا من المسلمين الذين اتّبعوا محمّداً على ما هو عليه وممّا جاء به من الله. اتّبعوا الذين جعلوا الولاية لله ولم ينتصروا إلّا إلى دينه ولم يكن لهم همّ إلّا مرضاته، فكان انتماؤهم إلى الأنبياء انتماء الولاية لله، فكان الله وليّهم

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٧٧/ ٦٠.

ينتصرون لدينه فينصرهم، وهذه هي منهجية الله في الانتماء والانتساب والاتباع الثابتة التي لم تتغيّر.

ورد عن الإمام أميرالمؤمنين‹ع› أنّه قال: «إنّ أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به»، ثمّ تلا هذه الآية وقال: «إنّ وليّ محمّد مَن أطاع الله وإن بَعُدت لُحمته، وإنّ عدو محمّد مَن عصى الله وإن قَرُبت لحمته»[1].

وورد عن ابن عباس، وعن ابن شهاب، أنّه قال: لمّا هاجر جعفر بن أبي طالب وأناس من أصحاب النبيّ‹ص› إلى أرض الحبشة واستقرّت بهم الدار وهاجر النبيّ‹ص› إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: انّ لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمّد ثاراً ممّن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي لعلّه يدفع إليكم مَن عنده من قومكم، ولينتدب إليه رجلان من ذوي رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص، وعمارة بن أبي معيط ومعهم الهدايا، فركبا البحر حتّى أتيا الحبشة، فلمّا دخلا على النجاشي سجدا له وسلّما عليه، وقالا له: انّ قومنا لك ناصحون شاكرون، ولأصحابك محبّون، وإنّهم بعثونا إليك لنحذّر هؤلاء الذين قدموا عليك لأنّهم قوم رجل كذّاب، خرج يزعم أنّه رسول الله، ولم يتبعه أحد منّا إلّا السفهاء، وإنا كنّا قد ضيّقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد، فقتلهم الجوع والعطش، فلمّا اشتدّ عليه الأمر بعث إليك ابن عمّه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيّتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم. قال: وآية ذلك إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يحيّونك بالتحيّة التي يحييك بها الناس، رغبة عن دينك وسنّتك.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٢١/٩٦.

قال: فدعاهم النجاشي، فلمّا حضروا صاح جعفر بالباب: يستأذن عليك حزب الله تعالى، فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم، فليدخلوا بأمان الله وذمّته، فنظر عمرو إلى صاحبه، فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك؟ فأساءهما ذلك. ثمّ دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنّهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيّوني بالتحيّة التي يُحيّيني بها مَن أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك وملّكك، وإنّما كانت تلك التحيّة لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبيّاً صادقاً فأمرنا بالتحيّة التي رضيها الله وهي السلام، تحيّة أهل الجنّة.

فعرف النجاشي أنّ ذلك حق، وأنّه التوراة والإنجيل، قال: إنّك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام، ولا الظلم، وإنّما أُجيب عن أصحابي، فمر هذين الرجلين فليتكلّم أحدهما، ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا، فقال عمرو لجعفر: تكلّم.

فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنّا عبيداً قد أبقنا من أربابنا فردّنا عليهم. فقال النجاشي: نجوا من العبوديّة، فقال جعفر: سلهما، هل أرقنا دماً بغير حقّ فيقتصّ منّا، فقال عمرو: لا ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال النّاس بغير حقّ فعلينا قضاؤه؟ قال النجاشي: إن كان قنطاراً فعليَّ قضاؤها، فقال عمرو: لا ولا قيراط. فقال النّجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال: كنّا وإيّاهم على دين واحد، على دين آبائنا فتركوا ذلك واتّبعوا غيره، فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الذي كنتم عليه، والدين الذي اتّبعوه؟

فقال جعفر: أمّا الدين الذي كنّا عليه فهو دين الشيطان، كنّا نكفر بالله ونعبد

الحجارة، وأمّا الذي تحوّلنا إليه فهو دين الله الإسلام، جاءنا به من عند الله رسول بكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له. فقال النجاشي: يا جعفر تكلّمت بأمر عظيم.

ثمّ أمر بضرب الناقوس فضرب، واجتمع إليه كلّ قسيس وراهب، فلمّا اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيّاً مرسلاً؟ قالوا: اللّهم نعم قد بشّرنا، فقال: مَن آمن به فقد آمن بي ومَن كفر به كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل، وما يأمركم به ، وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلة الرحم، وبر اليتيم، يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له.

فقال: اقرأ عليّ ممّا يقرأ عليكم، فقرأ عليه سورة العنكبوت ، والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيّب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال: إنّهم يشتمون عيسى وأمّه، فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى وأمّه؟ فقرأ عليهم سورة مريم، فلمّا أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين وقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا.

ثمّ أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم أرضي ـ آمنون ـ مَن سبّكم وآذاكم غرم، ثمّ قال: ابشروا، ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم. فقال عمرو: يا نجاشي، ومَن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط، وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده ، ومَن اتّبعهم، فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم.

ثمّ ردّ النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه، وقال: إنّما هديتكم إليّ رشوة فاقبضوها، فإنّ الله ملّكني ولم يأخذ منّي رشوة، قال جعفر: فانصرفنا فكنّا في

خير جوار، وأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك على رسول الله ﷺ في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

أوردنا هذا النقل التأريخي لا من باب أنّه يمثّل سبب النزول بل من باب أنّه ذكر يذكّرنا بأُولئك الأوائل الذين وقفوا هذه المواقف البطوليّة لنكتسب منهم الثقة والإخلاص والبطولة، وأنّها تعكس نصر الله لأوليائه.

خامساً: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

١ـ الإضلال هو الابتعاد عن الحق والخير، الإضلال طريقة مخالفة للسجيّة الإنسانيّة التي فطر الله الناس عليها، الإضلال يأتي بفشل بعد فشل، فهو حالة ثابتة الفشل لعدم انسجامها مع طبيعة الخلق والحياة، فالذي تراه من الحالة الثابتة للإضلال بخطّه العام لا بنفسه وذاته، فالإضلال حالة متغيّرة فاشلة بنفسها، بعكس الحق الذي هو ثابت مستمرّ بذاته وبنفسه وأسلوبه لا يتبدّل بطول الفترة الزمنيّة وتبدّل الأوضاع والأحوال، فالذي يريد أن يسير بنفسه نحو الضلال معناه يسير بنفسه نحو الفشل فهو يضلّ نفسه قبل غيره من حيث لا يشعر؛ لأنّه يمنّيها بما هو ظاهر من الربح والكسب اليومي الذي يحصل عليه نتيجة إضلاله، فليس له نظرة إلّا بما هو موجود الآن وعلى المدى القصير.

خذ مثالاً لذلك: فإنّ مجموعة وطائفة من أهل الكتاب يتحرّكون جاهدين أنفسهم في المجال الإعلامي والصحافي والتأليف وجمع الأموال وصرفها

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٧٠.

والتظاهر بالأخلاق أمام المسلمين، ويعرضون عليهم ما تشتهي الأنفس وغيرها من الأمور التي يصنعونها، كلّ ذلك يتمنّون من ورائه أن يكسبوا المسلمين إلى ما هو غير الإسلام ديناً ومضموناً ويفرّغوا المسلمين عن محتواهم الجوهري الذي يحملونه، وهذه عمليّة إضلال بنفسها، وعمليّة إضلال لأنفسهم حيث لا يشعرون أنّ الإسلام دين الفطرة لا يقاوم انتشاره بين الناس هذا الإضلال وطرقه، لا يشعرون أنّ الإسلام هو دين العقل والقلب الذي يمثّل ضالّة الإنسان ويملأ كلّ الفراغ الذي يشعر به الإنسان أين ما كان، فإذا نجحت هذه الطائفة من أهل الكتاب في اصطياد بعض المغفّلين أو الجاهلين من المسلمين فإنّ الإسلام قد أخذ طريقه إلى العقول وامتلك قلوب علماء الناس غير المسلمين ومثقّفيهم؛ لأنّ الناس ميّالة إلى الفطرة السليمة وإلى ما يفرضه العقل المجرّد والحجّة البالغة، والإسلام هو الكفيل والمستجيب الوحيد لهذه الأمور والمخالف له لا يسير إلّا في أن يخادع نفسه.

٢ـ مادام دافع أهل الكتاب هو الحسد، وأنّها حالة مرضيّة لا تؤذي إلّا الحاسد كما مرّ تفصيل ذلك في بحث الحسد، وعليه فلا يتأثّر المسلمون ولا ينقص الإسلام شيئاً بما تمنّاه أهل الكتاب، بل إنّ كلّ مسعى في هذا الطريق لا يتعب صاحبه ولا يأكل إلّا أفراده، فهذه هي حقيقة الحسد ونتيجته التي لا يشعر أهل الكتاب بها.

س: لماذا جعلت محاولة أهل الكتاب بخروج المسلمين عن دينهم هي محاولة إضلال لا غير؟

ج:

لأنّ المسلمين قد آمنوا بالإسلام الذي هو قمّة الأديان وأكملها، فهم يحملون الحقّ كلّ الحق، وهذا يعني أنّ أيّ طلب استمالة المسلمين إلى غير الإسلام لا يكون إلّا عن طريق الإضلال.

سادساً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

صورة من صور الإضلال الذي يقوم به أهل الكتاب وهي التكذيب بمحمّدﷺ على أنّه رسول من الله مع أنّهم يشاهدون آيات الله من خلال التوراة والإنجيل في أنّها تنقل التصاريح والوثائق والدلائل العلميّة على ذلك، وهم يشاهدونها ويعلمون بها علم اليقين، وهذا النوع من الإضلال سيتآكل من نفس اليهود والنصارى من أصحاب العقول الحرّة والضمائر الحيّة التي تريد مرضاة الله وتبحث عن الحق والحقيقة وهي تشهد بالحق وتدلي بشهادتها بين الحين والآخر.

سابعاً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

صورة أُخرى من الإضلال الذي يقوم به أهل الكتاب وهي الخداع والمخادعة بالتفسير والتأويل البعيد عن الحق، فيعطون للحق صورة غير صورته الحقيقيّة ويلبسونه ثوباً غير ثوبه، وهم يعلمون أنّ هذه الآيات تحكي عن محمّدﷺ وعن رسالته وأنّها بريئة عن كلّ ما ينسبونه لموسى وعيسى من الشرك، وهم يعلمون التفسير والتأويل الحقيقي لكلّ هذا وذاك فيكتمون الحق، وهذا اللون من العمل لم يَدُم على أصحاب الفطنة والعلم وعلى غير التقليديين منهم، ولهذا تجد الإسلام يحتضن منهم الكثير بين الآونة والأُخرى نتيجة إعلان إسلامه وإذعانه للحق.

ثامناً: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

صورة أُخرى من الإضلال الذي كان يقوم به أهل الكتاب من النفاق والخبث، وهنا المراد منهم خصوص اليهود، وأُسلوبهم هذا يوجد فيه وجهان:

١ـ أن يكون من أساليبهم في الإضلال أنَّ علماءهم يأمرون أشياعهم من أن ينخرطوا ضمن صفوف المسلمين، وكانوا يأمرونهم بالايمان بمحمّدﷺ فيدخلون وكأنّهم آمنوا، وعند آخر النهار وتجمّع المسلمين للصلاة ينسحبون بإعلان كفرهم بالرسولﷺ بحجّة عدم انطباق صفاته على ما تنقله التوراة عنه، وبهذا الأُسلوب يزرعون الشك والترديد في قلوب المسلمين لعلّهم يرجعون عن دينهم وعن التصديق بالرسول محمّدﷺ .

في (أسباب النزول) للواحدي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية أنّه قال: قال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر ـ وقرى عرينة ـ وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا: إنّا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا فوجدنا محمّداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه، وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم به منّا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم. فأنزل الله هذه الآية، وأخبر به نبيّه محمّداًﷺ والمؤمنين[1].

٢ـ أن يكون من أساليبهم هو أنَّ علماء اليهود وقادتهم كانوا يأمرون أشياعهم بأن يؤمنوا بما أُنزل على الرسولﷺ وهو الصلاة إلى بيت المقدس التي كانت الصلاة إليها أوّل النهار، ولمّا جاء الأمر للرسولﷺ بتحويل القبلة في آخر

---

(١) البحار ٩: ٧٠.

النهار أمروا بالكفر به وبالبقاء بالصلاة إلى بيت المقدس.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي...﴾ الآية أنّه قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا قدم المدينة وهو يصلّي نحو بيت المقدس أعجب ذلك القوم، فلمّا صرفه الله عن بيت المقدس إلى بيت الله الحرام وجدت اليهود من ذلك، وكان صرف القبلة صلاة الظهر، فقالوا: صلّى محمّد الغداة واستقبل قبلتنا، فآمنوا بالذي أُنزل على محمّد وجه النّهار واكفروا آخره، يعنون القبلة حين استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد الحرام»(١).

تاسعاً: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

صورة أُخرى من صور إضلال اليهود، وهي هنا كتمان الحق وحصره بين أُناس معدودين من رؤساء اليهود، فهم يأمرون بعضهم بعضاً بألّا لا يثقوا بأيّ أحد في إفشاء سرّ ما يعلمون وما يعتقدون على ما هو موجود في التوراة فيما يطرحه حول الإسلام وصفات محمّد صلى الله عليه وآله، لا يفشوا هذه الأسرار إلّا لمَن لا يتأثّر بالحق والحقيقة فيعلن إسلامه، بل أفشوه لمَن اتّبع دينكم ومنهج اعتقادكم في ألّا يضع في حسابه إلّا نصرة اليهود بعيداً عن حسابات الحق والدين وعالَم الغيب وما هو المفروض وما هو غير المفروض الشرعي، وبهذه الطريقة ستحصلون على شيئين هما:

الأوّل: أنّكم ستبقون متميّزين عن غيركم في أنّ الحق سيكون منحصراً بكم فتكونون أنتم المرجع في معرفة الحقائق فتجيبون حسبما تتبنّون من الابتعاد عن

---

(١) تفسير القمي ١: ١٠٥.

الحق والحقيقة.

الثاني: ستغلقون باب المحاجّة عليكم من قبل المسلمين أو من قبل عوام اليهود، لأنّ بانحصار الحق بينكم سوف لا يصل إليهم شيء يحتجّون به عليكم عند ربّكم باعتباركم علماء دين تمثّلون الواسطة في نقل ما يقوله ربّكم، وفي نفس الوقت سوف تتخلّصون من حساب الله يوم القيامة حيث لم يحتجّ عليكم أحد لعدم معرفتهم بالحقّ أصلاً.

ويجيبهم الله بهذه الأجوبة التالية:

أوّلاً: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾، ومنه نستنتج الأُمور التالية:

١ـ لم ينحصر الوصول إلى هدى الله بما كتمتموه على الناس فإنّ لهدى الله طرقاً متعدّدة يمكن الوصول إليها.

٢ـ أنّ الهدى هدى الله وليس ملك أحد، وهو أمانة في أيديكم فلا تحصروه على العدد المخصوص.

٣ـ أنّ الهدى هدى الله فليس بمقدور أحد أن يسبب له منع بأي أسلوب خُطّط لمنعه أو الوقوف بوجهه.

٤ـ أنّ الهدى هدى الله فآلية الوصول إليه لا ينفع معه حصر الحق في النفر المعدود، لأنّ طريق الوصول إليه تشترك فيه حواس الإنسان من السمع والبصر وتشترك فيه القلوب والعقول، ومادام الإنسان يعيش حياته الاجتماعيّة فهو يسمع ويرى وله عقل يفكّر وقلب يتأثر، ويكفي الإنسان موقفٌ واحدٌ في أن يميل إلى الحق والهداية فيهديه الله، وإذا أراد الله أن يهدي بشراً فلا رادّ له ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس:١٠٧).

ثانياً: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أنّ عطاء الله كلّه فضل منه ونزوله على النّاس وتوزيعه بيده سبحانه سواء كان في جانبه الماديّ كالرزق العام، أو بجانبه المعنوي كاختيار الأنبياء ونزول الكتب، ولمّا كان بيده فهو يؤتيه مَن يشاء على أساس من الحكمة والعدل، وكذلك فهو يمنعه عمّن يشاء على أساس من الحكمة والعدل، وإذا أراد الله في أن يأتي أو يمنع الفضل فلا غالب لأمره، وعليه أيّها اليهود يجب أن تعلموا أنّ الحق الذي تكتمونه وتجعلونه منحصراً بأفراد معدودين هو فضل من الله عليكم، فإذا كان كذلك فهذا يعني الأمور التالية:

١ـ أنّ قدرة الله مطلقة لا تقتصر على نوع واحد من الفضل حتّى ينفع تعصّبكم في منعه.

٢ـ إذا كان الفضل بيد الله وقد جعل الرسول ﷺ من العرب فلا يفاجئكم بأن لم يجعله من بني إسرائيل، لأنّ الفضل بيده يؤتيه مَن يشاء ويمنعه عمّن يشاء، وهو قائم على أساس من العدل والحكمة وأنّه هو وحده العليم بما هو أصلح، وهذا ما يجب أن تؤمنوا به.

٣ـ أنّكم ترون ما فضّله الله عليكم فصرتم تمثّلوا التوراة بحيث لا فضل أكبر من هذا الفضل، فإذا زال منكم هذا الفضل فلا وجود لوجودكم ولا مزيّة تبقى لكم، والحقيقة ليست كذلك وكما تقولون وتتصوّرون، بل الله واسع الفضل عليم بكلّ شيء وهو الذي يقول لكم آمنوا بمحمّد ﷺ فإنّه هو الفضل ورحمة منه إليكم، وهو أفضل من الفضل الذي تحصرونه في صدور بعضكم. فإنّ الفضل فضل الله الذي يخضع لعلمه لا إلى مقاييسكم للفضل.

٤ـ أنّكم لا تعرفون الله حقّ معرفته في أنّه عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض

ولا في السماء ولا ما تكتمونه من الحق، فلو كنتم تعرفون كما هو عليه من العلم لما قلتم: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، فإنَّ الله يعلم ما كتمتم من الحق ويعلم دوافعكم في ذلك، فعدم علم الآخرين بذلك لا يعني عدم علم الله به، وكتمانكم هذا سوف لن يخلّصكم من الحساب والعذاب العظيم، بل سيكون وبالاً عليكم يوم القيامة لما تركه كتمان الحق من الأثر السلبي على دفع حركة الإيمان إلى الأمام، بل سيحتجّون عليكم يوم القيامة عند ربّكم عندما ينكشف أمامهم أنّكم كنتم تكتمون الحق عنهم.

ثالثاً: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

١ـ أنَّ انحصار الحق والفضل بأفراد معدودين هذا يعني أنّكم ترسمون منهجية توزيع الفضل على مَن تشاؤون وتحصرونه على مَن تشاؤون، وأنّكم تريدون أن تعاندوا الله في توزيعه للفضل على مَن يشاء من عباده، وهذا أمر واضح في مخالفته لله، وأنّه أمر غير مقدور عليه أن يتدخّل أو أن يشاركه فيه أحد؛ لأنَّ الفضل وتوزيعه من مختصّات الله.

٢ـ أنَّ الفضل الذي يعطى من قبل الله لا استحقاق لأحد فيه، بل هو صاحب الفضل العظيم على كلّ الخلق فليس عليه لزوم العطاء، ولا فضل العطاء، بل هو صرف رحمته وخالصها، ولمّا كان هو صاحب الاختصاص في العطاء فعلى الكلّ أن يطلبوا الفضل منه، فإنَّ الخديعة والمكر والحيلة من أسباب حصول فضل الشيطان وليست أسباباً لحصول الفضل الإلهي، فاعلموا أيّها اليهود أنَّ طريقتكم في كتمان الحق وتكذيب الرسولﷺ وما تدّعونه وتطلقونه من شعارات الكذب على الله وعلى رسوله فهي محض كذب والتواء وأنّها طرق الشيطان.

عاشراً: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

صورة أُخرى من صور الإضلال الذي تقوم به اليهود، استصغار غيرهم من الناس ومحاولة احتقارهم ليشعروهم بالذلّة والهوان أمامهم ليكون طريقاً إلى كسب الناس إلى عزّتهم واستكبارهم الذي صنعوه لأنفسهم، ولا يعلمون بأنّهم بنظر الغير هم أحقر الناس وأذلّها، فإنّ من طبيعة الإنسان ـ وخصوصاً إذا كان من أهل الكتاب الذي يؤمن بالله ويوم الحساب ـ أن يكون ملتزماً بالعهد، فلو وضعت عنده أمانة مهما كانت من الكثرة والقناطير المقنطرة فهو يفي بالعهد ويحافظ على ما تأمنه عنده، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة يجب عقلاً وشرعاً سواء الذي أتتمنك من أهل ملّتك أم من غيره وسواء كان قريباً منك أو بعيداً فإنّ أداء الأمانة لا تدخل فيه مثل هذه الأمور كشرط في الأداء. وهناك من الناس المتخلّفين الذين تطبّعوا على الخيانة بحيث لو تأمنه على شيء قليل كالدينار فإنّه يخون العهد ولا يفي به إلا من خلال المقاومة والشكاية والمتابعة بحيث تكون قائماً عليه.

واليهود هم من النوع الثاني وخصوصاً مع غير ملّتهم، فإنّه لابدّ أن يخون غير اليهودي في ميثاقه وعهده وأمانته، ولو سألتهم عن سبب خيانتهم لغيرهم ولا يلتزموا العهود والمواثيق مع غيرهم لأجابوا بأنّ غيرنا هو أمّي وأُناس رعاع، وأنّ مطالبتهم لنا تعني علوهم علينا واستحقاقاً لهم عندنا، وغيرنا لا سبيل له لأن يعلو علينا فنحن أبناء الله وأحباؤه ونحن شعب الله المختار، وأنّ الجنّة لنا، وأمّا غيرنا فهم عبيد لنا، وغير ذلك من الدعاوى التي يدّعونها كذباً وزوراً على أنّها من التوراة وأنّها

من الدين، والتي تبرّر لهم عدم الوفاء بالعهد.

وإنّهم مهما يكن فهم أُناس يحملون العقل والتفكير وبالتالي يعلمون أنّ هذا النوع من الادّعاء باطل وخلاف للسجيّة الإنسانيّة وخلاف لمنهجية السماء ولم يأتِ به نبي ولا وصي نبي، فيجيبهم الله ليؤكّد منهجيته في مسألة الوفاء بالعهد ورد الأمانة، وكان جواب الله على وجهين:

١ـ ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فمنهجية الله بالوفاء بالعهد لا كما تقوله اليهود بأنّ الوفاء بالعهد مختصّ باليهود فقط، بل كلّ مَن أوفى بعهده وكان وفاؤه نابعاً من تقوى الله ومخافته ومراقبته واتّباع أمره لا من باب التعصّب لليهوديّة أو لأي باب غير الله، فأحباء الله هم أُولئك المتّقين لا اليهود.

٢ـ أنّكم أيّها اليهود ترفعون هذه الشعارات والدعاوى الكاذبة وتخونون العهود والمواثيق من أجل الدنيا، وأنّكم بعملكم هذا بعتم آخرتكم بدنياكم وأنّه لثمن قليل مقابل نعم الآخرة، واعلموا أيّها اليهود وكلّ مَن يسير على سيرتكم أنّه ليس له نصيب في الآخرة؛ لأنّ الآخرة بيد الله وحده ولا سبب منجي إلّا هو، وموقف الله معكم يوم الآخرة هو أن يكون غاضباً عليكم أشد الغضب فلا يكلّمكم أبداً حتّى لو وصلت قلوبكم إلى الحناجر بإلحاحكم وتوسّلكم به، ولا ينظر إليكم نظرة عطف ورحمة فلا يصيبكم خير منه، ولا يدخل في تزكيتكم لتشملكم الشفاعة، فلم يبقَ أمامكم إلّا العذاب الأليم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الحادي عشر: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ

الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

صورة أخرى من صور الإضلال الذي يقوم به اليهود أو النصارى، تضليل السمع والتدليس في القراءة لتوهين السامع وهم يتلون كتاب الله، حيث التوراة والإنجيل قد دخلت إليها يد التحريف، وعلماء اليهود والنصارى يعرفون مواقع التحريف، فعندما تقتضي الضرورة أن يقرؤوا التوراة أو الإنجيل أمام المسلمين أو أمام أهل ملّتهم يلوون ويميلون ألسنتهم عند وصولهم إلى المقاطع المحرّفة بحيث يقرؤونها بلحن يشابه لحن الصحيح من آيات التوراة أو الإنجيل فيوهم السامع ويحسب أنّ ما يسمعه جميعاً هو آيات الله لجريانه على الوتيرة الواحدة في القراءة، والله لهم بالمرصاد في الدنيا قبل الآخرة حيث يلاحقهم بتكذيبهم وفضحهم ويخزيهم أمام الملأ من الناس ليكونوا على بيّنة من أمر هذا النوع من أهل الكتاب، فإنّ الذي تحسبونه من كتاب الله وآياته فهو ليس بكتاب الله، بل هو كتابتهم وكتابهم ولم يكن من كتابة نبيّ أصلاً.

وإذا قالوا: هو من عند الله نازل منه فهو ليس من عند الله، وأنّ كلّ ما ينسبونه إلى الله فهو كذب، فالكتاب الذي مُدّت يد التحريف إليه لا يمثّل الله في شيء؛ لأنّ كتاب الله كلّه صدق وحق، وأنّهم يعلمون بهذه الحقيقة ويعلمون بأنّهم يلوون ألسنتهم بهتاناً وزوراً وتلبّساً. وأنّهم يعلمون أنّهم يكذبون على الله، وأنّهم يعلمون بمواقع التحريف، وهذا من أشنع موارد الكذب وأخطرها وأكثرها عذاباً يوم الآخرة في أنّه كذب على الله ويعلم.

س: في قوله تعالى: وهو يبيّن غضبه الشديد على من يخون العهد ولا يفي به ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ

أَلِيمٌ﴾ وجاءت السنّة وقد وسّعت هذا النوع من الغضب الإلهي وجعلته يشمل آخرين، هل عدم كلام الله لهم يراد به حقيقة، فكيف يحاسبهم إذن؟ واذكر نموذجاً من توسعة السنّة لذلك.

ج:

الأوّل: فيه احتمالان:

١ـ أن يكون عدم كلامه ونظره وتزكيته كناية عن شدّة غضبه عليهم.

٢ـ أن يكون على الحقيقة في أنّ الله يكلّمهم وينظر إليهم بخصوص الحساب ولا يكلّمهم ولا ينظر إليهم في خصوص ما يكون خيراً لهم وينفعهم وممّا يكون رحمةً لهم، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ أنّه قال: «لا ينظر إليهم بخير، أي لا يرحمهم »[١].

الثاني: فقد أوردت السنّة مصاديق كثيرة من الذين يشملهم هذا النوع من الغضب الإلهي منها:

١ـ ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: المرخي ذيله من العظمة، والمزكّي سلعته بالكذب ، ورجل استقبلك بود وصدره يتوارىٰ وقلبه ممتلئ غشّاً »[٢].

٢ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: مَن ادّعى إمامة من الله ليست له، ومَن جحد إماماً من الله، ومَن قال: إنّ لفلان وفلان في الإسلام نصيباً »[٣].

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٨٠/٧٢.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٧٩/٦٩.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٧٨/٦٤.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩ـ٨٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ البشر: هو الإنسان يطلق على المفرد والجمع.

٢ـ ربّاني: مبالغة في الربوبيّة والتربية.

٣ـ تدرسون: تناول الأثر بالقراءة والحفظ.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

اولاً: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾

١ـ قد يكون هذا الخطاب جواباً لسؤال مقدّر، والتقدير له احتمالات منها: هل يجوز للنبيّ أن يدّعي الإلوهيّة لنفسه؟ أو هل يجوز على الله أن يأمر نبيّه بأن يقول للناس: إنّي إله؟ وهل من حق الناس أن تدّعي الإلوهية لإنسان؟.

٢ـ لمّا كان الخطاب جواباً على هذه الأسئلة وأمثالها فهو يستبطن عدّة احتمالات منها:

أولاً: ليس من حق البشر كبشر تكويناً أن يكون إلهاً؛ لأنّه محتاج وحادث ومتغيّر ومثله لا يكون إلهاً، والأنبياء كلّهم من البشر.

ثانياً: إنّ الله هو الحق وهو الصدق، وهو الذي اختار الأنبياء كأفضل الخلق عبوديّة لله وأعطى لهم الكتاب والحكم والنبوّة وكلّها تنصبّ في أن تكون العبوديّة خالصة لله وأنّه لا إله إلّا الله المعبود، فكيف يسمح لغيره من الأنبياء أن تدّعي هذا الادّعاء المخالف لاختياره ومنهجه وتعليمه للأنبياء؟! وهل هذاالنفاق والزور والكذب بعينه، وحاشا الله من كلّ ذلك.

ثالثاً: أنّ الله هو العليم، وهو يعلم قبل خلقه للخلق، ويعلم بدايته ووسطه ونهايته، واختيار الله للأنبياء على علم منه ببدايتهم ووسطهم ونهايتهم، ويعلم أنّ هؤلاء النموذج من البشر مهما أوتوا من الدنيا بشيء فهم لا يرون لأنانيّتهم وجوداً إلا في الله، ولا يدخل في تصوّرهم الذهني إلّا العبوديّة لله، فهم الذائبون في الله أين ما حلّوا وأين ما رحلوا ومهما عاشوا طويلاً أو قصيراً من العمر وفي اليسر أو العسر، وعلى هذا الأساس اختارهم الله كأنبياء دون غيرهم، فأعطاهم الكتاب والحكم والنبوّة، فلا نشك في الاختيار الإلهي في أنّه يخطأ في شخصيّة من الشخصيّات النبويّة في أن تدّعي لنفسها العبوديّة من دون الله.

رابعاً: لو فرضنا محالاً إمكان أن يدّعي النبيّ الإلوهيّة لنفسه ولكنّه مستحيل الوقوع لا لذاته، بل لأنّه يحمل كتاب الله الذي كلّ لغته تحمل العبوديّة لله وحده، وإنّ النبي إذا حصل على الحكم والولاية فإنّه يدعو إلى كتاب الله وتطبيق أحكامه، هذا بالإضافة إلى كونه نبيّاً من الله إلى الناس، فأين ما يلتفت النبي يجد نفسه محاصراً في القول والعمل في أنّه داعية لله وعبد لله فلا تجتمع دعوته لله ولنفسه بالعبوديّة إلّا أن يتجرّد عن الكتاب والنبوّة، وهذا خلاف الفرض وموضوع الآية.

خامساً: أنّ الكتاب والحكم والنبوّة جاءت للناس فهي مكشوفة التفاصيل لهم، وإنّ الكتاب بين أيدي النّاس ففيه تفصيلات حقيقة الحكم والنبوّة وغير ذلك من صغائر الأُمور وكبيرها، وفي الكلّ لا تجد في الكتاب أن يكون غيره عبداً لله، فالذي يحتمل في أن يكون نبيّاً له الحق أن يدّعي الإلوهيّة لنفسه؛ فهو إمّا يريد أن يجرّد النبي عن العقل وإنّه غير عاقل والمفروض أنّ النبيّ سيّد العقلاء، وإمّا أن يكون نفس المحتمِل صاحب شبهة في العقل وهذا أقلّ الصحيح، وأكثر حسن الظنّ أن تقول بحقّه: إنّه صاحب شبهة.

فيا أيّها النصارى بأيّ حق جعلتم عيسى إلهاً؟!! وسيكون عيسى خصمكم يوم القيامة على ما ادّعيتم بحقّه ما ليس فيه وما ليس بقائله ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(المائدة:١١٦).

ويا أيّها المسلمون لا يأخذكم الغلو في أيّ شخصية من شخصيّات الإسلام، ولا تصدّقوا أنّ الغلو يأتي بواضح النهار ليكون مكشوفاً بدلالته ومراده حتّى يكون مرفوضاً من قِبَلِ الآخرين، ولا تصدّقوا بأن يقدّم إليكم بطبق مكشوف تحمله أيدي الكفر والفساد، بل يأتي على أيدي رجال من الإسلام وهم يحملون خطّة التدريج في تهيئة الأوهام والأنصار ويبذلون الأموال ليشغلوا الناس بالغلو وليصرفوا المسلمين عن التفكير بما هو المهم وليدخلوهم إلى ما فيه البدع والانحراف، وهذا رسول اللهﷺ ورد عنه أنّه قال: «لا تعرّفوني فوق حقّي، فإنّ الله تعالى اتّخذني عبداً قبل أن يتّخذني نبيّاً»، ثمّ تلا قوله تعالى: «﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ ...﴾»

الآية[١]. وهذا الإمام أميرالمؤمنين﵇ ورد عنه أنّه قال: «هلك فيّ رجلان محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ»[٢]. وهذا هو الخط العام والخاص لمنهجية السماء في تقييمهما للشخصيّة النبويّة وحقيقتها فلا تقديس ولا فكرة تأخذ بنا إلى تأليه الشخصيّة مهما كانت.

سادساً: أنّ هذا الخطاب يعدّ إخباراً وتنزيهاً لساحة الأنبياء في أن يكون أحد منهم قد ادّعى الإلوهية لنفسه.

ثانياً: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

﴿وَلَكِن﴾ استدراك لما ذكر سابقاً وتثبيتاً لما نفي. نعم، إنّ الأنبياء كانوا يقولون للناس ويدعون الناس إلى عكس ما يقوله المغالي وعلى عكس ما يحتمله المحتيل في أن يدّعوا لأنفسهم العبودية من دون الله، فإنّهم كانوا بقولهم ودعوتهم يؤكّدون للناس على كتاب الله ويعمّقونه في نفوسهم ويحثّون على دراسته وتدريسه لعلمهم أنّ المؤمن كلّما تعمّق في الكتاب كلّما تقرّب إلى معرفة الله أكثر، وكلّما عرف الله أكثر كلّما ازدادت عبوديّته لله ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

فهم أرادوا من الناس أن يكونوا عباداً لله وأن يعمّقوا العبوديّة له ـ لأنّ الربّاني هو النسبة إلى الرب، وزيدت الألف والنّون للتفخيم والتعظيم ـ بحيث يريدون من النّاس أن تلتصق قلوبهم وأرواحهم وأفكارهم وعملهم بالله بحيث يتحرّكون والكلّ يشعر أنّه عبد لله في جميع حركاته وسكناته. وأرادوا من الناس أن يكونوا علماء ربّانيّين من خلال دعوتهم إلى القراءة والحفظ المستمر للكتاب.

---

(١) عيون أخبار الرضا﵇ ١: ١/٢١٧.

(٢) نهج البلاغة ٤: ١١٧/٢٨.

فالذي يدعو إلى نفسه أن يكون إلهاً عليه أن يهمل الكتاب ولا يشجّع الآخرين على قراءته وحفظه ونشره، بينما نحن نجد الأنبياء أكثر الناس التصاقاً بالكتاب وأكثرهم من أمر بالرجوع إلى الكتاب وأكثرهم مَن علّم الكتاب وأكثرهم مَن خرّج الكادر النموذج المدرّس للكتاب، وإنّ اهتمامهم هذا فيه دلالة واضحة في أنّهم يريدون العبودية لله لا لأنفسهم، كما أنّ في هذا الخطاب الدلالة الواضحة في أنّ تعليم الكتاب له أثر ولتعلّمه أثر آخر مختلف في زيادة الإيجاب؛ ولهذا كرّر ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾.

قال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

كما أنه لا يوجد نبي يدّعي لنفسه الألوهيّة كذلك لا يوجد أحد من الأنبياء ادّعى لغيره أن يكون إلهاً ومعبوداً من دون الله من ملائكة أو نبيّين؛ لأنّهم أفضل الخلق وأقربهم إلى الله، فكلّ ما مرّ من الأجوبة هناك يأتي هنا بالإضافة إلى جواب آخر لمناسبته لخصوص هذا الخطاب، وهو أنّ تصديقكم للنبي عن طريق المعجزة يعني قد آمنتم بالغيب وأنّه مرسل ومبعوث من قبل الله، لأنّ المعجز لا يكون إلّا لله، فتصديقكم به هو تسليم لله، أو أنّكم تؤمنون بالله سابقاً وما دور المعجز للتصديق بنبوّته، ففي الحالتين أنّكم مستسلمون لله، والاستفهام الاستنكاري يأتي هنا وهو كيف يأمركم نبيّ إلى الكفر وأن تعبدوا غير الله من الملائكة أو النبيّين وأن تجعلوهم أرباباً من دون الله والحال أنّكم قد آمنتم بالله وقد استقرّ ذلك في قلوبكم وعقولكم وعملكم وعبادتكم؟ فهل تقبلون شخصاً يدّعي هذا الادّعاء أم تردّونه أنتم وبأنفسكم؟! فلمّا لم نسمع أحداً من الناس قد ردّ على نبيه بمثل هذه الدعوى يدلّ على أنّ النبي لم يقله ولم يدّعِه إذ لو كان لبان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨١ـ ٨٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

الإصر: أـ الثقل. ب ـ ما يعقد به ويشدّ به.

س: ما هو المحتمل في توضيح أخذ الميثاق ووجوهه من خلال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؟

ج:

في عالم الميثاق، كان هناك ميثاق متّصل الوحدة متعدّد الجهات، أخذه الله من

النبيّين وإلى النبيّين، بوجوه متعدّدة وهي:

أوّلاً: من النبيّين إلى النبيّين فيما بينهم، وذلك للأسباب التالية:

١ـ لأنّ الأنبياء هم الذين ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾.

٢ـ منطوق الآية، فإنّ أقوى احتمال ﴿لَمَا﴾ تحمل اللام الموطئة للقسم و(ما) موصولة، والجملة تتضمّن معنى الشرط وجزاءها قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، وعليه فهي تحكي عن الأنبياء، فإنّ المعنى هكذا يصبح: مهما أو كلّما آتيتكم أيّها الأنبياء من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه.

٣ـ السياق لهذه الآية مع ما قبلها للربط الموجود بينهما وأنّها جزء من الجواب، أي كيف يدّعي أحد من الأنبياء أنه إلهٌ مع أنّهم جميعاً مأخوذ منهم الميثاق على الإيمان والنصرة ولم يتخلّف أحد منهم في أن خرق هذا الميثاق وادّعى الإلوهيّة لنفسه، فلو كان أحد قد تخلّف لما آمن به أحد من الأنبياء ولما نصره أحد بسبب الميثاق المأخوذ عليهم.

٤ـ ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ الإصر: يراد منه هنا العهد، أي أيّها الأنبياء أنّكم أقررتم وأخذتم العهد على أن تؤمنوا بعضكم ببعض وينصر بعضكم بعضاً.

ثانياً: من النبيّين بحيث السابق يؤمن باللاحق وينصره ويبشّر به، ﴿ثُمَّ﴾ التي فيها دلالة على التراخي الزماني.

٥ـ ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي واشهدوا أيّها الأنبياء بعضكم لبعض وأنّا معكم من الشاهدين عليكم.

ثالثاً: من النبيّين بحيث اللاحق يؤمن بالسابق وينصره وبالعكس، وهذا تستفيده من فحوى الخطاب ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية الآتية، وهذا اللون من

الميثاق مطابق لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥).

رابعاً: من النبيّين إلى الرسل خاصّة، وهذا مأخوذ من المجموع الظاهري للتركيب اللفظي ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾.

خامساً: من النبيّين إلى الرسول محمّدﷺ خاصّة، بأن أخذ الله الميثاق من النبيّين على أن يبشّروا أممهم بمبعثه، وهذا يفهم من سياق الآيات حيث جاءت لتوبيخ أهل الكتاب على تكذيبهم للرسولﷺ وعنادهم للحق الذي جاء به وعلى كتمانهم للحق وتحريفهم الكتب، ورد عن أميرالمؤمنين؛ أنّه قال: «لم يبعث الله آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمّد لئن بعث وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه» ثمّ تلا: «﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ ...﴾» الآية [(١)].

سادساً: من النبيّين إلى الكتاب والحكمة ونصرة الرسول، وذلك من الاختلاف بين رجوع الضمير بين ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ حيث الجملة تكون هكذا: لتؤمننّ بما آتيتكم من كتاب وحكمة ولتنصرنّ الرسول الذي جاءكم مصدّقاً لما معكم.

سابعاً: من النبيّين إلى أممهم، وهذا نستفيده من الأمور التالية:

١ـ ﴿فَاشْهَدُوا﴾، الذي يعتبر فيه أن تكون الشهادة على الغير، أي فاشهدوا أيّها

---

(١) حقائق التأويل: ١٣٣.

الأنبياء على أممكم ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على أممكم، ورد عن أميرالمؤمنين ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أنّه قال: «فاشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم فمَن تولّى عنك يا محمّد بعد هذا العهد من جميع الأمم فأولئك هم الفاسقون، وهم العاصون في الكفر»[1].

٢ـ السياق، لأنّ من غاية بيان هذه الآية هي أن تخاطب المعاندين من أهل الكتاب الذين كذّبوا الرسول ﷺ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾.

٣ـ ما أخذه النبيّون من العهد من أممهم إلى الله من خلال تبشيرهم بالرسول أو النبي اللاحق، ورد عن الإمام الصادق ﷺ في ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ...﴾، أنّه قال: « إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيّين كلّ أمّة بتصديق نبيّها، والعمل بما جاءهم به فما وفوا به وتركوا كثيراً من شرائعهم وحرفوا كثيراً»[2].

٤ـ الأولويّة، فإذا أخذ الله الميثاق من النبيّين على أن يؤمنوا وينصروا الأنبياء والرسل فمن الأولى أن تؤمن الأمم بذلك وتنصر الأنبياء بل هو أشدّ وآكد على غير الأنبياء.

٥ـ ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾، لأنّ الآخذ غير المأخوذ فيكون هكذا: أقررتم أنتم بالميثاق، وأخذتم على ذلك عهدي من أممكم قالوا: أقررنا، ورد عن أميرالمؤمنين ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أنّه قال: «أأقررتم وأخذتم العهد بذلك على أممكم، قالوا: ـ أي قال الأنبياء وأممهم ـ : أقررنا بما أمرتنا بالإقرار به، قال الله: فاشهدوا بذلك على أممكم وأنا معكم

(١) كنز العمال ٢: ٤٢٩٦/٣٧٧.

(٢) البحار ١٥: ١٧٦.

من الشاهدين عليكم وعلى أممكم »(١).

٦ـ منطوق الآية الذي طرح في النقطة الثانية يمكن تطبيقه على الأمم كذلك، فهكذا يصبح الخطاب: كلّما آتيتكم أيّها الأمم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه.

س: ما هو المعنى الإجمالي لمجموع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؟

ج:

لو شاهدت أغلب النقاط التي عدّدناها في توضيح الميثاق لرأيتها تتوحّد في أنّ الميثاق المخاطب به هم الأنبياء والأمم على حدّ سواء، وما تقديم ميثاق الأنبياء على غيرهم من الأمم إلّا لتعظيم الميثاق والأنبياء، والميثاق يتكلّم عن وجوب الإيمان بالله وبكتبه ودينه وأنبيائه والنصرة لهم، وجاء هذا الوجوب بلسان الميثاق ليكون أشد وقوعاً في النفوس وأعظم أثراً لأنّه مع الله، وإنّ طرف الميثاق الحقيقي هو الله سواء وقع الميثاق منه مباشرة من خلال إيجاده للعقل والفطرة التي أودعها الله مع كلّ إنسان أو من خلال كتبه المنزلة على الأمم أو من خلال بعثته للأنبياء والرسل أو من خلال تبشير الأنبياء بعضهم لبعض، وعليه لا تكون منهجيّة الله إلّا واحدةً في التسلسل ولا يكون دينه إلّا واحداً من حيث عدم التغيّر في النزول في أنّه كلّه من الله، وفي العقيدة في أنّه كلّه يدعو إلى الله، وأنّ الأنبياء كلّهم عبارة عن

(١) البحار ١١: ١٣.

شخصيّة واحدة في أمانتها وإيمانها وعلاقتها فيما بينها في الإيمان والنصرة بعضهم لبعض، وأنّهم وأممهم على وحدة واحدة في هذا الوجوب من الوحدة العقائديّة.

فالميثاق واحد ينشر بنوده على الكلّ بصورة متساوية فلا انفصال ولا تخلّف في النهج الإلهي، لا فيه وبنفسه ولا بوحداته من الكتب والأنبياء. وإنّ أيّ تخلّف نسمع به أو نقرأه من أهل الكتاب من الغلو في الشخصيّة أو الفكرة فهو من عند أنفسهم، ولا يستند إلى شيء من الكتاب وعالَم الغيب لأنّ الميثاق واحد وهو الجاري على الكلّ والكلّ مأمورون به وكلّهم عباد الله.

س: هل أنّ التحاور من أخذ الله الميثاق مع النبيّين كان حقيقة أو هو تمثيل ليوصل الله الحقيقة من خلاله؟

ج:

أنّه حقيقة، وقد أخذ الله الميثاق من النبيّين واقعاً، ولكن الاختلاف قد وقع في ساحة الوقوع التي لا يعلمها إلّا الله لاختلاف النقل في أيّ عالَم من العوالم قد وقع ذلك.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؟

ج:

تحذير شديد لأفراد أمم الأنبياء في أنّ الذي يتولّى منهم ويعرض عن الميثاق وما جاء به من البنود فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله وكتبه وانبيائه وإن كانوا من أهل الكتاب، لأنّ المتولّي المعرض قد تهاون وتسامح في الالتزام على الرغم من أنّه ميثاق غليظ. والحكم بالفسق حكم عقليّ وشرعيّ لوجوب

الوفاء بالعهد.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾؟

ج:

الميثاق جامع لجميع العقيدة والدين ومانع لغيره من الدخول فيه، فالذي لم يدخل في الميثاق ولم يلتزم به فقد دخل بغير دين الله وأطاع غير الله، واختيار غير الميثاق وعدم الالتزام به مسألة غير عقليّة ولا وجدانيّة وهي حالة مرفوضة عقلاً وشرعاً باعتبارها حالة شاذّة عن طبيعة الإنسان والكون والحياة وما فيها من عناصر التكوين للاستسلام. والناظر إلى جميع العقلاء في الكون ووحداته لا يجدهم إلّا مستسلمين لله وطائعين له سبحانه بما أوجد فيهم عامل الفطرة والعقل، وإن كان في استسلامهم ما بين طائع له من دون كره كما في الأمم المؤمنة بالله وبدينه التي وجدت الله أهلاً للعبادة فعبدته، وما بين طائع له كرهاً لطمع في جنّته أو خوفاً من ناره أو خوفاً من الموت وما بعد الموت الذي قهر الله به عباده، هذا بالإضافة إلى كون مرجع الجميع إليه سبحانه الذي يستدعي طوعاً أو كرهاً الاستسلام إليه والايمان به والطاعة له وبدينه الذي ارتضاه لعباده.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؟

ج:

هذا الخطاب من مكمّلات الميثاق، وطرح مصداق من مصاديق الإيمان ونصرة اللاحق للسابق، ونموذج من نماذج أخذ الإقرار من الأنبياء، فهذا سيّد الأنبياء والمرسلين محمّدﷺ لا يختلف عن بقيّة الأنبياء في أنّه مأخوذ منه الميثاق كما أخذ له الميثاق، فقد وجّه له الأمر بوحدات الميثاق ليعلن الرسولﷺ إقراره أمام الرأي العام العالمي ليكشف عن هويّته العقائديّة المرتبطة بالله ومع جميع الأنبياء السابقين، وليبرز من خلالها مدى التزامه بالميثاق، ويبيّن الله من خلال هذا الإقرار وحدة انتشار الميثاق على جميع الأنبياء من دون فرق لأحدهم على الآخر ، فحين يكون الميثاق قد أُخذ من سيّد الأنبياء محمّدﷺ فهو مأخوذ حتماً من غيره من الأنبياء، وإنّ الإقرار لمّا كان قد صدر منه فهو صادر حتماً من غيره من باب الأولى.

ويبيّن الله من خلال هذا العرض الوحدة الواحدة في دينه وإيمان انبيائه وتزكية الأنبياء جميعاً عن أي خارج من هذا الميثاق، وإنّ أي دعوى مخالفة فهي دعوى كاذبة ومن عند أنفسهم لا تمتّ إلى واقع الأنبياء بصلة.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله محمّدﷺ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، فأنت من جملة المؤمنين بالله، وأن العبد والله هو المولى، وإنّ ارتباطك بالله لا يختلف عن ارتباط الأنبياء به ولا يختلف من حيث الأصل عن ارتباط بقيّة الناس بالله. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وإنّك مؤمن بالقرآن على أنّه كتاب منزّل من الله عليك كما هو إيمان المسلمين بذلك، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾، وإنّك يا رسول اللهﷺ، تؤمن بهؤلاء الأنبياء وما هو موجود بينهم وما أُنزل عليهم من الكتب وذكرت نموذجاً منهم، فهم الذين يؤمن جميع أهل الكتاب بهم، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ وأن تؤمن بموسى وما أوتي إليه من التوراة التي تؤمن اليهود به، ﴿وَعِيسَى﴾ وأن تؤمن بعيسى وما أوتي إليه من الإنجيل الذي تؤمن النصارى به، وأجمع القول بأن

تؤمن بجميع الأنبياء والكتب التي أُنزلت عليهم ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، فجميعهم أنبياء أُمناء قد أدّوا ما عليهم بأحسن أداء الأنبياء فلا نفرّق بإيماننا بين أحد منهم فكلّهم عباد الله وأنبياؤه وكلّهم مستسلمون لله بما يأمرهم ويريده منهم، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وهذا هو الجامع الأهم والمفروض على الأنبياء وعلى كلّ مَن آمن بالله بأن يكون مستسلماً له، وبمقدار استسلامه لله يكون مقدّراً عند الله. فلا إيمان من دون استسلام لله، ولا دين لإنسان من دون استسلام لله، ولا عنوان شافع لأحد من دون استسلام لله، وإنّ هذا الشرط في عمليّة الإيمان لا يختلف ولا يتخلّف منذ آدم إلى يوم القيامة، وإنّ كلّ مَن يتّخذ غير هذا الطريق ومهما بذل من الجهد عليه فهو خروج عن دائرة الله ومنهجيّته في التقييم ومحور ما سيحاسب عليه الإنسان يوم القيامة، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ورد عن الرسولﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ...﴾ الآية أنّه قال: «تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة، فتقول: يا ربّ أنا الصلاة، فيقول: إنّك على خير، وتجيء الصدقة، فتقول: يا ربّ أنا الصدقة، فيقول: إنّك على خير، ثمّ يجيء الصيام، فيقول: أنا الصيام، فيقول: إنّك على خير، ثمّ تجيء الأعمال كلّ ذلك يقول الله: إنّك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعطي. قال الله في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»(١).

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٦٢.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٦ـ٩١).

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

نحن قلنا سابقاً حين قسّمنا عناصر الهداية إلى تكوينيّة وتشريعيّة في سورة الفاتحة، وقلنا: إنّ عناصر التشريعيّة العامّة هي الأنبياء والكتب المنزلة، وقلنا: إنّ الإنسان المؤمن بقدر ما يبحث عن العناصر التشريعيّة العامّة وبقدر ما يتعمّق بمعرفتهم والإيمان بهم فهو يحصل على هداية الله المباشرة التي تمثّل العنصر التشريعي الخاص، ومنه نعرف أنّ الطريق المنحصر للحصول على هداية الله هو عن طريق الايمان بأنبيائه ورسله وكتبه، وقد زوّد الله النبيّ والكتاب بالآيات البيّنات التي يذعن لها كلّ عاقل، فمَن أغلق باب هذا الطريق على نفسه فقد أغلق عليه طريق هداية الله على نفسه، وكلّما ابتعد الإنسان عن طريق الأنبياء والكتاب فقد ابتعد عن منال هداية الله إليه وبالتالي يصبح من الظالمين لنفسه حين أغلق على

نفسه باب طريق وصول هداية الله إليه.

إذا عرفت هذه المقدّمة تعرف لماذا يسأل الله عن كيفية وصول الهداية للإنسان وقد أغلق الإنسان جميع منافذ وصولها إليه، وحاشا لله أن ينسب إليه تقصير أو توجيه لوم إليه ؛ لأنّه سبحانه قد أغلق على الإنسان باب الاحتجاج عليه حين أرسل الأنبياء بما فيهم الكفاية وأرسل الكتب بما فيها الكفاية وأسند كلّاً منهما بآيات ومعاجز بما يراه الإنسان أنّه الحق والصدق، وهذا هو الرسول محمّدﷺ الذي هو المعجز كما بيّنا ذلك في بحث المعجز، وإنّ كتابه المعجز الذي لازال ينطق بالحق والصدق الذي ليس عليه أيّ ضبابيّة تحجب الوضوح، وقد شهد بذلك كلّ مَن اطّلع على الرسولﷺ وكتابه سواء أهل الكتاب في صدر الإسلام أو من خلال ما نقلته لهم كتبهم السماويّة أو بشارات أنبيائهم بالرسولﷺ، وقد شهد بهذه الحقيقة كلّ مَن آمن به، فإذا حصل الابتعاد من كلّ هذا العرض فلم يؤمن أهل الكتاب أو ارتدّ المؤمن عن ذلك فهو ظلم للنفس لتبعيدها عن طريق هداية الله لها بالاختيار كما قلنا، وبالتالي لا طريق آخر لهدايتهم، ويستحيل على الله أن يهدي القوم الظالمين وهم على ظلمهم وابتعادهم عن الإيمان بالرسولﷺ وبكتابه.

وليس من آثار الابتعاد عن خطّ الإيمان بالرسولﷺ وكتابه بعدما شاهد واعترف بالحق هو ألّا ينال هداية الله فقط، بل له آثار سلبيّة أُخرى تلحق هذا النوع من الابتعاد، تلحقه آثاراً سلبيّة ما دونها سلب، حيث الطرد من رحمة الله في الآخرة ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾، وإنّ كلّ دعاء يصدر من الملائكة والناس أجمعين في لعن الظالمين، وألّا تشملهم رحمة الله فهي تشمل هذا النموذج الذي ابتعد عن الرسولﷺ وعن كتابه بعدما شهد أنّه الحق والصدق ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وبالتالي تكون نتيجتهم يوم القيامة هي النار وعذابها النّار، بل وأشد غرف

النّار حيث ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾. فإذا كان ينظر الله يوم القيامة إلى بعض الناس بالرحمة والشفقة فهؤلاء لا ينتظر منهم أحد في أن ينظر الله إليه بنظرة الرحمة والشفقة، ولا ينتظر بأن يمهله الله أبداً ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

نعم، إنّ هؤلاء ليس لهم إلّا طريق واحد وهو طريق التوبة والرجوع إلى الله وإيمانهم بالرسولﷺ وكتابه وإذعانهم بالحقّ الذي شاهدوه وعرفوه بالرسولﷺ وكتابه ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. بشروط التوبة التي مرّ البحث عنها، التي منها ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ إذا كان هناك أمر يوجب الإصلاح كالحقوق والواجبات المتعلّقة بالناس، ومثلها الآراء الضالّة التي نشرها بين الناس وكتم الحق عنهم، ومنها أن تكون توبتهم صادرة عن ندم الذي هو حقيقة التوبة.

فليست التوبة تخضع لحالات انفعالية وتفاعل آني ثمّ يذهب بذهاب سببه، فإنّ من علامات التائب حقّاً أن تكون المعصية قد زالت عنه أو لا أقل تكون في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً. أمّا إذا شاهدنا العكس بأنّ ما بعد التوبة تزداد المعصية أكثر فهذا يكشف عن أنّ التوبة كانت من الأوّل توبة لسانيّة لا قيمة لها، ولهذا فهي لن تقبل عند الله، بل هي نوع من الانحراف والضلال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

وهناك شرط آخر لقبول التوبة وهو ألّا يموت الإنسان وهو مصر على معصيته ومن دون توبة، فإذا مات وهو على هذه الحالة فلا غفران لذنبه، بل هو محاسب عليه لأنّها قد سجّلت في كتابه وثبتت على أنّها معصية فلا فدية تدفع عنه الحساب عليها مهما كانت صغيرة ومهما كانت الفدية كبيرة لو كانت هناك فدية فهو على سبيل الفرض، فإذا كانت المعصية استحق صاحبها عليها العذاب ولم تنفع معها

الشفاعة فالحكم بالعذاب الأليم يجري عليه قطعاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، وقد مر تفصيل ذلك في بحث التوبة فراجع.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(آل عمران: ٩٢-٩٥).

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾؟

ج:

هنا يكرّر الله مسألة الإنفاق تمهيداً للآيات التالية، وترغيباً للمؤمنين في الإنفاق، وتأكيداً على شرعيته ونيل الثواب عليه، وليس إلّا لكونه أهمّ طريق للتكافل الاجتماعي، فإنّ الذي يريد الخير لمجتمعه فلابدّ من الإنفاق عليه فلا يخلوا مجتمع من الحاجة إلى الإنفاق على فقرائه وتقويم مؤسّساته التي يقوم المجتمع وحركته عليها، وإذا أراد الإنسان السعة في الخير لنفسه لابدّ من الإنفاق ممّا رزقه الله من المادة أو المعنى؛ لأنّ في الإنفاق ينمو المال ويزكي العلم، وإذا أراد الإنسان أن ينال درجة الأبرار عند الله فلابدّ من الإنفاق، وإنّ المال وإن كان ممّا يحبّه الإنسان وأنّ إنفاقه يكون ثقيلاً عليه، ولكن على الرغم من ذلك أنفقوا هذا الذي تحبّونه، ولتتطهر نفوسكم التي جُبِلَت على حب المال بالإنفاق حتّى تتربّى على العطاء وتقهر حتّى لا تدخل في الحرص والأنانيّة، فإنّ حبّ المال طريق من

طرق الفتنة، وإنّما جعل الله المال في يدكم لتنفقوه وليكون طريقاً في حلّ مشاكلكم، وفوق كلّ ذلك فإنّ الله بما تنفقون عليم، فهو الذي يضاعفه لكم من فضل عطائه وتعويضه، فإنّه لا يضيع عنده عمل عامل منكم، وقد مرّ الحديث تفصيلاً عن الإنفاق فراجع.

س: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أنّه قال: «هكذا فاقرأها»[1]، ما هي المحتملات التي ترد في بيان جواب الإمام؟

ج:

أن يريد الإطلاق في كلّ ما يحبّه الإنسان ويرغب فيه سواء كان محبوباً عند المنفق أو محبوباً في نفسه ومرغوباً فيه عند الناس وإن لم يحبّه المنفق، أو ممّا تحبّون أن يعطى لكم أو بالكيفيّة التي تعطى لكم بحيث لا يتبعها مَنّ ولا أذى ...وهكذا.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟

ج:

الطعام هو ما يطعم ويتغذّى به، ويطلق عند أهل الحجاز على خصوص البر وينصرف عند الإطلاق إليه عندهم، ولهذا اعتبرنا أنّ الآية السابقة تمهيد لهذه

---

(١) الكافي ٨: ١٨٣.

الآيات، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام جميعاً، وقد مرّ ذكر هذا الاسم والبحث عنه في سورة البقرة آية (٤٠)، وإنّ هذه الآية تحكي عن شبهة أثارها اليهود في صدر الإسلام وفي حياة الرسولﷺ وهم يتحاورون مع المؤمنين، وملخّص الشبهة التي أثارها اليهود هي على احتمالين:

الأول: أنّ رسولكم يقول: انّ الطعام كلّ الطعام كان حلالاً على بني إسرائيل قبل نزول التوراة، وبعد نزول التوراة قد حرّم الله بعض الطعام نتيجة لظلم اليهود ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ (النساء: ١٦٠)، وهذا يعني أنّ الله يجوز عليه النسخ فهو قد نسخ الحلية بالحرمة، والنسخ يستحيل على الله لأنّه تغيير لحكم الله، فتكون النتيجة أنّ رسولكم كاذب بنقل مثل هذه الأخبار.

فكان جواب الله وهو يأمر الرسولﷺ بأن يقول لهم ويجيبهم على هذه الشبهة: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. أي فأتوا أنتم بالتوراة واتلوها بأنفسكم أمامنا ليسمع الجميع ما تنقله التوراة إن كنتم صادقين بأنّ الله لم يحرّم الطعام بعد نزول التوراة، أو أنّ الطعام قبل التوراة لم يكن كلّه حلالاً لنرى أيّ الفريقين كاذب، وإذا لم تأتوا بها فهذا يعني أنّي صادق بما انقله لكم وما أخبركم به، وإذا لم تأتوا بها فهذا يعني أنّكم تفترون على الله الكذب حيث تنقلون ما يخالف إخبار الله من خلال التوراة، وعليه فإذا علمتم كذبكم وصدقي فلابدّ أن تؤمنوا بي وما أدعو إليه بأنّي على ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، والذي يبقى على كفره وعدم الايمان والتصديق بي فهذا ظلم للحق، وصاحبه يعدّ من الظالمين؛ لأنّه جحود بعد الحجّة، ولم يأتِ أحد من اليهود بالتوراة ليتلوه ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الثاني: أنّ الطعام كان كلّه حلا لبني إسرائيل جميعا قبل نزول التوراة حتّى

الرجس من الخمر ولحم الخنزير مثلاً إلّا ما حرّم يعقوب على نفسه، هذا ما قالته اليهود، فكان الجواب: بأن يأتوا بالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ليتلوها ليظهر كذبهم؛ لأنّ التوراة لم تذكر بأنّ يعقوب قد حرّم على نفسه بعض الأطعمة، وإنّما هو افتراء على الله وتشريع من عند أنفسهم حين حرّموا على أنفسهم بعض الأكل مدّعين أنّ إسرائيل حرّم ذلك، وإنّ التوراة لم تذكر حلية الرجس قبل نزولها، بل على العكس من ذلك حيث تذكر حرمته.

س: ماذا يعني قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؟

ج:

إذا كان هذا الخطاب شهادة من الله في أنّ إسرائيل قد حرّم على نفسه بعض الأطعمة فإنّ هذه الحرمة شخصيّة وعلى يعقوب خاصّة، حيث انّ يعقوب النبي قد نذر أو أصابه مرض له علاقة ببعض الطعام فحرّم أكله على نفسه، وهذا حدث قبل نزول التوراة، ولمّا نزلت التوراة لم يحرّمه ولم يأكله، فهي حرمة ليست لها علاقة ببني إسرائيل ولا بغيرهم من الناس، فهي لم تكن حرمة تشريعيّة إلهيّة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «انّ إسرائيل كان إذا أكل لحم الإبل هيّج عليه وجع الخاصرة، فحرّم على نفسه لحم الإبل وذلك قبل أن تنزل التوراة فلما نزلت لم يحرّمه ولم يأكله»[١].

س: قالوا: انّ إسرائيل يعني بني إسرائيل جميعاً، فما هو جوابكم على ذلك؟

---

(١) الكافي ٥:٣٠٦/٩.

ج:

١ـ أنَّ القرآن لم يستعمل إسرائيل إلّا مع مضاف قبله إلّا في هذا المورد فقد جاءت كلمة إسرائيل منفردة.

٢ـ استعمال ضمير المفرد ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الذي يرجع إلى يعقوب.

٣ـ من الركاكة الأدبيّة ألّا يأتي بالمضاف (بني) في حالة وجود الالتباس لو أراد من إسرائيل هم بنو إسرائيل جميعاً.

س: في قوله تعالى: ﴿ ... أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ لماذا استعمل الفعل ﴿تُنَزَّلَ﴾ ولم يستعمل (تتنزّل التّوراة) مع عدم حصول خلل في المعنى وأنّه لا فرق بين تتنزّل وتنزّل؟

ج:

في حالة عدم الفرق بين الزيادة والنقصان في الفعل تكون الزيادة ناظرة إلى الاستمرار بينما النقيصة ناظرة إلى الانقطاع، وبما أنَّ نزول التوراة نزول دفعي ولمرّة واحدة فيكون (تنزّل) هو الأنسب من (تتنزّل) التي تشير إلى النزول التدريجي والمستمر.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧)

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيتين؟

ج:

١ـ أوّل: من الأوّل، وسمّي بذلك لرجوع غيره إليه باعتباره هو الأصل في العدد.

٢ـ بكّة: أـ هي مكّة وقلبت الميم إلى باء للتقارب بين الحرفين ومن أحد أسرار هذا الإقلاب له علاقة بأرقام الحروف التي هي من معجزات القرآن. ب ـ اندقاق العنق فلا يقصدها جبّار إلّا وبكّت عنقه. جـ ـ الدفع والازدحام.

س: ما هي المحتملات التي ترد في مناسبة وضع هاتين الآيتين في هذا المحل من القرآن؟

ج:

١ـ أن تكون هاتان الآيتان جواباً لشبهة طرحها اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام في مكّة المكرّمة، فبدأت اليهود بتكذيب الرسول ﷺ من خلال هذا التحويل بقولهم: إنّ محمّداً لو كان نبيّاً لما أعرض عن قبلة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام، فهي القبلة القديمة وهي البيت القديم.

٢ـ أن تكون هاتان الآيتان جواباً عملياً على اليهود لإمكان النسخ ووقوعه، فإذا كان جملة من الأنبياء قبلتهم بيت المقدس فقد نسخ هذا الحكم بالتوجه إلى

بيت الله الحرام.

٣ـ أنْ تكون هاتان الآيتان تكشفان كذب اليهود أو النصارى الذين يدّعون تبعيّتهم وإيمانهم بإبراهيم، فلو كانت تبعيّتهم صحيحة لتوجّهوا إلى بيت الله الحرام الذي هو أهم مشروع قام به إبراهيم‌ﷺ ودعا الناس إلى الحج إليه، فإضرابهم عن البيت إضراباً عن كلام إبراهيم وما أوصى به.

س: اذكر التفسير المحتمل للآيتين المذكورتين أعلاه.

ج:

أولاً: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾

١ـ المراد من البيت هو خصوص الكعبة، بيت الله الحرام في مكّة المكرّمة ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ (المائدة:٩٧).

٢ـ أنّ غاية جعل وإثبات هذا البيت من أجل الناس جميع الناس لقوم أو فئة معيّنة، فهو محل العبادة، ومشعر من مشاعر الهدى، وباب من أبواب الغفران، ومظهر من مظاهر الوحدة العباديّة والعقائديّة والإيمانيّة للمسلمين، وهو أحد الحجج الظاهرة على غير المسلمين، يدعو الناس إلى الإسلام لما فيه من الآيات.

٣ـ أنّ بيت الله هو البيت العتيق وإنّه البيت الأوّل، وأنّ بيت المقدس أُنشئ بعد إبراهيم، وهذا هو إخبار الله عن أسبقيّة البيتين إنشاءً لا كما تزعمه اليهود والنصارى، وأنّ البيت المقدس بناه النبي سليمان‌ﷺ، ورد عن زرارة عن الإمام الباقر‌ﷺ أنّه قال: سألته عن البيت كان يحج إليه قبل أن يبعث النبي‌ﷺ؟ قال: «نعم، لا يعلمون أنّ الناس قد كانوا يحجّون ونخبركم أنّ آدم وسليمان‌ﷺ قد حجّوا البيت بالجن والإنس والطير، ولقد حجّه موسى‌ﷺ على جمل أحمر يقول:

لبيك لبيك، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾»[١].

٤ـ أنّ أولويّة هذا البيت لم تختصّ بجهة وإنّما هي مطلقة فتكون شاملة لكلّ شرف وعظمة.

ثانياً: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾

١ـ ﴿لَلَّذِي﴾ أي للبيت الذي، واللام هنا مزحلقة، وقد أُخبر عن النكرة بالمعرفة لتخصيص الأولى الذي هو بكّة لا غير، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «إنّ الله اختار من كلّ شيء شيئاً، واختار من الأرض موضع الكعبة »[٢].

٢ـ في سبب تسمية مكّة وجوه منها:

أولاً: أنّها تزيل الذنوب كلّها؛ لأنّ مكّة من أمتك بمعنى الإزالة، كقول: أمتك الفصيل ضرع أمّه، أي امتصّ ما فيه.

ثانياً: أنّها تجلب الناس إليها من كلّ مكان من الأرض؛ لأنّ مكّة من أمتك بمعنى الاستقصاء.

ثالثاً: أنّها خالية الماء، لأنّ مكّة من أمتك بمعنى قلّة الماء.

رابعاً: أنّها نابعة العيون والمياه، لأنّ مكّة من أمتك بمعنى الأخذ، فمكّة تجري تحتها العيون المائيّة وأنّ ما حولها من الأماكن والأراضي يمتك ويأخذ من ماء مكّة.

خامساً: لازدحامها بالناس، ورد عن الإمام الباقرعليه السلام أنّه قال: «إنّما سميت مكّة بكّة لأنّ الناس يبكّون فيها يعني يزدحمون »[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٩/٨٩٢٣.

(٢) الفقيه ٢: ٢٤٣/٢٣٠٦.

(٣) تفسير الصافي ١: ٣٥٧.

سادساً: لبكاء الناس حولها، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «لبكاء الناس حولها »[١].

٣ـ فيما هو الفرق بين مكّة وبكّة، وهي وجوه منها:

أوّلاً: أنّ مكّة اسم للمدينة وبكّة اسم للمسجد خاصّة، وقيل العكس، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «موضع البيت بكّة، والقرية مكّة »[٢].

ثانياً: لا فرق بين مكّة وبكّة من حيث المراد إلّا في رسم اللفظ، أي أنّ بكّة هو الاسم الآخر لمكّة، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «أسماء مكّة خمسة: أُم القرى، ومكّة، وبكّة، والبساسة أي أخرجتهم وأهلكتهم، وأُم رُحم كانوا إذا ألزموها رُحموا »[٣].

ثالثاً: ﴿مُبَارَكاً وَهُدىً لِلعَالَمِينَ﴾

١ـ ورد ذكر شرح كلمة المبارك في أثناء قصّة عيسىعليه السلام، وهو استقرار الخير ودوامه، أي والحال كون البيت مباركاً ومستقرّاً للخير.

٢ـ وهدى للعالمين لأنّ مكّة قِبْلَتهم التي يهتدون بها لصلاتهم؛ ولأنّها فيها الدلالة على وجود الخالق، ولأنّها فيها تجتمع الأرواح الطاهرة من ملائكة السماء والمؤمنين الذين يعبدون الله، ولأنّها تحتوي على الآثار التي فيها الدلالة على صدق النبي محمّدصلى الله عليه وآله، وفيها الكثير من المواقف التي تشعر الحاج والقاصد إلى البيت بأنّه لم ينفصل عن تأريخه العريق والعظيم من كلّ جهة. هذا بالإضافة

---

(١) الفقيه ٢:١٩٣/٢١١٩.

(٢) علل الشرائع ٢:٣٩٧/٣.

(٣) الخصال :٢٧٨/٢٢.

إلى كونها طريقاً للآخرة والفوز بالجنّة.

رابعاً: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

١ـ أن تكون الآيات البيّنات هي مجموع ما يحتويه البيت من الآثار وأمكنة العبادة، ومن جملة الآيات مقام إبراهيم، ورد عن الإمام الصادق في قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أنّه قال: «مقام إبراهيم حين قام عليه فأثّرت فيه قدماه والحجر الأسود ومنزل إسماعيل»[١].

٢ـ أن تكون الآيات البيّنات هي مقام إبراهيم، حيث أنّ مقام إبراهيم وضع بدلاً من الآيات البيّنات، لما في نفس مقام إبراهيم من الآيات الكثيرة، من تأريخه، وحفظه لهذه المدّة، ولوجود أثر قدم إبراهيم على الصخرة، وكيفيّة صنع الأثر في الصخرة من قبل الله، وغيرها من الآيات المتعلّقة بالمكان.

٣ـ أن يكون مقام إبراهيم في موضع الإخبار ويراد منه الإنشاء، حيث من الآيات البيّنات هي الأحكام الشرعيّة، فيكون المعنى من الأحكام الشرعيّة البيّنة مقام إبراهيم.

خامساً: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾

١ـ من جملة الآيات البيّنات أنّ البيت مَن دخله كان آمناً وهذه الآية يتفرّد بها البيت.

٢ـ أنشاء من قبل الله أنّه مَن دخله كان آمناً فليس لحق أحد أن يعتدي وهو داخل البيت سواء على إنسان أو حيوان إلّا فيما هو المستثنى في الشريعة، ورد عن الإمام الصادق أنّه قال: «مَن دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن

---

(١) الكافي ٤: ٢٢٣/ ١.

من سخط الله، ومَن دخله من الوحوش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى حتّى يخرج من الحرم »[١].

سادساً: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾

(اللام) في (لله) للإلزام والوجوب، (اللام) في (البيت) للعهد، أي أوجب الله على الناس قصد البيت والحج إليه لإقامة مجموع مناسكه على نهجه المذكور في الشرع، وقد ذكرنا ملخّصه في مبحث الحج، وإنّ تشريع هذا الوجوب حقّ لله في ذمّة الناس ورقابهم ليس لهم حقّ مخالفته، ولكن هذا الوجوب لا على كلّ الناس بل الذي يتميّز بالاستطاعة منهم، وبما أنّ الاستطاعة قيّدت بالأمر وبشرط الوصول إلى البيت ﴿إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ فيراد من الاستطاعة هي الاستطاعة الماليّة والبدنيّة وتخلية السرب وسلامة الطريق، وإنّ المنكر له أو التارك لهذا الوجوب والفرع عمداً فإنّه كافر وكفره لا يضرّ أحداً إلّا نفسه ولا يرجع ضرره إلّا عليه، فإنّ الله لم يكن بحاجة إلى أحد فهو الغنيّ المطلق عن جميع العالمين فكيف بمَن تركه؟! وهذا منتهى التحقير لتاركه أو منكره ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام عندما سأله أخوه علي بن جعفر: (فمَن لم يحج فقد كفر؟ أنّه قال: «ولكن مَن قال: ليس هذا هكذا فقد كفر »[٢]. وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أنّه قال: «ترك »[٣].

---

(١) الكافي ٤: ٢٢٦/١.

(٢) الكافي ٤: ٢٦٥/٥.

(٣) التهذيب ٥: ١٨/٤.

س: تشريع وجوب الحج في هذه الآية هل هو وجوب تأسيسيّ؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

١ـ أن تكون هذه الآية إخباراً محضاً عن تشريع سابق للحج بدأه إبراهيم﵇ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:٢٧).

٢ـ أن تكون هذه الآية إمضاء لما شرّعه إبراهيم للحج.

٣ـ أن يكون الإخبار في هذه الآية يراد منه الإنشاء لتأسيس أكمل وجوه الحج.

٤ـ أن يراد منها تأكيد الوجوب السابق وتغليظه بوجود عدّة من المؤكّدات ليجعله الله فرعاً من الفروع المهمّة للدين الإسلامي بحيث إنّ منكره أو المتهاون به عمداً يعدّ من الكافرين ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ورد في وصية الرسولﷺ لعليّ﵇: «يا علي، تارك الحجّ وهو مستطيع كافر، قال تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، يا علي مَن سوّف الحج حتّى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً»[1].

س: هل في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أنّ المسجد الحرام هو أوّل بيت بني على الأرض؟ اذكر المحتمل في الجواب على ذلك.

ج:

يجيب الإمام أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «قد كان قبله بيوت، ولكنّه أوّل بيت

---

(١) الفقيه ٤: ٣٦٨/ ٥٧٦٢.

وضع للناس مباركاً فيه هدى والرحمة والبركة، وأوّل مَن بناه إبراهيم، ثمّ بناه قوم من العرب من جرهم، ثمّ هدم فبنته العمالقة، ثمّ هدم فبناه قريش»[١]. وعنه أيضاً: «كانت بيوت قبله، ولكنّه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله »[٢].

س: ذكرتم في قوله: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أنّه لكلّ الناس دون قوم أو فئة معيّنة، وهل الحج إلّا للمؤمنين فقط؟

ج:

نحن قلنا سابقاً: انّ أصل الأحكام الشرعيّة المخاطب بها كلّ الناس وفرداً فرداً منهم، إلّا أنّه من حيث القبول والصحّة لا يصح ولا يقبل إلّا من المؤمنين، للشروط المعتبرة في كلّ عبادة وحكم شرعي والتي منها شروط عامّة كالايمان والإسلام وقصد القربة ومنها شروط خاصّة تتعلّق بنفس الحكم الشرعي.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٢٢.

(٢) كنز العمال ٢: ٤٢٩٧/٢٧٨.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٩٨ـ١٠٢).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الصدّ: المنع.

٢ـ العوج: الميل عن الاستواء.

٣ـ يعتصم: يلتجئ.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾

الاستفهام للتوبيخ والكشف عن تعجيز أهل الكتاب في أن يكون لهم عذر في عدم تصديقهم بالإسلام ورسولهﷺ لما حمل كلّ منهما من آيات الله من الحق والنور والمعجز، والحال أنّ الله يعلم بما يقومون من أعمال التزييف والزور والتحريف والأهداف الخبيثة التي تكمن من وراء أعمالهم هذه، فأخبرهم يا

رسول الله ﷺ بذلك وسوف لن تجد سبباً عقلائياً أو منطقياً أو عقائدياً يظهرونه ليبرّروا من خلاله موقفهم المخزي هذا.

ثانياً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

استفهام توبيخي آخر وتعجيزي عن بيان سبب صدّهم عن السبيل المستقيم لله بطرقهم المعوجّة من المكر والخديعة والكذب ليردّوا المؤمنين عن إيمانهم بالله ورسوله ﷺ بغياً وتجاوزاً على حدود الله، والحال أنّكم شهداء على ما في سبيل الله من الاستقامة، وشهداء على صدق الرسول ﷺ، وتعلمون أنّ صدّكم هذا لم يكن على حق، وتعلمون أنّكم تستعملون المكر والحيلة التي هي بعيدة كلّ البعد عن طريق الله، وتعلمون ما جاءت به التوراة والإنجيل بخصوص التصديق بهذا الرسول بالخصوص، وتعلمون أنّ ما ينقله هذا الرسول عمّا هو موجود في التوراة والإنجيل هو الحق.

فإذا كنتم تقولون للناس: انّ أسلوبكم هذا هو الأسلوب الواجب الشرعي عليكم في أن تكذّبوا الرسول ﷺ وأن تردّوا المؤمنين عن إيمانهم بالرسول والإسلام فإنّ الله لم يكن غافلاً عن حقيقة ما تعملون وتضمرون وتكتمون الحق وعمّا تبغونه عوجاً، فكما أنّكم تعلمون بأنفسكم فإن الله أعلم به ولم يكن غافلاً عنه وسوف تحاسبون عليه وتجازون بأنواع العذاب.

ثالثاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

انّ بعض أهل الكتاب ليس لهم همٌّ إلّا أن يفرّقوا جماعة المسلمين ووحدتهم، وليس لهم نصيحة إلّا أن يزرعوا النفاق بين صفوف المسلمين، وليس لهم هدف إلّا

محاربة الإسلام، وليس لهم محاولة إلّا بث التشويش والتشكيك في أفكار المسلمين، وعليه لا تكون طاعة المؤمنين لهم إلّا ردّاً عن الإيمان بالله والتصديق برسالة السماء ورسولها. فالحذر كلّ الحذر والوعي كلّ الوعي الذي يراد من المؤمنين لأن يبتعدوا عن هكذا نموذج وألّا يتأثّروا بأقوالهم وأفعالهم، فإنّ ذلك يجرّ إلى عملية التطبيع والاستئناس وبالتالي خسارة الدنيا والآخرة.

رابعاً: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

استفهام استنكاري واستبعاد للمؤمنين بأن يخضعوا لمثل هذا النموذج المنحط أخلاقيّاً وفكريّاً في أنّهم كيف يخضعون للكفر وأنّ المؤمنين يمتلكون أقوى المميّزات العالية في فكرهم وعقيدتهم ما لا يمتلكه الآخرون، أنّهم يمتلكون آيات الله إحداهما تلو الأُخرى من القرآن، وشخصيّة الرسولﷺ وشخصيّات الإسلام من أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين، ومن أقوالهم وأفعالهم التي علت أقوال وأفعال عامّة الناس أين ما وُجِدوا وفي أي زمان وجدوا.

إنّ هذا التراث الضخم لا يمتلكه أحد من العالمين ولا يمكنه الإتيان بمثله فكيف يخضع العالي للداني، وكيف يتأثّر صاحب هذا الخضم من الثروة الفكريّة والقدوة الشخصيّة بمن لا يمتلك جزءاً من مثله أبداً. فليزدد المسلمون ثقة بأنفسهم وألّا ينسوا ما يمتلكونه من المقوّمات العالية العظيمة، وليعتصموا بالله أكثر، لأنّ الاعتصام به واللجوء إليه هو الهدى إلى الصراط المستقيم لا محالة، لأنّه لا يختلف ولا يتخلّف ولا يتغيّر، ولما فيه من آيات الله وأنعمه، وهو الذي يحفظ المؤمنين من الوقوع في المهالك دون اتّخاذ غيره من السبل المعوجّة التي فيها المهالك والحيرة والضلال، فخطاب الآية يريد أن يشحن الهمّة والقوّة في نفوس المؤمنين ويحفّزهم

على الدوام على طريقهم الإيماني الأمثل، وألّا يركنوا إلى الذين كفروا عملياً من أهل الكتاب، وفي هذا الخطاب دعوة إلى نبذ التقليد الأعمى والحث على الطريق العلمي من خلال متابعة مصدرهما وهو القرآن والسنّة.

خامساً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أيّها المؤمنون، إذا أردتم أن تبنوا شخصيّتكم فهي لا تتبنى من خلال التأثر بالآخرين والأخذ من المنحرفين، بل من خلال تقوى الله بالالتزام بما أوجبه والامتناع عمّا نهى عنه، وهذا هو الخط العام الذي يُميّز من خلاله المنحرفون، وهذه هي الضابطة التي تميّزون من خلالها انحراف المنحرفين البعيدين عن تقوى الله، ولهذا يجب عليكم أن تتّقوا الله حق تقاته بأن يكون مشربكم ومأكلكم الإيمان بالله ليعطي القوّة في جميع جوارحكم وجوانحكم، ويقدح الوعي في بصيرتكم، ويجعل لكم نوراً تمشون به بين الناس لتميّزوا الخبيث من الطيّب، وليكن همّكم وطبيعة حركتكم هو هذا النوع من التقوى إلى أن تموتوا وأنتم على هذه الحالة من الاستسلام لله، التزموا بثوابت الإسلام، وضعوا في حسبانكم أنّكم للموت، مداومون على هذا النحو من الاستسلام لله، فلا تنخدعوا بما ترونه بيد الكافرين ولا يجرّكم الانبهار بما يمتلكون من القوّة وأمور الدنيا التي بيدهم، فإنّ خير سلاح هو سلاح التقوى، وتظهر حقّ التقوى عندما يبتلى المتصدّون في مواجهة العدوّ وعدم إنصياعهم لرغبات الدول الشيطانيّة الكبرى.

س: قالوا: إنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، أنّه

قال: «منسوخة بقول الله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾». ما هي المحتملات في جوابكم على ذلك؟

ج:

لم يكن هنا ناسخ ولا منسوخ بالمعنى الاصطلاحي للنسخ وهو رفع الحكم، بل هو بمعنى رفع العسر والحرج أو عدم ترك ما تستطيعون أن تأتوا من حقّ التقوى، وذلك للأسباب التالية:

١ـ لأنّ آية التغابن موضّحة للآية الأُولى؛ لأنّنا نعرف أنّ للتقوى مراتب ودرجات، ولا يفهم من الأمر أن يتّقي المؤمن الله حقّ تقاته ويجب أن يصل إلى أعلى مراتبها وإن لم يقدر على ذلك، فإنّ الأمر ليس كذلك، فتأتي الآية الثانية لتقول: كلّ حسب استطاعته.

٢ـ أن يكون موضوع آية التغابن مختلفاً عن موضوع الآية الأُولى، فقد يكون موضوع آية التغابن هو المندوبات باعتبارها طريق التقوى وأن يأتي المؤمن بها حسب استطاعته.

٣ـ أن تكون الآية الأُولى هو المطلوب بالأساس وآية التغابن هي موضّحة للكيفية، بمعنى أنّه يجب على المؤمنين أن يضعوا أنفسهم في طريق بأن يتّقوا الله حق تقاته ولا يخرجوا عن حقّ التقوى وعن هذا الطريق، وأمّا الكيفية فهي باختيار المكلّف كلّ حسب استطاعته.

٤ـ أن تكون آية التغابن هي المطلوب بالأساس حيث المفروض على المؤمن أن ينال درجة التقوى حسب استطاعته، والآية الأُولى تفرض الحالة المثالية التي يجب أن يسعى إليها المؤمنون؛ لأنّ المفروض عليهم أن يكونوا في حالة تقرّب إلى الله وتقدّم ونمو وسعي نحو التدرّج والتكامل. وبعبارة أُخرى: أن

يتقوا الله حق تقاته.

٥ـ ورود الكثير من الروايات التي تحث المؤمن على أن ينال حق التقوى، فلو كانت منسوخة بالمعنى الاصطلاحي لما كرّرت على لسان أكثر من معصوم، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «لا يتّق الله عبد حقّ تقاته حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطأه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

(١) كنز العمال ١: ١٣٢/ ٦٢٥.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (آل عمران: ١٠٣-١٠٩).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الاعتصام: أ ـ المنع. ب ـ الحفظ. جـ ـ اللجوء.

٢ـ ألّف: وصل بين شيئين.

٣ـ الشفا: الطرف.

٤ـ حفرة: يطلق على الأثر الذي يتركه ما يزال من الأرض عمقاً.

٥ـ الأمّة: الجماعة من الناس التي تتبنّى ويجمعها أمر معيّن.

• الوحدة نداء الله

س: ما هي المحتملات التي ترد في ما هو المراد من مثال الحبل في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾؟

ج:

أولاً: صفات الله

إنّ لله صلة وارتباطاً بعباده، وقد عرّف الله الناس ذاته بصفاته المتعدّدة، وانّ كلّ صفاته هي عين ذاته، فهي بمجموعها تمثّل حبل الله، وإنّ كلّ صفة هي خيط من خيوط الحبل الذي لا تنفصل عن ذاته وغير مستقلّة عن ذاته، فهو الواحد بالوحدة البسيطة، وإنّ كلّ صفة لها نور عطائها الخاص وتأثيرها الخاص، وعلى المؤمن بالله أن يعتصم بجميع صفاته ولا يفرّق بالاستمساك بينها، وهذا يستدعي المعرفة المسبقة لمعاني صفات الله حتّى يعرف المؤمن أدب التعامل مع الصفات الإلهيّة، وهذا له الأثر التربوي الكبير على أخلاقيّة الإنسان في البعث والزجر.

فنحن في حياتنا العاديّة نرى بعض الناس يفرّق بالاعتصام والتمسّك بحبل الله ولا يعرف كيف يتعامل مع صفات الله، فهو لا يعرف من الصفات إلّا أن يقول: الله كريم، حتّى أنّه يستعمل هذه الصفة في المعصية، وعندما تحذّره يقول لك: الله كريم، أو ترى الإنسان يتخاذل أمام العدوّ ويقول: الله هو الناصر ...وهكذا، وهذه تفرقة واضحة بالتعامل بحبل الله، فإنّ الحبل وذات الله يحمل صفات عديدة وهي مجموع الأسماء الحسنى لله، وعلى المؤمن ألّا يتمسّك ببعض ويغضّ الطرف عن البعض الآخر، فيجب على المؤمن أن يحسن التمسّك بالصفة الإلهيّة، ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾، أي

بحبل الله، ورد عنهم ﷺ : «ياذا الحبل الشديد»[١].

ثانياً: القرآن

باعتبار أنّ القرآن هو المرجع لجميع الأُمّة الإسلاميّة، فالتمسّك به والرجوع إليه بإنصاف وتجرّد كفيل بأن يجمع الأُمّة الإسلاميّة فيما اختلف بينهم، فطريق الوحدة بينهم هو الرجوع إلى كتاب الله ونبذ كلّ ما يخالفه، ولكن القرآن هو العنصر المشترك الذي تشترك فيه جميع المذاهب الإسلاميّة لتتوحّد تحت لوائه، ورد عن الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً﴾ أنّه قال: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »[٢].

ثالثاً: سنّة الرسول ﷺ

لمّا جعل الله في الآية السابقة بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾(آل عمران:١٠١)، فهو إشارة إلى كتاب الله وسنّة نبيّه التي جَعَلَ الله الاعتصام بهما هو الاعتصام بالله وهو الهدى إلى الطريق المستقيم، وعليه تقول في هذه الآية ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله﴾: أي اعتصموا بكتاب الله وسنّة نبيّه من قول أو فعل كان للرسول ﷺ، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «إنّي لكم فرط وأنّكم واردون عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين، قيل: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به لن تزالوا، والأصغر عترتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، وسألت ربّي فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم»[٣].

---

(١) مصباح المتهجد: ٢٦٨ .

(٢) البحار ٢٣: ١١٧/٣٣.

(٣) البحار ٢٣:١٥٢/١١٣.

رابعاً: أهل البيت

وهذه هي نقطة الاختلاف والافتراق بيننا وبين المذاهب الأُخرى، ونحن نعتقد أنّ أهل البيت هم أحد مصاديق حبل الله الذي يجب أن يتمسّك بـه المسلمون جميعاً. لا عاطفة ولا تقليداً أعمى ولا غلواً لشخصيّة، وإنّما هم القرآن في كثير من آياته وهم سنّة الرسول في كثير من كلماته ومواقفه، والاعتصام بهم لهو الشرف العظيم وهم الصراط المستقيم، وبوجودهم تسدّ حاجة الكون والنّاس أجمعين ـ راجع مبحث الإمامة والعصمة المجلّد الثالث. وعلى كلّ صاحب وجدان وإنصاف أن يتعمّق بهذه الحقيقة ليجد ضرورة الإيمان بهم أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وعلى الرغم ممّا تعتقد به المذاهب الإسلاميّة فنحن نحترمها ونحن نفتح قلوبنا قبل إيدينا لهم وندعوهم إلى الجلوس دائماً وأبداً على طاولة الوحدة وفي قـاعة المحبّة والتآلف. فإنّه مهما يكن فإنّ الوحدة أفضل من التفرقة، وإنّ الوحدة لا تعني التنازل عن الثوابت التي يؤمن بها كلّ طرف، فهذه عقيدتنا الراسخة بأهل البيت كما هي عقيدتنا بضرورة وحدة الصف الإسلامي، ورد عن الإمام الباقر أنّه قال: «آل محمّد هم حبل الله الذي أُمرنا بالاعتصام به، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾»[1].

خامساً: كلّ ما جعله الله عاصماً من سقوط الإنسان في مهالك العقيدة.

س: ورد عن أميرالمؤمنين أنّه قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أُمّتي على

---

(١) تفسير العياشي ١٠٢:١/٢٩٨.

ثلاث وسبعين فرقة»[١]. هل لكم أن تستقرئوا هذه الفرق مع شيء من توضيح متبنّياتها؟

ج:

على الرغم من شهرة هذه الرواية عند الفريقين إلّا أنّ هناك نقاشاً في صحّتها،وعلى فرض صحّة سند هذه الرواية نقول: انّ ذكر عدد المذاهب وأسمائها ومضمون متبنّياتها لا يخلو من فائدة، لا من باب الحصول على ثروة فكريّة ودراسة تأريخيّة لما له تأثير في معرفة الرجال واتّجاهاتهم الفكريّة فحسب، وإنّما من أجل أن نعرف ما يحصل اليوم من أفكار وأتباع ودخول البدع والغلو التي لم تكن ظاهرة جديدة على الساحة الإسلاميّة في أنّه يصدر من علماء أو مفكّرين إسلاميين، بل هي حالة جارية قديماً وحديثاً وأنّه لا يختلف الماضي عن الحاضر في الأصل والمضمون، وإنّما يختلف سعة وضيقاً في الأُسلوب والشكل.

وقد أخبر الرسولﷺ بذلك حين قال: «لتركبنّ سنّة مَن قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، لا تخطون طريقهم ولا يخطى شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع، حتّى ان لو كان مَن قبلكم دخل حجر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى مَن تعني يا رسول الله؟ قال: فمَن أعني؟ لتنقضنّ عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أوّل ما تنقضون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة »[٢].

وعنه أيضاً في الصحيح عن الترمذي: «والذي نفسي بيده لتركبن سنن مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل،والقذة بالقذة، حتّى إن كان فيهم مَن أتى أمّه يكون فيكم،

(١) الأمالي:١١٥٩/٥٢٣ .
(٢) تفسير القمي ٢:٤١٣.

فلا أدري أتعبدون العجل أم لا؟ »(١).

فمن أجل أن نبيّن خطر الاتّباع الأعمى وما يورثه من التمزّق والتشرذم، وألّا نكون إمّعة ـ كما وضّحنا ذلك في مبحث الإتّباع ـ ومن أجل ألّا ننخدع بالشخصيّة مهما كانت كما ورد في الصحيحين عن أنس عن الرسولﷺ أنّه قال: «ليردن عليَّ الحوض رجال ممّن صاحبني حتّى إذا رفعوا اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصحابي، فيقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك »(٢).

نعرض لك بعض أسماء الفرق، وإذا أردت عزيزي القارئ المزيد منها وما هي متبنّياتها فهي موجودة في الكتب المختصّة الكثيرة، مع العلم أنّ بعض الفِرق قد انقرضت وأنّ البعض الآخر مستمرّ الوقوع والحدوث، فمن تلك الفِرق:

١ـ الفرقة الإسماعيليّة: وهم من التابعين إلى إسماعيل بن جعفر بن محمّد الصادق‌‌، والذين قالوا بإمامة إسماعيل بعد الإمام الصادق‌‌.

٢ـ الفرقة الأفطحيّة: وهم الذين اتبعوا عبدالله بن جعفر أخو الإمام الكاظم‌‌ عندما ادّعى الإمامة لنفسه.

٣ـ الفرقة البتريّة: وهم التابعون لشخصيّات متعدّدة منهم سالم بن أبي حفصة وكثير النوى والحسن بن صالح بن حي والحكم بن عتبة، وهم في زمن الإمام الباقر‌‌، قالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعلي ويبغضون عثمان، ورد عن الإمام الصادق‌‌ أنّه قال: «لو أنّ البتريّة صف واحد ما بين المشرق والمغرب ما أعز الله بهم ديناً»(٣).

---

(١) البحار ٢٨: ٣٠.

(٢) البحار ٢٨: ٢٦.

(٣) رجال الكشي: ٢٣٢/ ٤٢٢.

٤ـ فرقة الجلامدة: وهم طائفة تقول: اشتبه علينا أمر الصحابة، واصلاح الأمّة لا يكون إلّا بالإمام وأنّ الإمام مَن يرضاه وجوه الناس صالحاً كان أو فاسداً.

٥ـ فرقة الجبائيّة: هم أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ـ توفي سنة ٢٩٥ـ وهو من معتزلة البصرة، وقد وافق أهل السنّة في الإمامة في أنّها بالاختيار.

٦ـ الفرقة الصوفيّة: وهو مذهب قديم لا يتكئ على رسول ولا ينتسب إلى نبي من أنبياء الله تعالى، ونشأ هذا المذهب في أمم مختلفة على أشكال مختلفة، وهو معروف في الهند والصين منذ ألوف السنين، وتوجد أقوال في أصل تسمية الصوفية، فقيل: أنّه مشتق من الصفاء أو الصفة أو الصوف، ولهم رياضات وأساليب منها بأن يظل الرجل سنين لا يتكلّم ويعتزل النساء وغير ذلك.

٧ـ فرقة المفوّضة: وهم صنف من الغلاة، وفارقوا مَن سواهم من الغلاة باعترافهم بحدوث الأئمّة وخلقهم ونفي القدم عنهم وإضافة الخلق والرزق مع ذلك إليهم، ودعواهم أنّ الله تعالى تفرّد بخلقهم خاصّة.

٨ـ فرقة الواقفيّة: وهم أصحاب علي بن أبي حمزة سالم البطائني وزياد بن مروان القندي، وهم الذين وقفوا على إمامة الإمام موسى بن جعفر، وقالوا: أنّه حي لم يمت.

٩ـ فرقة الواصليّة: وهم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال الألثغ (توفي سنة ١٣١)، وهو مؤسّس فرقة المعتزلة ورئيسها الأوّل.

١٠ـ وهناك فرق نعيش وجودها وهي معروفة، منها ما له امتداد تأريخي ومنها المستحدثة، ولا داعي لذكرها فإنّ موضوع الكتاب لا يتحمّل أكثر من هذا المختصر.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؟

ج:

أمر ونهي، أمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً ومجتمعين، ونهي عن التفرّق والاختلاف الذي يؤدّي بالمسلمين إلى التمزّق والتبعثر والضعف، لما في الوحدة من قوّة ومركزيّة في التوجيه ولما تنصهر فيها الكثير من المشاكل وتنهار أمامها أكبر الصعوبات التي تواجه المسلمين، وهذه الضرورة لا تحتاج إلى تطويل في بيان أثرها ونتائجها الإيجابيّة على المجتمع والأُمّة الإسلاميّة، فالوحدة يدرك ضرورتها وخير نتاجها فطرة العقول السليمة المؤمنة.

ويعرض الله صورة من تلك الآثار التي أنتجتها الوحدة بين المسلمين ذلك حين بعث الرسولﷺ وجاء بالإسلام والقرآن ليذكّرنا بهذه النعمة العظيمة وهي نعمة التآلف والأُخوّة لتكون دليلاً واضحاً لما يدّعيه الله من أنَّ الإسلام والرسولﷺ والقرآن كفلاء في تحقيق الوحدة التي يتمنّاها المؤمنون، ذلك قبل الإسلام حين كان عرب الجاهليّة من قبائل وعشائر لا يفهمون إلّا لغة الحرب والخشونة والعصبيّة بينهم، وتشهد بذلك الحروب التي استمرّت أكثر من مائة عام بين الأوس والخزرج، وعندما بعث الرسولﷺ وجاهد مدّة طويلة في سبيل هدايتهم للإسلام حتّى اجتمعوا أخيراً على الإسلام وصاروا لم يكن لهم مرجع إلّا القرآن والرسولﷺ، فذابت العنصريّة، وانتشر العلم، وأصبحت المناصرة جميعها للإسلام، وتآلفت قلوبهم على حبّ القرآن والرسولﷺ فأصبحوا أُخوة بهذه النعمة بعد أن كانوا على طرف

وشفا حفرة من النار بشركهم وحروبهم المشتعلة على الدوام فأنقذهم الله منها بالرسالة السماويّة الجديدة.

كذلك مثل هذا يريد الله من الأمّة الإسلاميّة أن تعيد الوحدة، فهو سبحانه يبيّن آياته ويطرح لنا بيّناته لعلّنا نهتدي إلى ما نرجوه من صنع الوحدة ورصّ الصفوف بين فصائل الفرق الإسلاميّة بالطريق العلمي والعملي المخلص لله ونصرة دينه.

س: قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ...﴾ لماذا لم يقل الله: (ولا تتفرّقوا) بل قال: ﴿تَفَرَّقُوا﴾ مع أنّه لا فرق بين التعبيرين للفعل؟

ج:

هو كما تقول لا فرق بين الفعلين وأنّ أصل الاستعمال (تتفرّقوا)، ولكن هنا نكتة مهمّة في الاستعمال وأنّها توحي إلى التفاتة مهمّة، فإنّ القرآن في جميع الحالات واستعماله للكلمات التي لا فرق فيها بين الزيادة والنقصان فإنّه يستعمل الزيادة حين توجد زيادة أو سعة أو استمراريّة في الحدث، وأنّه يستعمل النقصان في حالة الاقتصار أو الخصوصيّة أو أنّها حالة خاصّة أو غير مستمرّة، فالله يزيد الكلمة بزيادة الحدث وينقص في نقصان الحدث وخصوصيته، مثال ذلك الفرق بين (تتنزّل الملائكة) وبين (تنزّل الملائكة) فإنّ في الأوّل توجد حالة استمراريّة في التنزّل من قبل الملائكة، بينما في الحالة الثانية حالة ليس فيها الاستمرار، بل هي حالة مقطوعة ومختصرة على ليلة القدر مثلاً.

إذا عرفت هذه المقدّمة ـ وسيأتي لها مزيد من التوضيح والحالات كلّ حسب ما نمرّ به من الآيات ـ نقول: قد استعمل القرآن كلمة (تتفرّقوا) في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ

لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:١٣) فإنّ الوصيّة بالوحدة وعدم التفرّق قديمة وشاملة من زمن نوح إلى جميع الأنبياء لجميع الأمم التي تكون الأمّة الإسلاميّة جزءاً من هذا الشّمول ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ فهنا جاء بكلمة (لا تتفرّقوا) التّامة، بينما في خطاب ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ...﴾ خطاب خاص للأمّة الإسلاميّة ومختصر عليها وبذلك اختصر الكلمة بقوله: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾.

س: ما هي المشاريع العمليّة التي تقترحونها للوصول إلى الوحدة بين المسلمين؟

ج:

العلماء العاملون والدعاة إلى الله قد بذلوا جهوداً ولازالوا يبذلونها من أجل صنع وحدة بين المذاهب الإسلاميّة، ولكن انغلاق البعض على نفسه وتخلّفه وسوء تربيته الدينيّة وعدم فهمه للإسلام وعدم تطلّعه على أحوال المسلمين من زاويته الضيّقة وغيرها من الأسباب تحول دون أن تحقّق شيئاً من التقارب بين المذاهب، ولا أبرّئ النفوس الأمّارة بالسوء وبعض حكومات الدول الإسلاميّة والاستعمار العالمي في تدخّلهم بعرقلة مشاريع الوحدة التي تظهر من هنا وهناك. والمشروع العملي للتقارب بين المذاهب وصنع الوحدة بين المسلمين لا يحتاج إلى اقتراحات ومزيد من المؤتمرات التي لا تتم إلّا بصرف الأموال الكثيرة ولا يحتوي إلّا على بحوث ليس لها تأثير إلّا في صنع الإثارات التي لا يطول تأثيرها بمدّة المؤتمر، فإنّ

المشروع الوحدوي قد طرحه الله من خلال هذه الآيات التي بين أيدينا من الرجوع إلى القرآن وسنّة الرسول ﷺ التي هي الكلمة السواء والجامعة بين المسلمين جميعاً.

وهذا المشروع لم يضعه الله إلّا لعلمه بمستقبل الأُمّة الإسلاميّة.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى علم أنّهم سيفترقون بعد نبيّهم ويختلفون، فنهاهم عن التفرّق كما نهى مَن كان قبلهم، فأمرهم أن يجتمعوا»(١). ولا يحتاج هذا المشروع إلّا إلى تعيين لجان اختصاصيّة وكلّ لجنة تحتوي على جميع المذاهب مفوّضة من رموز علمائها بدراسة القرآن والسنّة بالطريق العلمي المجرّد، وهذا التنفيذ للمشروع وإن احتاج إلى سنوات عديدة وعديدة إلّا أنّه يعدّ خطوة عمليّة في طريق الوحدة بين المسلمين ويبعث الأمل في النفوس في أن يصل في يوم إلى نهايته؛ لأنّه مَن سار على الدرب وصل، وكما أنّ هذا المشروع قد طرحه الله في آياته هذه، فهو قد طرحه الرسول ﷺ في آخر وصيّة له حينما قال: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي»(٢).

كما أنّ ما قلته من تعيين لجان للمشروع الإلهي للتمحور حول القرآن والسنّة هو الآخر آلية يطرحها الله لتنفيذ مشروعه الوحدوي، وهذا ما يمكن أن نستنتجه من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا

---

(١) تفسير القمي ١٠٨:١.

(٢) البحار ١١٠:٢٨.

جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران: ١٠٤-١٠٥).

س: ما هو المعنى الإجمالي المحتمل لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؟

ج:

أمر للمؤمنين متعلّق بغيرهم، جاء هذا الأمر بعد بناء نفس شخصيّة المؤمن على أن يتّقي الله حق تقاته في الآيات السابقة، ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وأمروا بالمعروف وائتمروا به، وانهوا عن المنكر وانتهوا عنه، وإنّما أمرنا بالنهي بعد التناهي»(١). وهذا الخطاب وإن كان تكليفاً شمولياً ينشر وجوبه على جميع الأفراد إلّا أنّه من الناحية العمليّة لم ينشره الله بشكل فوضوي، وإنّما له نظام وشروط سيأتي ذكره في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن شاء الله، ومتعلّق الوجوب هو الدعوة إلى مطلق الخير وما فيه الصلاح للأُمّة الإسلاميّة وأفرادها، وآليّة إطلاق الدعوة إلى الخير تنفّذ عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما فيه من الشروط المعتبرة التي جاءتنا من القرآن والسنّة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو التعبير الكيفي والآلي للدعوة إلى الخير، وهناك بشرى بالنجاح والفوز بعطاء الله الذي لا يعلمه إلّا هو يقدّمه الله لمَن يقوم بهذا العمل العبادي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) غرر الحكم: ٢٣٢/٧٦٣٦.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟

ج:

١ـ الاختلاف في الأمور العقائديّة هو السبب الرئيسي في حصول الافتراق وجعل الأمّة الواحدة إلى عدّة فرق مختلفة متناحرة، وسبب الاختلاف في الأمور العقائديّة هو نفس الإنسان، وأمّا الله فقد أنزل البيّنات وأوصلها إلى الناس عن طريق الكتب والأنبياء والأوصياء، ولم يحصر الله كتاباً أو قول نبيّ على قوم مخصوصين دون غيرهم، بل جعل كلّ ما أنزله في أن يكون خدمة للإنسانيّة جمعاء، وجعله مكشوفاً لدى كلّ مَن يطلبه، بل وجعل البشرى لمَن يطلبه وحذّر مَن لا يطلبه ولا يسعى إلى معرفة كتابه وأنبيائه.

وعلى الرغم من هذا النزول من البيّنات من قبل الله نجد أهل الكتاب قد تحوّلوا إلى أناس مختلفين في الدين حين تركوا الطريق العلمي والبيّنات وصاروا عدّة فرق، وكان من نتائج ذلك أن تكون الإنسانيّة جميعاً على وجه الأرض ما بين ضعفاء الدين أو تاركيه حتّى أصبح جمعهم على الدين الواحد محالاً وقوعه، وكان الفساد في الأرض هي الصفة الغالبة عليها.

ولا أحد من المسلمين المؤمنين يقبل أن يكون دينه كدين هؤلاء، ولا يقبل أحد من المسلمين أن يكون دينه عرضة للآراء والأذواق وما يستحسنه الآخرون كما يرفض الله أن يكون دينه عرضة لذلك، فإذا كان كذلك ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، لا يبتعد ولا يفترق أحدكما عن الآخر فتختلفوا كما تفرّق الذين من قبلكم فاختلفوا.

فليكن بينكما تعايش واجتماع ليفهم أحدكما الآخر، وليكن بينكما نقاش وحوار علمي مادامت البيّنات موجودة بين أيديكم، فإنّ الاقتراب على الأساس العلمي طريق الوحدة وكفيل بذوبان العناصر المختلف عليها، وإنّ عدم اللقاء بين المذاهب وأصحاب الفرق لا يزيدهم إلّا اختلافاً، وبهذا نعرف أنّ هذه الآية هي عبارة أُخرى للاعتصام بحبل الله.

ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «مَن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتّى يراجعه، ومَن مات وليس عليه إمام الجماعة فإنّ موتته ميتة جاهليّة»(١).

٢ـ العذاب العظيم جاء هنا مطلقاً فهو يشمل العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وعليه يمكن أن نعتبر هذه الآية تهديداً للمسلمين وهم باقون على تفرّقهم، بمعنى أنّ الله كما أخزى أهل الكتاب وأذلّهم في أكثر من موقع وحدث ولم يجعل النصر حليفهم لتفرّقهم، فإنّ المسلمين إذا بقوا على تفرّقهم فالعذاب العظيم من الهزيمة وعدم النصرة ستلاحقهم كذلك.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؟

ج:

اذكر يارسول الله ﷺ يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ...وجاء أُسلوب الترغيب والترهيب للطائفتين كما هي طبيعة القرآن في عامله التربوي العام لشخصيّة الإنسان

---

(١) كنز العمال ١: ٢٠٧/١٠٣٥.

المسلم، والتي من صوره أن يذكّر الإنسان بالنتائج الحتميّة التي سوف يحصل عليها في آخرته، ذلك في يوم القيامة وصورة من صورها المختصّة بلون الوجوه، فكانت أُناس في الدنيا تسعى جاهدة لأن تتّقي الله وتدعو إلى الخير وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحاول جهد إمكانها أن تنصر دين الله في جميع المجالات التي تتوفّر لديها، وتسعى إلى الاعتصام بحبل الله وتبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، وعليه يكون هؤلاء يوم القيامة من أصحاب البشرى تملأ وجوههم البشاشة والفرحة، ويكون اللون المناسب لهذا النوع من الفريق هو البياض الناصع الذي ينظر إليه جميع أهل المحشر ليزدادوا بذلك عظمة وافتخاراً، فهو لون وموقع عظيم يميّزهم عن غيرهم.

وهناك الفريق الثاني الذي بذل الغالي والنفيس والجهد الكثير من أجل أن يفرّق بين المسلمين ويدعو إلى الشرّ ويأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ليس له غرض في دين الله إلّا ما يشبع من خلاله أنانيّته وجشعه، فمثل هذا الفريق ترى وجوههم يوم القيامة مغبرّة قترة أذلّاء مملومين بالمعاصي، وبذلك يكون اللون الطبيعي المناسب لوجوههم هو اللون الأسود، ولا يوجد لون ثالث لفريق ثالث؛ لأنّ يوم القيامة لم تكن فيه محطّة ثالثة، بل الجميع إمّا إلى جنّة أو نار، والنتيجة واضحة للذين ابيضّت وجوههم وللذين اسودّت وجوههم، وإنّ من الذين اسودّت وجوههم أُولئك الذين آمنوا ثم كفروا بعد إيمانهم وارتدوا وماتوا ولم يصدر منهم رجوع إلى الإيمان، فهؤلاء لم ينفعهم ذلك الإيمان، أو هم الذين آمنوا ثمّ كفروا عملياً حين ساروا في حركتهم نحو معصية الله فليس لهم عمل صالح، وفي الحالتين هم كافرون بعد الإيمان وهم يذوقون العذاب بسبب كفرهم جحوداً أو عملاً، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، أنّه قال: «هؤلاء قوم كانوا مؤمنين

صادقين ارتابوا وشكّوا ونافقوا بعد إيمانهم »[1].

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾؟

ج:

أنّ ما نتلوه عليك يا رسول الله من الآيات ـ سواء ما تعلّق بالفرد أو بالأمة أو بيوم القيامة ـ فهو صدق وحتمي الوقوع، وإنّ ما نتلوه عليك من التشريع ونتيجة الالتزام به ليس فيه ظلم لأنّه حق ومن الحق، وبلازم ذلك أنّ مَن أراد السعادة والعدل إلى نفسه وأمّته وللعالمين جميعاً أن يتمسّك بالإسلام ديناً، وأنّ أي بديل لمنهج الله يطرح ستجد فيه ظلماً لأنّه نتاج مخلوق وغير مؤمن، وبالتالي تبقى الإنسانيّة تعاني من المشاكل ولن تجد رغد عيشها وحلاً لمشكلتها النوعية إلّا في الإسلام الذي هو نظام الرحمة لجميع الأجيال والعالمين.

س: قلتم: وإنّ أيّ بديل لمنهج الله يطرح ستجد فيه ظلماً. السؤال: إذا كان بالإمكان للإنسان أن يضع منهجية للحياة كما هو قائم في أغلب دول العالم فلماذا اختصّ الله نفسه بالرسم المنهجي للحياة ويدعو للاعتصام به والدعوة إليه وأنّ مصير تاركيه النّار ولم يسمح الله للإنسان أن يكون هو المسؤول عن رسم منهجية الحياة؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

١ـ الإنسان يعيش عصره ولا يعلم مابعد خمسين سنة مثلاً. فكيف نريد منه أن يضع

---

(١) البحار ٢١: ٢٢١.

منهجاً للإنسان على عدد أجياله؟!.

٢ـ إذا كان الإنسان يعرف فهو يعرف طبيعته وطبيعة مجتمعه وما يحمل من العقيدة والأخلاق، فكيف نريد منه القانون الشامل لجميع المجتمعات؟!.

٣ـ الإنسان جاهل بمكوّنات نفسه من الروح والعقل، فكيف نريد منه أن يرسم منهجاً يشبع روح الإنسان وعقله؟!.

٤ـ الإنسان يجهل بعض الخير والشر الذي يعود لنفسه أو لأُمّته، فكيف نريد منه أن يرسم منهجاً فيه الخير للأُمم ويدفع الشّر عنها؟!.

٥ـ الإنسان لا يعرف إلّا ظاهر الإنسان، وهناك كنوز من الدوافع والأغراض والبواطن، فكيف نريد من الإنسان أن ينظّم الإنسان بدوافعه وباطنه؟!.

٦ـ دول العالَم التي تركت للإنسان أن يرسم لها المنهجية ويسنّ لها القوانين فهل قلّلت من مشاكل الإنسان أم زادتها وأدخلتها في عمق التعقيدات؟!.

٧ـ أنّ الذين نظّروا للإنسانيّة قديماً وسنّوا لها قوانينها لماذا رفضتهم الإنسانية وانتفضوا عليهم وأصبحوا في التأريخ المنسي؟!.

٨ـ هل تجد من الذين رسموا منهجية للإنسان إن كانوا على تشخيص واحد للمشكلة الإنسانيّة أم هم مختلفون وكلّ له نظريته الخاصّة. فالإنسان الجاهل بتشخيص أصل المشكلة للإنسان فكيف نريد منه أن يرسم منهجية يحلّ من خلالها مشكلة الإنسان؟!.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾؟

ج:

الاحتمال الأوّل: من جملة الأدلّة التي يبرهن الله عليها على أنّه ليس بظلّام

للعبيد الذي ورد في نهاية الآية السابقة، هي:

١ـ الله، تلك الذات المستجمعة لجميع الصفات الحسنى المطلقة، وهو الخالق ووحده المسيطر على جميع ما خلق، فابحث أيها الإنسان عمّا نسب إليه تعالى من صفات فهل تجد من بينها أو فيها نوع ظلم؟! فالذي لا تجد في ذاته ظلماً كيف يصدر منه فعل بعنوان كونه ظلماً؟!.

٢ـ الملكيّة والغنى لله، إنّ الذي يظلم إمّا بالتعدّي أو أنّه محتاج، ولمّا كان الله يتصرّف في ملكه لم يكن تعدّياً، ولمّا كان له ما في السماوات والأرض لم يكن محتاجاً إلى مخلوق له حتّى يظلمه.

٣ـ نظرة إلى المبدأ، انظر أيها الإنسان إلى ما يمتلكه الله وإلى ما خلق الله لكلّ ما هو موجود في السماوات والأرض من أكبر خلقه إلى أصغره وإلى ما اكتشف وإلى ما سيكتشف، فهل تجد عنصراً من عناصر الكون والحياة قد أعطاه الله نظاماً فوق قابليته أو يجري على نظام يخالف ماهيته؟ فالذي لا يظلم أيّ مخلوق من خلقه والنظام الذي جعله له فكيف نحتمل صدور الظلم منه تكويناً وتشريعاً على أفضل خلقه وهو الإنسان؟! وهل خلق الله ما في السماوات والأرض إلّا لأجله؟

٤ـ نظرة إلى المعاد، فالذي ينظر إلى المعاد نظرة إجماليّة بما عرّفه الله على إجمال ما سيحدث فيها فلا يحتمل الظلم على الله، وذلك للأسباب التالية منها:

أوّلاً: جعل المعاد، إنّ نفس جعل المعاد وإنّه يوم الحساب لا يوجد فيه إلّا احتمال واحد وهو رفع الظلم، كما أنّ هذه المحاكم في الدنيا لا يوجد احتمال في تأسيسها إلّا رفع الظلم.

ثانياً: جعل المعاد بيده ولا يشاركه أحد سواه، فلو كان بيد غيره أو يشاركه الغير

لاحتملنا الظلم لوجود أسباب الاحتمال في غيره، ولكن لمّا كان هو العدل والحق فمن أين يحتمل الظلم؟! فمن عدم احتمال الظلم فيه أن جعل مرجع الأُمور إليه.

ثالثاً: شرع المعاد. انظر إلى كتاب الله والتشريع الذي وضعه الله للمعاد من حيث وعده وتوعّده وكيفيّة الحساب من التدوين للأعمال وإحضار الشهود ونوعيّتهم وهكذا بقيّة وحدات يوم القيامة. فهل تحتمل الظلم فيه؟!.

الاحتمال الثاني: أن تكون هذه الآية ناظرة إلى اختصاص الله برسم المنهج للإنسان، فهي تطرح إحدى العلل والدليل لهذا الاختصاص، فإنّ الذي له ملك السماوات والأرض وقيمومة كلّ شيء بيده هو ربّ العالمين، فهو أعلم وأدرى من غيره ممّا يحتاج خلقه وما هو المنهج الصحيح والمناسب لهم والذي يعود على جميع الإنسان أين ما كان وأين ما حلّ بالسعادة والطمأنينة، وهو سبحانه أعلم من غيره بما يحتاجه البدن والروح وما ينبثق منهما، فمن الطبيعي إليه سبحانه ترجع الأُمور كلّها.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لكلمة ﴿أُخرِجَتْ﴾؟

ج:

أُخرجت: أُظهرت.

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؟

ج:

أولاً: ﴿كُنتُمْ﴾

أ ـ (كان): فعل ماضي ناقص، وهذا هو الأصل والوضع الخاص له وأغلب الاستعمال فيه، ولكن قد يستعمل في غير ذلك مثل:

١ ـ قد يستعمل الفعل (كان) لأن يكون فعلاً تاماً لا ناقصاً. ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ (البقرة: ٢٨٠).

٢ ـ قد يستعمل الفعل (كان) مجرّداً عن زمانه الماضي ويكون لمطلق الزمان، كما في موردنا حيث ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في الماضي والحاضر والمستقبل، ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «أُعطيت ما لم يعطَ أحد من الأنبياء، نصرت بالرعب،

وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أُمتي خير الأمم»(١).

ب- ﴿كُنتُم﴾:

١- أنّها زائدة وجاءت للتأكيد.

٢- أنّها خير أمّة عند الله في اللوح المحفوظ.

٣- أنّها أُمّة مبشّر بها في الكتب الماضية.

ثانياً: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾

أيّتها الأمّة الإسلاميّة كنتم ماضياً في صدر الإسلام وما بعده حاضراً وسوف تبقون مستقبلاً أفضل أمّة أظهرت للناس وجميع الأُمم مادامت فيكم ثلاث دعائم وعلل رئيسيّة للاستحقاق لهذا الشرف العظيم والمسؤوليّة الكبيرة عليكم وهي: أنّكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. وإذا انهارت وفُقدت هذه الدعائم في قلوبكم وأعمالكم وانتفت عنكم، فهذه الخيريّة سوف تُسلب منكم وعندها تصبحون أشلاء ممزّقة وفرقاً متناثرة ضعفاء الأُمم ويكون الله عنكم بعيداً. فأنتم خير الأُمم مادمتم تؤدّون هذه العبادة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «إذا لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن منكر، ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي، سلّط الله شرارهم فيدعو عند ذلك خيارهم فلا يستجاب لهم»(٢).

---

(١) السنن الكبرى ١: ٢١٤.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٨٥/٤٩٤.

قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

انّ أهل الكتاب يؤمنون بالله، ولكن إيمانهم بالله منفصل عن العمل وعن طاعته وبعيد كلّ البعد عن الاعتصام بكتبه وأنبيائه، وليس لهم غرض في الفرد والمجتمع من الناحية الدينيّة والالتزام الديني؛ لأنّهم فاقدون لأهم وحدة من وحدات البناء الشخصي والاجتماعي وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمثل هذا الإيمان لا يؤثّر أثره في بناء الشخصيّة والمجتمع ولم يجلب لهم خير الدنيا والآخرة، ولهذا تجد القليل جدّاً منهم على طاعة الله وأكثرهم خارجون عن دائرة طاعة الله وفاسقون، فانظروا إليهم أيّها المسلمون لتحذروا أن تكونوا مثلهم بتركّكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتصام بحبل الله فيكون القليل منكم المؤمنين والكثير منكم هم الفاسقون.

س: ما هو المحتمل في أن استعمل الله في ﴿أُخْرِجَتْ﴾ المبني للمجهول ولم يستعمل المبني للمعلوم باعتباره هو الفاعل سبحانه؟

ج:

لم يكن الله هو العلّة التامّة في الفعل والإخراج، بل الأمّة الإسلاميّة تشترك في صنع الخير بعد أن زوّدها الله بعناصر الخير من الكتاب والرسولﷺ، فاختيارهم واستعدادهم وقبولهم وعملهم وإيمانهم وتحمّلهم وتحمّسهم وتضحيتهم وأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك له الأثر في إخراج أنفسهم وإظهارها أمام الناس كأمّة إسلاميّة خير الأمم والملل.

س: ما هي المحتملات في أن قدّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ مع أنّ الإيمان بالله يجب أن يكون هو المقدّم؟

ج:

١ـ أنّ الإيمان بالله وإن كان هو الأصل لكنّه عند الله يمثّل طرفاً ضعيفاً في شخصيّة الإنسان المؤمن إن فصله الإنسان عن العمل، ولهذا الذي لا يكون عاصياً ولم يمتلك إلّا الإيمان بالله، فالله يعتبره كافراً يستحقّ النار ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾(البقرة:١٠٥).

٢ـ أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن فصله عن الإيمان بالله لعدم إمكان إقامتهما إلّا عن طريق الشارع المقدّس، فيلزم من ذلك الإيمان بالله مسبقاً على العمل بهما، فيكون خطاب ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ من باب عطف الأصل على الفرع.

٣ـ أنّ دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على شخصيّة الإنسان المؤمن دور الرافد لإيمان الإنسان المؤمن القائم بهما، فالذي يريد أن يزيد إيمانه وتقرّبه إلى الله عليه أن يزيد نشاطه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمراد من الفعل المضارع في ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ لا أصل الإيمان بالله وإنّما الاستمرار والزيادة فيه.

٤ـ قدّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله لإبراز أهميّة هذه الوحدة العباديّة، وهذا المفهوم ليركّزه الله في نفوس العاملين لما فيه الأثر الإيجابي في إيمان المجتمع ووحدتهم وحلّ مشاكلهم في جميع الأصعدة السياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، لدخول الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر في جميع هذه الأصعدة وغيرها لعنوانه العام الشامل.

٥ـ قدّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله لأنّ المدّعين للإيمان بالله كثيرون، فحتّى لا ينطلي عليك ادّعاء المدّعي فراقبه عن طريق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فإنّها ضابطة من ضوابط تمييز الشخصيّة الإيمانيّة الصادقة عن غيرها.

س: ما هو التعريف الاصطلاحي للمعروف والمنكر؟

ج:

١ـ المعروف: هو ما يدركه العقل بأنّه حسن ولم ينه عنه الشارع.

٢ـ المنكر: هو ما يدركه العقل بأنّه قبيح وقد تعلّق به نهي من قبل الشارع.

س: لماذا تدخّل الشارع في المعروف والمنكر عن طريق الأمر والنهي ولم يتركه للعقل؟

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

ج:

أنّ للشارع دخلاً في تعيين المعروف والمنكر من خلال الأمر والنهي، وهذا لطف من الألطاف الإلهيّة أن تدخّل في تعيين الخير والشر والمعروف والمنكر وبيانهما للإنسان عن طريق الأمر والنهي حتّى يمنع الاختلاط وعدم التمييز بينهما عند الإنسان، فلو ترك الله تشخيص عمل المعروف والمنكر لعقل الإنسان لاختلّ نظام الحياة الاجتماعيّة للإنسان لجهله بكلّ المعروف والمنكر ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١٦)، فتدخّل الشارع لإرشاد العقل.

س: ما هي أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج:

أولاً: العقل

بما أنَّ الفرد اجتماعي الطبع، وأنَّ حركته لا تنفصل عن المجتمع من العلائق والأخذ والعطاء، فأيّ جريمة تصدر منه فهي كما تؤثّر على شخصه تؤثّر على غيره، كوباء الملاريا والطاعون مثلاً، فكما يوجب العقل الوقوف بوجه الوباء فهو يوجب الوقوف أمام الإنسان المريض روحياً وأخلاقياً لحفظ المجتمع من سراية الفساد.

ثانياً: الكتاب

١ـ ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

٢ـ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٤).

٣ـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

٤ـ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

٥ـ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١٢).

٦ـ ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

٧ـ ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:١٧).

ثالثاً: السنّة

نموذج من ذلك:

١ـ ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «لا تزال أُمّتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البرّ، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء»[١].

٢ـ ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وما أعمال البر كلّها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ كنفثة في بحر لجّي»[٢].

٣ـ ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنّه قال: « مَن رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن استطاع »[٣].

س: ما هو الحكم الشرعي المتعلّق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج:

١ـ أنّهما واجبان بنحو الوجوب الكفائي، فإذا تصدّى مَن له الكفاية يسقط عن الآخرين، بحيث يكون المتصدّي قد أثر أثره في محو المنكر واستبداله بالمعروف وإلا يبقى الوجوب مستمراً على الآخرين، فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط بمجرّد التصدّي ومن دون أثر.

---

(١) وسائل الشيعة ١٦:١٢٣/٢١١٤٤.

(٢) وسائل الشيعة ١٦:١٣٤/٢١١٧٠.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٤٨٠/٣٠٧.

٢ـ المعروف هو إمّا واجب أو مستحبّ، فالأمر به لا يكون إلّا واجباً إذا كان لواجب، ومستحبّاً إذا كان لمستحب. وأمّا المنكر فهو ما كان منهياً عنه من قبل الشارع ومبغوضاً عنده، سواء كان على مستوى الحرمة أو الكراهة فيكون النهي عنه واجباً لا غير؛ لوجوب عدم الرضا من كلّ منكر.

٣ـ يمكن للمباح أن يتعلّق به النهي لمنكر أو الأمر بالمعروف بعنوانه الثانوي الاستثنائي، كما إذا تعلّقت السباحة بالماء على إنقاذ غريق.

س: ما هي شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتعلّقة بالقائم بهما؟

ج:

١ـ أن يكون مكلّفاً جامعاً لشروط التكليف العامّة من البلوغ والعقل.

٢ـ أن يكون عالماً بالمعروف والمنكر، وهو الرصيد العلمي من الأحكام الشرعيّة والمفاهيم العقائديّة ممّا يمكّنه من معرفة الخط العام للمعروف والمنكر.

٣ـ أن يأمن من الضرر المحتمل المعنوي أو المادّي على النفس أو المال أو العرض إذا كانت هذه الأُمور أهم من الأمر أو النهي، وسواء كانت نفسه أو غيره من المؤمنين، وماله أو مال غيره من المؤمنين، وعِرضه أو عِرض غيره من المؤمنين، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «يأتي على الناس زمان يذوب فيه قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الآنك ـ أي الرصاص ـ وماذاك إلّا لما يرى من البلاء والإحداث في دينهم ولا يستطيعون له غيراً»(١).

٤ـ إذا شك في مورد من موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأن يكون في

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ١٤٠/٢١١٨٤.

تعيين الأهم بنظر الشارع، فهنا عليه مراجعة الحاكم الشرعي.

س: ما هي شروط في مَن يجب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؟

ج:

١ـ أن يكون مكلّفاً من حيث البلوغ والعقل، فضرب الطفل تأديباً أو عقوبة لا تعدّ من باب النهي عن المنكر لعدم بلوغه.

٢ـ أن يكون عالماً بأنّ ما تركه من المعروف وأنّ ما فعله من المنكر، وإلا لا يجب أمره ونهيه إلّا في الأُمور التي لا يرضى عنها الشارع بتركها أو فعلها مطلقاً، فهنا يجب أمره أو نهيه حتّى لو كان جاهلاً بالترك أو الفعل، كمحاولة قتل النفس المحترمة.

٣ـ ألّا يمتلك العذر الشرعي فيما فعله أو تركه، كأن يكون حاملاً لمعتقد مذهب أو يقلّد مجتهداً يخالف في هذه المسألة أو تلك، إلّا في الحالات التي لا يرضى الشارع بصدورها كيفما اتّفق، فهنا يجب أمره أو نهيه وإن كان يمتلك العذر الشرعي، كقتل النّفس المحترمة.

٤ـ ألّا يكون مرتدعاً عن المعصية، بل مصرّ عليها فهنا يجب أمره ونهيه.

٥ـ أن يكون قابلاً للتأثير والتأثّر فهنا يجب أمره ونهيه، وإلا إذا كان على علم ولم يبالِ ولم ينفع معه فلا يجب أمره ونهيه، وفي هذه الحالة يجب على الآمر والنّاهي القطع بذلك من خلال الفحص والتدقيق بحال مَن يجب عليه أمره ونهيه. ورد عن الإمام الصادقؑ أنّه قال: «إنّما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتّعظ، أو جاهل فيتعلّم، فأمّا صاحب سوط أو سيف فلا»(١).

---

(١) الكافي ٥: ٦٠/٢.

س: ما هي مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج:

١ـ الإنكار القلبي، من المقاطعة والهجران والإعراض وعدم التكلم معه إذا كان هذا النوع من السلوك يكون مؤثّراً في الارتداع، وهذا الواجب يشترك فيه جميع المكلّفين، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة»(١). وعنه أيضاً: «أدنى الإنكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة»(٢).

٢ـ الإنكار باللسان، وهو التكلم معه بالمخاطبة المباشرة أو إرسال الكتب والرسائل الكتابية والصوتية والصورية بأسلوب يتناسب مع ما يتحمّل ويؤثّر أثره الإيجابي، وهذا الواجب يشترك فيه جميع المكلّفين عند القدرة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لو أنّكم إذا بلغكم عن الرجل شيء تمشيتم إليه فقلتم: يا هذا، إمّا أن تعتزلنا وتجتنبنا، وإمّا أن تكفّ عن هذا، فإن فعل، وإلا اجتنبوه»(٣).

٣ـ الإنكار باليد، وهو الضرب، وهذا الطريق يأتي بعد عدم الجدوى من الطريقين الأوّلين، وهذا الواجب يشترك فيه جميع المكلّفين إذا كان دون الجرح أو الكسر أو القتل، وأمّا فيهم فهو بيد الحاكم الشرعي، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّه قد حقّ لي أن آخذ البريء منكم بالسقيم، وكيف لا يحقّ لي ذلك وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه ولا تهجرونه ولا

---

(١) الكافي ٥: ٥٨/ ١٠.

(٢) تهذيب الأحكام ٦: ١٧٧/ ٣٥٦.

(٣) وسائل الشيعة ١٦: ١٤٥/ ٢١٢٠٠.

تؤذونه حقّ يتركه»[1].

س: هل هذه المراتب تأتي بشكل مرتّب بحيث لا يمكن تجاوز أحدهما إلّا بعد الانتهاء من السابق واليأس منه؟

ج:

أن الابتداء بالأقل ضرراً هو ما يجب التمسك به، ولكن إذا تيقّن المكلف بعدم الجدوى في ذلك مسبقاً فله الانتقال إلى ما هو أكثر ضرراً وإن لم يمرّ بمراحله، فالضابطة هو الأُسلوب الذي يؤثّر أثره مع اليقين به وألّا يخرج عن الحكمة.

س: على مَن تقع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج:

١ـ مسؤولية المكلّف العام أو الخاص (ولي أمر المسلمين) (الفقيه المرجع).

٢ـ مسؤولية مجموعة من الأفراد، إذا تعلّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأن يقوم فيه مجموعة من الأفراد بما فيهم الكفاية، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

٣ـ مسؤولية المجتمع والأُمّة، كما إذا حصل فساد في قيادة الأُمّة والمجتمع وقد انحصر التغيير عن طريق الأُمّة والمجتمع، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة حتّى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله العامّة

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ١٤٥/٢١١٩٩.

والخاصّة»[١].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله لا يعذّب العامّة بذنب الخاصّة إذا عملت الخاصّة بالمنكر سرّاً من غير أن تعلم العامّة، فإذا عملت الخاصّة بالمنكر جهاراً فلم تغيّر ذلك العامّة استوجب الفريقان العقوبة من الله عزّ وجلّ»[٢].

٤ـ مسؤولية السلطة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

س: بعض الروايات تقول: ميدانكم الأوّل أنفسكم، وبعضها تقول: لا تنهى إلّا بعد أن تنتهي ولا نأمر إلّا بعد أن نأتمر به، فهل هذا يعني عدم جواز قيام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا بعد أن يكون القائم به عاملاً بكلّ المعروف وناهياً نفسه عن كلّ المنكر؟

ج:

١ـ العدالة ليست شرطاً من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود من العدالة هو اجتناب المحرّمات وفعل الواجبات.

٢ـ أنّ الروايات التي ذكرت عناوينها في السؤال وغيرها جاءت في حالة ذمّ للذين لا يعملون بما أمروا به وما نهوا عنه لا في مجال سقوط الوجوب عنهم.

٣ـ ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله عندما قيل له: لا نأمر بالمعروف حتّى نعمل به كلّه ولا ننهى عن المنكر حتّى ننتهي عنه كلّه؟ أنّه قال: «لا، بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا

---

(١) الدر المنثور ٢: ٣٠٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ١٣٥/٢١١٧٤.

به كلّه، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كلّه »(١).

س: بالإضافة إلى ما مرّ من ذكر الروايات في أثناء البحث، اذكر بعض الروايات وهي تحكي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج:

١ـ ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبّانكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله ﷺ فقال: نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ﷺ، ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً »(٢).

٢ـ ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كلّه كلمة عدل عند إمام جائر »(٣).

٣ـ ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أيّها المؤمنون، إنّه مَن رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومَن أنكره بلسانه فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه، ومَن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونوّر في قلبه اليقين »(٤).

---

(١) إرشاد القلوب ١: ١٤.

(٢) الكافي ٥: ٥٩/١٤.

(٣) غرر الحكم: ٣٣٢/٧٦٣٧.

(٤) غرر الحكم: ٣٣٢/٧٦٤٨.

٤ـ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «يكون في آخر الزمان قوم يتبع فيهم قوم مراؤون يتقرؤون ويتنسكون، حدثاء سفهاء لا يوجبون أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر إلّا إذا أمنوا الضرر، يطلبون لأنفسهم الرخص والمعاذير، يتّبعون زلّات العلماء وفساد عملهم، يقبلون على الصلاة والصيام وما لا يكلّفهم في نفس ولا مال، ولو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أتمّ الفرائض وأشرفها.

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، هنالك يتمّ غضب الله عليهم فيعمّهم بعقابه فيهلك الأبرار في دار الفجّار، والصغار في دار الكبار.

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصالحين، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر.

فانكروا بقلوبكم وألفظوا بألسنتكم وصكّوا بها جباههم ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإن اتّعظوا وإلى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم، إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ، أولئك لهم عذاب أليم، هنالك فجاهدوهم بأبدانكم وأبغضوهم بقلوبكم غير طالبين سلطاناً ولا باغين مالاً ولا مريدين بالظلم ظفراً حتّى يفيؤوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته»[1].

٥ـ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أوحى الله إلى شعيب النبيّ عليه السلام أنّي لمعذّب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستّين ألفاً من خيارهم، فقال: يا

---

(١) الكافي ٥: ١/٥٥.

ربِّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: أنّهم داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[١].

٦ـ ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٢].

---

(١) التهذيب ٦: ٣٧٢/١٨١.

(٢) التهذيب ٦: ٣٥٢/١٧٦.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١١١-١١٢).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الضرر: النقص غير الممدوح.

٢ـ الأذى: ما يصيب الإنسان من مكروه.

٣ـ الأدبار: الخلف.

٤ـ ضربت: طبعت.

٥ـ الذلّة: الانكسار والضعف.

٦ـ المسكنة: مالا يُعتدُّ به.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾

١ـ ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً﴾

بيان الخط العام لنتائج حركة أعداء الله والإسلام والمسلمين، وإنّ هؤلاء الأعداء لهم حركتهم المضادّة دائماً؛ لأنّ العدو لا يستريح وهو يرى عدوّه يعيش الحياة

باستقرار ورفاهيّة، وخصوصاً إذا كان هناك تقارب وتعايش بينهما فإنّه يزيد من الحركة المضادّة، والحرب كما نعرف على قسمين:

الأوّل: الحرب الباردة، والتي تتمثّل بكتمان الأحقاد، المناوشات الإعلاميّة المضادّة، استغلال مراكز القوى وإبعاد الطرف المعادي عنها، محاولة اصطياد المجالس الواسعة لتثقيف الآخرين على كراهيّة الطرف المعادي، استغلال الفرص للتنكيل بالطرف المعادي من خلال استعمال الكلمات اللاذعة ضدّ الطرف المعادي، استمالة كلّ مَن يحاول أن يتقرّب إلى الطرف المعادي عن طريق الترغيب والترهيب.

الثاني: الحرب الحارّة، والتي تتمثّل بأُسلوبين:

١ـ الاغتيالات لشخصيّة العدوّ المؤثّرة، أو إيقاعها في السجون وتعذيبها، ونشر وسائل الإرهاب بين صفوف الطرف المعادي.

٢ـ القتال والحرب العلنية بآليات الحرب المعروفة التي تزهق فيها الأرواح وتدمّر فيها البنى التحتية للبلاد والتي فيها يحرق الحرث والنسل.

خطاب هذه الآية يخبر الرسول ﷺ ليسمع جميع المؤمنين هذه الحقيقة، وهي أنّ أعداء الإسلام في حركتهم المضادّة إن أرادوا أن يستعملوا الحرب الباردة والحارّة من القسم الأوّل ضدّ المسلمين سوف يلحقون الضرر في المسلمين لكن لا مطلقاً، وإنّما ينحصر الضرر في الأذى النفسي من خلال الكلمات والإشاعات التي يطلقونها من هنا وهناك، ويشغلون المسلمين بالفعل ورد الفعل التي يستتبعها بذل الجهد والصرف المالي وفقدان بعض شخصيّات المسلمين من علماء وعاملين، لما يمتلك الأعداء من السلطة الظالمة ووسائل الإعلام ومراكز القوى، وأنّهم لا يسلكون الطرق الواحد في التعامل والأخلاقيّة كما هم المسلمون عليه، بل يتّخذون الوسائل

المديدة لعدم دخول الحلال والحرام في حركتهم وحساباتهم وبالتالي يكون القانون الطبيعي التكويني للدنيا في أنّ القويّ يأخذ الضعيف بيدهم ويسير في خدمتهم.

٢ـ ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾

وإذا استعملوا الحرب الحارّة من القسم الثاني، ووقف الطرفان متقابلين للبراز والمقاتلة فليس لهم قابليّة الوقوف أمامكم ومقاتلتكم، بل يهربون ويولّوكم الأدبار لما فيكم من الإيمان بالله واعتصامكم بالقرآن والسنّة التي جعلتكم تأملون من الله ما لا يأملون بحيث زرع عندكم روح التضحية والشهادة في سبيل الله حتّى وصلتم إلى مرحلة من اليقين يكون أرخصه بذل الأرواح في سبيل الله، وهذا العنصر مفقود عند الأعداء، بل هم عاشوا لأجل الدنيا فهم أحرص الناس عليها، فلم يكونوا مستعدّين على المواجهة في قتال تزهق أرواحهم فيها بالاختيار.

٣ـ ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

قد يغلب الأعداء المسلمين في حرب بل وحروب إلّا أنّهم لا ينصرون؛ لأنّ الغلبة لا تكون نصراً إلّا في حالة غلبتها على القلوب والأفكار والقيم التي بها ينتقل الإنسان ليكون آلة وفرداً من أفراد العدو، وأعداء الإسلام لا يمتلكون قيماً وفكراً ومنهجيّة لها قابليّة الاستيلاء على العقول والقلوب بعكس المسلمين الذين يمتلكون الايمان بعالم الغيب وعندهم القرآن ويمتلكون القدوة التي تنسجم مع الفطرة والعقل والقلب السليم، وهذا خير كفيل في بقاء الشخصية الإسلامية على إسلامها وانتقالها من فرد إلى فرد ومن بطن إلى بطن وبالتالي تكون الوحدات الأساسيّة للإسلام باقية من دون ضرر ونقص إلّا أذى المسلمين، هذا بالإضافة إلى النقطة الرابعة والخامسة الآتيتين.

ثانياً: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾

إنّ الله قد كتب عليهم بسبب تمرّدهم على الله وابتعادهم عن دينهم أن يكونوا أذلّاء مهانين، وصفة الذلّ ستكون ملازمة لهم كملازمة ضرب نقش السكّة على الفلزّ، فأين ما يرحلون أو يرتفعون أو يهبطون فهم في حالة ذلّة، وتجد حالة الذلّة واضحة عندما تتمّ السيطرة عليهم فلا يمتلك دليلاً يدافع به عن نفسه، بل ليس لهم طريق للاعتراف إلّا عن جرائمهم وانحرافهم وكذبهم وظلمهم بعكس الشخصيّة الإسلاميّة وهي في سجون الأعداء، وتجد الذلّة واضحة بين أكاذيبهم المستمرّة وهم يبرّرون لمواقفهم الإجراميّة ولا تدخل تلك التبريرات ولا تؤثّر أثرها حتّى عند أنفسهم.

وتجد الذلّة وهم يهربون من المواجهة وجهاً لوجه من جلسات الحوار وإلقاء الحجج، وتجد الذلّة حيث قلوب الناس خالية من الودّ والحبّ لهم، ولم يتخلّصوا من حالة الذلّ هذه إلّا عن طريق واحد وهو التمسّك بحبلين أحدهما عمودي وهو الإيمان بالله وكتبه وأنبيائه وطاعته والإخلاص إليه، والآخر الحبل الأُفقي وهو خدمتهم للناس والسعي إلى قضاء حوائجهم والدخول في معاهداتهم واحترامها.

وبعبارة أُخرى: لا يتخلّصون من الذلّ إلّا بدخولهم الدين الإسلامي الذي من أبرز مميّزاته أنّه دائماً فيه حالة التوازن بين الإيمان والعمل وينظر إليهما على حدّ سواء ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، التي هي عبارة أُخرى للحبل من الله وحبل من الناس، وإن لم يفعلوا ذلك فإنّهم باقون على الذلّة وعدم النصر بما يرون عزّة المسلمين وهم يحملون من قيم السماء والعمل بها بالإضافة إلى غضب الله ورجوعه عليهم في الدنيا والآخرة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ فهم باقون على

الذلّ لهذا السبب.

ثالثاً: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

وقد كتب الله عليهم صفة أخرى وهي صفة المسكنة والشعور بالحقارة الشخصيّة والنقص الذي هو أثر سلبي على النفس، فكفرهم وإنكارهم لآيات الله وتحريفها وعدم تطبيقها وقتلهم أنبياء الله بغير حق، الذي صار علامة وشبحاً يلاحق الشخصيّة اليهوديّة ويشعرها بالنقص والانكسار، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْـمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١١٣ -١١٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ قائمة: أ ـ النهوض. ب ـ الثبوت والاستقامة.

٢ـ آناء: مطلق الزمان، وآناء الليل ساعاته.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾؟

ج:

الأمّة بما هي أمّة ومجتمع لا يخلو من صالح ومن طالح، فلا يستوي الطرفان من حيث الإكرام والجزاء عند الله لعدله وقسطه وذاته ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾(السجدة:١٨)، كما أنَّ بين المؤمنين أنفسهم هناك درجات من الطاعة والالتزام فلا يستوي أصحاب الدرجات العليا من الطاعة مع الأقلّ منهم من حيث نوعية الإكرام الذي يقدّم لهم، فمن أهل الكتاب في حركة دائمة نشطة في الموارد التالية:

١ـ أنّهم قائمون ناهضون متحرّكون عاملون وليسوا من الخاملين والقاعدين ولا يمتلكون إلّا انتقاد الآخرين ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ وهم على حالتهم من الاستقامة لا

تزعزعهم الإشاعات وعداوة الآخرين لهم.

٢ـ ينمّون شخصيتهم الروحيّة والفكريّة من خلال تلاوة آيات الكتاب والتدبّر فيما يطرحه الكتاب من الفكر والأدب والعِبر ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾.

٣ـ ليس لهم لذّة في راحة إذا تعلّق بما هو أهم من الشعور بالراحة، فهم في وقت يستراح فيه الناس في نومهم العميق تراهم مشغولين بين تلاوة كتاب الله والتعبّد إليه بين الركوع والسجود ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

٤ـ يؤمنون بالله وبالمعاد وهم في حالة زيادة ونمو لإيمانهم من خلال الزيادة والاستمرار بطاعته والعمل بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

٥ـ هم السبّاقون المسارعون في فعل الخيرات متحمّلين المشاكل التي تحدث نتيجة فعلهم الخيرات ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، فإنّه ليس كلّ مَن فعل الخير يكون مرضياً عند جميع الناس.

٦ـ هم من أصحاب الصلاح فهم الصالحون، أي هم علماء بموارد الخير والمعروف وبموارد المنكر بحيث يصبّون موارد عملهم في المورد الذي يكون فيه إصلاح وصلاح للأمّة ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فليس هم من الجهلاء بحيث يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ولكن في حقيقة عملهم أنّهم في خراب وهدم وتفرقة وظلم للآخرين.

٧ـ عندما يتحرّكون في عبادتهم لله وخدمة الناس لا يصيبهم الجزع، ولا يخلطون مع عملهم الصالح معصية، يشكرون الله على أيّ حال هم عليه، ولم يدخلوا مع عملهم الخير ما يحبطه ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.

فإذن، إنَّ الذين يمتلكون هذه الصفات من أهل الكتاب لا يمكن مساواتهم في الجزاء من قبل الله مع غيرهم، كما أنّه يجب على المؤمنين ألّا يساووا بينهم في الدنيا في أن يمنحوهم بعض المهمّات، فهناك فرق كبير بين الذي يعيش على الدين وبين الذي يعيش لأجل الدين ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١١٦-١١٧).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيتين؟

ج:

١ـ الصر: أـ شديد البرودة. ب ـ الجمع.

٢ـ الهلاك: الموت والدمار.

س: ما هو المحتمل المراد في تفسير الآيتين؟

ج:

الآية الأولى: الكافر سواء كان جاحداً بالغيب أو كافراً عمليّاً، أي عاصياً لله في جميع حركته وفعله فهو كأيّ إنسان يتحرّك ويعيش الحياة، فهو يسعى في الحياة الاجتماعيّة من الأخذ والعطاء ويتطلّع إلى بناء مستقبله في الحياة، ولهذا يعمل من أجل أن يعيش، ويعمل من أجل أن يبني أُسرة من أولاد وزوجة، ويجمع من الأموال ما يضمن عدم حاجته في المستقبل، ويقدّم للآخرين كما يأخذ من الآخرين لطلب الحياة الضروريّة المبنيّة على الأخذ والعطاء، فحركة الكافر في الحياة كأيّ حركة للإنسان على الأرض، ولكن الفرق أنّ المؤمن يتحرّك وهو يرى أنّ كلّ شيء وسيلة تقرّبه إلى الله وليست غاية في نفسها ومطلوباً بالذات، وهذا له تأثيره الإيجابي الذي يرجع على نفس الشخص وعلى المجتمع، كما أنّ لنفس العمل الذي

يقدّمه الكافر له أثره السلبي على نفس الشخص والمجتمع.

والآية تتحدّث عن خصوص الجزاء في الآخرة وعند الله وتخبر عن نتيجة عمل الكافرين الذين جعلوا الأموال والأولاد غاية فلا يترتّب على ما بذلوه من جهد في الحياة الدنيا أيّ عطاء ينفعهم ويغنيهم عن عذاب الله يوم الآخرة، فلا الأولاد تنفعهم ولا الأموال تنفعهم بأي وجه من الوجوه؛ لعدم جعل الله هذه الأمور من أسباب الآخرة ولم تكن على كثرتهم أو قلّتهم حساب، بل الحساب على العمل المتعلّق بهما وعلى غيرهما إذا كان في محلّ الخير وفي سبيل الله ومنطلقاً من الإيمان به، فإذا جاء يوم القيامة يأتي الذين جعلوا الأموال والأولاد غاية وهم لا يجدون لها أيّ أثر إيجابي من الثواب مترتّباً على ما جعلوه غاية في حياتهم لعدم دخول الإيمان بالله والمعاد في حسابهم العقائدي والعملي ليذخروا لأنفسهم فيها شيئاً. وعليه لا طريق لهم فيها إلّا النار وهم فيها خالدون لكفرهم.

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الآية الثانية

١ـ أنّ أخذهم وعطاءهم المنطلق من إنسانيّتهم كأُناس على الأرض مادام منفصلاً عن الله فليس له قيمة عند الله، فالإنفاق حالة طبيعيّة تدفع الإنسان إلى العطاء مادام يعيش الحالة الاجتماعيّة، إلّا أنّ أثره الأُخروي يكون وجوده وعدمه على حدّ سواء، ومثله كمَن يملك الزرع وقد آن أوان قطافه وحصاده فتمرّد الزارع على الله بعصيان أوجب غضب الله عليه واستحقّ العقاب في الدنيا فأرسل الله ريحاً باردة شديدة على زرعه الذي لا تلائمه مثل هذه الريح فأهلكته بحيث لم تبقِ لزارعه شيئاً ينتفع منه، وكذلك إنفاق المنفق في حياته بالنسبة ليوم الآخرة إذا كان كافراً بالله يأتي ولم يجد لما أنفقه أيّ أثر ينتظره

لينقذه من عذاب ذلك اليوم، وإنّ سبب هذا الحرمان هو أنفسهم حين اختاروا الكفر في جميع حركتهم في الحياة التي منها عطاؤهم وإنفاقهم، فهم الذين جحدوا بالله، وهم الذين اختاروا طريق العصيان الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وهم الذين ظلموا أنفسهم حين حرموها من ثواب أعمالهم وأوردوا أنفسهم النّار.

٢ـ أنَّ في بعض المواقف التي يصاب الإنسان بها بمكروه يقطع ويتيقّن أنَّ ما أصابه من المكروه كان نتيجة عمل الظلم الذي قام به قبل إصابته بالمكروه، والعكس صحيح، حيث في بعض المواقف التي يتخلّص الإنسان بها من مكروه كاد يصيبه يقطع ويتيقّن أنَّ دفع هذا المكروه عنه كان نتيجة عمل خير قد عمله قبل هذا الدفع للمكروه، فالإنسان مهما كان في كثير من مثل هذه المواقف يربط بين ما قام به من فعل وبين وما أصابه.

فالذي أصاب الريح الصّر زرعه فأهلكه كان على علم ويقين أنّه بسبب الظلم والمعصية التي قام بها، فالإنسان بعقله يربط بين المقدّمة والنتيجة وبفطرته يفسّر ما يترتّب على ما فعله من الخير أو الشّر.

فيا أيّها الإنسان إذا كان هذا يقينك لبعض الاستحقاق في بعض مقدّمات المواقف ونتائجها وأنت تعيش الحياة الدنيا فلا تتعجّب في يوم القيامة عندما تأتي وأنت ترى إنفاقك قد أصابه مكروهاً وكان هباءً منثوراً فإنّه كان بسبب كفرك وعصيانك، فإذا صار بعض الاستحقاق فعلياً من قبل الله في بعض مواقف الدنيا فإنَّ الاستحقاق يوم القيامة هو الصورة الوحيدة الفعليّة لكلّ المواقف التي وقفها الإنسان في الدنيا من صغيرة أو كبيرة.

س: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ...﴾، لماذا ذكر الله الأموال والأولاد مع أنّ طريق الوصول أوسع من ذلك؟ اذكر المحتملات.

ج:

الاحتمال الأوّل

أنّ طريق عمل الإنسان لا يخرج عن أحد طرقه الثلاث: الكلمة والمال والأخلاق العامّة، فنقول:

١ـ أمّا الكلمة فلا خير في كلمتهم؛ لأنّهم كافرون فلا تصدر منهم كلمة إلّا في مجال الكفر والتشجيع عليه.

٢ـ وأمّا الأخلاق وهي السلوكيّة العامّة للفرد الكافر وما يحمله من المعتقد فهي أصدق ما تكون مع الأولاد، لا من حيث تربيته لهم ولا من حيث إنفاقه عليهم، فإنّ ذلك منتفٍ في ترتيب الأثر عليه في يوم الآخر لخلوّه من جعله وسيلة للوصول إلى الآخرة لكفرهم بها، فلم يبقَ إلّا اشتراكهم في تكثير النوع البشري، وهذا هو الآخر لا يترتّب عليه شيء في الآخرة؛ لأنّها عملية غير مقصودة منهم وإذا كان فيها قصد فهو لتكثير عامل الكفر في البلاد.

٣ـ وأمّا المال فيمكن أن يدخل في عامل الخير بصرفه الواقعي كبناء المدارس ومؤسّسات الإنفاق ومساعدة الآخرين، ولكنّه لا يترتّب عليه الثواب لصدوره منهم وهو مفصول عن الإيمان.

الاحتمال الثاني

لا عمل للكافرين يرتجى ترتّب أثر الآخرة عليه إلّا من خلال الأموال والأولاد بوجودهما الواقعي، فقد يصدر منهم فعل الخير من خلال أموالهم بوجوده الواقعي،

وقد يلد ولداً يكون صالحاً ومؤمناً بعالَم الغيب واقعاً، وفي الحالتين يكون له أثر وكتابة في السجل المشرق له عند الله، ولكن ذلك لم ينفعه مهما كان كثيراً لرجحان كفّة الكفر الذي مات عليه الكافر.

س: إذا كان النظر إلى الإنفاق بما هو إنفاق فإنّه عطاء على كلّ حال سواء كان قد دفع عن دافع إنسانيّة الإنسان أو بدافع الإيمان بالله، فلماذا لا يحسب من الأوّل ويحسب من الثاني عند الله؟ اذكر المحتملات في الجواب على ذلك.

ج:

١ـ أنّ من رأس الأهداف لخلق الإنسان على الأرض أن يؤمن بالله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) أي يعرفون ويؤمنون.

٢ـ أنّ من منهجيّة الله في قبول العمل لا مطلقاً، بل حصّة خاصّة منه وهو العمل المرتبط بالإيمان بالله واليوم الآخر، فلا إيمان من دون عمل ولا عمل من دون إيمان ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (النحل:٩٧).

٣ـ أنّ الله هو الغنيّ المطلق ولو شاء لأغنى الناس جميعاً فهو ليس بحاجة إلى إنفاق المنفق من مؤمن أو كافر، ولكن ربط الله الإنفاق بل وكلّ حركة في الخير بالإيمان ليكشف الله طاعة المطيع له ومدى انصهار عبوديّة العبد إليه ومدى ارتباط الإنسان به سبحانه، فلم يكن الله قد خلق الإنسان على الأرض ليعيش المطلق فيما يشتهي وفيما لا يشتهي في إنفاق أو في غيره ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

٤ـ أنّ الله عندما شرط الإيمان في الإنفاق لتنظيم عمل المنفق حتّى يصيب الصح

في إنفاقه ليكون مشاركاً في المنهج الصحيح الذي وضعه الله للإنفاق كما عرفنا جزءاً منه في مبحث الإنفاق، فإنفاق الكافر سفه وعدم حكمة وخسارة وخطأ؛ لأنّه لا يسير على النهج الإلهي الصحيح الذي يجعل المنفق أن يضع الشيء في محلّه، وأن يكون مشاركاً فعلاً في رفع مشاكل الحاجة الاجتماعيّة.

٥ـ أنّ الله عندما شرط الإيمان في الإنفاق لتهذيب المنفق عليه، فإنّ الذي ينفق عليه قد يستعمل ما ينفق عليه في شراء سلاح لقتل الآخرين، وقد يستعمله في شرب الخمر ومؤسّسات القمار، وقد يستعمله في طرق إضلال الآخرين، ومادام المنفق كافراً فهو لا ينظر إلى هذه المخاطر الاجتماعيّة ولا ينظر إلى الموارد التي سيستعملها المنفق عليه، بل قد يكون الكافر ينفق وهو ناظر إلى هذه الموارد المنحرفة فينفق عليها لأنّه كافر يحب الكفر والعصيان ويشجّع عليه، وبالتالي يعطي الإنفاق نتائجه المكسيّة فيكون ضرره أكثر من نفعه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران:١١٨ـ١٢٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ البطانة: أ ـ باطن الشيء. ب ـ الغلاف الخارجي الذي يخفي الشيء.

٢ـ يألو: يقصر وينقص.

٣ـ الخبل: مطلق الفساد في المعنى والمادّة، ومنه الجنون يسمّى خبلاً لفساد العقل.

٤ـ العنت: من العناء وهو التعب وشدّة المشقّة.

٥ـ البغضاء: شدّة الحقد.

٦ـ الفوه: الفم.

٧ـ العض: اصطكاك الأسنان وانطباقها على شيء.

٨ـ الأنمل: طرف الإصبع.

٩ـ الغيظ: حنق الصدر وحقده.

١٠ـ المس: هو أقلّ درجات اللمس.

١١ـ تسوء: تحزن وتتأذّى وهو ما يقابل السرور.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

نهي وتحذير للمؤمنين بأن يتّخذوا من خارج دائرتهم أناساً كافرين عقائديّاً أو فاسقين سلوكيّاً بحيث يجعلونهم أصدقاء أحبّاء عاملين في دوائرهم ومؤسّساتهم داخلين بين صفوفهم، وبالتالي يكشفون لهم وتتكشف لديهم أسرارهم، فيطلع الذي من خارج دائرة المؤمنين على خفايا وأسرار المؤمنين ويكشف نقاط الضعف والقوّة عندهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، فكلّ ذلك ينهى الله عنه المؤمنين فلا يجوز لهم ذلك شرعاً، وذلك للأسباب التالية:

١ـ ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾

لا ينقصوكم فساداً، ولا تتأمّلوا منهم أن يصلحوا لكم أمراً غير صحيح فيكم، فإذا استعنتم بغيركم أيها المؤمنون لأجل أن يحلّ الغير مشكلتكم وأن يملأ الفراغ الذي تركه بعضكم فإنّه سوف يحل المشكلة من منطلقاته ورؤياه في الحل لا من منطلق الرؤية الإلهيّة في حلّ تلك المشكلة، وبهذا يكون ما ترونه أنّه قد أصلح في مجال ما فإنّه إمّا إصلاح مؤقّت في أحسن الأحوال، أو أنّه إفساد في جوانب أُخرى قد لا يحسّ بها المؤمنون إلّا بعد طول من الزمن وقد لا يحسّون بها.

وعلى كلّ حال فمشاركتكم إيّاهم وكشف أسراركم إليهم لا ينقص الفساد ولا يزيدون الطين إلّا بلّة، وعليه يجب على المؤمنين أن يحافظوا على أسرارهم وأن يستعينوا بأنفسهم في حلّ مشاكلهم وأن يسعوا في العلم ليكونوا هم

أصحاب الكفاءة حتّى لا يحتاجوا إلى غيرهم.

٢ـ ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾

(ما) مصدرية، إنّ الكافرين والمنافقين والفاسقين لا تجد في قلوبهم حبّاً ووداً للمؤمنين؛ لأنّهم يتبنّون الكفر والنفاق والفسق المضاد لمتبنّيات المؤمنين. كما أنت أيّها المؤمن لا تودّ الكافرين والمنافقين والفاسقين لكفرهم ونفاقهم وفسقهم فكذلك هم، فهل تظنّ أيّها المؤمن أنّ مثل هؤلاء يحلّون لك مشكلة ويطلبون لك الراحة حتّى تتخذهم وليجة وبطانة لتكشف لهم أسرارك أم يريدون لك العناء والمشقّة؟! فلا تستعن أيّها المؤمن بما لا يزيدك إلّا رهقاً.

٣ـ ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

أنّ الذي يتعايش معهم يعرف حقيقة عداوتهم وبغضهم للمؤمنين، وتجد ذلك واضحاً من خلال طرحهم عندما ينتقدون المؤمنين وعندما يقيّمونهم وعندما يأتي الحديث عن الإيمان والمؤمنين وعندما يحدث موقف مضاد بينهم وبين المؤمنين، واسمع وسائل إعلامهم لتجد البغضاء تملأ كلماتهم وهم يعلنون التنكيل والإهانة لرسول الله ﷺ ولكتابه وليعض من أهل بيته بين فترة وأخرى، ومهما أظهروا الحب لكم فإنّه يبقى على مستوى التظاهر وأنّه لكاذب، راقبوا عدم تحمّلهم أن يضمروا البغضاء والحقد في صدورهم من خلال أفواههم، فإنّ ما يضمره القلب يظهره اللسان.

هذا ما تتمكّن عليه معرفتكم بهم من خلال الظاهر، وأمّا الباطن الذي لا يعلم مقدار ما يحمله من الحجم الكبير من البغضاء إلّا الله، فهو الذي يخبر به المؤمنين بأنّ ما تخفي صدورهم من الحقد والبغضاء لهو أكبر ممّا تطّلعون عليه من خلال أفواههم وظاهرهم، ويكتفي الله بذكر الأكبر دون الخوض بتفصيلاته

ومقدار البغضاء الذي يخفونه؛ لأنّه قد يكون فوق حدود التصوّر، والله يقول: ونحن إذ نبيّن لكم هذه الآيات التي تحمل الحقائق من أجل أن تتفكّروا بها وبهم، وأن تحلّلوا هذه الحقيقة من منظار علمي لتصلوا إلى القناعة القلبيّة بحقيقة شخصيّاتهم، وأن تتذكّروا ولا تنسوا ذلك فتقرّبوهم وتكشفوا أسراركم لهم ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ويزيد الله شواهد من التأريخ في صدر الإسلام تدلّ على حقيقتهم وما يكنّون من الحقد والبغضاء على المؤمنين، وإنّ صفاتهم هذه لم تتغيّر، بل يبقى الحقد والبغضاء والعداوة ضد المؤمنين يسري في قلوبهم جيلاً بعد جيل ماداموا يتبعون الآباء في كفرهم ونفاقهم وفسقهم فلا تتّخذوهم بطانة لكم. فمن تلك الشواهد:

أوّلاً: ﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾

أنّ من الأمر الطبيعي للإنسان أن يحب الذي يلتقي معه في نقاط مشتركة ومتبنّيات واحدة، كحب المؤمنين فيما بينهم والكافرين فيما بينهم، وكلّ جماعة تتبنّى نمطاً معيّناً فيما بينهم، وها أنتم أيّها المؤمنون تلتقون مع أهل الكتاب بأُم العناصر المشتركة بينكم من الإيمان بالله وبأنبيائهم وكتبهم، بل إنّكم تزيدون عليهم بأنّكم تؤمنون بكلّ الكتاب وما يحتويه من آيات في أنّها منزّلة من الله، أمّا هم فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وعلى هذا من المفروض أن يحبّوكم أكثر ممّا يحبّون أهل ملّتهم كما هي طبيعة الإنسان فيما يلتقي به مع الإنسان الآخر من متبنّيات وأفكار، بينما نجد هؤلاء لا يحبّونكم، فلو كان هناك سبب عقائدي يدعوهم لعدم الحب فهو مفقود لأنّكم تؤمنون بما يؤمنون، ولكنه الحقد الجاهل المغروز في أعماقهم، وهو الذي يجعلهم لا ينظرون إلى المؤمنين نظرة حبّ وودّ.

فيا أيّها المؤمنون، إنّكم وإن تحبّوا الآخرين إنطلاقاً من تربيتكم الدينيّة التي

علّمتكم الرحمة والعطف والانفتاح على الآخرين بانشراح الصدر أنّ حبّكم لهؤلاء لا يرتجى منه شيء فلا تجعلوهم بطانة لكم من دون المؤمنين.

ثانياً: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

لا تغترّوا أيّها المؤمنون بأسلوبهم الهادئ ولا بكلامهم المعسّل، فإنّهم منافقون وأنّ قولهم بألسنتهم: آمنّا ونحن كما أنتم مؤمنون، إنّه قول خادع لا حقيقة له، ومن علامة ذلك أنّهم إذا خلا بعضهم إلى بعض في تجمّعاتهم وجلساتهم عضّوا الأنامل التي هي حالة يصنعها الإنسان من دون شعور منه عندما يشتدّ غيضاً وحقداً وهو لا يقدر على الانتقام، وهم لا يقدرون لقوّة الإسلام أو لعدم امتلاكهم الحجّة فيبقى الحقد في صدرورهم من دون أن يتمكّنوا من عمل شيء، وإذا بقي الغيظ في القلوب ولم يجد متنفّساً له فإنّه يؤثّر على أنفسهم حتّى يقضي عليهم بالموت، أو أنّهم يبقون على غيظهم إلى أن يموتوا وهم لا يقدرون على شيء، فهو لم يكن موتاً بشرف، ولم يكن تحت رضاء الله وطاعته، فهم يستحقّون مثل هذا الموت الذليل ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيحاسبكم على غيظكم ضدّ المؤمنين كما يحاسب المؤمنين الذين يتّخذون الكافرين بطانة.

ثالثاً: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾

أنّها شماتة الأعداء وما ينتجه الحسد، فإنّ من تفاعلهم القلبي مع المؤمنين هو التفاعل العكسي، فهم إذا سمعوا أقلّ حسنة قد مسّت الذين آمنوا حزنهم ذلك وتأذوا منه،وإذا أصابتكم الحسنة كان الأذى أكثر وأكبر، وإذا سمعوا بمصيبة قد أثّرت أثرها فيكم بحيث تصيبكم لا مجرّد أن تمسّكم فهم يفرحوا لهذه الحالة الضررية التي تصيبكم، بينما أنتم أيّها المؤمنون جميعاً إذا سمعتم بقتل أفراد من أهل الكتاب قد

قتلوا ظلماً وعدواناً يصيبكم الأذى وتستنكرون ذلك القتل ببياناتكم وقلوبكم، فهم ليسوا كذلك لا جميعهم وإنّما أكثرهم.

ولكن أيّها المؤمنون، لا تعيروا أهميّة بتعاملهم معكم على هذا النحو من التعامل والعلاقة، فاصبروا على هذه الحالة واعملوا عملكم في تقوى الله، وإنّ كيدهم لا يضرّكم شيئاً، فإنّ إسلامكم محفوظ وإنّ طريقتكم وأنتم تتقون الله ستبقى وإنّ الرسول ﷺ سيملأ قلوب النّاس حبّاً، وكلّما تقدّم الزمان فأنتم على نمو وزيادة وأعداؤكم على تقهقر واضمحلال مادمتم على تقوى الله والالتزام بطاعته ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾. وإذا صدرت منهم الخطط الماكرة تؤثّر أثرها على الإسلام والمسلمين بحيث تستوجب نصرة الله فسوف يتدخّل الله بالنصر ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ كما تدخّل الله في غزوة بدر التي سيأتي ذكرها في الآيات.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢١-١٢٢).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيتين؟

ج:

١ـ أذ: ظرف مبني في محل نصب متعلّق بمحذوف تقديره (اذكر) أو (قل).

٢ـ غدا: من الغداة وهو أوّل النهار.

٣ـ الأهل: ما يجمع مع الرجل نسباً أو سبباً أو مهنة أو فعلاً أو بلداً.

٤ـ التبوء: التهيؤ.

٥ـ المقعد: مكان الاستقرار والجلوس.

٦ـ همّت: ما حملته في نفسها.

٧ـ الطائفة: الجماعة من الناس أو من شيء.

٨ـ الفشل: ضَعفٌ مع جُبن.

• **معركة أحد**

س: اذكر المحتمل في تفسير الآيتين المذكورتين أعلاه وأنت تذكر قصّة معركة أُحُد.

ج:

خرجت يا رسول الله ﷺ وكان قبل خروجك بليالٍ قد ناديت الناس وقلت: أيّها النّاس، إني رأيت في منامي رؤياً، رأيت كأنّي في درع حصينة، ورأيت سيفي ذا

الفقار انفصم من عند ظبّته، ورأيت بقراً تُذبح، ورأيت كأنّي مردف كبشاً. فقال النّاس: يا رسول الله ﷺ فما أوّلتها؟ قال: أمّا الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها، وأمّا انفصام سيفي من ظبّته فمصيبة في نفسي، وأمّا البقر المذبوح فقتلى في أصحابي، وأمّا مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله ...واستنتجتَ من هذه الرؤيا رأياً لحرب المشركين، لأنّ رؤياك لا كرؤيا عامّة النّاس بل إنّها نوع وحي، فقلت: اجعلوا الذراري في الآطام، فإن دخل علينا القوم في الأزقّة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت.

وذهب أهل المدينة وهم منشغلون بالبنيان حتّى صارت المدينة كالحصن، وكلمات البطولة والإيمان تتناثر من هنا وهناك، فهذا رجل من الأنصار يقول: ماذا نمنع إذا لم تمنع الحرب بروع، وهذا حمزة بن عبد المطّلب يقول: والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنّهم، وهذا نعيم بن مالك بن ثعلبة يقول: لا تُحرمنا الجنّة فوالذي نفسي بيده لأدخلنّها.

وعلى الرغم من هذا التفاعل وُجد الكثير من النّاس وهم يخالفون الرسول ﷺ الرأي فأبى كثير منهم إلّا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ورأيه.

وبدأت علائم الخلاف تظهر بحضرة الرسول ﷺ حتّى كان يوم الجمعة، صلّى رسول الله ﷺ الجمعة، وعظ الناس وذكّرهم وأمرهم بالجدّ والجهاد، ثمّ انصرف من خطبته وصلاته، فدعا بلامته فلبسها ثمّ أذّن في النّاس بالخروج، فلمّا رأى ذلك رجال من ذوي الرأي قالوا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء، فقالوا: يا رسول الله نمكث كما أمرتنا، فأجبتهم بأن تخرج إليهم ليكون القتال خارج المدينة حينما قلت قولتك المشهورة والتي

أسكتت الخلاف الذي كاد أن يطول بينهم: (لا ينبغي لنبي إذا أخذ لامة الحرب وأذّن بالخروج إلى العدوّ أن يرجع حتّى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدوّ، وانظروا ماذا أمركم الله فافعلوا).

خرجت يا رسول اللهﷺ في أوّل النّهار وقد تركت أهلك من أُسرتك وأقاربك وأحبّائك وأهل مدينتك وأُمّتك ...خرجت لتكون في طاعة الله خالصاً مخلصاً وأنت تختار الموت بإرادتك وتأمل النصر من عند الله ...خرجت من أهلك غداة لتكون أوّل المتقدّمين للحرب ...خرجت من أهلك ومدينتك وأنت قاصداً ساحة القتال لتهيئ المواقع القتاليّة للمؤمنين هناك.

خرجت من أهل مدينتك وأنت تقصد مكاناً قرب مدينتك حيث جبل أحد الذي سعى إليه المشركون من مكّة وهم يريدون الهجوم على المدينة بقيادة أبي سفيان بن حرب وكان عددهم ثلاثة آلاف فارس من غير النساء التي جيء بها لرفع همم المقاتلين وتشجيعهم على القتال وعلى رأسهنّ هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان التي اتّفقت مع العبد (وحشي) الحبشي على قتل حمزة عم الرسولﷺ بعدما اغرته بمال كثير وتحرير رقبته.

جاء المشركون وهم يحملون العدّة القتاليّة التي كانوا يجمعون لها من بعد غزوة بدر وأوقفوا ربح بعض التجارة لهم بأن تكون لشراء معدّات للحرب والتي نذر أبو سفيان فيها ألّا يمس رأسه ماء من جنابة حتّى يغزوا محمّداً، وكان أكابر المشركين يحذون حذو أبي سفيان في الدافع والحماس العملي لمقاتلة جيش محمّد وكان من عدّتهم ثلاثة آلاف من الإبل.

خرجت من المدينة وأنت تعرف عددهم وعدّتهم وغايتهم ودرجة حماسهم

لمحاربتك من خلال رسالة أرسلها عمّك العبّاس بن عبد المطلب وهي تخبرك عن المشركين وعددهم وأسلحتهم وما يهدفون إليه ...خرجت وأنت بصحبة ألف مقاتل ولم يكن منهم فارسٌ إلّا مائتين، وكانت النساء التي تداوي الجرحى أربع عشرة امرأة.

خرجت من مدينتك وما أن وصلت إلى منطقة (ثنيّة الوداع) حتّى رأيت كتيبة كبيرة قد انسحبت بثلث المقاتلين، فقلت: مَن هؤلاء؟ قالوا لك: عبدالله بن أُبي ابن سلول في ثلاثمائة من مواليه قد انخذلوا، واتّبعهم الصحابي الجليل عبدالله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، وهو يقول لهم: يا قوم، أُذكّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوّهم، فقالوا له: لو نعلم أنّكم قاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرى قتالاً. قال لهم عبدالله: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيّه.

خرجت وأنت يا رسول الله ﷺ تتقدّم ولم تعبأ بمَن انسحب عنك لأنّك على يقين أنّ الذي ينسحب منك لا يخذل ولا يلوم إلّا نفسه ...خرجت من أهل مدينتك وعند مقربة من منطقة أُحد أشار إليك بعض الأنصار على أن يستعينوا ببعض اليهود من بني قينقاع وهي حاضرة ومستعدّة للقتال بكتيبتها الخشناء، فقلت: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله ﷺ، فقلت: مرُوهم فليرجعوا فإنّا لا نستعين بالمشركين على المشركين.

خرجت من أهلك يا رسول الله ﷺ وقد وصلت إلى الشِعب من أُحد ونزلت في منطقة (عدوة الوادي) ولم يبقَ معك إلّا سبعمائة مقاتل ...خرجت من أهلك قائداً للحرب حيث أنت الذي تبوئ مقاعد القتال للمؤمنين، تمشي على رجلك تسوّي تلك الصفوف بنفسك، حتّى أنّك لترى منكب الرجل خارجاً فتؤخّره أو تقدّمه ...خرجت من أهلك وأنت ذو خِبرة عسكريّة حيث من خلالك يتمّ تحديد المواقع

وترتيب المقاتلين وتعيين مهمّاتهم القتاليّة.

خرجت وقد توزّعوا حسب أوامرك فكان عبدالله بن جبير يحمل راية الخمسين من الرماة في فم الشِعب وقد أوصيته بأن لا يترك مكانه في حالتي الفوز أو الهزيمة (قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم هزمونا حتّى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم)، وكانت راية المهاجرين وقيادتهم بيد أميرالمؤمنين عليه السلام، وراية الأنصار وقيادتهم بيد سعد بن عبادة، استقرّ بك توزيع المقاتلين وانتهيت من وصاياك إليهم.

وهاهو أذان الظهر قد حان فأمرت بيلالاً أن يؤذّن أذانه للصلاة وكانت صلاة الجماعة، ولم تعلم يا رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الأثناء قد تداول حديث لطائفتين من عشيرتين، فإنّ الله وحده هو السميع العليم ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ السميع بما صدر بينهم من الحديث والعليم بما كانوا يضمرون، حصل ذلك الحديث حين دخل في قلوب الطائفتين الرعب والخوف وهم قد شاهدوا عدد مقاتلي المشركين وعدّتهم حتّى تحوّل الحديث إلى أن همّت الطائفتان أن تنهزما لولا أن تدخّل الله بأن زرع في قلوبهم الاطمئنان حينما جعلهم يتذكّرون ولاية الله لهم وأنّهم يمثّلون الصف الإيماني وتحت قيادة خاتم الأنبياء والمرسلين في أنّ الغلبة له دائماً، وقد شاهدوا نموذجاً من هذه الغلبة وذلك النصر الذي جاءهم في غزوة بدر، وبهذا التذكّر انقلب موقفهم وما كانوا يضمرونه إلى موقف الصمود والبطولة والثبات والتضحية من أجل دين الله ورسوله، ثمّ يوجّه الله العتاب للطائفتين من دون ذكر أسمائهما ليحافظ على كرامتهما وليزيل شعور النقص في نفوسهما وحتّى لا يكونا عُرضة لألسنة الآخرين، وكان العتاب درساً يعلّم كلّ المقاتلين في سبيل الله بأن لا يحدّثوا أنفسهم

بالهزيمة والتراجع ولا يدعوا غيرهم أن يتحدّث بهذا النوع من الحديث الذي يجرّ إلى خذلان أنفسهم والآخرين.

كيف يحدّث المقاتل المؤمن نفسه في مثل هذا الحديث وهو يمتلك ما لا يمتلكه العدو المقابل في أنّ ولاية الله له دون غيره؛ لأنّ ولاية الله خاصّة بالمؤمنين ومثل هذه الولاية لا تقدر عليها سيوف ولا قنابل نوويّة، وهذا هو الإيمان الطبيعي لكلّ مؤمن بولاية الله، فإذا كان حال ولاية الله هي هذه فعلى الله فليتوكّل المؤمنون أين ما كانوا وأين ما حلّوا وليجدوا أنفسهم على قوّة لا تبلغها قوّة، ومهما صنع الإنسان من قوّة فهي لا تتعدّى إلى كونها صنع مخلوق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٩ـ١٥١).

فكانت السنة الثالثة للهجرة يوم الثالث عشر من شهر شوّال، ذلك اليوم الذي دخل التأريخ من أوسع أبوابه ليسجّل تلك الملحمة البطوليّة التي جسّدت ولاية الله للمؤمنين وهم لا يمتلكون القوّة الكافية مع ميزان القوّة المقابلة، دخل ذلك اليوم على المقاتلين المسلمين ليخوضوا تجربة تكتنز عشرات الدروس والعبر التي سنمرّ على ذكرها إن شاء الله، توسّط أبو سفيان المعركة وصاح بقومه: اعلوا هبل، اعلوا هبل، فقال رسول الله ﷺ: قولوا: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: قولوا: الله مولانا والكافرون لا مولى لهم.

سمع أبو سفيان الردّ البطولي وشاهد الاستعداد الكامل لصفوف المسلمين للقتال وعرف خزين قوّتهم من خلال تلك الكلمات الإيمانيّة التي صدرت من قائدهم الرسول ﷺ وأخذ المسلمون يردّدونها بعده بكلّ قوّة وحماس هزوا بها ساحة

المعركة، ولكن الشرك الذي أحاط بقلوب المشركين أحالَ دون أن تنفذ تلك الكلمات إلى قلوبهم، فكان عكس العمل الذي ابتدأ من المشركين أن التحم الجيشان حين قامت مفرزة من قوّات المشركين بقيادة أبي عامر عبد عمرو بن صيفي الأوسي بالهجوم على جيش المسلمين، وكانت الجولة الأُولى فيها الغَلَبَة الواضحة للرسول ﷺ حينما قتل أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ؑ طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين وقتل بعده كلّ مَن حمل لواءهم، وكان عدد الذين حملوه تسعة من الرجال، وكان آخر مَن حمل لواء المشركين امرأة اسمها غمرة بنت علقمة الكنانيّة، وأخذ المسلمون يتابعون فلول العدو إلى أن أبعدوهم عن المواقع القتاليّة لهم، حتّى دخل المسلمون عسكر المشركين بغَلَبَة، وعندما شاهد المسلمون ما تركه المشركون سقط نظرهم على الغنائم ولم يستطيعوا صبراً حتّى تنقضي المعركة تماماً، بل أخذوا يجمعون الغنائم، وليس لهم تفكير ونظر إلّا الغنائم والرسول ﷺ يدعوهم إلى متابعة فلول القوم وهو يقول لهم ويصرخ بهم: إنَّ الغنائم لكم، ولم يلقَ الرسول ﷺ أذناً صاغية لندائه وصرخاته.

وما أن ترك رماة الجبل وصيّة الرسول ﷺ بترك أماكنهم وهم ينزلون ليشاركوا إخوانهم في جمع الغنائم وقد أخذهم الفرح والطمع والدهشة بما تركه المشركون لهم ولم يفكّروا بما سيجري عليهم من النتائج العكسيّة التي تترتّب على ترك أماكنهم وعصيان الرسول ﷺ القائد، أخذتهم سرعة النزول من الجبل ولم يبقَ عليه إلّا صاحب الراية عبدالله بن جبير مع اثني عشر رامياً ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾(آل عمران:١٥٣).

ألتفّ عليهم خالد بن الوليد من وراء الجبل حين حصلت الثغرة من طرف المسلمين بترك أماكنهم وانقضّ عليهم فقتل عبدالله بن جبير ومَن بقي معه، وصار

خالد خلف المقاتلين المسلمين المشغولين بنشوة النصر وجمع الغنائم حتّى غافلهم بالقتال وفاجأهم به، فكانت الهزيمة والخسارة في الأرواح تلاحق المسلمين، وكان من بين تلك الأرواح التي ذهبت إلى ربّها راضية مرضيّة هي روح حمزة عمّ النبي وناصره ومحاميه حين كَمُنَ له وحشيّ الذي كان عبداً عند جبير بن مطعم، وإذا رمى بحربته قلّما يخطئ، رمى وحشي حربته إلى صدر حمزة وهو مشغول بالقتل والقتال، ولم يلتفت وقد استقرّ الرمح في وسط صدره الشريف، فأحسّ حمزة بحرارة الحربة وهي تأخذه إلى لقاء الله فتبسّم عند ذلك، وأخذت الدهشة تأخذ المسلمين وهم يشاهدون أسد الله ورسوله قد سقط على الأرض صريعاً وقد مُثّل بجسده الشريف من قبل هند بنت عتبة التي تطلبه ثأر الذين قتلوا في معركة بدر ممّن يتّصلون بها، مزّقت هند بطن الشهيد حمزة، وامتدّت يد الجريمة إلى كبده فأخرجته فلاكته بفمها.

انهزم المسلمون، دخل الرسول ﷺ المعركة في هذه الحالة لينقذ الموقف، فكان الرسول ﷺ هو المتصدّي المباشر والمحارب والضارب بالسيف، والمشركون ينهزمون أمامه حتّى كاد الرسول ﷺ أن يُقتل حين أصابته سهام الغدر وأحجار الشرك عندما تجمّع عليه الأعداء، أُصيبت رباعيّته وثناياه فكسرتها تلك الأحجار، وسقط من على ظهر جواده وهو ينزف دماً، جُرح رسول الله ﷺ بجراحات عميقة جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله، وحمل ابن قتمة على رسول الله ﷺ وهو يقول: (أروني محمّداً لا نجوت إن نجا، فضربه على حبل عاتقه ونادى: قتلتُ محمّداً واللات والعزّى) وشاع هذا الخبر بين أطراف المعركة ممّا زاد في معنويّة المشركين وضعف معنويّة المسلمين.

أخذ الهرب والتشتّت يأخذ المسلمين وهم بين صاعد إلى جبل وبين هابط إلى وادٍ وبعضهم وصل بهزيمته إلى المدينةقادة المسلمين الذين عيّنهم الرسولﷺ فلم تهزّهم هذه الإشاعة، بل قال ثابت بن الدحداحة: (يا معشر الأنصار إليّ إليّ أنا ثابت بن دحداحة، إن كان محمّد قد قتل فإنّ الله حيّ لا يموت فقاتلوا عن دينكم فإنّ الله مظهركم وناصركم).

وهذا أميرالمؤمنين؈ يقول: لمّا انجلى الناس عن رسـول اللهﷺ يـوم أحـد نظرت في القتلى فلم أرَ رسول اللهﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ وما أراه في القتلى، ولكنّي أرى الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيّه، فما فيّ خير من أن أقاتل حتّى أقتل فكسرت جفن سيفي، ثمّ حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول اللهﷺ بينهم، فقمت على رأسه، فنظر الرسولﷺ إلى كتيبة قد أقبلت فدفع إليّ الرسولﷺ سيف ذا الفقار وهو يقول: أما تسمع يا عليّ مديحك في السماء، إنّ ملكاً يقال له رِضوان ينادي: لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ. فتناول أميرالمؤمنين؈ منه السيف وأخذ يقاتل كلّ مَن يحاول التقرّب إلى الرسولﷺ وقتل الكثير من صناديد قريش حتّى هزمهم عن وجه رسول اللهﷺ فأصابته بذلك ستّون جراحة. ولم يبقَ بجنب الرسولﷺ إلّا أميرالمؤمنين؈ وأبو دجانة سماك بن خـراشـة وغـيرهما قليلون جدّاً يهزمون ويقتلون ويجرحون كلّ مَن يحاول التقرّب إلى رسول اللهﷺ.

تفرّق المشركون عن الرسولﷺ، وفي هذه اللحظات جلس أميرالمؤمنين؈ على ما به من الجراحات وفاطمة الزهراء؇ بجنب الرسولﷺ، فكانت فاطمة؇ تغسل وجه الرسولﷺ وأميرالمؤمنين؈ يسكب الماء، وأحرقت فاطمة؇ قطعة حصير فألصقته عليه فتجمّد الدم، وتجمّع المسلمون شيئاً فشيئاً بكل حرارة حول الرسولﷺ وازدادت معنويّاتهم القتاليّة بعدما شـملتهم الرحـمة الخـاصّة مـن الله

ونصره ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:١٥٣).

وبدأ المشركون على العكس حيث ظهر عليهم التعب وفشلت محاولاتهم للقضاء على الرسول ﷺ. وأبو سفيان يشاهد كلّ تلك المعركة التي لا تزد المشركين إلّا قوّة ولم تزيده إلّا ضعفاً ورعباً فقرّر الانسحاب من المعركة ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران:١٥١).

وانتهت المعركة بهزيمة المشركين، وبشهادة سبعين مقاتلاً من المسلمين، أربعة من المهاجرين والباقي من الأنصار، وكان على رأس الشهداء وسيّدهم سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطّلب عمّ الرسول ﷺ الذي أخذه الحزن الكثيرعلى مقتله، ابتعد المقاتلون عن ساحة المعركة عندما سمعوا بقدوم أخت حمزة صفيّة بنت عبد المطّلب، جاءت الأخت تبحث عن أخيها بين القتلى حتّى رأت جسده الشريف وقد مُثّل به، هوت عليه بكلّ حنان وهي تذرف دموع الألم وبقيت على هذه الحالة قليلاً، رفعت رأسها إلى السماء لتلقي كلمات الايمان والبطولة لله عزّ وجلّ فقالت: ذلك في الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولأصبرن، ثمّ استرجعت واستغفرت له وصلّت عليه.

وكان من بين الشهداء مصعب بن عمير الذي استشهد وهو يحامي عن الرسول ﷺ. أمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء كلٌّ في مكانه الذي سقط فيه إلّا بعضهم حيث أخذهم أهلهم لدفنهم في المدينة، وكانت بعض النساء تداوي الجرحى وفاطمة الزهراء ﷺ هي التي تداوي جراحات الرسول ﷺ وأميرالمؤمنين ﷺ.

وفي اليوم الثاني من بعد معركة أُحُد من السنة الثالثة للهجرة ويوم النصف من

شوّال، أمر الرسولﷺ بمتابعة عسكر أبي سفيان، فأرسل أميرالمؤمنين؈ إليهم ليرى إن هم امتطوا الإبل فهم يريدون مكّة، وإن هم ركبوا الخيل فهم يريدون المعركة، فاستجاب بعض المسلمين لأمر الله والرسولﷺ، ورد في الحديث: أنّ النبيّﷺ لما رجع من وقعة أُحد ودخل المدينة نزل عليه جبرئيل؈ فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلّا مَن كان به جراحة، (فأمر رسول اللهﷺ منادياً ينادي: يا معشر المهاجرين والأنصار مَن كانت به جراحة فليخرج، ومَن لم يكن به جراحة فليقم، فأقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداوونها، وأنزل الله على نبيّه: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ وقال عزّ وجل: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ...﴾ فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح).

وقدّم الرسولﷺ الإمام أميرالمؤمنين؈ وأعطاه راية المهاجرين وقال له: أُخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثمّ لأناجزنّهم.

واتّجه الإمام أميرالمؤمنين؈ بقوات المجاهدين لمطاردة أبي سفيان الذي استقرّ في (الروحاء)، ووصل الإمام أميرالمؤمنين؈ إلى منطقة (حمراء الأسد) وتوقّف فيها ثلاثة أيّام، وكان معبد الخزاعي الذي مرّ على حمراء الأسد وهو ممّن يتعاطف مع المسلمين ورأى جيش المسلمين وهم مستعدّون إلى المعركة الجديدة، تركهم وهو مستمرّ في سيره قاصداً مكّة حتّى مرّ بمنطقة الروحاء التي يستقرّ بها المشركون وهم مستعدّون للهجوم الجديد على المدينة.

قدم معبد الخزاعي إلى أبي سفيان وهو يرى أن يعتمد الحرب النفسيّة ضد أبي سفيان ليرجعه عن قراره، فأجاب أبا سفيان عندما سأله عن أوضاع محمّد ﷺ وأصحابه، فقال: بأنّ محمّداً ﷺ قد جمع جيشاً لم يُرَ مثله من حيث العدد والعدّة، وإنّ أصحاب محمّد ﷺ قد ندموا على ما حدث في أُحد. فأجابه أبو سفيان: إنّنا عزمنا على الرجعة إليهم واستئصالهم، فقال معبد: إني أنهاك عن ذلك، فصدّق أبو سفيان ما صوّره معبد الخزاعي له، وتراجع أبو سفيان عن رأيه، وامتطوا إبلهم ورجعوا إلى مكّة كما رجع أميرالمؤمنين ﷺ إلى المدينة من دون قتال، وسمّيت هذه الوقعة بوقعة (حمراء الأسد)، وقد يكون نزول هذه الآيات فيها وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤).

وخير ختام للحديث عن معركة أُحد وقصّتها الإجماليّة هو دعاء الرسول ﷺ وهو راجع من أُحد إلى المدينة مع المجاهدين: « اللّهم لك الحمد كلّه، اللّهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هاديَ لمَن أضللت، ولا مضلّ لمَن هديت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت. اللّهم إني أسألك بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك، اللّهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللّهم إني أسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة، عائذاً بك اللّهم من شر ما أعطيتنا وشرّ ما منعت منّا، اللّهم توفّنا مسلمين، اللّهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهم قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسولك

ويصدّون عن سبيلك، اللّهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إله الحق آمين»[١].

س: إن كان الذي همّت به الطائفتان الانسحاب أو الهزيمة أو غير ذلك فإنّه في جميع الأحوال لو تحوّلت تلك الهمّة إلى أمر فعلي فإنّه سيؤثّر سلباً على كل المعركة وبالتالي يكون الفشل عاماً، بينما نجد الخطاب القرآني يسند الفشل إلى الطائفتين ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ لا إلى عموم المعركة. اذكر المحتمل من الجواب على ذلك.

ج:

١ـ أنّ الله لو أراد أن ينصر رسله أو أي صف إيماني فلا يتوقف نصره على طائفة أو طائفتين، فإنّ قدرة الله المطلقة لا يمنعها مانع في الأرض ولا في السماء، فالطائفتان اللتان همّت أن تفشل أنفسهما بهزيمتهما وخذلانهما لا أن تفشل المعركة.

٢ـ أنّ المشاركة في القتال تحت لواء الرسول ﷺ لهو شرف عظيم ونعمة كبيرة منّها الله على المشاركين سواء قتلوا أو نجوا من القتل، فإنّ أي تخاذل أو هزيمة عن صفّ رسول الله ﷺ يلحق صاحبه العار والفشل في الدنيا والآخرة.

٣ـ ما بعد الحق إلّا الضلال، وإنّ خطّ الله ورسوله خط الحق والنور، وإنّ أيّ حديث أو موقف مضاد لهذا الخط فهو حديث وموقف في الضلال والفشل.

س: ما هي الأسباب المحتملة التي دعت المشركين في أن يحاولوا غزو المدينة حتّى صارت معركة أُحد؟

---

(١) موسوعة التأريخ الإسلامي ٢: ٣٤١.

ج:

١ـ فشل المشركين في معركة بدر الذي جعلهم يجهّزون أنفسهم لأخذ الثأر وغسل عار الهزيمة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان سبب غزوة أُحد أنّ قريشاً لمّا رجعت من بدر إلى مكّة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنّه قتل منهم سبعون وأسر سبعون»[١].

٢ـ أنّ قريشاً ترى نفسها هي صاحبة القوّة والعظمة والمرجع لكلّ العرب وتقاتل كلّ مَن يزاحمها على هذا المركز والشرف، ووجود الرسول صلى الله عليه وآله وما يدعو إليه يعتبر بنفسه مزاحماً وحركة مضادّة تنافسهم على أخذ هذا المركز منهم، فهم يريدون استئصال الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه ليطمئنّوا على استقرار مراكزهم وتأمينها من التهديد.

٣ـ ضغط الموتورين على قادة المشركين، فإنّه لمّا أُصيب من المشركين مَن أُصيب ببدر مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُميّة وغيرهم ممّن أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها، فكلّموا أبا سفيان ومَن كان له في تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم بذلك المال على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله ليدركوا ثارهم منهم.

٤ـ التأثير الإيجابي الكبير من الناس برسالة الإسلام وخصوصاً بعد انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى الذي زرع الشجاعة عند المستضعفين وقلّل من هيبة المشركين في أعين الناس، فلابد للمشركين من معركة فائزة لتعيد لهم هيبتهم في نفوس أتباعهم.

---

(١) تفسير القمي ١: ١١٠.

٥ـ أنَّ المدينة طريق تجاري مهم لقوافلهم التجاريّة وبعد معركة بدر أصبح هـذا الطريق مهدّداً من قبل المسلمين فلابد من الهجوم على المدينة لتحريرها من يد المسلمين ليأمَنوا على طرقهم التجاريّة.

٦ـ العدد القليل للمسلمين الذي يطمع المشركون بأن يـقوموا بـحروب مـتكرّرة ضدّهم.

٧ـ التعاطف الموجود مع المشركين من قبل اليهود أو من قبل مشركي مَن حـول المدينة الذي كان لهم الدور في استفزاز المشركين للقيام بحرب ضدّ المسلمين ونقض العهود التي أبرموها معهم.

٨ـ أنَّ نفس الرسول ﷺ أراد المعركة أن تقع ليوقع الهزيمة فيهم بعدما عرف غايتهم الخبيثة في طمس الإسلام، عرف ذلك وهو في المدينة من خلال رسائل عمّه العباس بن عبد المطّلب التي كان يرسلها إلى الرسول ﷺ.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

س: ما هي أهم الدروس والعِبر التي يمكن للإنسان المؤمن أن يأخذها من معركة أُحد؟

ج:

سيأتي الجواب على هذا السؤال ونحن نعرض مـبحث الدروس الالهيّة مـن معركة أُحد، ولكن لنذكر هنا ما يمكن أن نستنتجه مـن الدروس والعِبر بـعد أن استعرضنا القصّة الإجماليّة للمعركة، فنقول:

١ـ أنَّ العدّة والعدد أمر مهم في الاستعداد للمعركة ومجابهة العدو ولكن لم يكن هو الحساب الوحيد الذي يجب أن يدخل في حسابات المـؤمنين، بـل إيـمانهم بولاية الله ونصره للمؤمنين هـو الأهـم والأوّل الذي يـدخل فـي حسـابات

المؤمنين وهم يستعدّون للمعركة.

٢ـ طاعة القيادة على ما تأمر به في ساحة القتال له الدور الكبير في نجاح المعركة، فإنّ تغيير معادلة النصر ضد المسلمين سببها عدم طاعة الرماة لقوّادهم الذين كانوا في ساحة المعركة.

٣ـ تفاعل المؤمن مع القتال كما يتفاعل مع بقيّة العبادات، وعليه كما يغذّي الإنسان المؤمن فكره وروحه وكذلك أبناءه بأهميّة العبادة فليغذّ فكره وروحه وأبناءه بأهميّة القتال، فإنّ القتال عبادة وجانب من الجوانب التي يعطي الإسلام له الأهميّة الكبرى.

٤ـ أنّ عمليّة التجسّس لها الدور الكبير في فهم ما يفكّر به العدو ومعرفة نقاط القوّة والضعف التي يمتلكها، وهكذا كان دور العباس بن عبد المطّلب عم الرسولﷺ وغيره من الذين أرسلهم رسول اللهﷺ للكشف ونقل المعلومات.

٥ـ أنّ القيادة الميدانيّة في ساحة المعركة كما تحتاج إلى أفراد شجعان وأصحاب خبرة عسكريّة فهي تحتاج إلى أفراد يكون الإيمان راسخاً فيهم متجذّراً في نفوسهم، ولهذا تجد الرسولﷺ قد وزّع الرايات على مَن يمتلكون الإيمان الكبير والشجاعة العالية ولم يفصل بينهما في الاختيار.

٦ـ أنّ القيادة الدينيّة المتصدّية يجب أن تضع التضحية من أجل الله والدين أوّل شيء في حساباتها، وأنّها أوّل مَن تضع قدمها على طريق التضحية والجهاد عندما تأمر بها، فالقيادة ليست ممّن تُصدر الأوامر من مكانها البعيد عن ساحة المعركة.

٧ـ الحالة النظاميّة العسكريّة هي الطريق الأنجح عند مواجهة العدو؛ لأنّها تعطي نتيجة أكثر إيجابيّة مع قلّة الخسائر ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

٨ـ العنصر النسوي له دور كبير في المساهمة في عمليّة الجهاد والمعركة في أُمور غير القتال.

٩ـ الحرب النفسيّة لها دور في المعركة. فالذي استعمله المشركون بإشاعة قتل الرسولﷺ كان له الدور الكبير في هروب بعض المسلمين، كما أنَّ ما نقله معبد الخزاعي إلى أبي سفيان كان له الدور الكبير في إرجاعه عن قراره للحرب الجديدة.

١٠ـ أنَّ التظاهر بالمظهر القويّ أمام الأعداء له الدور الكبير ليسجّلوا حضورهم واستعدادهم للدفاع حتّى لا يكونوا مطمعاً للعدوّ في أن يغزوهم. فحضور أميرالمؤمنينؑ في (حمراء الأسد) كان من غاياته ذلك.

١١ـ الفرار من الزحف كما أنّه من كبائر الذنوب فهو يعطي الخزي والعار والخسارة الكبرى للمعركة التي يشارك فيها. فعلى المجاهد الذي اختار طريق الجهاد أن يضع في حساباته الفداء والصبر والثبات وعدم التراجع مهما كلّفه ذلك وإلا لا يشارك ولا يختار هذا الطريق منذ البداية إذا كان يعرف الضعف في نفسه.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ • إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ • بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ • وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ • لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ • لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ • وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(آل عمران:١٢٣-١٢٩).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ البدر: المراد منه هنا ماء بئر يسمى ببدر.

٢ـ أذلّة: المراد منه هنا القلّة.

٣ـ الكفاية: الاستغناء بالشيء عن غيره.

٤ـ الإمداد: إعطاء الشيء حالاً بعد حال وبصورة متّصلة.

٥ـ منزلين: متهيّئين.

٦ـ الفور: السرعة وهو ما يقابل التراخي.

٧ـ المسوّم: من السمة ذات العلامة.

٨ـ الكبت: الرجوع والخسران بذلّة ومهانة.

٩ـ الخائب: الذي فاته الطلب.

● **معركة بدر الكبرى**

س: أنّ هذه الآيات وإن نزلت بعد معركة أحد ولكن بما أنّها ذكرت بدراً بالإسم ولا يوجد ذكر اسم لبدر إلّا في هذه الآية فيا حبّذا لو تذكروا لنا القصّة الإجماليّة لمعركة بدر.

ج:

انتهت معاناة هجرة الرسولﷺ من قادة قريش مكّة بعد أن استقرّ بالمدينة باستقبال أهلها له واستجابتهم لدعوته ولندائه نداء الإسلام، ولم يكن استقباله بهذا الجمع الغفير قد حصل عفويّاً، بل بجهود أولئك الثلّة من المؤمنين الذين بايعوا الرسولﷺ في العقبة في مكّة وكانت على ثلاث بيعات: بيعة العقبة الأُولى وهي تحتوي على ستّة من الأشخاص، وبيعة العقبة الثانية وهي تحتوي على اثني عشر شخصاً، وبيعة العقبة الثالثة وهي تحتوي على سبعين شخصاً، هؤلاء هم الذين آمنوا ونصروا وآزروا الرسولﷺ فراحوا ينشرون بين أهل المدينة خبر بعثة الرسولﷺ وما يدعو إليه من الدين الجديد حتّى هيئوا الجوّ العام لاستقباله، وبعد أن انتهت مرحلة نوع من العمل الذي خاضه الرّسولﷺ بكلّ نجاح وهو في مكّة من السريّة في العمل ثمّ الصّدع بالرسالة، وإعلان الرسالة والنّبوّة له.

وبعد أن انتهى الصّراع العقائدي والسّياسي المباشر ضدّ سلطة قُريش، استقرّ الرسولﷺ بالمدينة ليبدأ بنوع عمل آخر كنبيّ ورسول ووليّ، فبدأت ولايته تأخذ انتشارها بالمدينة بعد أن جعلها الرسولﷺ منطلقاً لدعوته وقاعدة لنشر الإسلام، وبعد مضي عدّة من الشهور من وجوده المبارك في المدينة بدأ الرسولﷺ بوضع

اللبنات الأُولى لتأسيس المعسكر الإسلامي والقوّة الإسلاميّة وهو يبدأ بـخطوات هادئة تمهّد ذهنية المسلمين لاستيعاب القتال والمواجـهة المسـلّحة ضـد أعـداء الإسلام من جهة، ومن جهة أُخرى أنّ الرسـولﷺ رأى مـن الضـرورة أن يـبرز الإسلام كقوّة لها وجودها الفعلي على الأرض، وكان محور العدوّ الذي كان يفكّر به الرسولﷺ ويصبّ نظره عليه هو مواجهة سلطة المشركين التي تحتلّ مكّة المكرّمة مركز التوحيد العالمي لمستقبل الأجيال.

فكانت خطّة الرسولﷺ أن يبدأ بالعامل الاقتصادي الّذي يموّل قُريش لعلمه أنّه كان يمثّل المركز الرئيسي لقوّتها ونـفوذها السـياسي والعسكـري وأنّ عـامل التجارة كان يلعب دوراً مهمّاً في سيطرتهم على رقاب النّاس.

فكانت المحاولة الأُولى للرسولﷺ وبعد سبعة أشهر من الهجرة حيث بـعث حمزة بن عبد المطّلب ليعترض قافلة تجاريّة يقودها أبو جهل، فكان اللقاء عـند سيف البحر في أرض جُهينة، ولم تقع فيها مواجهة مسلّحة لتدخّل مجدي بن عمرو الجُهيني الذي أحال دون أن يقع القتال بين الطرفين.

وبعد شهر من هذه المحاولة قام الرّسولﷺ بمحاولة أُخرى حين بعث عبيدة بن الحارث لاعتراض القافلة التي كان يقودها أبو سفيان، فتبادل الفريقان السـهام ولم يحدث القتال فيما بينهما، واستمرّ الرسولﷺ في عمله هذا ليزرع الرعب في نفوس المشركين وإظهار القوّة للوجود الإسلامي الجديد، حتّى كـان رأس السـنة الأُولى من هجرته، وفي شهر صفر قاد الرسولﷺ بنفسه سرية مـن المـجاهدين المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم، وكان هدف الخروج هو قطع الطريق عـلى قافلة لقريش مع مقابلة بني ضمرة من بني كنانة.

خرج الرسولﷺ وكان لواء المعركة بيد حمزة بن عبد المطّلب، وقد استخلف

الرسولﷺ الصحابي الأنصاري سعد بن عبادة على المدينة ليدير شؤونها في حالة غيابه، وكانت نتيجة هذه الطّلعة للرسولﷺ أنّه لم يفلح بالعثور على القافلة ولكنّه أفلح في مقابلة بني ضمرة ونجح في أن يضمن موقفهم الحيادي تجاه المسلمين في أي معركة يخوضونها ضدّ المشركين من خلال معاهدة كُتِبت بينه وبين مخشى بن عمرو الضمري زعيم بني ضمرة جاء فيها: أنّ رسول اللهﷺ لا يغزو بني ضمرة ولا يغزونه، ولا يكثرون عليه جمعاً ولا يعينون عدواً[1].

ثمّ أخذ الرسولﷺ يكتب المعاهدات مع أطراف أخرى يدعوها إلى الإسلام أو يحيّد موقفها من خلال كتابة المعاهدات، واستمرّ خروجه وعودته إلى المدينة خمسة عشر يوماً، وسمّى المؤرّخون هذه الطلعة بغزوة (الأبـواء) أو (ودّان)، ولم يكتفي الرسول بذلك، بل كانت له عدّة محاولات في هذا الاتّجاه، وقد ذكرنا إحداها في سبب نزول آية (٢١٧) من سورة البقرة.

وبعد سنة ونصف من الهجرة خرج الرسولﷺ من المـدينة ليـعترض قـافلة تجاريّة لقريش ذاهبة إلى الشام ومعه مائة وخمسون رجلاً بعد أن استخلف على المدينة زيد بن حارثة، فوصل إلى منطقة العُشَيرة ببطن ينبع فأقام فيها بقيّة الشهر وليالٍ ممّا بعده، ورجع بعد أن نجح أبو سفيان بتغيير طريق قافلته، وهذه هي القافلة التجاريّة التي خرج في طلبها الرسولﷺ فكانت معركة بدر، وسمّى المـؤرّخون هذه الطلعة للرسولﷺ بغزوة (العُشَيْرَة).

وفي السنة الثانية للهجرة وفي ليالٍ مضت من شهر رمضان خرج الرسولﷺ من المدينة مع ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر رجلاً، خرج

---

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٨.

الرسولﷺ ليمنع القافلة التجاريّة القادمة من الشام، وكانت العير ألف بعير وكانت فيها أموال عظام، لم يبق بمكّة قرشي ولا قرشية له مثقال من الذهب إلّا بعث به في العير، وكان فيها خمسون ألف دينار من مال التجارة، فقد علم أبو سفيان بتحرّك الرسولﷺ فغيّر طريقه، وأرسل الرسل إلى مكّة يطلب النجدة من قريش، دخلت الرسل إلى مكّة وكان من بينهم ضمضم بن عمرو الذي نزل ببطن الوادي واقفاً على بعير قد جدع أنفه وأذنه وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول: اللطيمة، اللطيمة، العير التي تحمل الطيب والبز، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، إن أصابها محمد لن تفلحوا أبداً، الغوث الغوث.

فتجهّز الناس سراعاً وفزعوا أشدّ الفزع، خرجوا ولم يتخلّف من أشرافهم إلّا أبو لهب، وبلغ الرسولﷺ أنّ قريشاً قد خرجت لحماية قافلتهم التجارية وأنّهم خرجوا وهم مستعدّون للمواجهة العسكريّة وهم يحملون السّلاح ومعهم المقاتلين وصناديد قريش، فاستشار الرسولﷺ أصحابه؛ لأنّه لم يكن يخرج لقتال ولم يقصد المواجهة مع جيش وعسكر وإنّما اعترض قافلة تجاريّة، فمن حقّ الرسولﷺ أن يستشير أصحابه ليكونوا على علم واختيار منهم في مواجهة العدوّ بقتال إذا رغبوا وقرّروا ذلك، وبهذا سوف يحوّل استعدادهم الروحي من مواجهة قافلة تجاريّة إلى جيش ومعركة نظاميّة.

استقرأ الرسولﷺ أصحابه فكان منهم الخائف الذي أشار على الرسولﷺ بعدم الحرب لاطّلاعه بقوّة قريش أو لكون الخوف من قريش لازال يؤثّر أثره في نفوسهم كلّما ذكروه وهم تحت أسياط قريش، وكان منهم الأبطال الذين لا يرون لوجودهم وجوداً ولا رأي إلّا ما يراه الرسولﷺ، وكان من بينهم المقداد بن عمرو الكندي الذي قال حين طلب الرسولﷺ الاستشارة: يا رسول الله، امضِ لما أراك

الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لتجدنا معك من دونه حتّى تبلغه. فقال له رسول الله خيراً ودعا له به.

ثمّ قال الرسولﷺ: أشيروا أيّها الناس. فقام سعد بن معاذ فقال: كأنّك يا رسول الله تريدنا ! قالﷺ: أجل. فقال: انّك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحي إليك في غيره ...فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما بقي منّا رجل، وما نكره أن نلقى عدوّنا، وإنّا لصُبّر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا بعض ما تقرّ به عيناك.

لمّا رأى الرسول منهم العزم والحزم والاستعداد قال رسول اللهﷺ: «سيروا على بركة الله، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم»(١).

ذهب رسول اللهﷺ ومَن معه حتّى نزل في منطقة ربّما كانت غير دقيقة في موقعها العسكري، جاء حباب بن المنذر إلى الرسولﷺ وقال له: يا رسول اللهﷺ، إنّ هذا المكان الذي اخترته منك أم من الله. فقال الرسولﷺ: ليس فيه أمر خاص، فأشار إليه الحباب أن يعسكر قرب بئر ماء يدعى: (ماء بدر) على بُعد مائة وستّين كيلو متراً من المدينة تقريباً. فاستجاب الرسولﷺ لاقتراحه.

وكانت قريش قد خرجت في تسعمائة وخمسين مقاتلاً أو أكثر بقليل، ومعهم القيان والدّفاف يغنّين، فلمّا رآهم الرسولﷺ قال: اللّهم هذه قريش قد أقبلت

---

(١) فقه القرآن ١:٣٥١.

بخيلائها وفخرها تحادك وتكذّب رسولك، اللّهم فنصرك الذي وعدتني.

فكان يوم السابع عشر من رمضان يوم الفرقان يوم التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين، فكانت المواجهة العسكريّة والتجربة الأُولى للمسلمين، فلا كفاءة حربيّة وقتالية بين الطرفين، وهاهم مشركوا قريش بقيادة أبي جهل لا بأسياطهم هذه المرّة، بل بخيولهم وسيوفهم وبتلك الوجوه التي طالما أدخلت الرعب على قلوب المؤمنين، بعدد يقارب الألف مقاتل مع عدّة كثيرة من السيوف والدروع والخيول والإبل، وهذه هي الكتلة الإسلاميّة برجالها وشبابها لا تكون سيوفهم إلّا معدودة والأكثريّة منهم يحملون جريد النخل، ولم يكن لهم من الخيل إلّا فرسان أحدهما للمقداد بن عمرو الكندي والآخر للمرثد بن أبي مرثد الغنوي أو للزبير، وكان الأغلب من الحفاة الذين يقطعون الأرض مشياً على أقدامهم يتعاقبون في الركوب على سبعين من الإبل.

فهم قلّة في عدد وتواضع في نوعيّة الاشتراك بحرب حيث لم يمتلكوا أهبة الحرب ولا عزّة محارب لعدم قصدهم ذلك. مع أنّ القدم الأولى والتجربة الأُولى لها الدور الكبير في أن يرفع المعنويّات إلى الأعلى عند النجاح، أو أن يكسرها كسراً كبيراً عند الانكسار، وانكسار المسلمين هو انكسار للإسلام، وانكسار الإسلام يعني انكسار للحركة الإيمانيّة في أن تشق طريقها لقلوب الناس، فكان النصر أمراً ضرورياً أوكله الرسولﷺ إلى الله بدعائه الذي يعي الحقيقة الخطرة وما تحمله هذه الخطوة من التحرّك من آثار، ولهذا قال: «اللّهم إنّي أُنشدك عهدك ووعدك، إن شئت أن تهلك هذه العصابة لا تُعبد»[1]، ولم يكن الرسولﷺ في تلك اللحظات مشغولاً

(١) تذكرة الحفاظ ٢:٤٥٣.

بشيء غير السجود لله وهو يرتّل كلمتين (يا حيّ يا قيّوم) لا يزيد عليهما، عرف الرسولﷺ الاستجابة الإلهيّة لدعائه عندما رأى ما لا يراه غيره من الملائكة مردفين ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩).

وبدأت لحظات الحسم العسكري بين الطرفين، برز من المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فنادى عتبة رسول اللهﷺ فقال: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش، فبدر إليهم ثلاثة من شبّان الأنصار، فقال لهم عتبة: مَن أنتم؟ فانتسبوا له فقال لهم: لا حاجة بنا إلى مبارزتكم، إنّما طلبنا بني عمّنا، فقال رسول اللهﷺ للأنصار: ارجعوا إلى مواقعكم، ثمّ قال: يا علي قم، ياحمزة ثمّ يا عبيدة قاتلوا على حقّكم الذي بعث الله به نبيّكم، إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فقاموا حتّى بدأ البراز والمقاتلة، فقتل عليّ الوليد، وجاء عليّ فوجد حمزة معتنقاً شيبة بعد أن تلمت في أيديهما السيوف، فقال: يا عم طأطئ رأسك، وكان حمزة طويلاً، فأدخل رأسه في صدر شيبة فاعترضه عليّ بالسيف فقطع نصفه، وكان عتبة قد قطع رِجل عبيدة وفلق عبيدة هامته، فجاء عليّ فأجهز على عتبة أيضاً، فيكون عليّ قد اشترك في قتل الثلاثة.

واشتبك الطرفان بجميع ما يمتلكون من المقاتلين، وكانت نداءات الرسولﷺ تُسمع بين الحين والآخر وهو يقول: والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله الله الجنّة. ومن بين السامعين لنداء الرسولﷺ عمير بن الحمام الأنصاري وكانت بيده تمرات يأكلهنّ فقال: بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء، ثمّ ألقى التمرات من يده وقاتل حتّى قُتل.

وكان الإمداد الغيبي بملائكة الله يساهم المساهمة الفعّالة بقطع رقاب المشركين، واقتتل الناس قتالاً شديداً. فأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب ورمى بها قريشاً وقال: شاهت الوجوه، وقال لأصحابه: شدّوا عليهم، وهو مصلت سيفه ويتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، والمسلمون يزدادون قوّة وهم يهتفون بأعلى أصواتهم: (أحَدٌ، أحَد)، والإمداد الغيبي بملائكة الله مستمرٌ بمساهمته الكبرى في تثبيت أقدام المسلمين ويزيدهم دفعاً نحو العدوّ وقوّة في القلب حتّى لكان الواحد من المسلمين إذ يرفع سيفه ويهوي به على عاتق عدوّه إنّما تحرّكت قوّة الله في يده، فكانت نتيجة المعركة أن ينهزم المشركون أمام المسلمين وهم يخلّفون وراءهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً، وبذلك فقدت قُريش هيبتها وسمعتها البطوليّة التي كانت قد كسبتها طول هذه المدّة، وحقّق الرسول ﷺ في هذه المعركة ما كان يريد أن يحقّقه للإسلام وللمسلمين في سبيل الله.

وقد فقد الرسول ﷺ في هذه المعركة ببدر أربعة عشر رجلاً، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، أخذ المسلمون الأسرى معهم وهم يتّجهون إلى المدينة التي تلقّى أهلها المقاتلين بمنطقة (الروحاء) يهنّئونهم بالنّصر، وأسلم حينه على يدي الرسول ﷺ بَشَرٌ كثير، وأمّا الأسرى فقد أمر رسول الله ﷺ عليّاً بقتل رجلين منهم وهما عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحراث، وأخذ الفداء من ثمانية وستّين رجلاً، وكان فيهم مَن لا مال له ولكنّه يعرف الكتابة، ولم يكن في الأنصار مَن يُحسن الكتابة، فقبل من الأسير الذي لا مال له أن يعلّم عشرة من أولاد الأنصار الكتابة.

س: ما هو التفسير المحتمل للآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

بعد معركة أُحُد نزلت هذه الآيات وهي تذكّر المقاتلين المسلمين بنصر الله الذي نزل عليهم في معركة بدر حين كانوا أذلّة في العدد والعُدّة وأذلّة حيث لم يمتلكوا عزّة المقاتل المستعدّ للحرب، ذلك النصر الذي أحسّ به كلّ مقاتل اشترك في معركة بدر، وكان من الطّبيعي أن يزيد النصر المقاتلين الثقة بالله والتوكل عليه ويزيدهم تقوى لله وشكراً له سبحانه، وألّا يفكّر في أن ينهزم البعض في أيّ معركة يخوضها.

ثانياً: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾

إذا كان ما حصل في معركة بدر أنّ هناك ملائكة كانت تنصر المقاتلين من دون علم منهم بها، ففي هذه المعركة قد أخبر الرسولﷺ المؤمنين بنزول الملائكة واستعدادها للقتال معهم بعدد ما لا يتوفّر في معركة بدر، حيث في هذه المعركة قد أنزل الله ثلاثة آلاف من الملائكة عناية من ربّكم ورحمة بكم، وهذا عاملٌ ثانٍ بعد نصر الله ببدر في أن يكون معمّقاً الثقة في نفوسكم والعزيمة في إرادتكم في أن تثبتوا في معركة أُحد من دون التفكير بالهزيمة، وأنّكم مع هذا العدد من الملائكة لهو زائد على حاجتكم في أن في الغَلَبَة والنّصر.

ثالثاً: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

وقلت لهم يا رسول اللهﷺ: بل الأكثر من ذلك، أنّكم لو توفّرت فيكم صفة الصبر والتقوى لرأيتم سرعة الملائكة وتضاعف عددها، أمّا السرعة فهي تتجسّد في

حالة ما تكونون في أحوج اللحظات إليها، ذلك حين يأتي المشركون وهم على سرعتهم بحيث يباغتوكم بها فستجدون الملائكة سابقون إليهم قبلكم، وأمّا العدد فسوف لا تجدونه ثلاثة آلاف وهو الزائد على حاجتكم بل سترونه خمسة آلاف من الملائكة مسوّمين بعلامة النصر والتثبيت لكم وبزرع الرعب في قلوب المشركين، وهذا عامل ثالث يزيد فيكم الثقة بنصر الله لكم.

رابعاً: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

وما قاله الرسولﷺ وما أخبر به من نزول الملائكة مسوّمين وبهذا العدديكون بُشرى لكم لما يحمل الخبر من الخير، ولتطمئن قلوبكم برعاية الله والوجود الفعلي لملائكته بينكم إن وفّرتم الشروط، فإنّه خبر صادر من الرسولﷺ الصّادق الذي يلازم خبره دخول الاطمئنان في قلوب المؤمنين من دون تخلّف، وهذا عامل رابع يزيد فيكم الثقة بنصر الله، وما عليكم بعد كلّ ذلك إلّا أن تصبروا في الحرب والقتال وتتّقوا الله حتّى تستجلبوا النصر الإلهي الحاضر عنده والمنحصر فيه، والذي لا يكون إلّا من عنده سبحانه فهو العزيز والمتفرّد بعمليّة نصر المؤمنين ولا يعطيه كما يشاء المؤمنون بل يعطيه كما يشاء هو سبحانه، وضمن شروط قد ذكرها الرسولﷺ لهم؛ لأنّ الله هو الحكيم الذي لا ينزل النصر من دون شرط ومعيار له.

خامساً: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾

يبيّن الله بعض علل النصر وحكمته، وبيان أنّ النصر بيده ومنحصر به، وبيان أنّ القدرة التكوينيّة بيده سبحانه، بحيث انّ القطع والكبت والتخلص من الموت وإلحاق الخيبة بطرف والتوبة على البعض وتعذيب البعض الآخر وغير ذلك ممّا يحدث في المعركة أو خارجها كلّه لا يخرج عن قضاء الله وقدره، فهو الذي إمّا أن يقطع ويهلك

ويستأصل بعض الكافرين بالقتل الذي يحصل لهم بواسطة المؤمنين، وإمّا أن يكبت الكافرين بدخول الرعب عليهم أو أي وسيلة تفضي عليهم الذلّة والهوان فلا يكسبوا الغَلَبَة على المؤمنين فيرجعوا خائبين إمّا بهزيمة أو بعدم تحقّق هدفهم الذي جاؤوا من أجله.

سادساً: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

إذا كان النّصر منحصراً بالله، وإنّ ما يلحق بالكافرين من القطع أو الكبت هو من عند الله، فلا دور تكويني للرسولﷺ بإمكانه أن يغيّر معادلة الحرب ضمن مشيئته، فحقيقة بشريّة الرسولﷺ لا تختلف عن حقيقة بقيّة البشر، فليس للرسولﷺ دخل تكويني ولا تشريعي في أيّ أمر من الأُمور المتعلّقة بالدّين، بل الأمر كلّه لله في هلاك الكافرين أو كبتهم أو قبول توبتهم بإعلان إسلامهم أو يعذّبهم في الدنيا أو الآخرة حيث ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ في الآية السابقة، ففي كلّ هذه الحالات المختلفة لا دخل للرسولﷺ فيها، وإنّه أمر مختصّ بالله سبحانه وتعالى.

سابعاً: ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

مادام الله هو المالك الحقيقي لكلّ الأشياء في السّماوات والأرض فلا يحتاج إلى أحد حتّى يفوّض له أمراً من الأُمور بصورة ما يراه المفوّض له، ومادام هو المالك الحقيقي للأشياء فهو صاحب القيمومة والتدبير فلا يحتاج إلى أحدٍ يشاركه في الأمر، ومادام يملك الدنيا والآخرة بالملك الحقيقي فهو الذي يغفر لمَن يشاء ويعذّب مَن يشاء فلا أحد له دخل في مشيئته، فهو الغفور وهو الرحيم بعباده المذنبين.

س: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لماذا يذكر الله هذه الحقيقة وهي أنّه ليس

للرسولﷺ دخل في شيء إلّا تنفيذ الأوامر؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ أن يكون لتأكيد بشريّة الرسولﷺ حتّى لا يدخل الغُلو عند بعض العامّة من الناس.

٢ـ أن يكون لتأكيد وبيان حقيقة في أنّ ما تشاهدونه من الرسولﷺ في بعض ما يصدر منه من الخوارق فهي ليست من قدرة تكوينيّة قد فوّضها الله إليه، بل هو من الشؤون الإلهيّة التي لا تنفصل عن إذنه. فليس للرسولﷺ من الأمر التكويني شيء.

٣ـ أن يكون لتأكيد وبيان حقيقة في أنّ ما تسمعونه من الرسولﷺ قد لا يكون منسجماً مع إطلاقات الآيات أو عمومها وقد لا يكون للموضوع وجود في القرآن، فهو ليس تشريعاً من قِبَلِ نفس الرسولﷺ إنّما هو وحي يوحى، فالمشرّع هو الله، وليس الرسولﷺ إلّا ناقلاً للتشريع.

٤ـ أنّ ما يحدث من الهزيمة أو الخسران للمسلمين لو فرضنا وقوعه فلا تلوموا الرسولﷺ في ذلك ولا تتهموه بشيء، فليس للرسولﷺ من الأمر شيء.

٥ـ أن يكون تسكين لقلب الرسولﷺ الذي كان يتأذّى على ما يشاهده، ممّا يقع على المؤمنين، أو على الكافرين وهم يذهبون إلى طريق جهنّم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٨).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ أضعاف: جمع الضعف وهو مثل الشيء.

٢ـ العرض: أحد أبعاد الجسم الثلاثة من الطول والعرض والارتفاع.

٣ـ الكاظم: الممسك والحابس آلامه في صدره ولم يكشفها للآخرين.

٤ـ الغيظ: شدّة الغضب.

٥ـ الإصرار: الاستمرار على الفعل مع العلم.

٦ـ خلت: مضت.

٧ـ سنن: جمع سنّة وهي الطريقة.

٨ـ العاقبة: النهاية.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

لوحات فنيّة في بلاغة الأخلاق وفصاحة التربية يعرضها الله أمام المؤمنين لينظروا إليها ويعمّقوا تفكيرهم فيها ليتعرّفوا من خلالها على ما يريده الله منهم، فلوحة تحمل أمراً وأخرى نهياً وأخرى إرشاداً وأخرى موعظةً وأخرى عبرة وأخرى تسكيناً وأخرى هيجاناً وأخرى عن الماضي وأخرى عن المستقبل، وكلّ لوحة لها ألوانها المناسبة التي تحكي عن المفهوم الذي تحمله تلك اللوحة، وكلّها تبعث نور الهداية والرشاد للمستفيد منها.

اللوحة الأولى: تظهر الآكلين والمتعاطين للربا بأبشع صورهم وألوانهم وهم يمتصّون جهود المحتاجين للقرض الذين لا يقدرون على الدفع في وقته، فتتراكم عليهم الخسارة ويتراكم على المرابين الربحُ أضعاف مضاعفةً ممّا قدّموه إلى المحتاجين، وزيادة على ما أقرضوه للمقترض من دون بذل جهد، ولما يسبّب الإهلاك الاقتصادي للبلاد. وقد ذكر الله الربا في آيات سابقة ويكرّره الله هنا ليذكّر المؤمنين بخطر الربا، وليبيّن الله شدّة الحرمة للربا، وليذكّرهم به بصورة مستمرّة ليكونوا على بيّنة من النهي عنه، فهو منهجية الإسلام التي صارت شعاره الاقتصادي والأخلاقي بالنسبة إليه حيث (لا ربا في الإسلام)، والإتيان بالأضعاف المضاعفة يدلّ على أنّ النهي قد جاء تدريجيّاً ولم ينزل دفعة واحدة مراعاة لذلك المجتمع

حتّى يهضم النهي بوعي كما هو أسلوب القرآن في بعض أوامره ونواهيه حتّى صارت حرمة الربا تشمل ما هو أقلّ من الدرهم.

وتنظر إلى جانب من جوانب هذه اللوحة لترى اللون المشرق للذين اتّقوا الله ولم يستعملوا الربا في حياتهم وكيف نالوا ما كانوا يرجونه من الفلاح والنجاح برحمة الله بأن يدخلهم الجنّة. وقد مرّ الحديث التفصيلي عن الربا في مبحث الربا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

اللوحة الثانية: تحمل الخوف بأعلى صوره حيث التعذيب بالنار، وبنار سجّرها الله لغضبه وقد خلقت لأن تكون محلّ استقرار الكافرين عقائدياً وعملياً كآكل الربا. فالذي يؤمن بالله ويخاف عقابه ويؤمن بالمعاد فهذه اللوحة تنقل صورة النار ليعرّفها الله أصحاب الباصرة والبصيرة ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

اللوحة الثالثة: تحمل الألوان المشرقة البهيجة، وتعرض النتائج الطيّبة والثمار النافعة للفرد والمجتمع وهم يلتقون في طاعة الله والرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بل عن وحي يوحى إليه، فكلامه كلام الله، وسيرته مؤيّدة من قبل الله، فهو الإسلام والقرآن الناطق، وهو الدين الذي يتحرّك في كلّ مجالات الحياة، وهو القدوة والأُسوة لكلّ المؤمنين في جميع مجالات حياتهم، وهو المفسّر والكاشف لكل ما يكون مبهماً عليهم في الفكر والفعل، فالرحمة كلّ الرحمة في أن قرن الله طاعته بطاعة رسوله؛ لأنّها تمثّل الجانب الآلي لطاعة الله، فلولا ما جسّده الرسول ﷺ من الكلام والفعل والتطبيق لما عرفنا الكيفيّة التفصيليّة لطاعة الله، والرحمة كلّ الرحمة على ما يترتّب من النتائج في طاعة الله ورسوله سواء كانت في الدنيا أو الآخرة وسواء كانت الرحمة من الله عليهم أو زيادة التراحم فيما بينهم عندما يطيعون الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

اللوحة الرابعة: وهي تحمل صور المؤمنين وهم في حركة نشطة سريعة متّجهة إلى رضوان الله ومغفرته، فهم ما بين راكع وساجد وداع وطالب للعلم ومتدبّر في آيات الله وماد يد العطاء من الواجب المالي والمستحب والمجاهد وماد يد التسامح والعفو والسلام وتائب من ذنب، وكلّهم سائرون بحركتهم السريعة في طريق واحد وهو طريق التقوى الذي ينتهي إلى جانب آخر حيث تنتهي حركتهم السريعة إليه، فالألوان الخضراء الزاهية المشرقة التي تجذب الناظرين إليها تلك هي جنّة الله التي أعدّها وخلقها وهيّأها للمتّقين.

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنّه قال: «إنّكم لن تنالوهابالتقوى»(١).

ويظهر الله جانباً من هندستها الرائعة المناسب لعطائها وهي السعة التي لا يحدّها حد ولا يمكن أن يستوعب حدودها ذهن فهي ذات الأفق المفتوح سعة بحيث يشمل سعة جانب من جوانبها السماوات والأرض، فعندما قال الله فيها ما تشتهي الأنفس فقد هيّأ الله تصميمها المكاني والزماني بما يستوعب كلّ ما يمكن أن تتصوّره الأنفس ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

اللوحة الخامسة: وهي تحمل أربعة صور مكبّرة فيها تفصيل بعض الأعمال التي يقوم بها المسارعون إلى مغفرة من ربّهم التي أخبرت عنهم اللوحة الرابعة لتبيّن أهميّة خصوص هذه الأعمال لتركّزها في نفوس العاملين المتّقين الذين يسارعون إلى مغفرة من ربّهم، فلنقرأ كما نشاهد الصور الأربعة المكبّرة التي تجتمع في لوحة

---

(١) الخصال ٢: ٦٣٣.

فنيّة واحدة:

الصورة الأولى: لمؤمنين وهم ينفقون في حالتي السرّاء للسعة والضراء لرفع الحاجة، ينفقون لإيمانهم لما في الإنفاق من أثر يلحق الخير لهم، وإنّه جزء الإيمان؛ لأنّه يمثّل التعاون والتحابب الذي يأمرهم دينهم به، فهم في سيرة على عكس سيرة المرابين الذين يزرعون الحقد والعداوة بين أفراد المجتمع، وقد مرّ الحديث سابقاً عن الإنفاق وأثره الإيجابي كما مرّ الحديث عن الربا وأثره السلبي ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

الصورة الثانية: لمؤمنين وقد أحاط بهم جهّال الناس وأشرارهم وهم يصوّبون سهام حقدهم على المؤمنين، فتهمة من هنا وإشاعة من هناك، وافتراء من هنا وعرقلة لحركة من هناك، واغتصاب لحقوق من هنا وقطع لتمويل مالي من هناك، وقذف بالسجون من هنا وإعدام لمؤيّدين من هناك، كلّ هذا النوع من العمل الإجرامي قائم على المؤمنين وهم في حالة حبس وكظم للغيظ فلا يشكون أمرهم إلى أحد إلّا إلى الله مع قدرتهم على الرّد.

ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «متى أشفي غيظي إذا غضبت؟ أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت، أم حين أقدر عليه، فيقال لي: لو عفوت؟!»(١)، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه، أملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه»(٢).

وكظم الغيظ حالة أخلاقيّة ممدوحة لها نتائجها الإيجابيّة دائماً، فلو كان كلّ

---

(١) غرر الحكم:٢/٣٠٢/٦٨٧٧.

(٢) الكافي ٢: ١١٠/٦.

إنسان قد اغتاظ من إنسان وأفشى غيظه لأصبحت العداوة والبغضاء هي السائدة في المجتمع، فعلى الإنسان المؤمن أن يروّض نفسه على كظم الغيظ فإنّه من علامات قوّة الشخصية والإرادة في تحمّل ما يصدر من الآخرين من أخلاقيات غير مرغوب فيها، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما من جرعة يتجرّعها العبد أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من جرعة غيظ يتجرّعها عند تردّدها في قلبه، إمّا بصبر وإمّا بحلم»[١].

ولكظم الغيظ حدود ينتهي إليه، ففي بعض المواقف يكون كظم الغيظ فيها يعد صفة سلبيّة في غير محلّها، وتشخيص ذلك متروك للمكلّف، فيمكن أن نقول: إنّ كظم الغيظ في الحق هي الصفة العامّة التي يجب أن يمتلكها المؤمن إلّا في بعض المواقف المرفوع منها حالة التقيّة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما تجرّع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها لله ابتغاء وجه الله»[٢]، وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «ما تجرّعت جرعة أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها»[٣].

الصورة الثالثة: لمؤمنين ديدنهم العفو عمّن أساء إليهم من الناس والتجاوز عنهم بالرد بالمثل، والعفو في الإسلام له بابه الواسع الذي يشمل أعلى درجات الجريمة وهي القتل وأدناها الإساءة الصغيرة، حتّى صار العفو شعاراً من شعارات الإسلام الأخلاقيّة التي ربّى المسلمين عليها، فأين ما تلتفت في أخلاق الإسلام تجد قوله تعالى: (فإن تعفوا هو خير لكم)، حتّى صار العفو علامة من علاماته البارزة، فإنّه دين العفو والتسامح، وصار العفو من المسلمين سجيّتهم التي يعتزّون بها، ورد عن

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ١٧٧/١٦٠٠٧.

(٢) مجموعة ورام ٢: ١٢٤.

(٣) الكافي ٢: ١٠٩/١.

الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً، فتعافوا يعزّكم الله »(١). ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

الصورة الرابعة: وجوه وشخصيات أكبر حجماً وأكثر لمعاناً بألوانها وجمال هيئتها وأكثر قرباً إلى السماء وهم يعانقونها معانقة المحب لحبيبه، تضفي عليهم السماء نوراً متميّزاً عن غيرهم من المؤمنين، فإنّ هؤلاء هم الذين كانوا في زيادة فيما أمرهم الله به، وزيادة من الإنفاق، وزيادة في كظم الغيظ، وزيادة في العفو عن الناس، وزيادة في طاعتهم لله وللرسول صلى الله عليه وآله، وزيادة في تعبّدهم وعبادتهم، وزيادة في كلّ عمل خير، فهم لم يقتصروا على ما هو الواجب، ولم يحدّثوا أنفسهم بالكفاية بما قدّموه لعلمهم بأنّ حديث الكفاية هو حديث الشيطان الذي يريد أن يوقعهم في قطع الخير والكسل والملل، فهم يقدّمون الكثير ويحسبونه قليلاً أمام عطاء الله لهم ورضاه عنهم، فالإحسان ما كان زيادة على الواجب والمتلبّس بكثير الإحسان وزيادته يسمّى محسناً.

ورد في (الإرشاد) للشيخ المفيد رحمه الله : أنّ جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: انّ الله تعالى يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. فقال لها: «كظمت غيظي»، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال: «عفا الله عنك»، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فقال لها: «اذهبي فأنتِ حرّة لوجه الله»(٢).

فالمحسنون هم الذين يزيدون في المسارعة إلى المغفرة من ربّهم والمستمرّون

---

(١) الكافي ٢: ١٠٨/٥.

(٢) البحار ٦٨: ٣٩٨.

على سرعتهم وعملهم في مجال الخير، وبالتالي يكونون أكثر حبّاً وقرباً إلى الله من غيرهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

اللوحة السادسة: ألوان زاهية بهيجة تنبثق من ألوان غامقة معتمة مقزّزة للمشاعر مخيفة التشكيل بهيآتها تلك، وهي التي ترمز إلى المعاصي من أفعال الفحش وظلم النفس وما يقع تحتهما من اقتراف محرّم أو ترك لواجب، ولم يركنوا إلى ذلك الاقتراف أو إلى ذلك الترك بحيث يأخذهم الإهمال والهوان والاستسلام إليه بحيث يبقون يدورون في داخل الألوان المعتمة وهم في راحة فيها، بل على العكس من ذلك فهم سرعان ما يتذكّرون الله من عدم رضاه بالمعصية وغضبه عليها وما يترتّب عليها من الجزاء يوم القيامة فسرعان ما يطلبون المغفرة منه سبحانه لاختصاص المغفرة به، وإنّه هو الذي عصي فلا غافر سواه، فهم لا يصرّون على ذنوبهم وما فعلوه من المعاصي بالدوام عليها أو حبّاً بها وهم يعلمون بالحكم وأنّها معصية، وأنّهم يعلمون نتائج ما يقومون به ويعلمون ما يترتّب من العفو والغفران لمعاصيهم إن قدّموا التوبة لربّهم، ويعلمون حبّ الله لهم إن هم ندموا على ما فعلوا ولم يرجعوا.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ أنّه قال: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدّث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار»[1].

فكانت الألوان البهيجة تنبثق من نور إيمانهم وتوبتهم الخالصة لله التي تنقذهم من ألوان المعاصي المعتمة المظلمة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٩٨/ ١٤٤.

ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

اللوحة الأخيرة: التي تمثّل النتيجة والنهاية لمَن نظر إلى تلك اللوحات وأخذ منها الدروس والعبر والتزم بما تأمر وتنهى، فهذه اللوحة تعكس النتيجة لهؤلاء الذين سارعوا إلى مغفرة من ربّهم فكان جزاؤهم المغفرة من الله، فالجنّة لا يمكن الدخول إليها إلّا بعد حصول المغفرة من الله؛ لأنَّ مغفرته عملية تطهير والجنّة لا يدخلها إلّا المطهّرون من كلّ ذنب وأثر معصية، وهاهي الجنّة بألوانها المفرحة التي تفتح الصدور والمشاعر والأحاسيس شوقاً إليها، وبما تحتويه من الأشجار بمائها الصافي العذب الذي يجري تحتها ليكمل صورتها الجماليّة في الذهن ونظر الناظر إلى تلك اللوحة، تنظر إلى تلك اللوحة الزاهية بألوانها ووحداتها وقد سقط الزمن فيها فلا شمس ولا قمر، بل قد أضاف الله لها ما هو أجمل وأوسع من ذلك حيث لون الخلود الذي لا يمكننا أن نتصوره إلّا بكلمة المدح التي ينقلها لنا الله بكلمة ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. فهنيئاً للعاملين ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؟

ج:

قد يحتاج الإنسان لتعميق الإيمان والتصديق إلى أمر حسّي يعمّق من خلاله الفكرة وما ينقله الله من الحقائق والنتائج على صعيد الخير والشر، وقد يصوّر الشيطان للذين نظروا إلى تلك اللوحات الفنية أنّها محض خيال أو أنّها حالة مثاليّة،

والله سبحانه وتعالى من أجل أن يراعي حاجة الإنسان في ذلك، ومن أجل أن يمنع حركة الشيطان في الإنسان، فتح الله أحد أبواب الحجّة أمام الإنسان وأحد الطرق الحسيّة لحصول العلم واليقين بما يخبر الله عنه. إنّه التأريخ المنتشرة آثاره الحسيّة على الأرض والمنقول بعضها بين أغلفة الكتب التأريخيّة، فإن لم تكن لك القدرة على السفر والمشاهدة بأُم بصرك لتلك الآثار في المناطق الواسعة من الأرض فاستعن بالكتب التأريخية الصحيحة التي تنقل لك أحوال الماضين بأمانة وصدق، وإن لم تكن لك القدرة لا على ذاك ولا على هذا فاستعن بأصحاب الخبرة وذوي الاختصاص من الصادقين لينقلوا لك أحوال الغابرين.

فقد طرحت سنن وقوانين ومنهجة حياة وهي على قسمين لا ثالث لهما، الأوّل من الله والثاني من وضع البشر، فانظر إلى الثابت والمتغيّر على الرغم من طول الفترة الزمنيّة وتبدّل الأجيال لترى نبض الحياة يزداد نشاطاً ونموّاً وسعة في منهجيّة الله وسننه ولترى في الجانب الآخر الموت والفناء لكلّ ما وضعه الإنسان من بديل لمنهجية الله، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «مازال منذ خلق الله تعالى آدم دولة الله تعالى ودولة لابليس، فإنّ دولة الله ما هو إلاّ قائم واحد»[1].

أنظر إلى الآثار التي تكتشف بين الآونة والأُخرى من قبل مؤسّساتها وطبّقه على ما أخبر الله به لتجد الصدق ومطابقة هذا لذاك. انظر إلى أصحاب القوى العظمى في التأريخ الذين كذّبوا الأنبياء والرسل لتجد أصواتهم هامدة وقصورهم مندرسة، انظر إلى آثارهم لتكتشف أخلاقيّتهم وتعاملهم مع الناس وانظر إلى كم هو المقدار الذي كانوا يستعبدون الناس فيه باستغلال سلطتهم وليس لهم إلاّ إشباع

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٩٩/١٤٥.

غرائزهم وأنانيّتهم، وانظر هل تركوا شيئاً يقتدي الإنسان به؟! انظر إلى نفسك أيّها الناظر لآثارهم فهل تترحّم على فرعون ونمرود وجنكيزخان ومعاوية وهتلر وماركس وأمثال هؤلاء الذين حكموا الأرض ونظّروا لها، أم تقذف عليهم اللعنة؟!

نعم، إنّهم لم يتركوا لنا إلا أحجاراً وتماثيل، وأمّا الكتب العلميّة النافعة التي تحمل النظريّات العلميّة النافعة فهي نتاج غيرهم من الأنبياء والعلماء المؤمنين ومن المستضعفين في الأرض، أنظر إلى تعلّقك الروحي وأنت تنظر إلى آثار الجبابرة في الأرض وكلّ مَن آثر الحياة الدنيا على الآخرة وانظر إلى تعلّقك الروحي وأنت تنظر إلى آثار الأنبياء والمؤمنين وكلّ مَن آثر الآخرة على الدنيا لترى الفرق واضحاً في التنفّر من الأوّل والانجذاب إلى الثاني.

وهكذا في أي جهة تريد أن تضع يدك عليها ويتّجه نظرك إليها لتجد هناك البون الشاسع بين الفريقين، وعندها تصل إلى النتيجة المرئيّة الواضحة لعاقبة الفريقين من خلال ما تركوه من الأثر الدّال على الجهة التي تريد البحث عنها، وسلّط الله الضوء على عاقبة المكذّبين فقط دون ذكر عاقبة الطرف الآخر لأنّها هي الحالة الميّتة والمندرسة التي ذهبت مع أصحابها والتي لا تعرف إلّا من خلال مزبلة التأريخ وأحجار الأرض، وأمّا آثار الماضين من الأنبياء والرسل وكلّ ما جاء من عالَم الغيب فتجده في أفكار الناس وقلوبهم نوراً يهتدون به ومشعلاً وضاءً ينير لهم طريق الاستقامة يسيرون به وهم ينتقلون من نبيّ إلى آخر ومن كتاب إلى آخر، فهم ينتقلون من نور إلى نور حتى كان نور الأنوار ذلك أبو القاسم محمّد بن عبدالله ﷺ وكتابه المنزل، فهم على طريق واحد ذي أنوار متعدّدة خالدة. وهذه الحقيقة من النتائج التي يتوصّل لها الإنسان من خلال نظرته التفحصيّة للآثار لا تختصر على أُناس معيّنين، بل يتوصّل لها كلّ إنسان، ولهذا يكون الطريق التأريخي أحد طرق

الحجّة على كلّ إنسان.

نعم، ما أكثر المواعظ وقلّة المتعظ، ولهذا لا تكون الاستفادة من قراءة التأريخ وأخذ العظة منه إلّا لمن أراد تقوى الله وانعكست تلك الرؤية على إيمانه وعمله، فالتأريخ من الناحية النظريّة لكلّ الناس ومن الناحية العمليّة للمتّقين، وما يريده الله من الحجّة هو ذلك ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ويحمل هذا البيان الإنذار إلى الذين ينظرون إلى العبرة ولم يعتبروا ويصلون إلى الموعظة ولم يتّعظوا ويصلون إلى الهدى ولم يهتدوا فهو بيان وإنذار للناس، وبشرى وتسلية للمؤمنين.

س: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض فأين تقع النار؟ ما هي المحتملات من الجواب على ذلك.

ج:

١ـ أن يكون التعبير بهذا المقدار عن عرض الجنّة كناية عن سعتها اللامحدودة.

٢ـ نحن لم نطّلع على جميع ما خلقه الله حتّى نسأل عن موقع النار، فإنّ ما ورد عن السماوات والأرض ما هي إلّا حلقة صغيرة معلّقة في الكرسي كما تحدّثنا عن ذلك في آية الكرسي في سورة البقرة.

٣ـ أنّ الجنّة والنار من عالم الآخرة فلا تخضع للأسباب الطبيعية للدنيا فلا يصح زماناً ومكاناً وأبعاداً وماهيةً أن نقيس ونخضع ما نعرفه من أسباب الدنيا عليهما.

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٣٩ ـ ١٥٥).

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الوهن: ضعف القدرة أو العزيمة أو الجسم.

٢ـ الحزن: التألّم على ما فات.

٣ـ الأعلون: من العلو والرفعة.

٤ـ المس: اللمس بخفّة.

٥ـ القرح: الجرح الظاهري أو العميق.

٦ـ التداول: التداور والتناول من شخص إلى آخر ويشمل العين والكلام.

٧ـ التمحيص: الاستخلاص والتطهير من الأمر الغريب على الشيء.

٨ـ المحق: الإزالة والمحو التدريجي.

٩ـ أم: أداة منقطعة تفيد الإنكار.

١٠ـ محمّد: أ ـ صاحب المقام المحمود. ب ـ ما يُحمد.

● **دروس إلهية من معركة أُحُد**

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أيّها المسلمون، لا تهنوا وتضعف عزيمتكم على أمر مهم استقبالي ينتظر إرادتكم وعزيمتكم وقوّتكم، ولا تحزنوا على أمر مؤلم قد أصابكم، كلّ مشروع إسلامي فيه خير لكم وخصوصاً القتال في سبيل الله الذي هو مورد الآية بعد غزوة أُحد، فإنّ الوهن والحزن ليس من صفة الشخصيّة الإسلاميّة الجهادية والقتالية، والسبب في ذلك لأنّكم أيّها المسلمون أنتم الأعلون، فأنتم الأعلون لأنّكم تؤمنون بالله ومطلق عالم الغيب وغيركم يدعو إلى الشرك والأصنام، وأنتم الأعلون لأنّ دينكم الذي تتمسّكون به وتدعون إليه هو الإسلام خاتم الأديان وأكملها، وأنتم الأعلون لأنّكم تحملون القرآن المعجز دستوراً للحياة ومرشداً للآخرة، وأنتم الأعلون لأنّكم تمتلكون أعلى الشخصيّات القيادية التي جمعت أعلى درجات النبوّة والرسالة والإمامة ذلك هو سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ، وإنّ فيكم أميرالمؤمنين وأبا الأئمّة الطاهرين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأنتم الأعلون حيث جعلكم الله خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر،

وأنتم الأعلون لأنّكم أحياء في موتكم تعيشون من رزق الله الخاص للشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)، فإنّكم لم تخسروا شيئاً فاتكم حتّى تحزنوا عليه، ولم يكن الذي أُمرتم به فيه عيب حتّى يصيبكم الوهن نحوه، والذي يعلم بنفسه على هذا المستوى من العلو لا يجوز له عقلاً أن يصيبه الوهن، وإنّ الذي يعلم بأنّ ما يخسره سيعوّض له بما لا عين رأت ولا أُذن به سمعت لا يصيبه الحزن.

فإن قلتم: لقد أصابنا القتل والجرح والهزيمة ونقاتل تحت قيادة الرسولﷺ الذي هو أقرب شخصيّة لله سبحانه وتعالى مع إيماننا بالله، وعليه فلا يلزم أن يصيبنا ما أصابنا في معركة أُحد، بل لابدّ من أن يكون النصر هو حليفنا دائماً لأنّ الله معنا ونحن معه.

يجيبهم الله على هذا القول بعدّة جهات:

١ـ القانون الطبيعي للحياة، الذي لا يتغير ضمن حركته الطبيعيّة، فمنه:

أوّلاً: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾. إنّ القتل والجرح الذي أصابكم ما هو إلّا مس وشيء هيّن، وأنّه أمر متوقّع الحصول في أي معركة يدخلها الإنسان، وإنّ من الأمر الطبيعي أنّ الطرفين إذا كانوا يمتلكون القوّة فالقتل والجرح يقع من الطرفين، فكما مسّكم القرح فقد مسّهم، وهذا دليل افتخار لكم حيث القوّة بين الطرفين غير متكافئة وعلى الرغم من قلّتكم فقد مس القوم قرح مثله، وكما أنتم تعانون من الخسارة فهم كذلك، فإذا كان هناك شيء غريب قد حصل فهو انتصاركم لا خسارتكم حيث على الرغم من قلّة عددكم وعدّتكم بالنسبة إليهم فقد منعتموهم عن تحقّق هدفهم، ورجعوا وهم يحملون قتلى وجرحى، فإذا يوجد أمر غريب فهو معونة الله لكم وتدخّله

لداعٍ هو رآه.

ثانياً: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، من القانون الطبيعي، القوي يأخذ الضعيف، فإذا توفّرت القوّة وشروطها فإنّها تكون هي الغالبة سواء توفّرت لدى المؤمنين أو لدى غيرهم، فالنصر بمعنى الغلبة في القتال أن يكون حليفاً للمؤمنين في كلّ حال، هذا لم يعد الله به ولم يجعله كقانون في طبيعة الحياة. نعم، إلّا في الحالات النادرة التي تحتاج إلى تدخّل ربّاني وهذا أمره بيد الله بعد تحديد ضرورة الداعي لذلك من قبله سبحانه، وأمّا في الأمر الطبيعي فإنّ الأمور تسير ضمن الإعداد والقوّة ومقدّماتها، ولهذا تشاهد تبدّل الحكومات والشخصيّات الحاكمة الناتج عن ضعف هذا وقوّة ذاك بحق أو بباطل، وأسند التداول إلى الله بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ باعتباره هو خالق الأسباب.

ثالثاً: ضرورة تحقّق المعلوم عند الله خارجاً، فإنّ من جملة القانون الطبيعي الذي فرضه الله على كلّ ما يعلم به متعلقاً حدوثه بالأسباب الطبيعيّة لابدّ أن يحدث خارجاً ليطابق العلم المعلوم، ولمّا كانت علوم الحوادث في جميع الممكنات موجودة عنده وأنّ علم الله بالشيء هو إرادته له، فإذا لم يحدث في الخارج معناه قد حصل الخُلف بين إرادته وحدوثه وهو مستحيل على الله، وهذا يعني أنّ كلّ حادث هو معلوم عند الله قبل حدوثه، وما حدوثه إلّا تطابق فعليّ خارجيّ لما يعلمه الله قديماً.

ونستفيد من هذه النقطة هو أنّ الله له منهجيته للحياة وأنّها معلومة عنده منذ الأزل وأنّها منتصرة لا محالة في النهاية وتسير ضمن الأسباب الطبيعيّة لها وهي بين الارتفاع والهبوط، وانّ الارتفاع والهبوط هو تابع لإرادة المؤمنين أنفسهم، فكلّما استثمروا أسباب القوّة ارتفعوا، وكلّما لم يستثمروا أسباب القوّة

الطبيعيّة التي أعطاها الله للحياة فيصيبهم الهبوط والوهن، ومن خلال استثمار الأسباب وعدمه ضمن ما أقرّته الشريعة وقيام العمل بها يتميّز الذين آمنوا عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ـ اختيار الشهداء، إنّكم أيّها المسلمون قد عرفتم أنّ الذي يقتل في ساحة المعركة في سبيل الله قد سمّاه الله شهيداً سواء كان من الشهداء على الأعمال يوم القيامة أم لم يكن، فإنّ نفس الذي قُتِل في المعركة له منزلة خاصّة ورعاية خاصّة وحبّ خاص من قبل الله، ﴿وَيَتَّخِذَ﴾ التي تحمل الدلالة على المقام الخاص عند الله للشهداء، وباعتباركم كمؤمنين تحبّون أن تكونوا من الشهداء المقتولين في سبيل الله وكما هو دعاؤكم الذي تدعون الله به (اللّهم ارزقني القتل في سبيلك)، والقتال هو الطريق المنحصر لاختيار الشهداء.

ومن لطفه وحبّه لكم وفضله عليكم أن وقع اختيار الله للشهداء لأن يكونوا منكم؛ لأنّ غيركم من الظالمين سواء كان في اختياره العقائدي أو سلوكه العملي ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فلا يختار منهم شهداء، فكانت معركة أُحد وما قبلها وما سيكون مستقبلاً بعدها إلى يوم القيامة، فإنّ كلّ مَن يقتل في سبيل الله وهو على طريق الحق والإيمان فهو يقتل شهيداً، وأنّ الجنّة تتفتّح أبوابها وهي تستقبل كلّ من سقط في المعركة بهذا الطريق ولأجل هذا السبيل، فلا يصيبكم الوهن ولا تحزنوا على قتلاكم فإنّهم عند ربّهم يرزقون، وهذا ممّا يزيد عزيمتكم نحو القتال، وأن تزفّوا البشرى لكلّ أُسرة مؤمنة فقدت عزيزاً عليها في ساحة المعركة وفي طريق الحق وفي سبيل الله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

٣ـ الاستخلاص، نتيجة القتال أن يكون أحد الطرفين غالباً والآخر مغلوباً، فهو

كأيّ وحدة من وحدات الحياة التي تمّر على الإنسان التي يكون فيها تارة في سرّاء وأُخرى في ضرّاء، وتارة سعيداً وأُخرى حزيناً، وتارة له وتارة عليه، وهذا هو أحد منهجيّة الحياة وهدفها ألا وهو الابتلاء والامتحان والاختبار، فلا حالة ثابتة موجودة يحرزها الإنسان لنفسه، فكلّ ما يمرّ على الإنسان هي حالة تمحيص واستخلاص له من قبل الله سواء كان في شدّة أو رخاء.

فالذي يدّعي الإيمان والطاعة لله لابدّ أن يمرّ في صراع الحياة ليرى الإنسان بنفسه مقدار ما يدّعيه وصدقه به، والذي يريد أن يتسلّق رتب الإيمان العليا لابدّ أن يمرّ عبر وحدات الحياة بكلّ نجاح وأن يكون من المسارعين في طريق الله وأن يقتحم كلّ عقبة. ولهذه المنهجية الإلهيّة ـ أي الاختبار للإنسان في الحياة ـ كما لها ثمارها في الآخرة فإنّ لها ثمارها للإنسان في الدنيا، فهي كما تصهر شخصيّة الإنسان المؤمن في بودقة الإخلاص وتطرد عنه كلّ أغيار لا ترتضيها الشخصيّة الإسلامية التي يريدها الله من المؤمن فهي تمحق وتسقط وتفشل كلّ عمل يقدّمه الكافر الذي يفشل في عملية الاختبار في الدنيا والذي هو طريق الآخرة، ففي الابتلاء ربح للمؤمنين وخسارة للكافرين، فما رأيتموه في معركة أُحد وما أصابكم منها من مأساة فهي لاستخلاصكم وبناء شخصيّتكم ورفع لكم في درجات القرب والإيمان ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، وقد مرّ الحديث في ذلك في مبحث سنّة الابتلاء فراجع.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنّه قال: «والله لتمحصنّ، والله لتميّزنّ، والله لتغربلنّ حتّى لا يبق منكم الندر»[1].

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٤٦/١٩٩.

٤ـ الحساب على العمل، إنّكم تريدون الفوز والغلبة الدائمة لكم في الدنيا ودخولكم للجنّة لكونكم مؤمنين فقط وفقط وهذا حساب وظنّ وغرور قد وقع فيه البعض منكم واشتباه قد حصل في أذهان بعضكم، فلا التشريع هذا حسابه ولا هي دعوة ادّعاها الله، فهذا القرآن والرسول ﷺ بين أيديكم، فالحقيقة أنّ الله يعلم بكل أحداث الممكنات ولابدّ من إحداثها خارجاً كما قلنا سابقاً، وإنّ ما كان إحداثها لا يجري إلّا ضمن القانون الطبيعي لها، فاختياركم وإرادتكم له مدخليّة في كل فعل وعمل تقدّمونه وعليه يكون الحساب، فليس الحساب على ما يعلمه الله فقط ومن دون حدوثه خارجاً، فهناك عناوين كثيرة جعلها الله وهو يعلم بها كالصبر والجهاد والإخلاص والعبادة والإحسان والعفو وغيرها كثيرة، ويعلم الله مَن سيتلبّس بها في المستقبل وما هو مقدار تلبّسه بها، ولكن إن لم تظهر خارجاً من نفس الشخص لا يترتّب عليها شيء ولا أجر عليها، فإعطاء الثواب أو العقاب متوقّف على الفعل الخارجي للشخص لا على ما يعلمه الله من الشخص فحسب، فكيف حسب البعض منكم أن يدخل الجنّة وبعد لم يتحقّق منه الفعل والعمل بالخارج؟!

وإنّكم لتعلمون أنّ ميزان الحساب على العمل، وبالعمل يتميّز الإنسان عن غيره لا على ما يدّعون، ومعركة أُحد ساحة عمل ميّزت المجاهدين والصابرين عن غيرهم ممّن أراد الهزيمة وفشل المعركة وتمرّد على أوامر رسول الله ﷺ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، ورد في (تفسير القمّي) في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ...﴾ أنّه قال: «ولما يَرَ؛ لأنّه عزّ وجلّ قد علم قبل ذلك مَن يجاهد ومَن لا

يجاهد، فأقام العلم مقام الرؤية، لأنّه يعاقب الناس بفعلهم لا بعلمه»[1].

٥ـ التمنّي لا يصنع العمل، أنتم أيّها المؤمنون لقد عرفتم معنى القتل في سبيل الله وما يحصل عليه الشهيد من الرزق والمقام المحمود وتعمّقت فيكم معرفة منزلة الشهيد بعد معركة بدر حتّى وصلت معرفتكم بأن تتمنّوا الشهادة والموت في سبيل الله وكنتم تنتظرون الفرصة التي تأتيكم لتنالوا درجة الشهادة، وقد مَنَّ الله عليكم أن جعل معركة أُحد هي إحدى فرص الحصول على ما كنتم تتمنّونه قبل أن تتلقّوا الفعل والابتلاء الفعلي بما تتمنّونه، ولقد رأيتم القتل والقتال لا من بعيد ورؤية البصيرة، بل بأعينكم وعشتموه بأنفسكم في وسط المعركة، فلماذا انسحب البعض منكم وبعدُ لم تبتدئ المعركة؟! ولماذا حدّث بعضكم نفسه بالفشل؟! ولماذا فضّل بعضكم الحصول على الغنائم على طاعة رسول الله ﷺ ولم يستجب لندائه؟! ولماذا انهزم بعضكم وقد شاهد الرسول ﷺ قد شجّت رباعيّته؟! لماذا اختفى بعضكم بين زوايا أحجار الجبال وهو يرى مصارع الأبطال والمؤمنين؟! فأين صار الذي كنتم تتمنّونه قبل اللقاء في المعركة؟!

نعم، إذا محصوا بالبلاء قلّ الديّانون، فالتمنّي يحتاج من الإنسان إلى الاستعداد المناسب لما يتمنّاه وينشغل ببناء فكره وترويض نفسه ليكون على مستوى من القدرة على فعل ما يتمنّاه، وأن يسعى جاهداً ليحقّق ما يتمنّاه، وأن يكون صادقاً فيما يتمنّاه، فكثير ممّن كان يتمنّى الخير وعند بلوغه سعى في الشرّ، فعمر التمنّي وحده لم يقدّم خطوة ولم يؤخّرها ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

---

(١) تفسير القمي ١: ١١٩.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ المؤمنين لما أخبرهم الله تعالى بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنّة، رغبوا في ذلك فقالوا: اللّهم أرنا قتالاً نستشهد فيه، فأراهم الله إيّاه يوم أُحد، فلم يثبتوا إلّا مَن شاء الله منهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾»(١).

٦ـ فقدان القيادة، إنّ وجود القائد بين رعيّته له الدور الكبير في التأثير به:

أوّلاً: تنصهر في ذهنه تفاصيل الفكرة والمنهجية التي انطلق منها كقائد يريد تطبيقها، فأي مشكل في الفهم أو التنظير لجديد يكون هو الحد الفصل له، فمن خلاله يمنع الاختلاف الفكري الذي يحصل عند الأتباع.

ثانياً: هو المرجع لما يحدث من هنا وهناك من المشاكل والأحداث على جميع الأصعدة، وبهذا تتحقّق وحدة الكلمة ومركزيّة القرار ومنع تشتّت الآراء.

ثالثاً: القائد باعتباره أعلى شخصيّة فوجوده يمنع من ظاهرة البروز والتنافس على المناصب القياديّة سواء كان بدافع سليم أو بدافع مرضي.

رابعاً: القائد هو صاحب المبادرة وتنشيط ما يرى فيه من الوهن الذي تصاب به الحركة في أثناء مسيرها.

وإذا فقدت الشخصيّة القيادية بموت فهنا تظهر ما كانت تضمره النفوس فتظهر على الساحة الحركة العلنيّة المضادّة، ويحسب أنّ أحدهم لا يختلف عن الآخر شخصيّة وكفاءة وعطاء، وهنا يظهر التنافس على المراكز القياديّة، وتظهر نقاط الضعف والقوّة التي تحملها الشخصيّات المتعدّدة، وتكون النتيجة أن ينقسم

---

(١) تفسير القمي ١: ١١٩.

الجمع الواحد إلى مجاميع مختلفة، وهذه الحقيقة عامّة شاملة يصاب بها كلّ جمع كان مقوداً، سواء كان تحت قيادة دينيّة أو غير دينيّة، وسواء كانت تلك القيادة الدينيّة معصومة أو غير معصومة. وبما أنّ حديثنا مع المؤمنين ومع الأوائل في صدر الإسلام، فيخبرهم الله ويقول لهم: إنّ الحقيقة هي نفس الحقيقة باقيّة على الاختلاف بعد فقدان القائد ولم تتغيّر. فهذه السلسلة من أعاظم القادة وهم رسل الله الذين عصمهم الله من الزلل وقادوا أُمّة من الناس، فما أن فقد الرسول وجوده من بينهم بموت أو قتل إلّا واختلفت أُمّته من بعده وافترقت إلى عدّة فرق وكان منهم المؤمنون ومنهم الكافرون.

وإنّكم أيّها المسلمون الآن تعيشون وبينكم رسول الله ﷺ الذي لا تختلف قيادته وعصمته ومهمّته وما يحمله من الكتاب والحكمة عن بقيّة الرسل، فإذا فقد من بينكم بموت باعتباره بشراً فإنّكم ستختلفون وتبتعدون عن خطّه الرسالي الذي جاء من أجله، وتبتعدون عمّا وصى به حول القيادة النائبة التي تخلفه، فلم يكن هناك سبب من الرسول ﷺ من تقصير أو قصور في حصول الاختلاف من بعده بل سببه أنفسكم أنتم، وإنّكم أنتم الذين ستنقلبون على أعقابكم وترجعون لجاهليّتكم بكفركم العملي، وهذا سيحصل حتّى لو قطّع سيّد الأنبياء والمرسلين إرباً إرباً بالقتل وحصلت الشهادة له التي تثير العواطف والالتحام حول الشهيد والمبدأ الذي استشهد من أجله لما لأثر الشهادة في قلوب المؤمنين، فعلى الرغم من ذلك فلا أثر لهذه الشهادة لمثل هذه الشخصيّة العليا في قلوبكم وستختلفون وتنقلبون على أعقابكم، ولا تظنّوا أنّ ما سيحصل من الإنقلاب على الأعقاب لقليل منكم، بل سيحصل ذلك لكثير منكم ولم يبق ملتزم على الخط والمنهجيّة الإلهيّة ومتّبع للرسول ﷺ إلّا القليل منكم

وهم الشاكرون ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣).

ولن تضرّ الله هذه الكثرة من الذين يختارون الكفر والضلال ؛ لأنّ الله لا تضرّه معصية مَن عصاه كما لا تنفعه طاعة مَن أطاعه، فهو القادر والغني المطلق عن جميع العالمين. نعم، إنّما ضرر الكفر والضلال يرجع على أصحابه كما أنّ نفع الالتزام والشكر يرجع لأصحابه، وخصوصاً يوم الجزاء الذي سيجزي الله الشاكرين الذي لا يعلم مقدار نعيمه الذي سيقدّم إليهم إلّا الله حيث ترك تعيين جزاء الشاكرين إليه سبحانه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أيّها المسلمون المجاهدون الذين اشتركتم في معركة أحد، لماذا فررتم وانهزمتم عندما سمعتم بإشاعة قتل محمّد ﷺ، هل كنتم تظنون أنّ محمّداً لا يصيبه الموت أو القتل؟! فإنّه بشر يصيبه ما يصيبكم... هل تقاتلون من أجل محمّد ﷺ؟! وما محمّد ﷺ إلّا رسول لم يبلّغ لنفسه وشخصه ولم يدعُ أن تقاتلوا من أجل شخصه، بل كان يبلّغ أن تقاتلوا في سبيل الله الحيّ الذي لا يموت، وكان الرسول ﷺ يبلّغ أن تقاتلوا من أجل دين الله وهو باقٍ بكتابه وأقوال رسوله ﷺ. فبموت الرسول ﷺ أو بقتله لم تفقدوا شيئاً يجعلكم تنهزمون أمام الأعداء، فلم يبقَ سبب لانهزامكم إلّا عدم ترسّخ تفصيلات الوحدات الإيمانيّة الإسلاميّة في قلوبكم والإخلاص لها، وعدم الوعي والإخلاص لله ولدينكم إذا بقي في نفوسكم سيكون هو السبب في أن تنقلبوا على أعقابكم بعد موت الرسول ﷺ.

٧ـ القتال لا يقدّم أجلاً، فإنّ الموت والحياة بيد الله لأنّه هو المحيي والمميت فبيده

حياة النفوس وآجالها، وهو يعلم بداية حياة كلّ نفس كما يعلم خاتمة حياة كلّ نفس، وهو المقدّر لمقدار حياة كلّ نفس وهو الذي يعلم سبب نهاية حياة كلّ نفس، ومجموع كلّ ما يعلمه الله حول حياة النفوس وموتها ومدّة أجلها مكتوب بكتاب الآجال المعيّن فيه أجل كلّ نفس سواء كان المسمّى من الأجل أو غير المسمّى منه، وهو غير قابل للتبديل والتغيير كان من قضائه وإرادته ولا مبدّل لكلماته ولا أحد يتدخّل في أمره، وعليه لا تموت نفس بأجلها الذي كتبه الله لها وبالسبب الذي تموت فيه، فكم مَن خاض المعارك وهو في وسطها ولم يقتل؟! وكم من سليم كان سائراً في طريق السلامة وقد مات؟! وعليه لا يقع موت لحي إلّا بإذن الله لأن يفعل ذلك السبب فعله ووقوع تأثيره على الحي، ولم يقبض ملك الموت روح أحد إلّا وقد جاء أجله وبعد أخذ الأمر من الله سبحانه وتعالى سواء كان ذلك الأجل مسمى أو غير مسمّى، ولكن في جميع الأحوال أنّ إزهاق روح كلّ حيّ لا يقع إلا بإذن الله وأمره ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس:٤٩).

فلماذا هذا الخوف والحذر الشديد الذي تأخذونه من القتال مع أنّ كلّ شيء لا يحدث إلّا بإذن الله؟! وهل يخلّصكم الوهن والحذر من الموت؟!. فإذا كان الجواب بالنفي فتعاملوا مع المسألة الجهاديّة والقتاليّة بكل صبر وثبات ويقين وشجاعة، وإنّ هزيمة المؤمنين في القتال أو عدم تفاعلهم معه على الرغم من هذا العلم في مسألة الحياة والموت التي يطرحها الله لا يفسّر إلّا بحب الدنيا الذي يدخل قلوب المؤمنين فيجعلهم يثبّطون عزائمهم وعزائم الآخرين، والذي يريد الدنيا ليس هذا طريقه وأن يحشر نفسه في مثل هذه المهمّات ليكون هذا دوره السلبي الذي يؤثّر على نفسه وعلى الآخرين، بل الذي يريد

الدنيا له ساحته الأخرى، وهي ساحة القصور والراحة والأموال والأولاد، ورزق الله من رحمته العامّة التي تشمل الكافرين والمؤمنين، والذي يريد الدنيا فالله لم يمنعه رزقه العام في الدنيا، بل يعطيه على قدر سعيه، بل ربّما فيه زيادة، لأنّ محب الدنيا والذي يريدها لا يبالي إن حصل رزقه من حلال أو حرام ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨)، كما أنّ مَن يريد الآخرة له عطاؤه المذخور له يوم القيامة، وهذا وعد بأنّ الله سيجزي الشاكرين ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ (الإسراء:١٨-١٩).

وهذا هو الذي يميّز المؤمنين عن غيرهم، فإنّ المؤمنين يسعون إلى الآخرة ولم يركنوا إلى الدنيا وأنّهم ينتظرون جزاءهم من ربّهم يوم القيامة ليقينهم بذلك. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

٨ـ الأرض لا تخلو من قدوة ربّانيّين، فإنّه على طول مسيرة الحياة هناك جمع من المؤمنين الذين تخلّقوا بأخلاق ربّهم ووصلوا إلى الدرجات العليا من الايمان والأخلاق وهم يحملون الصبر والثبات والشجاعة في المعارك، وقد حصل هذا الجمع مع كلّ نبيّ خاض معركة فقاتل معه ربيّون كثير، وكان من صفاتهم أنهم لم يضعفوا في المعارك ولم ينهزموا ولم تتزلزل عقيدتهم لما أصابهم من المحن والقتل والجرح ولم تضعف أبدانهم ولا استكانت وضعفت نفوسهم؛ لأنّهم لم يستسلموا للرعب ولم يخفهم مخوف في الدنيا، ومثل هذا الصبر يحبّه الله

ويحبّ أهله الصابرين.

وهذا الرسول ﷺ لم يختلف عن بقيّة الرسل حيث قاتل معه ربيّون كثير فما وهنوا ولا استكانوا، بل صبروا وثبتوا مع الرسول ولم ينهزموا وبقوا يدافعون عنه حتّى النفس الأخير الذي يمتلكونه، ولم تزدهم محنة القتال وصعوبة الأحداث إلّا رسوخاً في الإيمان ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ وهم في وسط المعركة ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يطلبون العفو من الله لما صدر منهم من ذنوب فعليّة سابقة أو لم يصدر منهم ذلك، وإنّما هم يطلبون صرف تطهيرهم ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي اغفر لنا تجاوزاتنا على حدودك التي حددتها لنا فإنّ المعركة لا يضمن فيها عدم تجاوز الحدود، فهو اعتراف بتقصير وأنّهم يرون ما يقدّمونه أمام الله على الرغم من أنّه أعلى درجات العطاء في سبيل الله إلّا أنّهم يرونه قليلاً ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وهم على الرغم من أنّهم ثابتوا الأقدام إلّا أنّهم يريدون الثبات على ذلك ويطلبونه من الله ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لإيمانهم بأنّ النصر لا يكون إلّا من عند الله فهم يطلبونه منه سبحانه، وإنّ يقينهم لم يتزعزع في أنّهم على حق وإيمان وغيرهم على الباطل والكفر، فما هو الفرق بينكم أيّها المنهزمون وبين هؤلاء الربّانيّون، فإنّكم جميعاً مؤمنون بالله وتحت قيادة واحدة وفي ساحة قتاليّة واحدة.

نعم، الفرق هو أنّ إيمانكم بالله وبمبدئه بعد لم يصل إلى ما وصل إليه هؤلاء وأنّ في نفوسكم الشيء الكثير من الركون والتثاقل إلى الأرض فلم تحصلوا على ما حصل عليه هؤلاء الربّانيّون من ثواب الدنيا من العزّ والشرف والعلوّ ورسوخ الإيمان وبناء الشخصيّة القويّة لهم وقربهم للرسول ﷺ. وسيذكرهم التأريخ ويسطّر ملاحمهم بأحرف من نور ويعتزّ المسلمون جميعاً بمواقفهم،

هذا بالإضافة إلى حسن ثواب الآخرة الذي ينتظرهم وحبّ الله لهم والله يحب المحسنين ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٩ـ أيّ نوع من الاتّباع الفكري والعقائدي لغير المؤمنين نتيجته الفشل والخسران في الدنيا والآخرة وأنّه العلامة الواضحة للردّ والرجوع على الأعقاب، إنّ الولاية لله وللرسول وللمؤمنين، فأيّ شبهة يقع فيها الإنسان المؤمن عليه الرجوع لهذا الخط ولأصحاب هذا الخط ففي طاعتهم النجاة والنور، فلا تطيعوا الكافرين والمنافقين فيما يلقونه بينكم، ولا تطيعوهم فيما ترون ظاهره الحسن، ولا تغترّوا بما يمتلكون من القوّة، فأنتم الأعلون في الفكر والعقيدة، وأنتم الأعلون فيما تمتلكونه من تراث لو رجعتم إليه، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجونه غيركم، وأنتم تمتلكون نوعيّة الولاة ممّا لا يمتلكه غيركم، فعلى أيّ شيء تطيعون غير المؤمنين؟ أنعم، إلّا لضعف إيمانكم ولحب الدنيا الذي يدخل قلوبكم أو لجهلكم بطاقاتكم وبما تملكون من القدرات والقابليات، فليس في طاعة الكافرين إلّا الخذلان، وليس في طاعة الكافرين إلّا الانحطاط، وليس في طاعة الكافرين إلّا زرع الحقد بينكم والتفرقة وتمزيق الصف وزرع التشكيك، وبالتالي لم تحصدوا إلّا الخسران والابتعاد عن الله، لأنّ الكافرين لا يمتلكون إلّا الحسد والحقد على الإسلام والمسلمين فلا يرجون لكم خيراً في يوم من الأيّام.

فالذي يسير بعقيدة مضادّة لابدّ أن يسير بالحركة المضادّة، فلا ترجون من طاعتكم للكافرين الفلاح والنجاح للمؤمنين ولخطّكم الإسلامي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فإذا أردت أيّها المؤمن الفلاح والنجاح عليك بالتمسّك بولاية الله، فإنّ فيها المنفعة المحسوسة وغير المحسوسة، فإنّ النصر بيده بل لا ناصر مثله ينصر أولياءه، وبيده خير الدنيا وما بعد الموت وفي الآخرة، فولايته شمولية لا تنحصر في مكان أو زمان معيّن ﴿بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

ومن جملة إثبات نصر الله لأوليائه وأنّه خير الناصرين، سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب والفزع والخوف منكم، وسيفشلون في أي غزوة يغزوها الرسول ﷺ، وإنّ إلقاء الرعب في قلوب المشركين بسبب شركهم بالله، ولم تكن هناك حجّة وسلطان يتمسّكون به لإثبات شركهم بل لم يمكن للمشركين أن يأتوا بحجّة لو توجد حجّة للمشركين في البقاء على شركهم لذكرها الله وردّها في كتبه المنزلة إلاّ أنّه لا توجد حجّة وسلطان وبرهان للشرك يستحق الرد عليه، فالشرك مرفوض للمنطق والعقل بأبسط نظراته، وما نتيجة المتمسّكين بالشرك إلاّ النار فهي المأوى والمحل المناسب لهم وبئس مثوى الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باتّخاذهم الشرك كطريق عقائدي بالنسبة لهم ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أنّه قال: «يعني عبدالله بن أُبي، حيث خرج مع رسول الله ﷺ ثم رجع قال للمؤمنين يوم أُحد يوم

الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم»[١].

١٠ـ الاستمرار على الإخلاص، أيّها المسلمون قد أذن لكم الله بمعركة أُحُد على الرغم من قلّة عددكم وعدّتكم، وهذا يعني أنّكم ستحسّون برعاية ومعونة خاصّة في المعركة من قبل الله، وعندما شاهد الله أنّ الأغلب قد استجاب للرسول ﷺ وأنّ الأغلب مستعدّون للتضحية في سبيل الله، فهنا ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ حين قدّم العون إليكم فهزمتموهم على الرغم من قلّتكم وكثرتهم وكان النصر حليفكم وأنتم تستأصلونهم بالقتل والتشريد ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، وعندما شاهد الله أنّكم لم تستمرّوا على هذه الحالة من التقوى والثبات والبصيرة في الهدف بل تخليتم عن أهم أسباب النصر الإلهي منها:

الأوّل: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾

ذلك حينما رأيتم أنّ الغنائم أصبحت في نفوسكم كأنّها هي الهدف، فذهبتم لا يشغلكم شاغل عن جمع الغنائم، وأخذكم الطمع بالبسيط الزائل وتركتم النظر فيما يحاط بالمعركة وطرق مكرها، ولم تفكّروا في دوركم العالي الذي يتمنّى كلّ إنسان مؤمن أن يحظى بشرف المشاركة العظيم بينكم، وبمعنى آخر أنّ التقوى والاستمرار على البصيرة قد قلّت عندكم، وبهذا قد فقدتم أحد شروط النصر وأسبابه فكانت النتيجة أن التف العدو من خلفكم فكانت بداية فشل المعركة.

الثاني: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾

ذلك حينما أخذ أكثر الرماة الطمع في الغنائم والبعض الآخر أخذه البقاء على

---

(١) تفسير القمي ١: ١٢٠.

طاعة الرسولﷺ، وذلك حينما انهزم البعض منكم والبعض الآخر بقي مع الرسولﷺ، فالنتيجة كانت أنّ بعضكم أراد الحياة الدنيا والبعض الآخر أراد الآخرة فكان الموقف المضاد الناتج من الطرفين الذي سبقه التنازع والاختلاف في الرأي حول ما أمر به الرسولﷺ، وهذا ما سبّب فقدان الشرط الآخر في نصر الله للمؤمنين حيث الطاعة وعدم التنازع شرط وسبب من أسباب النصر في القتال، فكانت النتيجة هي الانهزام أمام العدو وقد سقط منكم في هذه الساعة أكثر الشهداء.

الثالث: ﴿وَعَصَيْتُم﴾

وعصيتم أمر الرسولﷺ وهو يستصرخكم بعدم الجمع للغنائم في تلك اللحظات، وعصيتموه بعدم ترك أماكنكم وقد تركتموها عندما أخذكم طمع الغنائم، وعصيتم أمر أمرائكم عندما سمعتم بإشاعة قتل محمّدﷺ فانهزمتم وصرتم لا تسمعون أمراً ولا ترون إلّا الهزيمة خلاصاً لأنفسكم، وإذا لم يُلتزم بأمر الآمر في القتال فقد سلب أحد شروط النصر في المعركة، فهنا شجّت رباعية الرسولﷺ وهنا كاد الاستئصال أن يصل إليكم على خلاف بداية المعركة ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

الرابع: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

عندما أراكم الله ما تحبّون في بداية المعركة كان الإخلاص والتقوى من الأغلب هي الغالبة على قلوبكم، ولكن عند رؤية الغنائم والهزيمة لأعدائكم قد انقلب هذا السلوك بحيث أصبح الأكثر له طمع في الحياة من خلال الحصول على الغنائم أو الحفاظ على حياته من خلال الهزيمة وكان القليل منكم مَن يريد الآخرة

فثبت وصبر، ولكن حصول هذه الحالة السلبية بهذا الكم الهائل لهو أحد أسباب فقدان النصر الإلهي،كان بالإمكان على الله أن يتدخّل بالنصر لكم بأن يصرف المشركين عنكم بهزيمتهم لا أن يصرفكم ويكفّكم عنهم بهزيمتكم ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، ولكن الله ترك إنزال النصر عليكم في هذه الفترة، كان ذلك من منهجه ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ حتّى يميّز الخبيث من الطيّب منكم، وكان ذلك من لطفه ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ حتّى تحصلوا على الدروس والعبر من تجربة الفشل، فإنّ السير على الخط الواحد من النجاح لا يصنع خبرة للرجال ولا يكشف نقاط الضعف في إيمان الرجل ومقدار التزامه ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(الحديد: ٢٢-٢٣).

ولهذا عندما شاهد الله الكفاية من المرور بتجربة الفشل التي مرّ بها المقاتلون عكس النتيجة إلى النجاح ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لا على استحقاق وإنّما هو محض التفضّل منه سبحانه ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، لأنّ النصر الثاني جاء بعد هزيمة كبيرة لا يتوقّع بعدها النجاح ضمن الأسباب الطبيعيّة، حيث كان المسلمون بعيدين كلّ البعد عن ساحة المعركة، وإنّ الهزيمة قد وصلت إلى مرحلة بحيث الرسول يدعو وينادي في أخراهم ـ أي آخرهم كان بعيداً عن الرسولﷺ ـ وهم غير مبالين لا بدعاء الرسولﷺ ومناداته ولا بغيره، بل هم مشغولون بالفرار والصعود والابتعاد في وادٍ، وصعود وتسلق إلى جبل بسبب الذعر الكبير الذي حلّ بهم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾، فتحويل النصر إلى المسلمين بعد هزيمتهم كان بأمر غير طبيعي، ومن جملة الأمر غير الطبيعي الذي عكس الله من خلاله نتيجة الحرب هو:

١ـ عملية الاستبدال، فعندما رأى الله الغم ـ وهي حالة تعتري الإنسان على ما أصابه من مصائب تحزنه بحيث تستر عنه أي أمر مفرح ويسمى المصاب بها إنسان مغموم ـ الذي أصاب بعض الهاربين منكم لما أصابهم والتفكير بخسارتهم وهزيمتهم أبدله الله بغم آخر وهو غم الندامة على فراركم وخوفكم من الله وغم الندامة والتحسّر على معصيتهم للرسولﷺ وتركه وحده في ساحة المعركة ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾ وهذا الغم الثاني لهو نعمة من الله وتفضّل منه سبحانه لهذا البعض، لأنّ الغم الأوّل مميت للإرادة وسبب لضعف الأعصاب والروح ولا يغيّر شيئاً من المعادلة ولا يستتبع تحريكاً وانبعاثاً نحو الهدف ومواصلة الطريق، بل يركّز التفكير على ما أُصيب به الإنسان ويجعله كتلة خامدة فهو من الغم المذموم بعكس الغم الثاني وهو غم الندامة، فإنّه يثير الحماس الأكبر ويزرع العزيمة والرجوع ومواصلة الطريق ويحوّل الضعف قوّة ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فالغم الثاني من الغم الممدوح، فكان الغم الثاني نعمة عظيمة أنعمها الله على بعضهم.

٢ـ أنزال النعاس، والنعاس المقدّمة للنوم التي تعتري الإنسان بحيث يؤثّر على جميع بدنه بالتحلل والفتور ممّا ينسي الغم الأوّل وما شغل أفكاركم ممّا أصابكم مِن المخالفة وممّا شغل نفوسكم من الحزن على ما فاتكم من ثواب الطاعة، أنزل عليكم النعاس وكأنّكم أصبحتم في أمن من كلّ حالة سلبيّة كانت تعتريكم، أنزل عليكم النعاس ليزرع في نفوسكم الاستسلام للقدر الذي قدّره الله لكم، أنزل النعاس بحيث أحاط وغشي البعض منكم حتّى صار كلّ شيء عنده كأنّه لم يكن، فتجدّد بذلك نشاط البعض منكم. فكانت نتيجة استبدال ذلك الهم وإنزال هذا النعاس بهذا الوقت وهذه الحالة أن رجع هذا البعض مرّة

أخرى إلى ساحة الميدان والمقاتلة وأبلى البلاء الحسن في المعركة، وبذلك أعيدت حياة النصر إليكم واستجمعت شروطه شيئاً فشيئاً حتّى كثرتم في أعين عدوّكم وتحوّل الضعف والغم إلى المشركين حتّى قرّروا الرجوع والتقهقر عنكم وعدم مقاتلتكم ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾.

١١ـ تعامل بعض المشتركين في القتال على أساس الربح، كانت هناك مجموعة أخرى منكم قد أهمتها نفسها ولم تفكّر بشيء يدخل عليها الغم والحزن ولا غير ذلك ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، ولهذا فهي بقيت على حالتها من الهزيمة وعدم الرجوع إلى المعركة ولم تشملهم نعمة استبدال الغم وإنزال النعاس، وهذا أمر مهم، ولكن الأهم منه هو الكشف عن نوعية اشتراكهم في القتال وهذه الوحدة العبادية المهمّة والدافع الذي يرمون إليه من خلال اشتراكهم في القتال وهذا له أثره في عملية نزول النصر، فإنّ بعض المشاركين منكم من الأوّل لهم حساباتهم الخاطئة وهم يتعاملون كمشتركين لا لله وفي سبيل الله وإعلاء كلمة الحق، بل هم ينتهزون فرص الانتصار ليحصلوا على المراكز الرفيعة والمناصب العالية ويكسبوا تعاطف الجماهير معهم والالتفاف حولهم بعنوان كونهم من المشتركين في الحرب، فليس لهم طمع في رضا الله ولا حصول على جنّته ولا تنفيذ لأمره، فهم باقون على ما هم عليه من الجاهلية قبل الإسلام حيث التفكير المادي والسقوط في الجشع والأنانية والانحراف السياسي، ولم يؤثّر الايمان في قلوبهم.

فإنّهم وإن كانوا محسوبين على الصف الايماني إلّا أنّهم من الناحية العملية هم على جاهليّتهم بدوافعهم وعملهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ فهم يفكّرون بالربح والخسارة المنطلقة من

تفكيرهم وحسّهم الماديّ، فهم يلهثون وراء ما يحصلون من الكسب المادي عند مشاركتهم في أيّ مشروع يقوده الرسولﷺ، وهذا الدافع ما لا يبدونه لأحد من الناس ولا للرسولﷺ لأنّ فيه فضحهم، ولمخالفته الصريحة للمنهجيّة الإلهيّة، فعدم إظهاره وكشفه لا يدلّ على عدم وجود مثل هذه العناصر ومثل هذا الدافع ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ولو اطّلع الإنسان على التأريخ لعثر على الشخصيّات التي انهزمت ووصلت بهزيمتها إلى المدينة ولم ترجع، ولعرف مَن هم المقصودون بهذا القول ومَن هم الذين يشملهم هذا الخطاب.

ليس الأمر والنتيجة من النصر وعدمه بيد أحد من الناس، وليس الربح والخسارة تمنح لأي أحد من الناس، فإنّ الله له الدخل في كلّ أمر لا يفرض عليه أحد نوع التصرّف الذي يريده ضمن رؤيته وحكمته سبحانه ولم يشاركه أحد في مطلق أمره، فانقل يا رسول الله هذه الحقيقة لهم ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أفقيام حياة كلّ شيء قائم به وحده وهو الذي يعطي ويأخذ ضمن ميزان عدله وحكمته ودقّة نظامه وتنظيمه، فليس الأمر كما يظنّون في أنّه هناك ربح دائم ونصر مستمر وغنائم موفورة وراحة منتشرة وترف حاصل ومراكز توزّع مجاناً، بل تجري الأُمور ضمن أسبابها ومسبّباتها وشرطها وشروطها، وإلا لكان الناس كلّهم مؤمنين ولا يوجد قانون الابتلاء والتمحيص.

ومن جملة الدليل أنّ فيكم ما هذا غرضه المادي الدنيء وأنّهم يبدون شيئاً ويخفون شيئاً آخر وهدفاً غير ما هو الظاهر من مشاركتهم في القتال ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ هو قولهم بألسنتهم الكاشف عمّا يضمره فؤادهم ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، فقولهم هذا يكشف عن

الأمور التالية:

١ـ أنّهم كانوا يفهمون الفكرة خطأً بحيث كانوا يفهمون أنّ كلّ قتال يشارك الرسولﷺ به فيكون على نصر وغلبة حتميّة.

٢ـ أنّ الذي يقاتل تحت راية الرسولﷺ لا يصيبه القتل.

٣ـ أنّ مشاركتهم مع الرسولﷺ لو وقعت على أي حال منهم وبأيّ دافع كان لابدّ أن يقع النصر.

٤ـ أنّ وقوع القتل فيهم دليل على عدم أحقيّتهم في الأمر الذي يدعون إليه، فلو كان الله ناصراً لهم كما يدّعي الرسولﷺ لما وقع القتل عليهم في المعركة.

٥ـ أنّ نتاج كل هذا التفكير والمعتقد الذي كانوا يعتقدون به أن يشاركوا مع الرسولﷺ في القتال على هذا الأساس الذي هم يعتقدون به من الربح والغلبة والنصر والكسب ولا شيء غير ذلك، فهم لا ينتظرون من نتائج الحرب إلّا جمع الغنائم والحصول على المراكز الدنيويّة ومناصبها، وهذا ما يضمرونه في أنفسهم ولا يبدونه للرسولﷺ، بل هو جارٍ في نفوسهم وخاصّة في جلساتهم وتخطيطاتهم.

يجيبهم الله على ما كانوا يفكّرون به ويعتقدون به خطأً بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، ونستنتج من هذا القول الأمور التالية:

أوّلاً: لم يكن هناك عهد إلهي قد قطعه الله على نفسه بأن لا يقع القتل في أيّ معركة يخوضها الرسولﷺ أو المسلمون بصورة عامّة.

ثانياً: أنّ وقوع القتل في معركة إسلاميّة لم يكن دليلاً على عدم أحقيّة الإسلام، بل هو قضاء يقضي به الله على مَن يريد أن يختاره شهيداً.

ثالثاً: أنَّ القتال كأيّ وحدة عبادية تجري ضمن قانونها وأسبابها الطبيعيّة، فالكسر والانكسار الذي يحصل في أيّ معركة يجري ضمن قانون (القوي يأخذ الضعيف) وإن كان هناك تدخّل ربّاني في معونة المؤمنين إلّا أنَّ تقدير هذا وكيفيته ومقداره أمر مختصّ به سبحانه وليس شيئاً مفروضاً عليه في كل معركة وإن اختلفت فيها الشروط والنوايا وسطحية المشاركة.

رابعاً: أنَّ الهزيمة من المعركة لا يعني تخلّصكم من الموت والقتل، فإنَّ أمر الموت راجع إلى قضاء الله، فلو كتب الله قضاءه أن يكون سبب موتكم هو القتل لبرز وظهر القتل عليكم وأنتم في مضاجعكم وإن لم تشتركوا بقتال، بل كنتم في بيوتكم وفي بروجكم المشيّدة وفي مأمنكم، فإنَّ قضاء الله لا يغلبه غالب ولا يمنعه مانع ولا يقهره قاهر في الأرض ولا في السماء، فمسألة قتل المقاتلين في أرض المعركة لا تخرج عن قضاء الله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٦٦).

خامساً: أنَّ القتال لا يخرج عن سنّة الابتلاء الثابتة للحياة بجميع جوانبها، فكما أنَّ مطلق السراء والضراء طريق لتمييز المؤمنين عن غيرهم فكذلك القتال طريق لتمييز المجاهدين عن القاعدين ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران:١٦٧)، وليختبر ما تكنّه الصدور من النيات والدوافع ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وليمحّص ويطهّر الله ما في قلوبكم من الضعف وعدم الثبات على الايمان أو ترقيته إلى أعلى درجات اليقين والثبات عن طريق الخوض في غمار الحرب والصبر على معاناته ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وهذا لا يعني أنَّ الله لا يعلم حالكم ونيّاتكم قبل

حصولها وما هي النتيجة التي تختمون بها حياتكم بل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وعليم بكلّ شيء، ولكن شاء الله أن يكون التميز والحساب على ما يصدر منكم فعليّاً وخارجاً ؛ لأنّ اختياركم له مشاركة فيه فلا يكون الحساب والتمييز على ما يعلمه سبحانه، وإن كان كل ما يعلمه لابدّ أن يقع لضرورة مطابقة علمه مع المعلوم كما ذكرنا ذلك مسبقاً.

١٢ـ وجود الشيطان ودوره السلبي في كلّ حركة غير مرضيّة، فلا يُبرّأ الشيطان أن يكون سبباً من أسباب هزيمتكم في المعركة وعصيانكم أمر الرسول ﷺ وأن تكون مشاركتكم بهذه الدوافع المختلفة. فإنّ الذين انهزموا وتولّوا منكم يوم أُحُد ويوم التقى به جمع المؤمنين وجمع المشركين قد استزلّهم الشيطان وجعلهم يخضعون لوسوسته من حيث لا يشعرون بأنّ في تفكيرهم الذي سبّب هزيمتهم قد خضعوا للشيطان وحركته في قلوبهم، وهذا لا يعني أنّ الشيطان له السلطة على هؤلاء، بل هم الذين استسلموا له بسبب ما كسبوا وحصلوا عليه من التنازل والخضوع لوسوسته لهم من التفكير بأنفسهم وعصيان رسولهم، وكان الشيطان يزيّن لهم هذا النوع من التحرّك والدوافع وهم يستسلمون لهذا التزيين، فكانت النتيجة أن يستزلّهم بما أوقعهم بما هو الأكبر من ذلك وهو الهزيمة التي ولّدت الانكسار ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، ولكن عندما أبدلناهم بغم آخر وصحوا على أنفسهم وندموا على ذلك ورجعوا إلى ساحة المعركة مرّة أُخرى ونشطوا لله فقد عفا الله عنهم وسوف لن يحاسبهم على هزيمتهم واستسلامهم لزلل الشيطان وممّا كسبوا ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

هذه هي أهم الدروس التي طرحها الله للمؤمنين في معركة أُحُد ليسمعها المؤمنون وهم يسيرون في خطِّهم الجهادي ضد أعدائهم، والتي تكشف هذه الدروس دقّة العلم الإلهي في كلّ شيء، حيث معركة أُحُد بهذا العدد القليل وبهذه المدّة وبهذه الساعات التي حدثت فيها المعركة. أنظر ماذا كشف الله لنا من خلالها من الأنواع المختلفة للدوافع والتجمّعات ونوع مشاركتها وسبب مشاركتها، وما هي الأُمور الطبيعيّة وغير الطبيعيّة التي حصلت فيها، وما هي كبريات الأُمور وصغرياتها كما اطّلعت على القليل منها ممّا عرضناه عليك عزيزي القارئ.

وإنّ هذا الميزان لم يكن مختصّاً بمعركة أحد بل هو النظام الجاري من الله في جميع أصعدة عمل العاملين في سبيل الله، وإنّ أيّ تعطيل لنصر الله وأنّ أيّ انكسار يحدث للمؤمنين لابدّ أن يكون هناك سبب من أنفسهم فعليهم مراجعة أنفسهم في كلّ مسير يعطّل وصولهم إلى هدفهم، وذلك من خلال دراسة هذه البنود والأسباب التي طرحها الله من تجربة معركة أُحُد التي جعلها الله عِبرة لمَن اعتبر، وهناك دروس أُخرى ستأتي في الآيات التالية إلّا أنّ أغلبها لا يخرج عمّا طرحه الله بهذه الآيات التي مرّت علينا وسيأتي توضيحها تبعاً إن شاء الله. فعلى المؤمنين أن يكونوا محيطين بكلّ مشروع إلهي من منهجية وشروط تتعلّق فيه. ويدرسوا أهم أسباب الفشل والنجاح ضمن الرؤية الإلهيّة للفشل والنجاح.

س: في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ...﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ لماذا اختصر الله في هذين القولين في التأكيد على المقاطع الأُولى دون الثانية مع عدم وجود خلل في المعنى لو زوّد الكلّ بلام التوكيد؟

اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

هذه من الكلمات التي تكون زيادتها ونقصانها لا يؤثّر على المعنى، فلو قال (وليعلم ...وليتّخذ) و (وليمحّص ...وليمحق) فكلّه تأكيد سوى أنّ الفرق في ذكر لام التوكيد فيه زيادة من التأكيد وعدم ذكرها ليس فيه تأكيد، ولكن في مثل هذا الاستعمال القرآني في أن يذكر لام التوكيد في محل ولم يذكره في محل آخر له نكتة مهمّة، حيث:

١ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ..﴾ قد سبقها حالة مستمرة وهي ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بالإضافة إلى علم الله غير المنقطع، وبالإضافة إلى إرادة الله في أن يطابق ما يعلمه بحدوث المعلوم خارجاً. فإذن كلّها حالة مستمرّة بدون انقطاع أو تخلّف، فجاءت هذه الزيادة من التوكيد للزيادة في المفهوم وهو الاستمرار، بينما نجد في ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فهي ليست حالة مستمرّة كالأُولى، بل هي منقطعة، فليس كلّ معركة أن يتّخذ الله منهم شهداء ولا هي شاملة لكلّ مَن اشترك، بل لبعضهم ﴿مِنكُمْ﴾، فجاء المقطع وهو مقطوع من لام التوكيد لانقطاع الحالة وأنّها غير مستمرة.

٢ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ..﴾ فالتمحيص قانون إلهي مستمر وشامل لكلّ النّاس، فجاء بزيادة في التوكيد بلامه، بينما في قوله ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ليست حالة مستمرّة وشاملة لكلّ كافر، بل يتوقّف المحق على شروط لا يعلمها إلّا هو، فجاء القطع من التوكيد لعدم استمرار هذه الحالة وشمولها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران:١٥٦-١٥٨).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ ضرب الأرض: الذهاب فيها وضربها بالأرجل.

٢ـ غزى: محارب العدو.

٣ـ الحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه.

س: ما هو تفسير مجموع الآيات الثلاث المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

خطاب الله للمؤمنين يحذّرهم بأن لا يكونوا كالكافرين، وليس هذا الخطاب هو الأوّل ولا الأخير، بل سوف يكرّره الله كثيراً. وفي كلّ خطاب هناك جهة يمتلكها الكافرون يريد الله أن يكشفها للمؤمنين حتّى يحذّرهم من الوقوع فيها وألّا يشاركهم المؤمنون بها. والكافرون هم مطلق الكافرين سواء في الاعتقاد من الجحود أو في العمل من العصيان.

ثانياً: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا

مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾

هذه هي إحدى الجهات التي يمتلكها الكافرون وهي قولهم الناتج عن خطأ في التفكير الذي له المساس في العقيدة بالله سبحانه وتعالى، وقولهم هو: إنّ بعضاً ممّن له علاقة بهم قد خرجوا من البلاد من أجل الضرب وكسب العيش أو من أجل أنّهم يريدون القتال في سبيل الله وقد أصاب بعضهم الموت أو القتل، هؤلاء الكافرون يقولون لمَن حولهم من إخوانهم نسباً أو سبباً: إنّ الذين خرجوا لو كانوا عندنا ولم يخرجوا ما ماتوا وما قتلوا.

ومجمل معنى هذا القول الكاشف عن الاعتقاد الخاطئ أنّهم يرون أنّ الأسباب تجري بصورة مستقلّة عن الله وليس لها ارتباط به، فإنّ الموت أو القتل حصل ضمن أسبابه الطبيعية فقط ومن دون إذن الله وقضائه به، فكلّما لجأ الإنسان إلى أسباب الأمن فالقتل أو الموت يبتعد عنه، هكذا قالوا وهذا مجمل تفكيرهم.

قالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

أنّ الذي يعيش الحياة يعرف يقيناً أنّ مسألة الموت والحياة لا تخضع لوجود المأمن نعم، اللجوء إلى المأمن والأسباب الآمنة تقيك من الحذر وتخلّصك من بعض ما قدّره الله عليك ولكنّها لا تخلّصك من قضاء الله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(الأعراف:٣٤)، وهذه الحقيقة يذعن لها كلّ إنسان جاهل أو عالِم نتيجة ما يشاهده من الموت والحياة الذي يصيب الناس وأنّه مظهر يومي يعيشه كلّ إنسان، وعلى الرغم من هذه الحقيقة واليقين الذي يعيشه كلّ إنسان يأتي هؤلاء الكافرون ليمكسوا هذه الحقيقة ويزرعون الشك عند الإنسان ويستغفلون بعض السذّج من الناس في فهم القضاء الإلهي.

وعكس هذه الحقيقة وهذا اليقين لدخول القضاء الإلهي في الموت والحياة بقولهم هذا لا يكشف إلّا عن خبث سريرة وسوء نيّة يمتلكها الكافرون، وقد يكون أنّهم اتهموا الرسول ﷺ بأنّه هو سبب في القتل الذي حصل في معركة أُحُد. فهم على أيّ حال لا يستحقّون الرد لأنّ الحقيقة واضحة وأنّ اللجوء إلى المأمن لا يخلّص مِنَ الموت الذي قضى الله به ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وإنّما يستحقّون التقريع والتنكيل على قولهم، حيث كلّما ذكروا موتاهم أو قتلاهم تحسّروا، أو لكون الموت والحياة من الوضوح بارتباطه بعالم الغيب وهم لا يريدون ذلك للناس في أن يرتبطوا بعالم الغيب، فيتحسّرون، فيقول الله: لتبقى هذه الحسرة في قلوبهم تنكيلاً بهم، وأنّهم لا يحصدون من وراء قولهم هذا إلّا الحسرة التي تؤذي قلوبهم، وأمّا الحقيقة بالإيمان بقضاء الله بالموت وفي كلّ أمر فإنّها هي الباقية وهي التي يذعن لها كلّ عاقل ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصير بعملكم وبصير بنيّاتكم ودوافعكم في كلّ قول تقولونه، فاحذروا الله بأعمالكم وأقوالكم وما تتبنّونه من الأفكار.

رابعاً: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾

خطاب للمؤمنين يحمل التشويق، ويحمل الميزة التي تميّزهم عن الكافرين، فإنّ المؤمن ميزته عن غيره أنّه يؤمن بالله وبالمعاد إيماناً قاطعاً، ويتعامل مع الدنيا على أنّها دار ممر وأنّ الآخرة دار مقر، فما أحلى أن يرحل الإنسان المؤمن من الدنيا وهو إمّا مقتول في سبيل الله، أو ميّت كذلك، ذلك حينما يموت وهو محافظ على إيمانه، مطيع لله ولرسوله ﷺ، ملتزم بما جاء به كتابه السماوي، فإنّ مثل هذا القتل وذلك الموت مطهّر له من الذنوب ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ﴾، ومنال لرحمة الله من

نعيمه الذي يحصل عليه الإنسان المؤمن فيما بعد الموت من عالَم القبر وما بعد الحساب ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، وكلّ ذلك لهو أفضل ممّا يجمعه الناس من حطام الدنيا لأجل الدنيا مهما كان كثيراً ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وما أحلى تلك الفرصة أن يلتقي الحبيب مع حبيبه، وما أحلى تلك اللحظات التي يلتقي فيها المرحومون مع رحيمهم والمخلوقون مع خالقهم والمربوبون مع ربّهم ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيوم الجمع والحشر هو الذي ينتظره المؤمنون وهو اليوم الذي عاش المؤمنون في الحياة الدنيا من أجل الوصول إليه، وهو اليوم المحبوب عندهم لأنّه حشر إلى الله، وهو اليوم المترقّب الذي يترقّبونه بفارغ الصبر لأنّه حشر إلى الله الذي يثيبهم بأحسن ممّا كانوا يتصوّرون، وهو اليوم الذي ينتظره المظلومون ليأخذوا حقّهم ممّن ظلمهم، فلا يمنعنّكم أحد من قتال مادام في سبيل الله، ولا يمنعنّكم أحد ضرباً في الأرض مادام في سبيل الله، ولا يمنعنّكم أحد في أيّ مشروع تجدونه يتّصل بسبيل الله، ولا تستوحشوا الطريق لقلّة سالكيه، ولا تنظروا إلى ما يجمعه المترفون البعيدون عن سبيل الله فيقلّل ذلك في هممكم وعزيمتكم ويزرع في نفوسكم الذلّة والهوان والركون والتثاقل إلى الأرض.

ولا تكونوا كالذين كفروا فتلتقوا معهم عمليّاً في بعض الجهات التي تنافي معتقداتكم وطريقتكم الإيمانيّة المثلى في الحياة ونظرتكم إلى ما بعدها، فإنّ لكم مميّزاتكم ولكم طريقتكم الفكريّة والعمليّة التي تختلف بجوهرها ومصطلحاتها عن الآخرين الذين لا يعتقدون بما تعتقدون أنتم بـه، أو لا يسلكون سلوككم الذي تسلكونه في الحياة الذي يمثّل منهجية الله.

س: لماذا يكرّر ويجمع الله (القتل) و (الموت) في خطاب واحد في هذه الآيات التي مرّت علينا مع أنَّ القتل هو أحد أسباب الموت، فذكر الموت يكفي؟ اذكر المحتملات من الجواب على ذلك.

ج:

١ـ أن تكون الآيات من حيث النزول متّصلة مع الآيات السابقة التي نزلت لمعركة أحد، وأنَّ المخاطبين من المقاتلين، كما أنَّ الحالة النفسيّة التي كان يعيشها المقاتلون هي حالة فقدانهم لكثير من الشهداء، فكان تكرار القتل مع الموت من أجل أن يفتح الله قلوبهم إلى القتل ويشوّقهم عليه لا أن يكون محط غمّ وهمّ على نفوسهم.

٢ـ يريد الله أن يركّز عملية القتل في القتال على أنّها لا تنفصل عن قضائه، فليس كلّ مَن اشترك في قتال فقد قتل، وليس القتال سببه القتل وإنّما قضاء الله هو السبب من ورائه، فإذا ركّزت هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين فسوف يكون البروز إلى القتال كحالة طبيعية يتعامل معها المؤمنون كأي وحدة عبادية لا تستجلب لهم الغمّ أو الهم أو الخوف.

٣ـ ليعطي الميزة في الشرف والفضيلة للقتل في سبيل الله الذي هو أفضل عند الله من ميتة على فراش.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ اللين: السهولة والطراوة.

٢ـ الفظّ: الخشونة والشراسة في التعامل.

٣ـ الغليظ: السميك، ويراد منها هنا قساوة القلب.

٤ـ الإنفضاض: التفرّق.

٥ـ التشاور: اجتباء الرأي واستخلاصه من الغير بعد المداولة والمناظرة والبحث فيه، والمشورة مأخوذة من: شرتُ العسلَ إذا اجتبيته واستخرجته من مكانه الذي فيه.

٦ـ الأمر: المراد منه هنا كلّ ما كان مهماً وجديراً بالاهتمام به.

٧ـ العزم: وهو أحد مقدّمات الإرادة التي يتمّ بواسطتها عقد القلب على الشيء المراد فعله.

٨ـ التوكّل: تفويض الأمر.

س: ما هو المحتمل من تفسير الآية المذكورة أعلاه؟

ج:

أوّلاً: ﴿فَبِمَا﴾

١ـ الفاء: لها ارتباط بما سبق من الآيات، فهي لترتيب الكلام الآتي على ما سبقه من الكلام.

٢ـ الباء: للسبب أو للواسطة.

٣ـ ما: بمعنى الشيء، والرحمة بدل منه، أو أن تكون استفهاميّة للتعجّب.

ثانياً: ﴿رَحْمَةٍ﴾ التنوين هنا للتفخيم وعظمة تأثيرها على شخصيّة الرسولﷺ ووجودها فيه.

ثالثاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

هذه هي معركة أُحُد قد انتهت، وهذه نتيجتها قد بانت، وهذه أسبابها قد توضّحت، وهاهي العناصر المقصّرة أمامك أيّها الرسولﷺ، فمنهم مَن انهزم وفرّ من الزحف، ومنهم مَن عصاك، ومنهم مَن اتّهمك، ومنهم مَن كان سبباً غير مباشر في شجّ رباعيتك، ومنهم مَن خذلك برجوعه في وسط الطريق، ومنهم مَن حرّض البعض على عدم المشاركة معك، وهاهم أمامك ممّن سبّب كلّ تعكّر وتقهقر في المعركة، وكلّهم ـ من غير الشاكرين ـ يستحقّون العقوبة أو التنكيل أو الحد، كلّ حسب ما قدّمه من العمل المخالف لله ولرسوله، وأنّ كلّ مخالفة لها حكمها وجزاؤها الخاص في الإسلام، فماذا ترى يا رسول اللهﷺ في أن تعمل بهم؟ فلو اطّلعنا على قلب الرسولﷺ في تلك اللحظات لرأيناه يمتلئ عطفاً وحناناً عليهم، وحبّاً بهم، لا يحمل ضغينة عليهم، ولا يكره أحداً منهم، ولم يكن من نيّته أن يترك أحداً منهم، فكان العفو والصفح عنهم يملأُ قلبه على الرغم من موقفهم هذا والأذى الذي سبّبوه له، فهو صاحب القلب اللين، وهذا القلب الذي حصل عليه الرسول الذي كلّه رحمة للعالمين كان سببه الله سبحانه وتعالى الذي صنع محمّداً وخلقه من

رحمته سبحانه، وأدّبه بأدبه الإلهي الخاص، ورعاه برعايته الخاصّة، وبواسطة ما أفاض الله عليه من فيوضاته، فصار الرسولﷺ عند ذلك أفضل مَن جسّد صفات الله على الأرض، وأفضل مَن مثّل الخلافة العامّة والخاصّة على الأرض، وأفضل من أبرز إنسانيّة الإنسان على الأرض، وأفضل ربّانياً على الأرض، وأفضل مَن ائتمن على صفات الله التي منحها أيّاه فعمل بها كما أرادها الله منه، وعلى ذلك استحقّ المدح الإلهي في هذه الآية وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

ففي هذا الموقف الذي يثير الشجون ويملأ القلوب غيظاً وحقداً وعصبيّة ولوماً وتعنيفاً تجد الرسولﷺ وقلبه على العكس من ذلك، حيث قلبه اللّين مع جميع الأصناف، فالذي جمع الناس من حولك وصدّقوا بك وبرسالتك لا الفكر العالي الذي تحمله رسالتك فحسب، بل أخلاقك ساهمت المساهمة الكبرى في إيمان الناس والتصديق بك وبرسالتك. فلو حصل العكس فرضاً بأن كنت صلب القلب قاسياً وكانت قد سبّبت هذه القساوة الغلظة والخشونة في المعاملة وصرت حديّاً لا تعرف الرحمة والعطف والحنان وقابلت الإساءة بمثلها، لم يبقَ أحد معك يؤمن بك وبرسالتك ولتفرقوا عنك ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، ولكن أخلاقيّة القائد لها الدور الكبير في جلب قلوب الناس والالتفاف حول قيادتهم النبويّة ورسالته، ويحتاج المجتمع في كلّ تحرّكه الاجتماعي والعسكري والسياسي إلى قائد يتميّز عن الآخرين بتحمّله وانشراح صدره وحبّه للذين يقودهم أكثر ممّا يحب لنفسه ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٢١٥).

هذا هو رسول الرحمة ورحمة الرسولﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولكن إلى جانب كلّ ذلك توجد أحكام شرعيّة يجب على

الرسولﷺ أن يطبّقها كمعاقبة الفارّين من الزحف، وكالذين تركوا أماكنهم ومواقعهم في القتال وغير ذلك من الأُمور التي استحقّوا الجزاء عليها، وتطبيق الحكم الشرعي ليس له علاقة بالمشاعر والقلوب اللينة، بل الرسولﷺ أولى من غيره في تطبيق الأحكام الشرعيّة، كما أنّ نفس تطبيق الحكم الجزائي لا ينافي اللين القلبي وحبّه وعطفه؛ لأنّ أحكام الجزاء وضعت وشرّعت من قبل الحنّان وصاحب الرحمة الذاتية وهو الله تبارك وتعالى، كما أنّ إجراء الحكم الجزائي هو صورة من صور الرحمة الإلهيّة على المخالف لما فيه من التطهير وتحديد للجريمة وعدم الرجوع إليها من قبل المخالف، ولما فيه من التخلّص من الأثر الأُخروي الذي تتركه الجريمة، هذا هو جوهر تشريع الأحكام الجزائيّة في الإسلام، وما أمام الرسولﷺ إلّا تطبيقها.

هنا جاء جواب الله على هذا الإشكال والسؤال، حيث الأمر بالعفو والصفح جاء من الله المنسجم للين قلب الرسولﷺ والممضي لما يريده الرسولﷺ من السلوكيّة بالعفو والصفح لهذه الحالة الخاصّة والتجربة الجديدة من الفشل الذي مرّ به المؤمنون في معركة أُحُد ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨).

فالذي حدث منهم هو إمّا تعدٍّ بما هو مختصّ بشخصيّة الرسول وحقّ له، وإمّا أن يكون تعدّياً على حق لله كمعصية لحكم شرعي. فأمّا ما يتعلّق بالأوّل ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، وأمّا ما يتعلّق بالثاني ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فإنّ مَن استغفرت له يغفر الله له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(النساء:٦٤)، أو أن يكون ما صدر منهم كلّه تعدّياً يرجع إلى حق الله؛ لأنّ ما يمس الرسولﷺ يمس

الله، فهنا جاء الأمر من الله بالعفو وعدم إجراء العقوبة على المخالفين والأمر بالاستغفار لما يترتّب على المخالفة في عالَم الآخرة، فهو عفو عام شامل من الله يشمل جميع الأصناف وجميع المخالفات وعن جميع الجزاء والآثار لحالة خاصّة.

● **الشورى وأثر التشاور في الأمر**

رابعاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

وهناك سيرة كنت تسير عليها يا رسول الله ﷺ، وهي أنّك تشاور القوم وممّن هم أهل للمشورة في الرأي، ولم تكن من طبيعتك أن تتفرّد في الرأي على الرغم من يقينك بصحّة رأيك وإصابته للواقع وعدم حاجتك لغير الله، ومن فوائد هذا النوع من السيرة للرسول ﷺ في مشورة الآخرين هي:

١ـ لتشعر الآخرين بمساهمتهم الفعليّة في صنع المشروع الذي تريد أن تقدم عليه.

٢ـ لتشعر الآخرين بفعلية وجودهم كأصحاب ورفقاء درب يحملون ما تحمل ويهتمون بما تهتمّ به لتصنع منهم حركة فعّالة في داخل العمل.

٣ـ لتشعر الآخرين باحترام رأيهم وعقولهم وما يحملون من معرفة وخبرة في مجال اختصاصهم.

٤ـ لتصنع في شخصيّتهم الكفاءة على الأمر القيادي وكيفية إدارة الجلسات ومعاناة استخلاص الرأي والموقف لتشعرهم بمسؤوليتهم.

٥ـ لتعلّمهم كيف يتنازل صاحب الرأي عن رأيه عندما يرى الأكثر مخالفين له.

٦ـ لترسم لهم منهجاً مستقبلياً في كيفية اتّخاذ القرار، وإنّ القرار المتّخذ كان نتاج العقل الجمعي والمشورة وليس نتاج شخص قد تفرّد برأيه والذي يكون فيه نسبة الوقوع في الخطأ أكثر من غيره، ورد عن الإمام الحسن ﷺ أنّه قال: «قد

علم الله أنّه ما به حاجة ولكن أراد أن يستنّ به من بعده»[١].

٧ـ لتضع الحصانات التي توقع القائد في أمراض الأنانيّة والجبروت والعُجب والاستبداد، فإنّ المشورة مانعة للأمراض التي تصيب القيادة الإسلاميّة.

٨ـ لتعرّف الجميع أنّ في الشورى تزداد الثقة بين أفراد القيادة أنفسهم وبين القيادة والأُمّة من جهة أُخرى.

٩ـ لتعرّف الجميع أنّ الشورى مشروع ضروري وحضاري وأنّه سمة المجتمع المسلم منذ اللحظات الأُولى للدعوة الإسلاميّة.

١٠ـ لتعرّف الجميع ألّا يبقى الفرد منهم رهين رأيه وموقفه، بل هناك آراء ونظرات أُخرى لابدّ أن يطّلع وينفتح عليها ليكتشف من خلال تفكير الآخرين ضعف أو قوّة رأيه.

١١ـ لتعرّف الجميع أنّ الذي يخطأ في التنفيذ جهلاً أو عصياناً لحالة من الحالات التي خضع لها لا يعني طرده من ساحة العمل؛ لأنّ الكل غير معصومين من الزلل، فليس المفروض على القائد أن يعفو ويصفح عمّا اقترفوه من الخطأ فحسب، بل عليه أن يدخلهم في الشورى إذا كان منهم من هو أهل لذلك. فإنّ التعامل بالاتّجاه الحدّي الواحد قد يفقد الكثير من العاملين ولا يحصدالتفرق والتمزق بين صفوف الأُمّة.

١٢ـ لتعرّف القيادي المتصدّي أنّ مشروع الشورى هو سنده الذي يتّكئ عليه القائد، وأنّه عنصر قوّة له؛ لأنّ من مهام الشورى هي سند القيادة والحاكم الشرعي، وإنّ نجاح الشورى في عملها هو نجاح للقيادة وضمان لاستمرار بقائها على

---

(١) السنن الكبرى ١٠٩:١٠.

رأس السلطة، فعملية الاستبداد التي يقع فيها القائد ليست من صالحه بأيّ وجه، ورد عن الإمام الصادق‌ﷺ أنّه قال: «لا يطمعن القليل التجربة المُعجَب برأيه في رياسة»[1].

ومن أجل هذه الفوائد التي تترتّب على الشورى والمشورة، وإنّ الرسول‌ﷺ سائر عليها، فجاء الأمر الإلهي إلى الرسول‌ﷺ وهو ممضي على ما كان الرسول سائراً عليه من المشورة ومؤكّداً لها ومقرّراً لها، ليؤسّس بذلك مشروع الشورى الحضاري على الرغم من أنّ المجتمع الجاهلي تعوّد أن يعيش حالة استبداد الرأي من قِبَل الراعي والاستعباد من قِبَل الرعيّة، وبهذا تكون الشورى أساساً خالداً في الشريعة الإسلاميّة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وإذا قرّرت أحدَ الآراء وعقد قلبك على أنّه هو الصحيح والصالح والصائب، هذا لا يعني الوقوع كما هو وعلى ما قرّرتموه وعلى تصوّراتكم واستقرائكم لأسباب النجاح وفشله، فإنّ المشورة سبب من الأسباب التي لا تنفصل عن الله وعلمه وحكمته وقدره وقضائه.

ولهذا يحتاج الإنسان بعد كلّ عزيمة على شيء أن يتوكّل ويفوّض ما عزم عليه إلى الله، وأن يتوسّل بالله ويدعوه أن يوصله إلى ما يروم إليه كما يأمله، وإلا فالموانع كثيرة وحدوث الشيء غير المتوقّع والنادر وارد ومتوقع، ولا علم كامل وتام بهذه الأمور وغيرها إلّا لله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ لأنّ التوكّل بهذا الشكل الواعي الذي جاء بعد دراسة الأمر وإحاطته من جميع جوانبه واستحكامه وضبطه هو التوكّل المراد لله والمحبوب عنده، وإنّ الله يحب المتوكّلين عليه بعد بذل جهد ونشاط عقلي منهم وجاء بعد حركة وسعي واهتمام بالأمر، وإنّ الله إذا أحب قوماً

---

(١) الخصال ٢٠/٤٣٤.

كان ناصرهم ومنجزاً لما يأملونه منه ويكونون تحت رعايته، يدفع عنهم البلاء، ويخلّصهم من الكثير من المكاره ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، ورد عن الرسول ﷺ عندما سُئِلَ عن الحزم؟ أنّه قال: «مشاورة ذوي الرأي واتباعهم»[١].

وهناك احتمال ثانٍ لمعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ وهو أنّ في الأمور التي تحتاج إلى الحزم والفصل والقوّة في القرار من أجل أن ينقذ الموقف من الخلافات فهنا من حق القائد أن يصدر القرار لحسم الموقف.

س: ما هو المقصود من (الأمر) في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾؟

ج:

الأمر هو ما يعمّ الشؤون المهمّة التي تدخل في حياة الفرد أو المجتمع أو الحكومة وفي جميع شؤونها الاجتماعيّة والسياسيّة وخصوصاً العسكريّة. وقد استعمل القرآن والسنّة لفظ الأمر كثيراً في مورد الحكومة والسلطة ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٥٤)، ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الإنفطار:١٩)، ورد عن أميرالمؤمنين ﷺ أنّه قال: «..فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة ...»[٢]، وعن الإمام الحسن بن علي ﷺ في كتابه إلى معاوية أنّه قال: «ولاّني المسلمون الأمر بعده ...»[٣].

س: ما هو التعريف الاصطلاحي للشورى؟

ج:

الشورى: طرح قضيّة وأمر من الأمور على الغير ومشاركته فيه بالتداول

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٣٩/١٥٥٨٢.

(٢) نهج البلاغة ١: ٣٦.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٦: ٣٣.

والمناظرة والأخذ والرد حتّى ينضج الرأي والموقف الصحيح والمستحكم والمدروس من أغلب جهات البحث فيه.

س: هل تختص الشورى بشريحة معيّنة أم هي مشروع عام؟

ج:

الذي ينظر إلى النصوص الشرعيّة من كتاب أو سنّة التي ذكرناها في هذا البحث يجد الشورى مشروعاً إلهياً عاماً يشمل الفرد في قضاياه الشخصيّة والمجتمع في قضاياه الخاصة والعامة، ويشمل جميع مؤسساته حتّى الأُسرة من المجتمع، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ (البقرة:٢٣٣)، ففي الآية حثٌّ وترغيب على المشاورة بين الأبوين حتّى في شؤون الطفل عند فطامه من الرضاعة وفصاله عنه، فيطرح كلّ واحد منهما وجهة نظره مع مراعاة الوضع الصّحي للأُم والطفل والحالة المالية للأب، وبهذا تكون نتيجة التشاور التراضي بين الطرفين وكلّ واحد منهما يمتلك القناعة الكافية في القرار.

س: ما هو نوع الحكم الشرعي المتعلّق بالمشورة والتشاور؟

ج:

قد يختلف الحكم الشرعي للمشورة باختلاف موردها، فهي قد تنقسم إلى الأحكام الشرعيّة الخمسة بالتوضيح التالي:

١ـ الحكم الشرعي الأوّلي للمشورة والتشاور هو الاستحباب لما مرّ من الكتاب والسنّة التي تحمل الطلب المطلق للمشورة.

٢ـ قد تجب شرعاً في بعض الحالات والأُمور المهمّة وكبرى القضايا الإسلاميّة.

٣ـ قد تكون المشورة حكماً إرشادياً، يرشد للأصح من الرأي وإلى الفوائد المترتّبة

على التشاور، ومورد ذلك الكثير منه في القضايا الشخصيّة فهو أمر مباح للمكلّفين.

٤ـ قد تكون المشورة مكروهة شرعاً عندما يتشاور الإنسان مع مَن هم ليسوا أهلاً للمشورة كما سنطرح نماذجاً منهم حسب ما ورد في الروايات.

٥ـ قد تكون محرّمة عندما يتشاور المؤمن مع المشركين والكفّار على أساس أخذ الرأي والاسترشاد منهم.

س: لماذا لم يكن خطاب ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ إشارة إلى خطأ من الرسول ﷺ حيث عندما اختلف الأصحاب في أن يكون القتال داخل المدينة أو خارجها لبس الرسول ﷺ لامة حربه وقال كما ذكرت في قصّة أُحُد هذه العبارة من قول الرسول ﷺ: «لا ينبغي لنبي لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين عدوّه»[1] فهو بذلك لم يهتم بمشورتهم، فهنا جاءه الأمر بالمشورة، وخصوصاً إذا لاحظنا أنّ هذه الآيات وما سبقها كانت دروساً ومحلّ تصحيح لما أخطأ به الآخرون؟ اذكر الجواب المحتمل لذلك.

ج:

١ـ أنّ الرسول ﷺ لا يخطأ لأنّه معصوم، وأنّ قوله المذكور قول وحي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣ـ٤).

٢ـ لو قرأنا قول الرسول ﷺ المذكور بإمعان لرأينا أنّه حكم شرعي ومن مختصّات الرسول ﷺ ومثل ذلك ليس من صلاحية دخول المشورة فيها؛ لأنّ المشورة

---

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٣٨.

لها حدودها فلا تشمل الأحكام الشرعية ولا ما كان من مختصّات الرسولﷺ ولا ما كان وحياً، لأنّه تشريع من الله وليس للإنسان دخل فيه، وحاكمية الله ورسوله والإمام لا يسقطها شيء، وما كان غير ذلك فتدخل فيه المشورة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب: ٣٦)، ورد عن أميرالمؤمنينﷺ ـ حين كلّم طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بهما ـ أنّه قال: « ...والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ...فلمّا أفضت إليَّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتّبعته، وما استنَّ النبيﷺ فاقتديته، فلم احتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته، فأستشيركما وإخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما»[١]، وعنه أيضاً: «قلت: يا رسول الله، إن عرض لي أمر لم ينزل فيه قضاء في أمره، ولا سنّة، كيف تأمرني؟ قالﷺ: تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين ولا تقضي فيه برأي خاصّة»[٢].

س: إذا كانت الأحكام الشرعيّة خارجة عن الشورى فما هي صلاحية الشورى التي تتحرّك فيها ويكون من اختصاصها؟

ج:

أنَّ الشورى بما أنّها تجمع المؤمنين وتسعى لتطبيق حكم الله، فتكون صلاحيتها

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٨٤/٢٠٥.

(٢) كنز العمال ٥: ٨١٢/١٤٤٥٦.

لا تخرج عن آلية تطبيق الحكم وتشخيص موضوعاته وتتّخذ الأُسلوب الأحسن في التطبيق والعمل، فهي دائرة تنفيذيّة لا تشريعيّة، ورد في الحديث: أنَّ الرسولﷺ أراد أن يفت بعضد الأحزاب في معركة الخندق بأن يصالح كبير غطفان على سهم من تمر المدينة فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقالا: يا رسول الله، إن كنت أُمِرت بشيء فافعله وامض له، وإن كان غير ذلك فو الله لا نعطيهم إلّا السيف. فقال رسول اللهﷺ: لم أؤمر بشيء، ولو أُمرتُ بشيء ما شاورتكما، بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع إلّا لأنّني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كلّ جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما. وسُرّ رسول الله بقولهما. فقال لعيينة بن حصن ورفع صوته بها: ارجع فليس بيننا إلّا السيف(١).

س: قالوا: إنّ الشورى تدخل في ملء الفراغ الذي تركته الشريعة من الأحكام الشرعية، فهي تدخل في تعيين الحكم الشرعي لا في التنفيذ فقط كما قلتم، ما هو ردّكم على هذا القول؟

ج:

لم يترك الشارع شيئاً إلّا وقد بيّن فيه الحلال والحرام، وليس هناك شيء ولله فيه حكم شرعي، كما ورد ذلك عن الإمام الباقرﷺ. والحكم الشرعي إن لم يكن فيه نصّ من كتاب ففيه نصّ من سنّة المعصوم، وإن لم يكن كذلك فهناك قواعد فقهيّة وأُصوليّة قد وردت عن المعصوم هي المسؤولة عن ملء الفراغ. وإدارة هذا النوع من العمل يقوم به ذوو الاختصاص من علماء الدّين أو وليّ أمر المسلمين إن كان مبسوط اليد. وعليه لا يوجد فراغ حتّى نحتاج إلى مَن يملأه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٣٩.

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة:٣).

س: مَن هم المعنيون بالتشاور وأهل للمشورة وأخذ الرأي منهم؟

ج:

١ـ العاقل، الذي يمتلك النضج في الفكر وعمقاً في التفكير، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «مشاورة العاقل النّاصح رشد ويمن وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك النّاصح العاقل فإيّاك والخلاف فإنّ في ذلك العطب»[١]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «شاور ذوي العقول، تأمن من الزلل والنّدم»[٢].

٢ـ المؤمن الذي يخاف الله ويخشاه، بحيث تكون مشورته تدلي بالإنسان المستشير إلى ما يريده الله، ولا يعطي الرأي إلّا بعد تأمّل ودراسة القانون الشرعي، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «شاور في حديثك الذين يخافون الله»[٣]. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «شاور في أمرك الذين يخشون الله»[٤].

٣ـ صاحب التجارب، الذي يعطي الرأي الصحيح انطلاقاً من التجارب التي مرّ بها، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أفضل مَن شاورت ذو التجارب»[٥].

٤ـ أصحاب العلم المختصّين بالأمر الذي يراد الاستشارة منهم، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «خير مَن شاورت، ذوو النّهى والعلم وأولو

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٤٢/١٥٥٩٥.

(٢) غرر الحكم: ٤٤٢/١٠٠٧٨.

(٣) وسائل الشيعة ١٢: ٤٢/١٥٥٩٣.

(٤) مستدرك الوسائل ٨: ٣٤٣/٩٦١٥.

(٥) غرر الحكم: ٤٤٢/١٠٠٧٥.

التّجارب والحزم»(١).

٥ـ أن يكون المستشار من أهل كتمان السّر إذا كان الأمر يحتاج إلى ذلك، ورد عن الإمام الصادق‌عليه‌السلام أنّه قال: «إنّ المشورة لا تكون إلّا بحدودها الأربعة ... فأوّلها: أن يكون الذي تشاوره عاقلاً، والثاني: أن يكون حرّاً متديّناً، والثالث: أن يكون صديقاً حميماً، والرابع أن تطلعه على سرّك فيكون علمه به كعلمك، ثمّ يسرّ ذلك ويكتمه ...»(٢).

٦ـ ألّا يكون المستشار ممّن يتعاطف مع هوى المستشير ليعطي المستشار النتيجة على ما يريده المستشير من الأمر فلا يكون نظره إلى نفس الأمر والموضوع، ورد عن الإمام الصادق‌عليه‌السلام أنّه قال: « ...وخف الله في موافقة هوى المستشير، فإنّ التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة»(٣).

س: ما هي أهم الأمور التي يجب على المستشير الالتفات إليها؟

ج:

١ـ أن يختار المستشير في استشارته للمستشار ممّن يتّصف بإحدى أو أكثر من الصفات التي ذكرناها من العقل ومخافة الله ومن أهل العلم ومن أصحاب التجربة في الحياة.

٢ـ أن يختار المستشير ممّن له علاقة حميميّة ومحبّة بينه وبين المستشار، أي ألّا يكون المستشار عدواً للمستشير.

---

(١) غرر الحكم: ١٠٠٧٦/٤٤٢.

(٢) المحاسن ٢: ٢٨/٦٠٢.

(٣) مستدرك الوسائل ٨: ٩٦١٩/٣٤٥.

٣ـ أن تكون هناك قناعة يمتلكها المستشير بأنّ المستشار أهل للاستشارة، حتّى يأخذ المستشير ما يمليه عليه المستشار، ورد عن الإمام الصادق‌ﷺ أنّه قال: «لا تشاور مَن لا يصدّقه عقلك، وإن كان مشهوراً بالعقل والورع»[١]. وورد عن علي بن الحسين‌ﷺ أنّه قال: «..وأمّا حق المشير عليك فلا تتّهمه فيما لا يوافقك عليه من رأيه إذا أشار عليك، فإنّما هي الآراء وتصرّف النّاس فيها واختلافهم، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتّهمت رأيه، فأمّا تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممّن يستحق المشاورة ...»[٢].

٤ـ أن يطلع المستشيرُ المستشارَ على تفصيلات الأمر ولا يخفي عليه شيئاً حتّى يعلم المستشار ما يريده المستشير ويكون محيطاً بالأمر ويكون جواب المستشار على ما أحاط به من العلم وإلا يكون جواباً ناقصاً وسببه المستشير حيث لم يحطه بتفصيلات الأمر.

٥ـ أن يكون الأمر من الأمور المهمّة التي تدخل في حياة المستشير.

٦ـ أن يكون المستشير غير قاطع بالأمر ولم يكن على إحاطة تامّة به، وهذا العامل يختصّ بالأمور الشخصيّة لا في الشورى الجماعيّة التي قد يرى كلّ عضو فيها أنّه قاطع برأيه، ورد عن أميرالمؤمنين‌ﷺ أنّه قال: «إذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقتدِ برأي عاقل يزيل ما أنكرته»[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل ٨: ٩٦١٨/٣٤٤.

(٢) مستدرك الوسائل ١١: ١٢٦٦٤/١٦٦.

(٣) غرر الحكم: ٤٩٧/٥٥.

س: مَن هم الذين يكونون غير مؤهّلين للاستشارة فلا يستشيرهم مؤمن، ولا يجوز أن يختارهم المتصدّي كأعضاء في الشورى؟

ج:

١ـ الكذّاب، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تستشر الكذّاب فإنّه كالسّراب يقرّب إليك البعيد ويبعّد عليك القريب»[١].

٢ـ الجبان، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تشركنّ في رأيك جباناً يضعفك عن الأمر ويعظم عليك ما ليس بعظيم»[٢].

٣ـ البخيل، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً فيعدل بك عن القصد ويعدك الفقر»[٣].

٤ـ الأحمق، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تشاور أحمق ...والأحمق يجهد لك نفسه ولا يبلغ ما تريد ...»[٤].

٥ـ الحريص، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «...ولا تشاور حريصاً فإنّه يزيّن لك شرّها...»[٥].

٦ـ النساء إلّا بعد تجربة عقولهنّ، ورد في وصايا أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إيّاك ومشاورة النساء إلّا جرّبت بكمال، فإنّ رأيهن يجرّ إلى الأفن، وعزمهنّ إلى

---

(١) غرر الحكم: ١٠٠٩٢/٤٤٢.

(٢) غرر الحكم: ١٠٠٩٠/٤٤٢.

(٣) غرر الحكم: ١٠٠٨٩/٤٤٢.

(٤) تحف العقول: ٣١٧.

(٥) علل الشرائع ٢: ١/٥٥٩.

وهن»[١].

٧ـ المستبد برأيه، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: « ...ولا تشر على المستبدّ برأيه..»[٢].

٨ـ الجاهل، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «استشر عدوّك العاقل واحذر رأي صديقك الجاهل»[٣].

٩ـ المراعي لهوى المستشيرين من دون النظر إلى واقع القضيّة وما تستحقّه من الرأي الحق، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: « ...وخف الله في موافقة هوى المستشير فإنّ التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة»[٤].

س: ذكرت في الرواية الواردة عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «استشر عدوّك العاقل»[٥]، وضّح ذلك.

ج:

استشارة العدو لها محتملات منها:

١ـ أن توجد حالات خاصّة يحتاج فيها المؤمن أن يعرف عدوّه، ويعرف ما هي دوافعه؟ وبماذا يفكّر؟ وكيف يفكّر؟ وما هي الخطط التي يريد أن يستعملها ضدّه؟ وكيف يخطّط؟ وغيرها من الأُمور التي يحتاجها المؤمن أو الصف الايماني، فهنا مشورة العدوّ من قبل المؤمنين تمكّنهم من الوصول إلى ما يفكّر

(١) غرر الحكم: ٩٣٦٦/٤٠٨.

(٢) إعلام الورى: ٣٠٤.

(٣) غرر الحكم: ١٠٠٨٦/٤٤٢.

(٤) مستدرك الوسائل ٩٦١٩/٣٤٥:٨.

(٥) غرر الحكم: ٢٤٧١.

به العدوّ، فالمشورة تعتبر نوعاً من التجسّس الإيجابي للاطلاع على العدوّ، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «استشر أعداءك تعرف من رأيهم مقدار عداوتهم ومواضع مقاصدهم»(١).

٢ـ في العلاقات الشخصيّة قد يتحوّل الصديق إلى عدوّ، فهنا لو خيّر شخص بين أن يستشير ذلك الصديق العدوّ العاقل وبين هذا الصديق الجاهل، فتكون هنا استشارة ذلك العدوّ العاقل خيراً وأفضل وإن كان يتم الوصول إليه عن طريق الواسطة لأخذ رأيه، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «اتّبع مَن يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتّبع مَن يضحكك وهو لك غاشّ»(٢).

٣ـ ليس مطلق العدوّ على باطل، فقد يكون الخلل والبطلان في نفس الشخص لا في طرفه المعادي، وخصوصاً إذا شاهد طرفه المعادي هم مجموعة من العقلاء وما تحيط حوله هم مجموعة من الجهّال، وهذه علامة على أن يكون البطلان في أحسن تقديره محتملاً وجوده في أحد الطرفين لا على التعيين، فهنا ينبغي على العاقل ونفس الشخص أن يطلب التشاور والمناظرة واكتشاف الخطأ من الصحيح من عدوّه العاقل، وهذا أفضل من أن يبقى على ما حوله من الجهّال ويكتفي باستشارتهم التي لا تزيده إلّا قرباً من الخطأ والبطلان.

س: لماذا اهتمّ الشارع المقدّس بصفة المستشار سلباً أو إيجاباً؟

ج:

لأنّ الشّورى سواء كانت ذات منحى شخصي أو ما يخصّ الأسرة والمجتمع

---

(١) غرر الحكم: ١٠٠٧١/٤٤٢.

(٢) الكافي ٢: ٢/٦٣٨.

فالنتيجة أنّها ستولّد وتنتج موقفاً وسيرةً واتباعاً، وهذا يحتاج إلى دراسة موضوعيّة تخصّ نفس الموضوع بصورة علميّة وعقلانيّة وشرعيّة، ويجب أن يكون مجرّداً من أي تأثير نفسي يؤثّر في الرأي واتّخاذ الموقف، فالبخل والجهل والحماقة والكذب والاستبداد بالرأي وغير ذلك من الأمراض سوف لا تنتج قراراً مجرّداً وبموضوعيّة ومنسجماً مع الحاجة للفرد وللأُسرة وللمجتمع، فالشورى تحتاج إلى عالِم بالقضايا المستشار بها وإلى شجاع وكريم النفس مؤمن يخاف الله، فالشورى كأيّ مشروع له شروطه بلحاظ المستشير والمستشار ونفس الاستشارة وموضوعها، فمن أجل أن تعطي الشورى ثمارها لابدّ من ملاحظة شروطها التي وزّعنا ذكرها بين أجوبة الأسئلة، ورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه قال: «إنّ المشورة لا تكون إلّا بحدودها، فمَن عرفها بحدودها وإلا كانت مضرّتها على المستشير أكثر من منفعتها له»[1].

س: بالإضافة إلى ما مرّ سابقاً من النقاط الاثني عشر اذكر فوائد أُخرى تترتّب على الشورى؟

ج:

١ـ الرأي الصادر من الشورى يعني قد اشتركت في صدوره عدّة عقول بدلاً من العقل الواحد، ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «مَن شاور ذوي العقول استضاء بأنوار العقول»[2].

٢ـ الشورى تحصّن المستشير من الوقوع في الخطأ، ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه

---

(١) وسائل الشيعة ١٢:٤٣/١٥٥٩٧.

(٢) غرر الحكم: ٤٤٢/١٠٠٨٠.

قال: «الاستشارة عين الهداية وقد خاطر مَن استغنى برأيه»[١]، وعنه أيضاً: «المستشير متحصّن من السّقط»[٢]، وعنه أيضاً: «المستشير على طرف النّجاح»[٣].

٣ـ الرأي الناتج عن الاستشارة يجلب للمستشير المدح عند الصواب ويخلّصه من لوم اللائمين عند الخطأ وعدم النجاح؛ لأنّه في هذه الحالة يصبح معذوراً باستشارته، ولهذا تجد حالة الاستبداد حالة مذمومة لدى المجتمع وذوي العقول، ورد عن الإمام الكاظمؑ أنّه قال: «مَن استشار لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً»[٤].

٤ـ الشورى طريق من طرق الرحمة الإلهيّة على المؤمنين، وسمة من سمات المجتمع المسلم، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «أما إنّ الله ورسوله لغنيّان عنها ـ أي المشاورة ـ ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمّتي، فمَن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومَن تركها لم يعدم غيّاً»[٥].

٥ـ الشورى استجابة لنداء الله ومشروعه الحضاري الذي يقدّمه للأُمّة من أجل تحجيم الخطأ الذي تقع فيه، ومن أجل أن تكتمل مفردات القوّة التي تمتلكها الأُمّة الإسلاميّة، ولأجل بيان دور الشورى المهم في الأُمّة والمجتمع الإسلامي جعلها الله بين مفردتين من أهم مفردات قوّة المجتمع الإسلامي وهما الصلاة

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٢١١/٤٧.

(٢) غرر الحكم: ٤٤٢/١٠٠٦٩.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٨٣.

(٤) الدرة الباهرة: ٣٦.

(٥) الدر المنثور ٢: ٩٠.

والإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(الشورى:٣٨).

٦ـ الشورى طريق خير ورفعة ومَعْبد يتقرّب الإنسان المؤمن من خلاله إلى الله، وطريق يرشد الإنسان إلى الأصلح والأصح، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه مالا قبل له أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورَع ...أما إنّه إذا فعل ذلك لم يخذله الله، بل يرفعه الله ورماه بخير الأمور وأقربها إلى الله»(١).

٧ـ نحن أولى بالعمل بالشورى لحاجتنا الضرورية إليها ولجهلنا بواقع النتيجة، فالشورى عمل المعصوم وإن لم يكن بحاجة واقعيّة إليها كما رأينا عمل الرسول صلى الله عليه وآله في معركة بدر وأحد قبل نزول آية التشاور، وبعدها كما في معركة الخندق حين استجاب لرأي سلمان رضي الله عنه في حفر الخندق، وكما هي وصيّة الرسول صلى الله عليه وآله لأميرالمؤمنين عليه السلام عندما بعثه على اليمن، وقد ورد ذلك عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: « ...فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يوصيني: يا علي، ما حار مَن استخار، ولا ندم من استشار»(٢).

س: لو قدّم المستشار رأياً مخالفاً للحقّ عن عمد إلى المستشير، فبماذا توصف هذه العملية التي قام بها المستشار عند الشارع المقدّس؟

ج:

١ـ أنّها عملية غش، حيث المستشار يخفي الصحيح ويعطي الخطأ، ورد عن

---

(١) وسائل الشيعة ١٢:٤٢/١٥٥٩٦.

(٢) الأمالي للطوسي: ١٣٦/٢٢٠.

الرسولﷺ أنّه قال: «مَن غشّ المسلمين في مشورة فقد بَرئتُ منه»(١).

٢ـ سلب عن نفسه صفة كونه ناصح؛ لأنّ المستشار عندما اكتسب صفة كونه مستشاراً هذا يعني أنّه صار في موقع النصح للأحسن فقدّم فيما هو الصالح للمستشير، فلمّا لم يدلِ الصحيح الذي ينقذه من المخاطر، بل قدّم له الرأي المخالف عن عمد وعلم فهذا يعني قد سُلب منه كونه ناصح والتي هي من الصفات الشرعيّة التي يجب أن يتّصف بها المؤمن وأنّها من الأعمال التي يستحقّ فاعلها على ما يترتّب عليها من الأجر والثواب، وأمّا غير ذلك فيترتّب عليه الجزاء والعقاب الأُخروي، ورد عن الإمام الصادقؑ أنّه قال: «مَن استشار أخاه فلم ينصحه محض الرأي سلبه الله عزّ وجلّ رأيه»(٢).

٣ـ خائن للأمانة؛ لأنّ المستشير يمتلك حقاً على المستشار في أن يقدّم له الصحيح، وهذا الحق أمانة في ذمّة المستشار يجب عليه أن يقدّمه كما هو، فعندما قَبِل أن يكون مستشاراً للمستشير وقدّم الخطأ والباطل من الرأي إليه فهذا يعني أنّ المستشار قد خان الأمانة التي في رقبته وهي حق المستشير في أن يقدّم له الصحيح والحق من الرأي لا العكس، ورد عن أميرالمؤمنينؑ أنّه قال: «خيانة المستسلم والمستشير من أفظع الأمور وأعظم الشرور وموجب عذاب السعير»(٣).

٤ـ ظالم للمستشير، لأنّ تقديم الخطأ من الرأي للمستشير من قبل المستشار قد يولّد سقوط المستشير بما فيه المهالك والمكاره وهو ظلم، ورد عن

---

(١) عيون أخبار الرضاؑ ١: ٢٩٦/٧١.

(٢) الكافي ٢:٣٦٣/٥.

(٣) غرر الحكم: ١٠١٠٢/٤٤٣.

أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ظلم المستشير ظلم وخيانة»(١).

س: إذا لم تكن من صلاحية الشورى تعيين الحكم كما قلتم سابقاً، فهل من صلاحية الشورى تعيين الحاكم؟ اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

للحاكم معنيان هما:

الأوّل: ما يرجع للأُمّة في إدارة شؤونها وتنفيذ قانون البلاد، كرئيس الدولة وكلّ موظّف فيها لأيّ خدمة يعود نفعها للأُمّة بأُمورها التكوينيّة الطبيعيّة العامّة، فهذا متروك للأُمّة في طرق تعيينها له كالانتخاب أو لأهل الحلّ والعقد من أصحاب الخبرة والاختصاص أو الشورى أو غير ذلك من الطرق التي وضعتها الأُمّة في تعيين هذا النوع من الحاكم.

الثاني: ما يرجع للدين وللرسول صلى الله عليه وآله وللأئمّة سلام الله عليهم أجمعين، بمعنى أنّ له نظارة على الحكم الشرعي وتطبيقه، أيْ أنّه يمثّل الخلافة الخاصّة للرسول صلى الله عليه وآله وأنّه الإمام عليه السلام أو مَن ينوب عنه في ولاية الأمر بحيث تكون وظيفته المرجعيّة في الحكم الشرعي الذي يعود تطبيقه على الأُمّة وبيان علل الشريعة وتطبيقها والمحافظة عليها من الزيادة أو النقصان ومواجهة أعدائها وكلّ ما هو من شؤون المعصوم.

فهنا قد استعرضنا أكثر النصوص القرآنية وما ورد عن المعصوم فلم نجد نصّاً ينصّ على ترك أمر تعيين الحاكم الشرعي للشورى، بل على العكس من ذلك حيث

---

(١) غرر الحكم: ١٠٠٩٩/٤٤٣.

توجد نصوص كثيرة تحصر تعيين ذلك من قبل الله فقط، منها ما ورد أنّ رسول الله ﷺ حينما عرض الإسلام على بعض القبائل، فاشترط بعضها أن يكون الأمر لهم من بعده، فرفض الرسول ﷺ وقال لهم: «إنّ الأمر لله يضعه حيث يشاء»، ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وهذا هو الأمر والمنهج الواضح لدى الرسول ﷺ حين أكّد على ولاية أميرالمؤمنين ﷺ منذ الأيّام الأُولى للدعوة الإسلاميّة المباركة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وهذا الخط الواضح لله في منهجيّته حين أمر الرسول ﷺ بتعيين خلفائه الاثني عشر بأسمائهم، وقد تواتر الحديث عن ذلك في جميع جهات التواتر، وهذا هو الأمر البيّن نهجه عند الأئمّة الاثني عشر سلام الله عليهم أجمعين حين خطّوا للأُمّة منهجاً في تعيين الحاكم الشرعي الذي يمثّل القيادة النائبة لهم في عصر الغَيبة عندما وضعوا له الشروط والمواصفات التي ترشد الأمّة إليه.

س: كيف تثبت أنّ شورى الإمامة وتعيينه لا وجود لها في الإسلام؟

ج:

١ـ نحن قلنا: لا نصّ موجود في كتاب أو سنّة يدعو ذلك.

٢ـ نحن قلنا بوجود نصوص كثيرة تؤكّد انحصار ذلك بالله وما يوحي به إلى الرسول ﷺ.

٣ـ أنّ الشورى لو كانت هي الطريق لتعيين الحاكم الشرعي والقيادة النائبة للرسول ﷺ لرأينا الكثرة الكثيرة من النصوص إن لم تكن من الكتاب فعلى لسان النبي ﷺ، وذلك لأهميتها وخطورة مهمّتها وموقعها من الأُمّة إلى يوم القيامة، وتعالى الله ورسوله عن أن يتركا أمر القيادة من دون تشخيص لها

والطريق المؤدّي لتعيينها مع أنّ الشريعة لم تترك صغائر الأُمور إلّا وأعطتها الحكم، ولمّا لم يكن للشورى نصيب من النصوص فلابدّ أن نقول بالتعيين الذي وردت فيه نصوص كثيرة وعلى لسان وموقف كلّ المعصومين في تعيين الحاكم الذي بعده.

٤ـ لو كانت الشورى طريقاً مشروعاً لتعيين الحاكم الشرعي لما تخلّف عنه المهاجرون والأنصار وعلى رأسهم أميرالمؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام ومنزلتهما معروفة عند الله وفي كتابه المجيد وعند رسوله صلى الله عليه وآله وأنّهما معصومان بالشهادة المتكرّرة للرسول صلى الله عليه وآله في حقّهما.

٥ـ لو كانت الشورى طريقاً لتعيين الحاكم الشرعي لسار عليها عمر بن الخطّاب، ولما قال عمر عنها: (إنّ بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرّها).

٦ـ لو كانت الشورى طريقاً شائعاً يفهمه الناس في تعيين الحاكم الشرعي لاستعمل أبو بكر وعمر الطريق السّليم لها لا الطريق الملتوي فيه والمليء بالكذب والخداع والافتراء على الله ورسوله صلى الله عليه وآله، راجع التأريخ بإنصاف ومن منبعه الصافي تجد ذلك واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

٧ـ لو كانت الشورى طريقاً طبيعياً لتعيين الحاكم الشرعي لكان أميرالمؤمنين عليه السلام من الداعين إليها ومن المشاركين فيها، بينما نحن لم نجد ذلك ولم يَدْعُ لها أصلاً، فهل عدم حضور مثل أميرالمؤمنين عليه السلام يُعدّ أمراً طبيعيّاً، وهل إكراه علي عليه السلام من قِبَل أبو بكر وعمر يُعَدّ حالة شرعيّة قرّرتها شورى تعيين الحاكم الشرعي؟! وهناك أُمور كثيرة تثبت أنّ هذا النوع من الشورى لا وجود له في الإسلام وأنّه بِدْعَة ابتدعوها.

٨ـ أنّ نفس آية الشورى في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ...﴾ (الشورى:٣٨) تعني ما كان أمر المسلمين فهم شورى فيه، وأمّا ماكان أمر الله ومرجعه إليه فليس للمسلمين فيه شورى كالنبوّة والإمامة والأحكام الشرعيّة.

٩ـ لو كان تعيين الحاكم الشرعي بالشورى وفرضنا أنّ الخليفة الأوّل حصل عليها عن طريق الشورى السليم، فلماذا لم يكن أميرالمؤمنين عليه السلام راضياً عنها، وقد كشف عدم رضاه في أكثر من موقف خصوصاً بعد أن استلم قيادة الأمّة، وتجد ذلك واضحاً في خطبته المسمّاة بالشقشقيّة فراجع (نهج البلاغة) تجدها.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران: ١٦٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ النصر: الإعانة.

٢ـ الغالب: القاهر.

٣ـ الخذلان: ترك مَن يظن أن ينصره ويعينه.

س: ما هو التفسير المحتمل للآية المذكورة أعلاه؟

ج:

صورة من صور وجوب التوكّل على الله وتفويض الأمر إليه من قبل المؤمنين؛ لأنّ نصر المؤمنين بيد الله ولا ناصر إلّا هو ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ (آل عمران:١٢٦)، والنصر يختلف عن الغلبة فإنّه يخضع للأسباب الطبيعيّة فلا غالب إلّا بسببه الطبيعي الذي جعله الله كقانون في الحياة من امتلاك القوّة، ولهذا تجد الغلبة تشمل المؤمنين والكافرين وغيرهم فإنّ كلّ قويّ يغلب الضعيف، وأمّا النصر فهو الغلبة والمعونة الخاصّة من الله للمؤمنين خاصّة عند تنازعهم مع أعدائهم، والنصر الإلهي والغلبة الخاصّة التي هي من اختصاص الله لا تكون إلّا بالمباشرة ولا تكون إلا ضمن الأسباب غير الطبيعيّة، وتنفيذ هذه المعونة الخاصّة والنصر الإلهي وتقديمه للمؤمنين قد لا يعتمد على أي سبب طبيعي يمتلكه المؤمنون لحكمة هو يراها سبحانه وتعالى، كما أعان الله بني إسرائيل فأغرق عدوّهم بقيادته وجيشه العسكري

حتّى انتهوا جميعاً غرقاً، وجاء النصر والغلبة لبني إسرائيل وهم لا يمتلكون إلّا الفرار من فرعون وجنوده وعلى ما يمتلكون من الإيمان البسيط، وقد يكون النصر الإلهي بالمباشرة إلّا أنّه يتوقّف تنفيذه من قبل الله على توفير نسبة من أسبابه الطبيعيّة وشروطه الخاصّة التي منها:

١ـ أخلاص المؤمنين في إيمانهم ودوافعهم وأنّهم ليس لهم طمع في شيء نصرة دين الله وإعلاء كلمته.

٢ـ أخلاص المؤمنين في أنّهم يريدون حقّاً مقاتلة عدوّهم لكفره وظلمه وشركه وعصيانه ويريدون الخلاص منه.

٣ـ وحدة الصف الإيماني في فكرهم وتفكيرهم وطاعتهم للقيادة وعلاقتهم فيما بينهم من الحب والتآخي والتعاون.

٤ـ الصبر والثبات والاستمرار على ما هم عليه من الإيمان والعزيمة والإخلاص في النيّة وإن طالت المعاناة وأمد الحرب.

٥ـ أن يعتمدوا على أنفسهم كمؤمنين فلا يدخلون في صفوفهم غيرهم ولا من خارج صفوفهم من غير المؤمنين من باب الاستعانة بهم والاتّكاء عليهم، فإنّ ذلك ينافي التوكّل على الله ومنهجية الدين في القتال؛ لأنّ النصر الإلهي الخاص بالله لا يكون إلّا من أجل نصرة دينه وتثبيته الذي يجسّده وجود المؤمنين لا لأجل غلبة المؤمنين كيفما اتّفق وعلى أيّ حال وإلا تصبح غلبة ضمن أسبابها الطبيعيّة التي لا يلازمها انتصار الدين وتثبيته ما بعد الغلبة، وحديثنا عن النصر الذي يلازمه انتصار الدين وتثبيته والحكم به، وهذا من أهم الفرق بين الغلبة والنصر، فقد يغلب المؤمنون ولكنّهم لا يتمكنون من أن يثبّتوا الحاكميّة لدينهم إلّا عن طرق النصر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧).

٦ـ القوّة، فهي مرادة ومطلوبة من المؤمنين إلّا أنّه لا يعتمد النصر الإلهي عليها، بل وإن كان وجودها وجوداً قليلاً إلّا أنّه على قدر ما استطاع وسعى المؤمنون إلى توفيره وإعداده من العدّة والعدد؛ لأنّ حديثنا عن النصر الإلهي والمعونة الخاصّة التي لا تتوقّف على السبب الطبيعي المادي ولا تمنعها قوّة في الأرض ولا في السماء لتعلّقها المباشر بالله سبحانه وتعالى.

٧ـ مطلق الذكر الإلهي القولي والفعلي من التسبيح والاستغفار وقراءة القرآن والدعاء والتوسّل بالله والتذلل إليه لاستجلاب النصر منه سبحانه. فإنّ النصر قد يتوقّف وقد يعجّل حسب نسبة توفر هذه الحالة عند المؤمنين، وهذا من تربية الله لعباده في إظهار عبوديّتهم وتعميق علاقتهم به سبحانه فهو الذي جعل للذكر والدعاء أثراً كبيراً في استجلاب النصر وغيره من الأمور ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠).

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

س: ما هي موارد النصر الإلهي؟

ج:

أولاً: عندما يكون النصر بمعنى مطلق المعونة، فهنا الله يعين أولياءه بمعونته الخاصّة فينصرهم في مواطن كثيرة في حياتهم الشخصية العامة والخاصة.

ثانياً: عندما يكون النصر بمعنى المعونة الخاصّة عند المنازعة، فهنا يتمثّل النصر الإلهي في موردين هما:

١ـ عند المناظرات والتنازع الفكري الذي يدار بين المؤمنين وغيرهم.

٢ـ عند قتال المؤمنين مع أعدائهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦١-١٦٤).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الغل: أ ـ الأخذ خفية. ب ـ الخيانة. جـ ـ الضغينة والحقد الذي يضمره الصدر.

٢ـ الرضوان: الرضا الكثير ودرجاته العليا.

٣ـ باءَ: رَجعَ.

٤ـ السخط: شدّة الغضب.

٥ـ المأوى: المكان.

٦ـ المِنّة: أ ـ إذا كان من الله فهو عطاء من دون سؤال له، أو مطلق التفضّل.

ب ـ إذا كان من الإنسان فهي الحالة المرضيّة غير الأخلاقيّة التي توجب التنكيل بالآخرين وتسبّب لهم الأذى.

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾؟

ج:

من سياق الآيات القبليّة والبعديّة يكون حديث الآيات التي بين أيدينا من تجربة معركة أُحُد ودروسها الإلهيّة، وهو أنّ بعض ضعاف الإيمان وممّن لا يفهمون شخصيّة الرسولﷺ، أو هم جمع من المنافقين، اتّهموا الرسولﷺ بالغِل والخيانة، اتّهموه فيما بينهم أو أعلنوه، هذا لم يذكره القرآن، ولكنّه حدث واقع، والرسولﷺ كقائد لمجتمع وولايته تشمل جميع الاتّجاهات، فمن الأمر الطبيعي أن يُتّهم لما في المجتمع من درجات ورتب في الإيمان والوعي ولما فيه من الاتّجاهات العقائديّة و السياسيّة المعارضة كما هو حال أيّ قائد يتولّى المسيرة.

ورد أنّ علقمة شكا إلى الإمام الصادقؑ مِن ألسِنةِ النّاس، فقال له الإمامؑ: «إنّ رضا النّاس لا يملك، وألسنتهم لا تضبط، وكيف تسلمون ممّا لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السّلام ...ألم ينسبوا نبيّنا محمّداًﷺ إلى أنّه شاعر مجنون؟! ...وما قالوا في الأوصياء أكثر من ذلك ...إنّ الألسنة الّتي تتناول ذات الله تعالى ذكره بما لا يليق بذاته كيف تحبس عن تناولكم بما تكرهونه»(١).

وقد يكون الاتّهام في محلّه باعتبار مراقبة تحرّكات القيادة من مسؤوليّة المجتمع، وإنّ القائد مُعرّض للمحاسبة في أيّ وقت يرى المجتمع ضرورة حضوره في قاعة المحكمة والحساب، فالقائد لا يختلف كأيّ أحدٍ من الرعيّة من حيث احتمال توجيه الاتّهام إليه والدفاع عن النفس لاحتمال وجود الخطأ والصحيح في شخصيّته، ولكن من غير المتوقّع والغريب أن تُتّهم شخصيّة قياديّة كشخصيّة الرسولﷺ في أنّه قد خان أو غلّ أو بما هو أقلّ من ذلك، وذلك للأسباب التالية:

---

(١) الأمالي للصدوق: ١٦٤/١٦٣.

أوّلاً: (في خصوص معركة أُحُد)

١ـ أنّ الرسولﷺ أوّل شخصيّة قد اهتمّت بموضوع المعركة.

٢ـ أنّ الرسولﷺ أوّل مَن ترك الأهل للتحرّك نحو المعركة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

٣ـ أنّ الرسولﷺ أوّل مَن وطأت رِجْله ساحة المعركة ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٤ـ أنّ الرسولﷺ قد خاض المعركة لا كمرشد ومراقب فقط كما هو موقع أيّ قائد عسكري، بل خاض المعركة وهو في وسطها على الرغم من أنّ شخصه هو المطلوب بالدرجة الأُولى.

٥ـ لَحِق الرسولﷺ ما لم يلحق بأكثر المقاتلين من الضرب والجرح والشجّ لرباعيته وبقيّة جراحاته حتّى كاد أن يقتل.

٦ـ أنّ الرسولﷺ آخر مَن انسحب من ساحة المعركة بعد انتهاء المعركة وانسحاب العدوّ منها.

٧ـ صحّة ترتيبه لمواقع المقاتلين وإصابة وصاياه للواقع بحيث كان السببُ الرئيسي للانتكاسة التي حصلت في المعركة هو مخالفة وصاياه وأوامره.

٨ـ تشخيص الرسولﷺ للكادر القيادي للسرايا والكتائب وتعيينهم بحيث لم يهرب منهم أحد ولا خالف أمر الرسولﷺ حتّى النفس الأخير.

٩ـ لم يأخذ الرسولﷺ من حطام الغنائم ولا من غيرها شيئاً على الرغم من حقّه في ذلك.

١٠ـ لم يتنازل عن ثوابته العقائديّة، فهو هو قبل المعركة وفي أثنائها وما بعدها ممّا يحمل من العقيدة وما كان يدعو إليه.

١١ـ تابع الرسولﷺ الأعداء فيما بعد المعركة بإرسال أميرالمؤمنينؑ ليستيقن برجوعهم إلى مكّة.

١٢ـ أعطى الرسولﷺ أهله من النساء والرجال مهمّة تسلية عوائل الشهداء وتضميد جرحى الحرب.

١٣ـ حبّ الرسولﷺ وانشراح صدره للجميع، ولم تصدر منه أيّ غِلظَةٍ في فعل أو قول ضدّ أحد على الرغم من التقصير المختلف الذي أحدثه البعض، وإنّ الرسولﷺ يعرفهم جيّداً، بل على العكس من ذلك تجد الرسولﷺ كان يطلب لهم من الله المغفرة والعفو والسماح.

ثانياً: (أنّ الرسولﷺ نبيّ)

١ـ أنّ الرسولﷺ نبيّ من الأنبياء، ومعصوم من المعصومين، وهو من أقرب الناس إلى الله، وهو من جملة أُمناء الوحي، وهو من جملة مَن اختارهم الله واصطفاهم للنبوّة. فالذي يختاره الله لم يغلّ، والذي يغلّ لم يختاره الله للنبوّة ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آل عمران:٧٩). فكما أنّ اختيار الله منزّه من أيّ شائبة ونقص، فكذلك أنبياؤه منزّهون عن أيّ شائبة ونقص، فكما الاتّهام بالغل يمسّ شخصيّة النبي فهو يمسّ اختيار الله للنبي، والله سبحانه وتعالى ينزّه ساحة الأنبياء من كلّ غلٍّ ومن أيّ نوع كان، فهم ليسوا كالبشر في احتمال النقص أو الخطأ فيهم ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

٢ـ نعم، احتمال الغِل في غير الأنبياء والمعصومين موجود ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾، والغِل عمليّة غير مَرْضِية عند الله؛ لأنّها تمثّل حالة مَرَضية أخلاقيّة ونقصاً فيها لأنّها نوع من أنواع الخيانة وإضمار حقد وضغينة في الصدور ضدّ المؤمنين، ويوم

القيامة باعتباره يوم الحساب فتتكشّف فيه الأعمال ويتكشّف كلّ ما يحيط بها، ويوم الكشف لكلّ ما كان ظاهراً في الدنيا وما كان خفيّاً على الآخرين، ومن جملة ما كان خفيّاً على الآخرين وسوف ينكشف يوم القيامة هو مسألة الغِل، فالغِل حاضر عند الله ومنكشف لديه ولكنّه غير منكشف لدى النّاس الذين مسّتهم مسألة الغِل الذي صدر من الآخرين ضدّهم وكان خفيّاً عنهم فيأخذون حقّهم من الذي غَلّهم، وانكشاف الغِل إنّما يتمّ عن طريق حضوره لأنّ يوم القيامة هو يوم تتجسّد فيه الأعمال، أو هو مكتوب ومثبّت في الكتاب؛ لأنّ الكتاب يكتب العمل زائداً ما يحيط به من الدوافع والأغراض ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ولم تكن هذه الظاهرة والميزة ليوم القيامة من الدقّة والإحاطة في التدوين والكشف مختصّة بالغِل، بل هي حالة شاملة لجميع ما فعله الإنسان وكَسَبَهُ في الدنيا فهو محفوظ ومُدوّن بتفاصيله، ويكون ترتّب الجزاء على مجموع الفعل الواحد وما يحيط به، وبهذا النوع من المحاسبة وترتّب الجزاء يتحقّق العدل الإلهي وعدم ظلم الآخرين وينجز تمام الوفاء، وهذه هي إحدى مميزات العدل الإلهي عن عدل الآخرين الذين لا يعلمون إلّا ظاهر الأمر والفعل ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، والغل من جملة ما كسبه الإنسان، والغل ذو طرفين طرف الذي غل وطرف المغلول منه، وصورة الوفاء به أن يترتّب الجزاء السيّئ على الذي غل، وطرف المغلول منه بأن يأخذ حقّه من الذي غلّه، فلا ظلم وقع على الذي غلّ ولا على المغلول منه.

ثالثاً: (أنّ الرسول ﷺ قد حاز على أعلى درجات رضوان الله في جميع مراحل حياته)

إنّ جميع النّاس في تحرّكهم لا يخرج عن أحد طريقين وهما طريق الله أو طريق الشيطان، فهم إمّا يتحرّكون في طريق رضا الله أو في طريق سخطه، وكلّما ابتعدت حركة الإنسان عن طريق أحدهما فقد اقترب إلى طريق الآخر، فلا طريق ثالث موجوداً، فإن لم يكن الإنسان تحت رضا الله فهو تحت سخطه.

هذه هي نوعيّة الطريق وحركة الإنسان في الحياة الدنيا، والنتائج التي تترتّب على السالكين يوم القيامة مختلفة، فإنّ الذي يسلك طريق الله يحصل على نعيم الآخرة كما أنّ الذي يسلك طريق الشيطان يحصل على جحيم الآخرة ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ولكن هناك مسألة أهم من ترتّب الجزاء وهي مسألة نفس رضا الله وسخطه التي تدخل في حركة الإنسان وهمّته ودوافعه، والتي تدخل كجزء مهمّ في إيمانه، ولم يكن مصبّ حديث الآية على الذين باؤوا بسخط الله؛ لأنّ نتيجتهم قد عُرفت وأنّ مصيرهم السيّئ قد ثبّته الله، فهم في جهنّم وبئس المصير، وإنّما مصبّ حديث الآية على رضوان الله وإبراز أهميته في حركة الإنسان المؤمن، وإنّه هو الذي له درجات عند الله، وإنّ هذه العنديّة نحو اختصاص عنده في الحب والقرب والرعاية، فإنّ الذي باء بسخط الله لا يمتلك درجة عند الله، بل هو بعيد كلّ البعد عن الله، وذكر الدرجات في الآية لم يكن مطلقاً حتّى يشمل درجات الذين سخط الله عليهم، بل جاءت مقيّدة بالعنديّة ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾.

ولمّا كان الإيمان من المفاهيم الكليّة المشكّكة والتي يتفاوت وجوده بين الإنسان والآخر من حيث القوّة والضّعف فتكون النتيجة أنّه لابدّ من أن تكون درجات عند الله وأنّ ما حازه القويّ غير ما حازه الضعيف من رضوانه تعالى وإن كان الجميع هم مَرْضيّون عند الله.

فبعض النّاس همّه وغايته أن يسقط التكليف عن ذمّته المشغولة به حتّى يتخلّص من نار الله أو يحصل على جنّته، والبعض الآخر من النّاس همّه وغايته رضا الله، وما امتثال التكليف إلّا طريق لرضا الله، وإنّ رضا الله هو المحرّك والباعث لامتثال التكليف، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على علوّ الدافع والإيمان الذي يمتلكه صاحب الطريق الثاني.

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:«ما عبدّتك طمعاً في جنّتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن وجدتُكَ أهلاً للعبادة فعبدتُك »[1]، فهو يتحرّك من قمّة الارتباط والعلاقة التي تربطه بالله، وهي علاقة الحب والرضا، وهو ينظر إلى العبادة ويتحرّك نحوها باعتبارها تجسّد رضا الله لا أنّها وسيلة لنيل رضاه فإنّ في الحالة الأخيرة يكون رضا الله متأخراً عن العمل العبادي، وإنّ نفس رضوان الله هو نِعمَة فوق النِعَم، وهو خير فوق كلّ خير، وهو عطاء فوق كلّ عطاء ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة: ٧٢)، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(آل عمران:١٧٤)، ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧)، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ (الفتح:٢٩)(المائدة:٢)(الحشر:٨).

فالنتيجة أنّ المؤمنين في حركتهم نحو رضوان الله لم تكن بدافع واحد وعمق واحد ولا نوع واحد ولا ثمرة واحدة فهم على رتب ودرجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا

---

(١) عوالي اللآلي ١:٤٠٤/٦٣.

عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٣٢)، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:٤)، وقد حاز الرسولﷺ على أعلى درجات رضا الله وذلك:

١ـ باعتبار أنَّ الرسولﷺ سيّد البشر، وسيّد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم، وإنّه صاحب الخُلق العظيم ظاهراً وباطناً بشهادة الله على ذلك، وإنّه أقرب الناس إلى الله، وإنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وغير ذلك ممّا قيّم الله به الرسولﷺ في كتابه، وممّا عرفناه من واقع سيرته، وممّا نُقِلَ عن الأئمّة سلام الله عليهم أجمعين ما يتعلّق بشخصيّة الرسولﷺ وسيرته.

٢ـ فحوى الآية التي بين أيدينا ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾، وغيرها من الآيات كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة:٢٥٣)، التي فيها الدلالة الواضحة على أنَّ الرسولﷺ قد حاز على أعلى رتب الإيمان والرضوان.

وعليه، فإذا كان الرسولﷺ لا يتحرّك إلّا لأجل رضوان الله وقد حاز على أعلى درجاته ولم يكن شيء يحرّكه نحوه في جميع تحرّكاته الظاهريّة والباطنيّة إلا رضوان الله أوّلاً وآخِراً، فهل يتوقّع عاقل صدور الغل أو الخيانة من الرسولﷺ ؟!. وشهادة الله للرسولﷺ هي عين الواقع؛ لأنّها قائمة على الإحاطة التامة بالرسولﷺ كما هي إحاطة الله التامّة في جميع الأمور، فهو تقييم على علم وبصيرة ودراية، وإنّه نتاج عمل قدّمه الرسولﷺ، ولا رضوان من الله لأحدبمقدار ما يقدّمه من العمل الصالح ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «رضا الله مقرون بطاعته»[١]، وعنه أيضاً: «هيهات! لا يُخدع الله عن جنّته، ولا تنال مرضاته إلّا بطاعته»[٢]، وعنه أيضاً: «ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله: كثرة الاستغفار، وخفض الجانب، وكثرة الصدقة»[٣]، ورد عن الإمام زين العابدين أنّه قال: «أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله»[٤]، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرنّ شيئاً من طاعته..»[٥].

رابعاً: (بعثة الرسول صلى الله عليه وآله توجب شكر النّعمة لا الكفران بها من خلال اتّهامه بالغِل)

إنّ من نِعَم الله على العباد أن رسم منهجيّة لحركة الإنسان على الأرض والتي أسماها بالدين، ومن نِعَمه سبحانه أن جعل الممثّلين عنه لوصول الدين إلى البشر هم الأنبياء الذين هم أخلص النّاس لدينه، وكلّ هذه النعم من مقتضى ذاته وما اتّخذه على نفسه لا من سؤال وطلب أحد، بل هو صرف المِنّة منه سبحانه وتعالى، وهناك مِنّة خاصّة للمؤمنين بالرسول صلى الله عليه وآله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي كالتالي:

١ـ أن رزقهم الله وجودهم وخَلَقهم لأن يكونوا من المؤمنين بسيّد الأنبياء والمرسلين.

٢ـ أن بعث فيهم رسولاً، وهذه مِنّة لعامّة المؤمنين من الأوّلين والآخرين، وخصوصيّتها بنوعيّة الرسول المبعث إليهم، حيث بعث الله إليهم أفضل

---

(١) غرر الحكم: ٣٤٢٨/١٨٢.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٢٩/١٢.

(٣) كشف الغمة ٣: ١٤١.

(٤) الكافي ٤: ١/١١.

(٥) وسائل الشيعة ١: ٢٩١/١١٦.

الأنبياء والرسل.

٣ـ أنّ هذا الرسول ﷺ كان من أنفسكم، فهو من جنس البشر، ولم يكن من جنس الملائكة التي لا تستغفر ولا تتعاطف إلّا مع المؤمنين والمطيعين، ولا من جنس الجنّ الذين لا يشعرون بآلام البشر وآماله، ولم يكن من جنس ممّا لا يُرى فلم يكن دوره إلّا إصدار الأوامر والنواهي، فهو من أنفسكم يحمل مشاعركم ويحسّ بما تحسّون به، وهو من أنفسكم التي فُطِرت على إرادة الصدق والحبّ وقبح الظلم ونشر الخير والتعاون، وعلى عقيدة التوحيد ووحدة العقيدة، فالرسول ووجوده وشخصيّته يعكس ما تريده فطرة الإنسان فهو من أنفسكم التي فطر الناس عليها.

وهذه مِنّة هي الأُخرى عامّة لكلّ المؤمنين بالرسل من الأوّلين والآخرين حيث كلّ الأنبياء والرسل يسيرون على هذا المنوال والسير المنسجم مع فطرة الإنسان الطاهرة ولم يأتوا بشيء مخالف للفطرة، ولكنّ الخصوصية التي حاز عليها المؤمنون بالرسول ﷺ أنّه كان من قوميّتهم ويتحدّث بلسانهم وقد وُلد وعاش بينهم مدّة أربعين سنة إلى مبعثه الشريف، وخاض معاناة الفقر والغِنى، وتعرفونه كما تعرفون أنفسكم بصدقه وأمانته ودوافعه المخلصة لكم قبل البعثة حتّى صار باستئناسكم إليه وثقتكم به وانصهار شخصيّتكم بشخصيّته المثل الأعلى لأنفسكم في هذه الصفات الكريمة، فكنتم تجعلونه حَكَماً لحلّ قضاياكم المتنازع عليها ولم تخالفوه في رأي ولا في كلّ ما يشير إليه، وإذا كنتم تشكّون فتشكّون بأنفسكم ولا تشكّون به بأيّ جهة كانت ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذا هو الرسول ﷺ بنفسه بعد البعثة على ما هو عليه من الصفات الكريمة الحميدة، فهو:

١ـ على صدقه وأمانته والمثل الأعلى فيهما، فهو أمين السماء ووحي الله، فهو ينقل لكم آيات الله ويتلوها عليكم كما هي عليها من دون زيادة أو نقصان، وهو الصادق فيما يوضّحه ويشرحه لكم فيما يُراد من آيات الله ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾.

٢ـ على إخلاصه وحبّه لكم، وذلك:

أولاً: فهو لا زال يريد أن يطهّركم من كلّ معتقد سببه الجهل، ويريد أن ينمّي شخصيّتكم الفكريّة والأخلاقيّة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

ثانياً: نصّب نفسه معلّماً لكم، ومن لوازم عنوان المعلّم حبّه لطلبته وتلامذته، وحبّه أن يكونوا كلّهم من الناجحين، ويخلص في تدريسه حتّى يفهموا الدرس بعمق ويكشف كلّ ما يحيط به من الغموض، وانشراح صدره بالإجابة على كلّ سؤال يسأله الطالب، فكان الرسولﷺ يعلّم النّاس الكتاب ويكشف عنه الغموض بتفسيره لهم، ويزيدهم علماً وأقوالاً منهﷺ فإنّ أقواله كلّها حِكْمَة، ولم يكن مُعلّماً لتلامذة ومخاطبين معيّنين، بل هو مُعَلّماً لكلّ مَن آمن به إلى نهاية الحياة.

فبعثته كانت سبباً في انتشال الناس من الجهل الذي كانوا هم عليه بسبب العلم والطريق العلمي الذي جاء به الرسولﷺ، حيث النّاس قبل البعثة قد وصلوا إلى مرحلة من الجهل بكلّ جوانب الحياة واكتشاف جوهرها وكانت سمة الجهل هي المعلم للناس قبل الإسلام وبعثة الرسولﷺ ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فالذي كان دوره هكذا ووجوده هكذا فهل يستحقّ أن يُتّهم بالغِلّ والخيانة؟!! وهل الغِلّ والخيانة وما هو أقلّ من ذلك ينسجم وجوده مع هكذا شخصيّة؟!

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٥-١٦٨).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ المصيبة: رمي الإنسان وإصابته بالنائبة.

٢ـ الإذن: العلم.

٣ـ الدفع: الدرء.

٤ـ القعود: الاستقرار المقابل للقيام.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

دروس إلهيّة أخرى من دروس معركة أُحُد، ويمكن أن تعنون بعنوان عدم اتّهام الله بشيء، فاتّهام الأفكار أو القلوب قد توجّهت إلى بعض المؤمنين، وقد توجّهت إلى الرسولﷺ كما عرفت سابقاً، وقد يتوجّه الاتّهام إلى الله عند الإصابة بالمصيبة فيظن الإنسان بالله سوءاً أو يقع في التحليل الخاطئ لسبب الانكسار وسبب

الإصابة بالمصائب فينسب إلى الله ما لا يفعله وليس من شأنه سبحانه أن يفعله، فكانت تجربة معركة أُحُد لتثبيت وبيان هذه الحقيقة لينظّم المؤمنون أفكارهم وما يعتقدون به ضمن الرسم الإلهي الذي سنّه الله للحياة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١)، فما يصيب الإنسان له أسبابه، ولرفع المصائب له أسبابه، كما أنّ التدخّل المباشر من قِبَل الله والإعانة الخاصّة منه سبحانه في عدم الوقوع في المصيبة أو رفعها لها شروطها الخاصّة.

فإذا عرفنا ذلك وعرفنا أنّ لكلّ شيء شرطه وسببه وأنّ كلّ شيء موضوع ضمن ميزان، فلابدّ من دراسة الأسباب من قِبَل المؤمنين دراسة دقيقة حتّى يعرفوا الصّح من الخطأ، وليكون ما وقعوا فيه ماضياً درساً وعِبْرَة للمستقبل، والله سبحانه وتعالى يخبر عن سبب الانكسار والمصائب التي حلّت بالمؤمنين في معركة أُحُد، بملاحظة الأُمور التالية:

أولاً: انظروا إلى مقدار النجاح الذي أنجزتموه، فإنّه صحيح قد أصابتكم مصيبة مثل القتل والهزيمة في معركة أُحُد، ولكن انظروا إلى مقدار المصيبة التي حقّقتموها في عدوّكم، فلقد أصَبْتُم العدو ضِعف ما أُصِبْتُم به سواء الذي كان في معركة بدر الذي قتلتم به سبعين رجلاً وأسرتم سبعين رجلاً أو في معركة أُحُد نفسها حيث قتلتم منهم العدد الكثير في أوّل مرحلة المعركة والتي كنتم فيها من المنتصرين، فلا تنظروا إلى ما حلّ بكم من المصيبة وتتركوا إنجازكم الذي أنجزتموه على أيديكم، فإنّ مثل هذا النظر يولّد عندكم الحالة النفسيّة الصعبة من الهمّ والغمّ والتفكير المغلق على ما أصابكم وضيق الصدر وبالتالي يصدر الخطأ على ألسنتكم من بث اللوم على الآخرين واتّهامهم بالتقصير والتقييم المتشنّج الذي قد يولّد العداوة والبغضاء وضعف القوّة والعزيمة في نفوسكم.

فإذا كانت هناك خطوات ناجحة مسبقة فليكن لها نصيب في نظركم وتفكيركم وذكركم إيّاها حتّى تكونوا في انشراح صدر وكثرة في العزيمة والقوّة وتنظروا إلى الأمور بكلّ عقلانيّة وموضوعيّة، فلا تأخذ المصيبةُ وقتها في النفوس بأكثر ممّا تستحق فيأخذكم الاستعظام في كيفيّة وقوع المصائب عليكم، بل استحقروا المصائب واستصغروها في نفوسكم فهو استعظام حقيقي لشخصيّتكم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾، ﴿أَوَ لَمَّا﴾: الهمزة للاستفهام والاستفهام للتقريع والاستنكار، والواو عاطفة، و(ما) ظرف بمعنى حين.

ورد عن الإمام الصادق﵇ في قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ أنّه قال: «كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائة وأربعين رجلاً، قتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً، فلمّا كان يوم أُحُد أُصيب من المسلمين سبعون رجلاً، فاغتمّوا بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾»[١].

ثانياً: وها أنتم قد وقعتم في الخطأ في استعظامكم للمصيبة التي حلّت بكم واستبعادكم في أنّها كيف حصلت حتّى سألتم و﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾، وإنّ تعجّبكم بما نزل بكم من المصيبة سيزول عنكم عندما تعرفون أسبابه؛ لأنّ تعجّب الإنسان يأتي على شيء يجهل أسباب حصوله، والسبب الرئيسي في حلول المصيبة بكم وإنزالها عليكم هو أنفسكم، فقد يكون استعظامكم لما وقع وتعجّبكم بما حصل أن ينتج في نفوسكم الظنّ السيئ بالله في أنّه لماذا لم يمددكم بنصره ومعونته الخاصّة مع أنّكم مسلمون وتقاتلون تحت لواء الرسولﷺ وتدافعون عن دينه. وقد تظنّون بنفس الرسولﷺ كما ظنّ ذلك البعض منكم، وقد تظنّون بأشياء أُخرى ليس لها علاقة بالسبب الرئيسي.

---

(١) تفسير العياشي ١: ٢٠٥/١٥١.

فاعلموا أيّها المسلمون، أنّ أحد الأسباب الرئيسيّة لانتكاستكم وما حلّ بكم من المصائب، وأنّ أحد الأسباب الرئيسيّة لعدم نزول النصر عليكم بصورته التامّة هي أنفسكم، وأنّ كلّ ما يقدّمه الإنسان من فعل في الخير والصلاح أو في الشرّ والمعاصي فإنّه يترك أثره المناسب في الحياة، وعليه فإنّ النصر الإلهي لا ينزل على مجموعة أكثرها قد عصت أمر الرسول ﷺ، ولا ينزل على مجموعة مهزوزة قد انهزمت أمام العدوّ، ولا ينزل على مجموعة قد غفلت عن هدفها العظيم وانشغلت بطمعها على حطام الدنيا بجمع الغنائم، ولا ينزل على مجموعة قد قرّرت الهزيمة وخذلان الرسول ﷺ قبل أن يتقدّموا للحرب.

فإذن هناك عدّة مخالفات قد حصلت من نفس المقاتلين قد ذُكِرت في الآيات السابقة هي التي منعت النصر الإلهي، فإنّه ليس تركاً من دون سبب ولا أنّه عجز وعدم قدرة، بل الله قادر على كلّ شيء. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وإذا مُنِع النصر الإلهي هذا يعني أنّ الله قد ترك أمر معركة أُحُد يوم التقى فيه جمع المسلمين مع جمع المشركين، بل وفي كلّ معركة تفقد شروط النصر والتدخّل الإلهي، تركها لأن تجري أحداثها ضمن القانون الطبيعي للأسباب والمسبّبات التي تعمل عملها وتؤثّر أثرها بإذن الله وتدبيره وقدرته فيكون القوي فيها يأخذ الضعيف كان مَن يكن ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾، ثمّ أنّ لهذا المنع أو ترك الأمور لأسبابها الطبيعيّة من قِبَل الله بسبب الفعل المخالف للمقاتلين فيه:

١ـ مصلحة وخير للمؤمنين، فلمّا كان ما حصل من الانكسار في معركة أُحُد ظاهرة أُولى فإنّه سيكون لهم تجربة ودرساً يأخذون منه العِبَر ليشخّصوا من خلاله نقاط الضعف والقوّة حتّى لا يقعوا بمثله من التخلّف والخسران، فالخير فيما

وقع وإن جاء عن الطريق المكروه ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦) ، فكانت المصيبة والانكسار الذي جرى بإذن الله معلّماً للمؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ـ تحذير لكلّ مَن لم يساهم في المعركة خوفاً من الموت أو لأي عذر كاذب، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، فإنّه عندما بدأت تعبئة الناس للقتال والدعوة له من قِبَل المؤمنين الذين انتشروا في المدينة ليجمعوا النّاس حول الرسولﷺ ويدعوهم للمشاركة في سبيل الله ؛ إمّا كمقاتل يحمل السّيف، أو يشترك في أيّ دور يساهم في دفع الخطر عن المدينة أو عن أهلها أو عن الدين أو عن الرسولﷺ وجميع المؤمنين، أو يدفع عن أيّ قيمة بحيث تزيد الأُمّة عزّة وتزيد العدوّ ذلّة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

فكان ردّ هذا الجمع من النّاس على المؤمنين بأن يستهزئوا بهم بتقديم الأعذار الكاذبة لهم على الرغم من قدرتهم على المشاركة وعدم وجود عذر معقول يمتلكونه، وكان عذرهم الكاذب هو أنّهم قالوا: لو نعلم أنّ هناك عدوّاً فعليّاً موجوداً وأنّكم ذاهبون إلى قتال من أجل الحقّ لاتّبعناكم ولحقنا بصفوفكم وكنّا أحد المقاتلين معكم، يقولون بهذا القول وأنّ الرسولﷺ وتواتر جميع أهل المدينة يقولون بنزول العدوّ في منطقة أُحُد وهو يريد غزو المدينة وأهلها، وإنّ الذين يدعون للقتال هم أصدق النّاس وأصدق منهم فلا احتمال للكذب فيه ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

إنّ جوابهم وقولهم وردّهم هذا وبهذا اليوم العصيب وبهذا الظرف الحساس والخطر الذي يمرّ على الإسلام والمسلمين له تقييمُه الخاص بهم، فإنّه إذا كان صادراً من منافقين بالأصل فجوابهم هذا ليس فيه عجب وأنّه أمر طبيعي

ومتوقّع سواء كان في ذلك اليوم العصيب أو في غيره فهم في جميع الأحوال ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾، ولكن التقييم يختلف إذا كان ذلك الموقف وهذا الجواب قد صدر ممّن يدّعون الايمان بالله وبالرسول ﷺ وبما جاء به من الدين، فإنّهم بموقفهم هذا يكونون ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ لتكذيبهم الرسول ﷺ، ومساهمتهم في الخذلان وعدم النصرة في اليوم الذي يكون الإسلام والمسلمون محتاجين إلى طاقتهم وتجسيد ما يؤمنون به، وإنّهم استعملوا حالة النّفاق حيث قالوا وأجابوا بخلاف ما هم مستيقنون به من الوجود الفعلي للعدوّ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

ومن أجل أن تثبت لهم وللجميع كذب إجابتهم وأنّهم استعملوا حالة نفاقيّة أنّهم كانوا يمتلكون فكرة سلبيّة وكانوا متعمدين القعود والتخلّف عن القتال ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾. وهذه الفكرة السلبيّة والعمد في القعود والتخلّف عن القتال يكمن في قولهم لإخوانهم ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فإنّ كلمة ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ تكشف عن قعودهم وتخلّفهم العمدي، وتكشف هذه الكلمة أيضاً أنّهم كان لهم دور في تثبيط العزائم وكانوا يأمرون البعض بالقعود وعدم المشاركة بحيث هذا البعض لو التزم بأوامرهم ومقترحاتهم لما أصابهم القتل.

هكذا قالوا وهكذا كانوا يقولون، فيجيبهم الله كما أجاب سابقاً عن كلّ متخلّف عن القتال خوفاً من الموت أو يعتقد بأنّ القتال يسبّب الموت الحتمي ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي أنّ كلّ موت لا يقع إلّا بإذن الله وقضائه، وإذا جاء قضائه لا يردّه رادّ ولا يدرأه أحد. فليس كلّ مَن اشترك في القتال قد جرى عليه قضاء الله في قتله وموته.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ ـ حَسِبَ: أن يحكم لأحد النقيضين من دون أن يخطر الآخر بباله.

٢ ـ الفرح: انشراح الصدر بلذّة عاجلة.

٣ ـ الاستبشار: إذا وجد ما يُبشّره من الفرح.

٤ ـ يضيع: يفقد وهو ما يقابل الحفظ.

٥ ـ استجاب: هي الإجابة، وحقيقتها التحرّي للجواب والتهيؤ له.

٦ ـ القَرحُ: أ ـ الجراحة بسبب شيء خارجي، ب ـ الألم الداخلي.

٧ ـ الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه إلى بعض.

٨ـ حسبنا: من الإحساب وهي الكفاية.

س: لماذا وجّه الخطاب إلى الرسولﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، مع أنّ الرسولﷺ مؤمن مسبقاً بهذه الحقيقة التي يريد الله أن يخبره بها؟ اذكر المحتمل من الجواب.

ج:

١ـ يسمع الله الرسولﷺ ليفهم الآخرين، فالخطاب على مثل (إيّاك أعني واسمعي يا جارة) كما هي طريقة وأسلوب القرآن.

٢ـ لبيان أهميّة الحقيقة التي تتّصل بعالَم الغيب، فهي تحتاج إلى وعاء يستوعب حقيقة الحياة لما بعد الموت، ويتفاعل معها تفاعل المؤمن المتيقّن ذلك، وكان الرسولﷺ الوعاء المناسب لذلك.

٣ـ ليدخل اليقين بحقيقة الحياة ما بعد الموت في قلوب عامّة المؤمنين عن طريق الأولويّة، فإذا وجّه الله النهي بعدم الحسبان للرسولﷺ، فنحن من باب أولى ألّا نحسب الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات؟

ج:

أوّلاً: أنّ القتال لا يتمنّاه المؤمنون ابتداء، ولا يتّخذونه أسلوباً وحيداً في عملية التغيير، فهم يستعملون القتال من باب (إنّ آخر الدواء الكي)، وإنّه واقع عليهم، فإذا وقع القتال وكُتِبَ عليهم فهم مستعدّون للخوض فيه بأعلى درجات البطولة والعزّة والفداء، بل يتمنّونه تمنّي لقاء العاشق لمعشوقه، وذلك لسببين:

الأوّل: أنّ القتل في سبيل الله، فالله هو الذي كتب عليهم القتال فهو محبوب

عنده عندما يُنجَز في وقته المعيّن وشروطه المعيّنة. وبذلك يكون القتال محبوباً عند المؤمنين لحبّ الله له، فهم يحبّون كلّ ما يحبّه الله، وإنّ القتال فيه بداية نهاية العدوّ والتخلص منه أو تحجيم وتضييق دوره، وإنّ القتال فيه حياة للدين عندما يشقّ طريقه الذي تفتحه دماء الشهداء وجهود المؤمنين، والمؤمن في الحياة همّه أن يسير في أيّ مشروع يتحقّق فيه سبيل الله، وإذا زِيدَ على ذلك في أنّه قُتِل في سبيل الله فهذا يعني أنّه قد خُتِمَت حياته بأحسن عاقبة وثبات على المبدأ الذي يعيش الإنسان المؤمن من أجله، وهذا بنفسه ما يزيد المؤمن سعادة ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

ثانياً: إيمان المؤمن بالحياة ما بعد الموت، وإنّ الروح مجرّدة، وقد خُلِقَت للبقاء، وإنّ التغيّر لا يصيب إلّا البدن، لا كما يقول به الماديّون بأنّ الذي يموت يفنى جميعه ولا شيء بعد ذلك، بل هي الحياة المستمرّة للإنسان الميّت بروحه، بل وإنّ إيمان المؤمن بأنّ هناك حياة عالية خاصّة للمؤمنين الذين نالوا درجة الشهادة والقتل وهم في سبيل الله، أو لِمَن وقع عليه القتل وهو في سبيل الله ومن أجل سبيل الله كهؤلاء الذين ينزل عليهم حُكْمُ الإعدام لكونهم مؤمنين ويمثّلون الصوت الإسلامي، أو كالذين يُعذَّبون في سجون الظلمة حتّى الموت لكونهم ملتزمين بالدّين ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. والحياة والرعاية الخاصّة من قِبَلِ الله لهؤلاء الذين يُقتَلون في سبيله الله هي ما تشمل الروح بالجانب الذي يشعرها بالسعادة والمختصّ بلذّتها كالفرح والسرور والكرامة والاستبشار، فإنّ هذه الأوصاف من مختصّات إحساس الروح بها، فالذين قتلوا في سبيل الله هم يعيشون سعادة ما فوقها سعادة، فهم أسعد النّاس حياةً لأنّهم يتنعّمون في الأمور التالية:

١ـ أنّهم يتنعّمون بالقرب والعنديّة الإلهيّة، فهي ليست عنديّة زمانيّة ولا مكانيّة وإنّما

هي عنديّة الإكرام والاحترام بأعلى درجاته، وتكفي هذه النعمة وتسدّ الفراغ عن جميع النِعَم حيث يكفيه الإنسان عن كلّ شيء وهو كونه عند الله ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ المشعرة بالعطف والحنان والتربية والعطاء.

٢ـ لم تكن هذه الحياة فيما بعد القتل في سبيل الله حياة وهميّة بل هي حياة حقيقيّة، حيث تشعر الروح بكلّ الألوان التي تسعدها وتسرّها وتحسّ بها إحساساً حقيقيّاً من خلال الأُمور التالية:

١ـ الرزق الذي يأتي الروح كلّ حين، فهو رزق وعطاء مستمرّ، ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

٢ـ الفرح الذي تحسّ به الروح ومن مختصّات الروح، فإنّ هذا الرزق ليس من قبيل الأكل والشرب المادّيين، بل هو ممّا يدخل الفرح والسرور المنسجم مع ما تشعر به الروح ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، إنّ كلّ خير هو من إيتاء الله، ولكن في هذا الإيتاء خصوصيّة حيث يذكر الله اسمه وأنّه ممزوج بالفضل والزيادة فهو يختلف نوعاً وكمّاً عن مطلق عطائه.

٣ـ الاستبشار الذي هو الآخر من مختصّات الروح بالإحساس به، فالاستبشار هو البشرى والفرح والسرور الذي يحمله الخبر، فهم تُزفّ لهم البُشرى فيستبشرون بشيئين:

الأوّل: أنّهم يُخبَرون من قِبَل الله، أو هم يرون أصحابهم باعتبار أنّهم يعيشون في الحياة الأكمل والأشرف من الحياة الدنيا فيرون أصحابهم الذين لم ينالوا درجة الشهادة ولم يُقتَلوا باقين على إيمانهم مواصلين الجهاد في سبيله، فهم خلفهم يقتفون أثرهم غير تاركين طريقتهم ومبدأهم ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، فالذين قتلوا في سبيل الله يعيشون الحياة الواحدة الثابتة بكلّ ما يشعر الروح بسعادتها وسرورها بحيث لا يمسّها أيّ صفة أُخرى وشعور آخر يعكّر هذا

الجوّ عليها من الخوف من مستقبل كزوال ما هم عليه من النّعيم أو الحزن على ماضٍ ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فهي حياة تامّة الكمال، وهذه تُعْتَبَرُ شهادةً من هؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل الله وعاشوا تلك الحياة الروحيّة الحقيقيّة وهم يؤدّون شهادتهم لكلّ المؤمنين في كلّ مكان وزمان ليعيشوا هذه الحقيقة بقلوبهم وأفكارهم ومشاعرهم بكلّ حقّ وعين اليقين، وهذا أحد الأسرار لتسمية المقتول في سبيل الله شهيداً.

الثاني: أنّهم يخبرون بثواب الآخرة ومقدار فضله الزائد على كلّ ما كانوا يتوقّعونه ويتصوّرونه فيما سيحصلون عليه من عالَم الآخرة، وترك الله بيان مقداره لأنّ عطاءه لهم في عالَم الآخرة بما لا عين رأت ولا أُذن سمعت وأنّه متروك ليتصوّر الإنسان ما يمكن تصوّره ممّا حصلوا عليه فإنّه أكثر من التصوّر، وهذه النعمة والاستبشار لم يعطفه الله على ما قبلها من البشارة لعظمتها وأنّها مختصّة بعالَم الآخرة، وأظهر اسمه تعالى مرّة أُخرى ليميّزه عن بقيّة عطائه ونِعَمِه نوعاً وكمّاً ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾. فإذن هم في حياة حقيقيّة وأنّها للروح فقط، وهم في أتمّ السعادة فيها، وأنّها لا تزول عنهم.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إنّي راغب نشيط في الجهاد في سبيل الله. قال الرسول صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله فإنّك إن تقتل كنت حيّاً عند الله ترزق، وإن مت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت خرجت من الذنوب إلى الله. هذا تفسير: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل ١١: ٩/١٢٢٨٧.

واعلموا أيّها المؤمنون، وليتأكّد ذلك في قلوبكم، انّ كلّ شيء محفوظ عند الله، وأجره والثواب عليه محفوظ كذلك، وأنّ الأجر والثواب لا يكون للمؤمنين ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإذا كان محفوظاً فإنّ واقعه الخارجي موجود ومخلوق بالفعل، فهناك جنّة ونَعيم حقيقي ينتظر المؤمنين استثماره، وهذه الحقيقة تشمل المؤمنين جميعاً، وأنّه أمر طبيعي يؤمن به جميع المؤمنين لصدق وعد الله وإخباره عن المعاد والجنّة، ولكن ما يريد الله الالتفات إليه هي الميزة التي يتميّز بها بعض المؤمنين عن غيرهم من المؤمنين في الأجر العظيم الذي يلازمه علوّ الدرجة في الجنّة والنّعيم المتميّز لهم، وهؤلاء البعض من المؤمنين هم من المقاتلين في سبيل الله وهم على قسمين وشريحتين من المقاتلين:

الأولى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، فأصحاب الشريحة الأُولى هم المقاتلون في سبيل الله وقد استجابوا لله والرسولﷺ في خوض القتال على الرغم ممّا أُصيبوا به من الجراحات والألم الذي حصلوا عليه عند المعركة والقتال، والمقصود منهم في هذا الخطاب له احتمالات منها:

١ـ أنّهم الذين انهزموا في معركة أُحُد، ثمّ رجعوا استجابة لأمر الله ونداء الرسولﷺ من بعد ما ذاقوا ألم الهزيمة والندامة عليها.

٢ـ أنّه أميرالمؤمنين عليه السلام ومَن كان معه، ذلك حينما استجاب لأمر الله والرسولﷺ عندما نزل الوحي على الرسولﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(النساء:١٠٤)، راجع قصّة معركة أُحُد تعرف ذلك.

٣ـ أنّهم الذين استجابوا لله وللرسولﷺ ظاهراً، ولكن ليس كلّهم وجميعهم بل لحصّة خاصّة منهم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أي للذين

استجابوا لله والرسول ﷺ باطناً بإحسانهم وتقواهم الذي لا يعلمه إلّا الله، فليس كلُّ مُستجيب لله وللرسول ﷺ ظاهراً قد حصل على الأجر العظيم، بل الاستجابة مشروطة بمَن كان ظاهره وباطنه مُستجيباً لله وللرسول ﷺ بقتال أعدائهما ظاهراً وبالإحسان والتقوى الباطنيّين الذي لا يعلمه إلّا الله. وبهذا الاحتمال تكون ﴿مِنْهُم﴾ للتبعيض، وإنَّ الآية تحكي عن شريحة واحدة فقط.

٤ـ أنّهم الذين استفادوا من تجربة معركة أُحُد، وأخذوا الدروس والعِبَر التي استخلصها الله من معركة أُحُد، فأخلصوا باستجابتهم لله في كلّ معركة يدعو الرسول ﷺ إليها.

٥ـ أنّهم عامّة المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله والمتحمّلين كلّ المعاناة التي يسبّبها الأعداء لهم من القتل والجرح والتشريد والتهجير والتعذيب وكلّ قرح يلاقونه وهم في سبيل الله ولهم الأجر العظيم على ذلك.

الثانية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾، فأصحاب الشريحة الثانية هم من المحسنين والمتّقين، ويصبحون شريحة ثانية عندما يمكن أن نقدّر (واو) عاطفة فتصبح الكلمة (وللذين) وإنَّ (مِنْ) من كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانيّة، ويكون مرجع ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للشريحتين، وهؤلاء أصحاب الشريحة الثانية هم الذين لا يمتلكون الإحسان والتقوى فحسب، بل هم من الثابتين عليها ولا يزلزلها متزلزل عن قلوبهم، حيث حاول بعض النّاس من المنافقين أو ضِعاف النفوس والايمان أن يزعزعوا ثقة هؤلاء بالله وبالرسول ﷺ ويقلّلوا استجابتهم لهم فيقلّلوا بذلك تقوى هؤلاء وأداء التقوى بأحسنها التي تمتلكها نفوسهم وأرواحهم الطاهرة، وذلك عن طريق تخويفهم بجمع العدوّ واستعدادهم وما يمتلكون من العدّة والعدد، فما زادهم هذا القول وهذا التثبيط إلّا زيادة في الايمان بالله، ذلك حينما كان موقفهم أنّهم كانوا

يصرّحون لهم بكفاية الله لنا في جميع أمورنا وردع عدوّنا وأنّنا نتوكّل عليه وهو نِعْمَ الوكيل لأنّه القادر على كلّ شيء، وقولهم هذا هو الذي يعكس زيادة الإيمان التي امتلكتها قلوبهم ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولكن للزيادة هذه أسبابها المحتملة، منها:

١ـ درسوا نفس القول فرأوه منافياً للوحدات التي يؤمنون بها من أنّ الله قادر على كلّ شيء، وأنّهم مكلّفون بنصرة دينهم، وغير ذلك من الوحدات الإيمانيّة، فصار قول المنافقين سبباً في مراجعة وحدات إيمانهم، ولمّا رأوه منافياً لما يؤمنون به ثبتوا على إيمانهم واختاروا المضيّ قُدُماً وهو معنى الزيادة.

٢ـ لكون القائلين هم من ضِعاف النفوس المرجفين أو من المنافقين، فإنّ الذي يدرس أصحاب القول ويجدهم من ضعاف الإيمان أو من أعداء الإيمان فهذا ممّا يزيد المؤمن الثقة في إيمانه ويزرع عنده العناد والإصرار على الحق والثبات على ما هو عليه، وهو معنى الزيادة.

٣ـ وعي المؤمنين، فإنّ المؤمنين عارفون بما يوجد في السّاحة، ويعرفون بوجود المعارض ونوعه، ويعرفون ما سيصدر من هؤلاء وأمثالهم في الساعات الحرجة وما هو دورهم فيها، فما صدر من هؤلاء من قول لم يكن غريباً عنهم، بل كانوا حاسبين له الحساب ومستعدّين لردّه وردعه وتجاهله وعدم التأثّر به، بل يؤثّر المؤمنون بهم من خلال محاججاتهم وردودهم فيكسبونهم إلى صفوف المؤمنين، وهو معنى الزيادة.

٤ـ أنّ أكثر ما يريد هؤلاء بقولهم: إنّ الأعداء قد جمعوا لكم فاخشوهم هو أن يخوّفوا المؤمنين بالقتل، والمؤمنون يؤمنون بأنّ القتل في سبيل الله من ورائه الحياة الخاصّة وعند ربّهم يرزقون الرزق الخاص كما تحدّثت عنه الآية

السابقة وغيرها، فهذا يزيدهم شوقاً إلى لقاء الله وعزيمة على القتل والمقاتلة، وهو معنى الزيادة.

٥ـ أنّ نفس الشدّة وجمع الأعداء يولّد عند المؤمنين الحماس والبطولة والزيادة في الإيمان والإحساس بالقرب من الله والعيش مع المعاني الروحيّة العالية بغض النظر عن قول هؤلاء، وما قول هؤلاء إلّا كاشف عن هذه الزيادة والحالة التي تحصل عند المؤمنين في ساعة الشدّة وقرب القتال في سبيل الله.

٦ـ أن تكون هذه الزيادة من اللطف والرعاية الخاصّة منه سبحانه للمؤمنين حيث يمنع عنهم في تلك اللحظات كلّ تأثيرٍ لشياطين الإنس والجنّ، فتكون النتيجة أنّهم يزدادون إيماناً، وعلى هذا الاحتمال يكون الفاعل هو الله في قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾.

فإذن من كلّ ما مرّ علمنا أنّه كانت هناك مجموعة من المؤمنين قد استجابت لله والرسولﷺ واتّصفت بالإحسان والتقوى، ولم يزدهم عمل الأعداء المختلف في الساحة إلّا زيادة في الإيمان ورسوخاً في العقيدة، وقلنا سابقاً عند توضيح كلمة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ إنّه كما للعمل السيئ والمعاصي آثار في الحياة الدنيا فكذلك الطاعة لها أثرها في الحياة الدّنيا.

وعليه فعندما رأى الله هؤلاء المجموعة من المؤمنين في صدق إيمانهم واستجابتهم وإخلاصهم وتوكّلهم ومعاناتهم التي تحمّلوها من أجل إيمانهم، بل لم تزدهم المعاناة إلّا انصهاراً في الإيمان، وإنّ إيمان ومواقف مثل هؤلاء المؤمنين له أثره في الدنيا قبل الآخرة، وفعلاً حصل الأثر، فأنزل الله عليهم نعمته وفضله؛ لأنّ كلّ نعمة خاصّة منه سبحانه فيها زيادة على ما يستحقّه الفرد، فهي فضل منه سبحانه، فكانت النتيجة أن رجع هؤلاء المؤمنون بالنصر والغَلَبَة بحيث لم يمسسهم قرح ولا ألم ولا أيّ سوء، وعادوا إلى مواقعهم بما لم يكن بحسبان أحدٍ أنّهم يعودوا

بما هم عليه من السلامة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق:٣).

وهناك نعمة أُخرى أكثر قيمة من العود بسلامة وهي أن حصلوا على رضوان الله فيما قدّموه من العمل، فقليل من العمل المقبول عند الله تلحقه نعمة عظيمة من الله لا يمكن أن توصف فكيف بمَن حصل على رضوان الله وهو ذو الفضل العظيم دائماً وأبداً!! ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

إذن الخوف من العدوّ أو القتل لم يكن من صفة المؤمنين؛ لأنَّ هذا النوع من الخوف ينافي التوكّل على الله، وإنّه جهل في معرفة الله، وإنّه نقص في الإيمان بالله، وإنَّ هذا النوع من الخوف مصدره الشيطان، فالذي يستسلم للشيطان يخاف، ولا يقدر الشيطان على أحدٍ إلّا مَن اتّخذه وليّاً، فينحصر زرع الخوف في قلوب أولياء الشيطان، وأمّا المؤمنون الذين اتّخذوا الله وليّاً وناصراً ووكيلاً فهم يخافونه ولا يخافون أحداً غيره، لعلمهم أنّه بيده الأمور، وأنّه القادر على كلّ شيء، وهو مالك الموت والحياة وما قبلهما وما بعدهما وهو الخالق لكلّ شيء، وهذا هو الخوف الإيجابي الذي يريده الله من المؤمنين بأن ينحصر خوف المؤمنين منه سبحانه فقط، وهذا منتهى البطولة في الحياة الدنيا، وهذا سّر شجاعة المؤمنين، وهذا سّر وجود حبّ الشهادة في قلوب المؤمنين ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿ذَلِكُمْ﴾ اسم إشارة، مرجعه إلى أحد أُمور منها:

١ـ إلى عمليّة التخويف من الأعداء.

٢ـ إلى أُولئك النّاس الذين يخوّفون المؤمنين، باعتبار ضمير العقلاء الذي يحمله اسم الإشارة.

٣ـ إلى عمل الشيطان العام الذي منه تزيين التخويف في القلوب.

﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(آل عمران:١٧٦-١٧٧).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

الحظ: النصيب المقدّر.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيتين المذكورتين أعلاه؟

ج:

خطاب تسلية للرسولﷺ لرفع ما يوجب حزنه عليه، وليس حزناً على حطام من الدنيا قد فاته، ولا حزناً على مصيبة قد ألمّت به، فإنّ الرسولﷺ لا يأخذه الحزن على ذلك، فإنّ الذي أخذه هو حزن رسالي، فالذي كان همّه الإيمان والمؤمنين ويعشقهما فهو الذي يحزن على ما يصيبهما من مصيبة، والذي يفهم الإيمان وما سيحصل عليه المؤمنون ويحبّ الناس جميعاً فهو الذي يحزن على الذين يسارعون في الكفر؛ لعلمه بأنّهم يسارعون بحرمان أنفسهم من ذلك النّعيم ويقرّبونها إلى عذاب الجحيم، فكان حزن الرسولﷺ على أُولئك الناس الذين يعملون جاهدين أنفسهم من دون تأمّل في أن يعرقلوا حركة الإيمان والمؤمنين سواء كانوا منافقين أو كافرين أو مشركين، منهمكين في حركة الفساد فهم يصرفون أموالهم ويجهدون تفكيرهم وأبدانهم للانحراف عن الخير الذي يريده الله ورسوله

للأرض وللإنسان ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

الحزن قد أصاب الرسول ﷺ على هؤلاء ولم يفكّر الرسول ﷺ عن سبب انحراف هؤلاء ولم يتأمّل في ذلك ولم يلفت الله نظر الرسول ﷺ لذلك لعلمه أنّ ما يحصل لهؤلاء لم يكن سببه الرسول ﷺ ولا الرسالة فإنّ فيهما الكمال والتمام. فلا سبب إلّا أنفسهم، ولا سبب إلّا اختيارهم، ولا سبب إلّا إصرارهم وعنادهم في بقائهم على ما هم عليه من الباطل والانحراف، وبسلوكهم هذا لا يضرّون إلّا أنفسهم. فأمّا الله فلا يضرّون ذاته مهما اجتهدوا في حركتهم المضادّة كما هو واضح، ولا يضرّون الوحدات التي ترجع إليه سبحانه كذلك والمؤمنين به؛ لأنّ الدين محفوظ والحركة الإيمانيّة محفوظة لا يطمسها أيّ حركة معارضة معادية. فإنّ مثل هذه الوحدات مستمرّة إلى يوم القيامة ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢)، فهم لا يضرّون الله ذاتاً ولا ما يتعلّق به ويريد له البقاء والاستمراريّة ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ﴾.

وضمن القانون الذي وضعه الله للوصول إلى نعيمه وجنّته فإنّ مثل هؤلاء الذين يسارعون في الكفر لا يشملهم، ولم يكن هذا القانون مخفياً على أحد، فإنّ قانون الوصول إلى الجنّة يعلم به كلّ أحد من النّاس فطريّاً ومن خلال ذكره في كلّ الكتب السماويّة وأخبار الأنبياء والدعاة إلى الله، فهم يعلمون الطريقين، الموصل إلى الجنّة والموصل إلى النّار، وقد اختاروا الطريق الثاني على علم وإصرار من أنفسهم.

وبعبارة أخرى: هم الذي رفضوا الاستجابة لنداءات الله التي أودعها في فطرة الإنسان وعقله وأظهرها في كتبه وعلى لسان أنبيائه، ولم يحصر تلك النداءات العادلة على أحدٍ من الناس ولم يغلق بابه بوجه أحد من الناس، بل هم الذين أغلقوها على أنفسهم ولم يريدوا حظّاً من خير الآخرة، بل كان جميع عملهم جارياً

بالتمرّد على الله ولم يتركوا لله عنصراً من عناصر الهداية سالماً لتنفذ هداية الله من خلاله لتنقذهم ممّا هم فيه. ولم يبقَ أمام الله إلّا أن يجري قضاءه وإرادته المنسجمة مع ما يريدون ومع ما توصّلوا إليه من قانون الختم الذي شمل قلوبهم.

فمن ناحية الآخرة لم يبقَ أمامهم إلا العذاب العظيم الذي ينتظرهم المنسجم مع إرادتهم وما قدّموه من العمل الذي حوّل ذاتهم إلى ذات شقيّة مقتضية للعذاب الأليم ﴿يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فليس هناك موضوع يستوجب حزنك أيّها الرسول ﷺ مادام الله الذي هو أرحم الراحمين وأكثر عطفاً من غيره على الناس قد تعلّقت إرادته بأن لا يجعل لمثل هؤلاء حظّاً في الآخرة، كما لا يحزنك عملهم ضدّ المؤمنين فإنّهم أعجز من أن يضرّوا الله بشيء. لا بل لو اجتمعت كلّ الناس وقد أخذوا واشتروا الكفر واستبدلوه بالإيمان الذي يمتلكونه، فهم لن يضرّوا الله شيئاً أبداً. فنوع عملية الاستبدال هذه لا يلحق ضررها إلّا على أنفسهم، فإنّ الله لا تضرّه معصية مَن عصاه كما لا تنفعه طاعة مَن أطاعه، فإنّ الله غنيّ عن العالمين.

ولم يستبدل الله قانونه ومنهجيّته للحياة وطريق الوصول إلى مرضاته ولم يغيّر طريق الوصول إلى الجنّة أو النّار الذي رسمه الله لعباده لكون نظامه هو النظام الأكمل والأحسن والأتمّ. وليس من هدف خلقه للخلق جميعاً أن وضع الله في حسابه الربح والخسارة؛ لأنّهما من صفات الممكن لا الغنيّ المطلق وبالذات، ولهذا كلّ مَن اشترى الكفر بالإيمان مهما كثر العدد أو قلّ فله عذاب النار الذي هو عظيم وأليم قطعاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ نملي: نزيد لهم العطاء بما لا قيد فيه.

٢ـ المُهين: الذليل.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآية المذكورة أعلاه؟

ج:

لقد ذكرنا في سورة (البقرة آية ٧) هناك عدّة من القوانين والسُنَن الإلهيّة التي سنّها الله للعباد، وفي هذه الآية يخبر عن إحدى السُنن والقوانين المختصّة بمطلق العاصي ومنهم الكافرون الذين غرّتهم الحياة الدنيا وغلبتهم على أسبابها، فصاروا أقوياء وأغنياء يعيشون حالة الترف وتناول كلّ ما يشتهون ويطبّقون كلّ ما يروق لهم تطبيقه، يعيشون بهذا الاتّجاه مغترّين بخضوع الأسباب لهم متناسين عالَم الغيب الذي يحيط بهم وهم لا يشعرون، وينبّه الله من خلال هذا الخطاب كلّاً من المؤمنين والكافرين بالاتّجاهين المتخالفين:

١ـ فأمّا المؤمنون الذين يرون الحياة التي يمتلكها العاصون والظالمون والكافرون، فيعرّفهم الله من خلال هذا الخطاب حقيقة تمليك هؤلاء وما هي خاتمته عليهم ليكون تسلية للمؤمنين وزيادة في علمهم ومعرفتهم ولإزالة شبهة قد تعتري أذهانهم إليها في أنّهم رأوا المشركين في معركة أُحُد وهم يمتلكون القوّة من

العدّة والعدد بما لا يمتلكه المؤمنون وكما يرى المؤمنون اليوم أنّ القوّة لا زالت بيد الكافرين من العدّة والعدد حيث العالَم كلّ العالَم بيدهم وتحت سيطرتهم فلا يترك الذهن هذه الظاهرة من دون سؤال قد يؤثّر أثره السلبي فيكوّن شُبهة.

٢ـ وأمّا الكافرون وإخوانهم فيكون هذا الخطاب عامل تنبيه وتحذير لهم وحجّة عليهم.

ومجمل القول في بيان خطاب الآية: أنّه لا تحسبوا ولا تظنّوا أيّها الكفّار في أنّ ما نمليه عليكم فيما أنتم عليه بعدم وجود المانع ورفع القيد في جريان أسبابه لكم أنّه خير لأنفسكم، فإنّ الخير للنّفس لا أن تنتعش بوقت قصير وبلذّة غير حقيقيّة، وتكون نتيجة هذه اللّذة أن تجرّ صاحبها إلى أشدّ عذاب الخلد والعذاب المُهين، فليس ذلك من اختيار العاقل الذي يريد الخير لنفسه، فليعلم الكافرون أنّهم في حالة استدراج من قبل الله، وأنّ الله يملي لهم بالصحّة وطول العمر والقوّة والمال وكثرة الأتباع وبقيّة الملذّات وما هي إلّا إشباع لغرائزهم التي اختاروا لها طريق الإشباع الزائل، وإنّهم واقعون تحت إمهال الله لهم، وإنّهم كلّما طال بهم العمر كلّما ازداد الإثم عليهم؛ لأنّهم سائرون في عمل الإثم وعلى طريق لم يكن فيه نصيب من الآخرة إلّا عذاب النّار بصورته المُهينة لهم، بعكس ما كانوا يرون أنفسهم من الكبرياء والتجبّر والغرور بسبب ما كان الله يملي عليهم باختيارهم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

س: هل قولكم السابق يعني أنّ أسباب الدنيا عندما تنفتح على أحد ولم يجد مانعاً يمنعه، بل تدرّ عليه بالرزق والغنى فهو باب من أبواب الإملاء فيلزمه التجنّب والحذر منه؟ اذكر الجواب المحتمل على ذلك.

ج:

أنّ الله يحب أن يرى عبده المؤمن وهو في حالة غنى وقوّة وأن يستثمر كـلّ الأسباب التي أُتيحت له من الحلال، وسيجد الله يملي عليه من الخير والبركة، فمن جملة ما يميّز المؤمن عن غيره في الكسب والصّرف في أن يكونا من حلال وفي الحلال، فمنظار الآية لا إلى أصل استثمار الأسباب وإنّما إلى طـريقة اسـتثمار الأسباب من قِبَل الكافرين الذين يمهلهم الله على الرغم من استغلالهم المـنحرف للأسباب، فعدم المنع وصنع المانع من قِبَل الله أمام الكافرين وهم يتحرّكون بالاتّجاه المعاكس لإرادة الله فهو إملاء لهم ليزدادوا إثماً.

س: كيف نفهم أنّ الإملاء من قِبَل الله للكـافرين لا يـزيدهم إلّا إثـماً؟ اذكـر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ إمّا لكونهم باقين على كفرهم فلا شيء لهم إلّا الإثم لعدم إيمانهم.

٢ـ إمّا لكون ما يقدّمه الكافر ليس فيه حساب منه لعالَم الغيب والإيمان بـه فـلا يكون إلّا من حرام وإلى الحرام، فليس فيه إلّا الإثم.

٣ـ إمّا لكون ما يقدّمه الكافر حتّى لو كان فيه نوع من الخير انطلاقاً من إنسـانيّته وحياته في المجتمع فهو غير مقبول عند الله؛ لأنّه صادر منه لا من باب القربة إلى الله، فليس له إلّا الإثم.

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ ليذر: أ ـ الإظهار والإيجاد. ب ـ الترك.

٢ـ الاطّلاع: ما تطلع عليه الشمس فتكشفه.

س: ما هو التفسير المحتمل للآية المذكورة أعلاه؟

ج:

أنّ مسألة الاختيار التي تدخل في عمليّة تمييز الخبيث من الطيّب مسألة قائمة في حياة الإنسان من إرادته وتفكيره، وقائمة في مطلق الحيوان على أساس غريزي، ففي مأكله ومشربه وملبسه وسكناه وأغلب شؤونه قائمة على أساس من التمييز بين الخبيث الذي يضرّه فلا يرغب فيه فيبتعد عنه وبين الطيّب الذي ينفعه فيرغب فيه فيتناوله، ولا تأتي عمليّة الاختيار بعد التمييز إلّا في حالة اختلاطهما، والله يقول في خطاب هذه الآية: انّ من جملة هدف الخلق التمييز بين الطيّب والخبيث، وحاجة التمييز لا لأجل اختلاطهما على الله ـ تعالى الله من ذلك ـ بل من أجل تحقّق الأُمور التالية منها:

١ـ لضرورة مطابقة المعلوم خارجاً على ما يعلمه الله سبحانه مسبقاً بكلّ الأُمور التي تحيط بالشخص.

٢ـ ليكون الإنسان على بيّنة من حقيقته أنّه من الطيّبين أو من الخبثاء.

٣ـ ليكشف بعضهم إلى المؤمنين حتّى يكونوا على حذر من الخبثاء.

٤ـ ليعلم الجميع أنّهم يمرّون تحت قيمومة الله ومراقبته وعلمه في جميع تحرّكاتهم ودوافعهم.

٥ـ ليعلم الجميع أنّهم في الحياة تحت اختبار وامتحان والذي به يتميّز الخبيث عن الطيّب.

٦ـ ليعطي للمؤمنين الدرس في أهميّة عملية التمييز بين الخبيث والطيّب حتّى يعملون به وهم يشقّون حركتهم نحو الله من أجل أن يطهّروا صفوفهم من كلّ خبيث يحاول أن يخترق صفوفهم، فإنّ حركة المؤمنين لا تستقيم ولا يُكتب لها النجاح إذا لم يميّزوا هذا عن ذاك.

فالاختيار قائم على تمييز مسبق، فاختيار الله للأنبياء قائم على تمييز مسبق لجميع أفراد البشر، واختيار سيّد الأنبياء قائم على أساس من التمييز المسبق لجميع أفراد الأنبياء، واختيار أهل الجنّة قائم على أساس من التمييز المسبق، كما أنّ اختيار أهل النّار قائم على تمييز مسبق؛ لأنّ التمييز لا يقف على حدّ التمييز بل تستتبعه آثار ونتائج على أساسها يقع الاختيار ويحصل كلّ منهما على نصيبه من جنّة أو نار، وليس الطيّب والخبيث من الصفات التي تعجن بعجينة الإنسان فيكون الإنسان مجبراً عليها، بل هي من الصفات الاختياريّة التي يختارها الإنسان في أن يكون طيّباً أو خبيثاً.

واختيار الله للنتائج التي سيحصل عليها كلّ طرف من الله قائم على أساس ما اختاره الإنسان لنفسه، وتمييز الخبيث من الطيّب المختص بالإنسان صعب المعرفة على الإنسان، فليس التمييز قائماً ويكتفي بالظاهر حتّى يعلمه الإنسان، فإنّ الإنسان يحمل المتغيّرات بين الحين والآخر، وله القابليّة على الكتمان ما لم يكشفه

أحد من النّاس، ولهذا جعل الله عملية التمييز من مختصّاته؛ لأنّه سبحانه وحده القادر والعالِم بخفيّات ما يحمله الإنسان في محلّ ظهوره وخلواته، فاطمئنّوا أيّها المؤمنون وأنتم تعيشون حالة الاختلاط فلا يتميّز لكم المخلصُ في إيمانه عن غيره ولا يتميّز لكم المدّعون عن غيرهم لكثرتهم أو لتأثير الإعلام الذي يمتلكه الآخرون أو للأموال التي تغدق على أتباعهم، وغيرها من الأسباب التي جعلت المؤمن الحق يعيش حالة الغربة بين مجتمعه ويعيش حالة التهميش في دوره الفعّال في الأمّة، فما أنتم عليه باقٍ؛ لأنّ الحياة ليست لكم بل الحياة لأهلها الذين يريدون أن يعيشوها كما تحلو لهم باسم الدينِ أو بغيره، وما ذلك كلّه إلّا ابتلاء لكم ولهم، فأمّا الذي لكم فهو عملية تطهير لذنوبكم وإكمال لشخصيّتكم لتكونوا من الطيبين ورفعة لدرجاتكم التي ستنالونها في الجنّة، وأمّا الذي لهم فهو عمليّة تمييز لظهور خباثتهم التي سينالون آثارها السيّئة في الدنيا والآخرة.

فصبراً جميلاً على ما أنتم عليه أيّها المؤمنون ولا يكون ذلك إلّا بجهودكم في البقاء على ما أنتم عليه من الإيمان بالله والتزامكم بالخط الذي رسمه الله لكم ودعا إليه رسولكم وأهل بيته سلام الله عليهم أجمعين، ولا تستوحشوا طريق الاستقامة على الإيمان بما هو لقلّة سالكيه، فإنّ لكم في جميع ذلك أجراً عظيماً ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

س: ما هي المحتملات في ما هو المراد من الغيب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾؟

ج:

١ـ مطلق الغيب لاختصاصه بالله.

٢ـ خصوص الغيب المتعلّق بأُصول الدين وفروعه إلّا من خلال قناة واحدة وهي عن طريق الرسل الذين اختارهم الله واجتباهم لوحيه لِتطّلعوا عليها من خلال ما ينقله الرسل إليكم.

٣ـ حصّة من الغيب التي يطّلع الرسل عليها لما وصلوا بجهادهم أنفسهم حتّى صارت أرواحهم الطّاهرة بمستوى أن تتكشّف لهم بعض أسرار الغيب، فهم يرون ما لا نرى ويسمعون ما لا نسمع.

٤ـ الغيب المتعلّق بما يحمله الناس، حيث لو جعل الله طريقاً لاطّلاع الناس على ما يحمله الناس وما يفعلون لاختلّ نظام الحياة.

٥ـ وما كان الله ليطلعكم على الغيب المختص بأُصول الدين وأنتم تمتلكون العقل الذي وظيفته تقديم الاستدلال والبراهين لتتوصّلوا من خلاله إلى الايمان بالغيب، وما كان الله ليطلعكم على غيب فروعه إلّا عن طريق الرسل الذين اجتباهم الله.

٦ـ هناك أسرار وغيب في أن تسير الحياة بهذا الشكل، ولم تكن هناك ضرورة لأن تتكشّف جميع الأسرار للنّاس؛ إمّا لاختصاص ذلك بالله، أو لعدم تحمّل الإنسان لأن يكون وعاءً للغيب، أو لطبيعة الدنيا في أنّها محاطة بحجب. وعلى جميع الأحوال ليس أمام الإنسان إلّا الايمان بالله وما جاء به الرسل، وأن يعمل بما يأمره إيمانه بتقوى الله، وأن يكون من المستمرّين على هذا الطريق المستقيم وبعدها سيحصل على الأجر العظيم، فهذا هو الطريق المنحصر للطيّبين ولمَن أراد أن يكون منهم.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (آل عمران: ١٨٠ ـ ١٨٤).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ ـ البخل: إمساك المُقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه.

٢ ـ الطوق: ما يلتف حول العنق.

٣ ـ الميراث: انتقال قُنية إلى شخص من ميّت من غير عقد.

٤ ـ الحريق: المحرق بالنّار.

٥ ـ القربان: كلّ ما يتقرّب به إلى الله.

٦ ـ الزّبر: القطع والفصل، فزبرت أي: كتبت؛ لأنَّ الكتابة تقطيع للحروف والكلمات والفصل بينهما، وزبر الحديد أي قِطَعَه.

٧ ـ المنير: المضيء.

● البخل واثره على الفرد والمجتمع

س: ما هو المحتمل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؟

ج:

الدرس الأخير من دروس معركة أُحُد يمليه الله من خلال هذه الآيات ليكون عِبرة لمَن اعتبر وذِكراً لمَن يتذكّر، ينطلق الدرس من أولئك الذين بخلوا ولم يساهموا في عملية دعم الحركة الجهاديّة للرسولﷺ في معركة أُحُد، لم يساهموا على الرغم من أنّهم يمتلكون الشيء الكثير ممّا فضّل الله عليهم، لم يساهموا ظنّاً منهم أنّ المساهمة والدعم يسبّب خسارة ونقصاً لأموالهم، لم يساهموا حرصاً على دنياهم، لم يساهموا على الرغم من حاجة نصرة الدين والمجاهدين لمساهمتهم، لم يساهموا وهم يظنّون أنّ المال الذي في حوزتهم علّته التّامة في جمعه وحصوله هو جهودهم التي بذلوها لا أنّه من فضل الله ورزقه، لم يساهموا وهم يظنّون أنّهم يمتلكون ما حصلوا عليه بالملك الحقيقي وليس أمانة في أعناقهم فيمنعون العطاء حسب ما يشاؤون لا ما يشاء الله بما فرض عليهم من وجوه الإنفاق، لم يساهموا وهم يظنّون أنّ مثل عدم المساهمة هذه هي خير لهم ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ﴾، فيجيبهم الله على عدم مساهمتهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾، وللشر لهم فيه عدّة محتملات منها:

١ـ لأنّ عدم المساهمة تضعيف للإسلام وإذا خسر فلا بديل عنه إلّا الشّرك وهو

شرّ لهم.

٢ـ لأنّ عدم المساهمة تضعيف للمسلمين الذين يدافعون عن مدينتهم، وإذا دخل المشركون المدينة يحرقون الحرث والنسل، وهو شرّ لهم.

٣ـ لأنّ عدم المساهمة ناتج عن بخل وهو حالة مرضيّة وهي من رذائل الأخلاق مبغوضة عند الله ويجازي عليها الجزاء السيّئ لحاملها، فوجودها فيهم هو شرّ لهم ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة، ٣٤-٣٥).

٤ـ لأنّ عدم المساهمة يكشف عن عدم إيمانهم بالله وبالرسول ﷺ أو عدم إيمانهم بما جاء به من وجوب الإنفاق في سبيل الله، والكلّ شرٌّ لهم.

٥ـ لأنّ عدم المساهمة فيه الحرمة الواضحة القطعيّة لدعوة الرسول ﷺ وأمره بالإنفاق، فعصيان الرسول ﷺ شرّ لهم.

٦ـ لأنّ عدم المساهمة تكشف عن عدم الاهتمام بالمخاطر التي تحيط بهم وبدينهم، واللامبالاة في هذا الجانب شرّ لهم.

٧ـ لأنّ عدم المساهمة في مثل هذه المشاريع فيها خسارة كبيرة من الثواب الجزيل الذي كتبه الله للمتبرّعين، فالبخل شرّ لهم.

فإذن لم تكن هناك نقطة إيجابيّة في عدم مساهمتهم الناتجة من البخل، خصوصاً في القضايا ذات الحركة النوعيّة والنتاج النوعي المتعلّق بنفس الدين والمحافظة عليه من خطر الأعداء، فهنا يكون الجزاء بحجم التخلف، ولهذا يكون جزاؤهم يوم القيامة أنّ الله سيحوّل المال الذي بخلوا به ولم يساهموا به إلى طوق من نّار يطوّق به أعناقهم وأبدانهم وهو نوع من العذاب الخاصّ بهم وهو عذاب فوق

عذاب ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وعمليّة التطويق قد تحصل ما بعد الموت وفي عالَم القبر، وقد تحصل في عالَم يوم القيامة وبعد دخول النّار كما توضّح الروايات ذلك التي سنذكر بعضها في نهاية الحديث.

ثمّ إنّ نصرة الدين والرسول ﷺ والمؤمنين هي نصرة لله. وعندما جعل الله الأمور تسير ضمن الأسباب الطبيعيّة، وحمّل أصحاب رؤوس الأموال على التبرع للمشاريع الإسلاميّة هذا لا يعني أنّ الله بحاجة إلى أموال الأغنياء وإلى مساهمتهم، بل ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي كلّ شيء يرجع إليه سبحانه قبل موتهم وما بعد موتهم، فإنّ لله ميراث كلّ شيء، وإذا تعلّق قضاء الله في نصر مشروع فإنه يفتح أبوابه على غير هؤلاء الذين بخلوا، ليقدّموا التبرع بكلّ امتنان أو ينصر دينه والمؤمنين من دون سبب طبيعي أصلاً.

هذا بالإضافة إلى أنّ كلّ فرد لابدّ أن يعلم أنّه ما من حركة ظاهريّة وباطنيّة إلّا والله يعلم بها قبل وقوعها وعند وقوعها ونهاية وقوعها، فلا تخفى على الله من خافية ليحذر الله كلّ فرد في كلّ حركة يتحرّكها سواء بخل أم لم يبخل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ورد عن الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنّه قال: «ما من ذي زكاة نخل ولا زرع ولا كرم يمنع زكاة ماله إلّا قلدت أرضه في سبع أرضين، يطوّق بها إلى يوم القيامة»[(١)]. وورد عن الإمامين الصادقين عليهما السلام في نفس الآية أنّه قال: «ما من أحد يمنع زكاة ماله شيئاً إلّا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه، ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عزّ

---

(١) تفسير العياشي ١: ٢٠٧/ ١٥٩.

وجلّ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[1].

س: ما هو التعريف الاصطلاحي للبخل؟

ج:

البخل: إمساك النّفس ممّا اقتناه عمّا لا يحق له حبسها شرعاً أو عقلاً أو عرفاً لوجود الحاجة ووجود المقتضي لقضائها، وهو ما يقابل الجود.

س: ما هي أنواع البخل؟

ج:

كما أنّ الإنفاق يشمل الإنفاق المعنوي والمالي فكذلك البخل، فـالبخل عـلى قسمين:

١ـ البخل المعنوي، وهو أن يبخل الإنسان من أن يعلّم غيره أو يحترمه أو يمنع عنه ما يفرحه أو يمنع نفسه عن خدمة الناس بما رزقه الله من المركز الاجتماعي.

٢ـ البخل المادّي، وهو عدم صرفه للمال ومن المقتنيات التي يمتلكها مع وجـود ضرورة للصرف والتقديم.

س: ما هي أقسام البخل؟

ج:

١ـ البخل على نفسه وشخصه.

٢ـ البخل على الغير.

---

(١) الكافي ٣: ٥٠٢/١.

س: ما هي الأقسام في ما يبخل الإنسان به؟

ج:

١ـ أن يبخل في مقتنياته الخاصّة به، قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٨٠).

٢ـ البخل في مقتنيات غيره، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ (النساء:٣٧).

س: ما هو موقع البخل في آيات الذكر الحكيم؟

ج:

١ـ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل:٨ـ١٠).

٢ـ قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٠).

٣ـ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (النساء:٣٧).

٤ـ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الحديد:٢٤).

٥ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (التوبة:٧٦).

٦ـ قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً

غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

س: ما هي مخاطر البخل الدينيّة والاجتماعيّة والشخصيّة حسب ما ورد في الروايات؟

ج:

١ـ البخل من الأمراض النفسيّة الناتج عن خطأ في التفكير ونقص في العقل والذي تتفرّع منه أمراض أخلاقيّة أخرى، فهو أذمّ الأخلاق، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «البُخل جامع لمساوي العيوب، وهو زمام يُقاد به إلى كلّ سوء»[١]. وورد عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه قال: «البخل أذمّ الأخلاق»[٢].

٢ـ البُخل يجلب لصاحبه الذّل والمسكنة، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «البُخل جلباب المسكنة»[٣]. وعنه أيضاً: «مَن بخل بماله ذلّ، ومَن بخل بدينه جلّ»[٤].

٣ـ البُخل يكون سبباً من أسباب تمزّق العرض وانحرافه، فالمرأة تحتاج للصرف في تدبير أمورها الحياتيّة اليوميّة على نفسها أو على أولادها، فعندما تُمتنع عن العطاء من دون مبرّر مع وجود الإمكانيّة عند الرجل البخيل فقد تضطرّ المرأة إلى الانحراف أختاً كانت المرأة أو بنتاً أو زوجة، ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «البخيل يسمح من عرضه، بأكثر ممّا أمسك من

(١) مستدرك الوسائل ٧: ٢٩/٧٥٦٠.

(٢) البحار ١:٩٤/٣٦.

(٣) الكافي ٨: ٢٣/٤.

(٤) غرر الحكم: ٨٦/١٤٣٢.

عرضه»[1]، وورد عن الإمام الرضاﷺ أنّه قال: «البُخل يمزّق العرض»[2].

٤ـ حياة الإنسان لا تكون منفصلة عن الاجتماع والأخذ والعطاء، فالبخيل لا يمكنه أن يكتم بخله لعلاقته مع الناس والمجتمع المحيط به الذي يتعامل معه يوميّاً، وبما أنّ البُخل حالة مذمومة لا يحبّها الآخرون فيكون البخيل بذلك عرضة للمسبّة والإهانة، ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «بالبخل تكثر المسبّة»[3].

٥ـ البخل أحد نتاج عدم المعرفة بالله وقلّة الإيمان به، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد أبداً»[4]، ورد عن الإمام أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «البُخل بالموجود سوء ظنّ بالمعبود»[5].

٦ـ البخل سبب من أسباب العزلة الاجتماعيّة ونفرة الكثير من صاحبه؛ لأنّها صفة لا يتحمّلها صاحب ذوق أخلاقي وإنساني، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «البخيل بعيد عن الله، بعيد عن الناس، قريب إلى النّار»[6]، وعن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «البخيل يذلّ مصاحبه، ويعزّ مجانبه»[7]. وعنه أيضاً: «ليس لبخيل حبيب» [8]. وعنه أيضاً: «لا غربة كالشّح»[9]. وعنه أيضاً:

---

(١) غرر الحكم: ٦٥١٦/٢٩٢.

(٢) أعلام الدين: ٣٠٨.

(٣) عيون الحكم و المواعظ: ١٨٧.

(٤) وسائل الشيعة ٩: ١١٤٧٢/٤٠.

(٥) غرر الحكم: ٦٥١٢/٢٩٢.

(٦) مستدرك الوسائل ٧: ٧٥٠٩/١٣.

(٧) غرر الحكم: ١٤٠٩.

(٨) غرر الحكم: ٦٥٤٠/٢٩٣.

(٩) غرر الحكم: ٦٥٨٠/٢٩٤.

«وإيّاك ومصادقة البخيل، فإنّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه»[١].

٧ـ البخيل يحسب في بخله حكمة في التصرّف ولكنه واقع في عين السفه، فهو في حاجة فلا يقضيها، وهو في غنى إلّا أنّه يعيش حياة الفقراء، يحسب أنّ ما يجمعه لنفسه إلّا أنّ حقيقة جمعه للمال وخاتمته للوارثين، ورد عن الإمام أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «البخيل يبخل على نفسه باليسير، ويسمح لوارثه بكلّها»[٢]. وعنه أيضاً: «عجبت للشقّ البخيل، يتعجّل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»[٣].

٨ـ البخل يوجب الاستهانة بكرامة الناس وعدم المبالاة بمعاناة الآخرين ومشاعرهم وما يتحسّسون منه نتيجة بخله، ورد عن الإمام أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «النّظر إلى البخيل يقسي القلب»[٤]، فكيف بنفس البخيل؟!.

٩ـ البخل يوجب ترك الكثير من الواجبات الشرعيّة الماليّة والاجتماعيّة، ويوجب اقتراف الكثير من المحرّمات التي يحصل البخيل من خلالها على المال، ورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه قال: «لا يطمعنّ البخيل في صلة الرحم»[٥]، وعنه أيضاً: «إنّ البخيل مَن كسب مالاً من غير حلّه، وأنفقه في غير حقّه»[٦]، وعنه

---

(١) وسائل الشيعة ١٢:٣٣/١٥٥٦٧.

(٢) غرر الحكم:٢٩٢/٦٥١٥.

(٣) غرر الحكم:٣٧٠/٨٣٧٣.

(٤) تحف العقول: ٢١٤.

(٥) الخصال ٢:٤٣٤/٢٠.

(٦) وسائل الشيعة ٩:٣٨/١١٤٦٨.

أيضاً عن أبيه عليهما السلام أنّه قال: «إنّ علياًﷺ سمع رجلاً يقول: الشّحيح أعذر من الظالم، فقال: كذبت، إنّ الظالم يتوب ويستغفر الله ويردّ الظلامة على أهلها، والشحيح إذا شحّ منع الزكاة، والصدقة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، والنّفقة في سبيل الله وأبواب البر، وحرام على الجنّة أن يدخلها شحيح»(١).

١٠ـ البخل يجرّ صاحبه إلى أن يكون منّاعاً للخير، ورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه قال: « إنّ أميرالمؤمنينﷺ بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر ... فقال رجل لأميرالمؤمنينﷺ: والله ما سألك فلان، ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد. فقال له أميرالمؤمنينﷺ: لا كثّر الله في المؤمنين ضربك، أعطي أنا وتبخل أنت ! ...»(٢).

١١ـ لا تجد من البخيل إلّا الاعتذار ولا تجد له دليلاً يقنع الغير، فمهما يقدّم من الأدلّة فإن لم تكن كاذبة فهي مردودة وغير مقبولة لدى الغير، ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «كثرة العلل آية البخل»(٣). وعنه أيضاً: «البخيل متحجّج بالمعاذير والتعاليل»(٤).

١٢ـ البخيل واقع في شبهات التفكير والخطأ في الحساب الذي يحسبه لدنياه، ورد عن الإمام الصادقﷺ أنّه قال: «عجبت لمَن يبخل بالدنيا وهي مقبلة عليه، أو يبخل بها وهي مدبرة عنه، فلا الإنفاق مع الإقبال يضرّه، ولا الإمساك مع

---

(١) الفقيه ٢: ١٧١٨/٦٣.

(٢) الكافي ٤: ١/٢٢.

(٣) تحف العقول: ٨١.

(٤) غرر الحكم: ٦٥٣٦/٢٩٣.

الإدبار ينفعه»[١].

١٣ـ استشارة البخيل ممنوعة شرعاً، ورد عن أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «لا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً فيعدل بك عن القصد ويعدك الفقر»[٢].

١٤ـ آخر مطاف البخيل وخاتمة حياته وآخرته إلى محلِ الحسرة والندامة، ورد عن أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «وقود النّار يوم القيامة كلّ غنيّ بخل بماله على الفقراء ...»[٣]، وورد عن الإمام زين العابدين﵇ أنّه قال: «وأمّا حقّ مالِك ، فأن لا تأخذه إلّا من حلّه، ولا تنفقه إلّا في وجهه ...ولا تبخل فتبوء بالحسرة والندامة، مع التّبعة، ولا قوّة إلّا بالله ...»[٤].

١٥ـ البخل يجلب الغلظة والقسوة، وعدم الرحمة والمروءة واللين والعطف والحنان والتعاون والإيثار والمواساة، ورد عن أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «لا مروءة مع شحٍ»[٥].

١٦ـ البخل قيود يضيفها البخيل إلى نفسه، وضيق يضيّق فيه صدره فلا يمنحه الحريّة والانفتاح على الحياة، ورد عن الإمام الرضا﵇ أنّه قال: «إيّاكم والبخل فإنّها عاهة لا تكون في حرّ ولا مؤمن، إنّها خلاف الإيمان»[٦].

١٧ـ البخيل يسعى في بخله إلى محق إيمانه بالله ويقترب من الشرك الخفي الذي لا يشعر به، ورد عن الإمام الصادق﵇ أنّه قال: «قال رسول الله﵌: ما محق

(١) روضة الواعظين: ٣٨٤.

(٢) غرر الحكم: ١٠٠٧٩/٤٤٢.

(٣) غرر الحكم: ٢٤١/٤٨.

(٤) الفقيه ٢: ٣٢١٤/٦٢٤.

(٥) غرر الحكم: ١٠٥٢١.

(٦) مستدرك الوسائل ٧:٣٢/٧٥٧٤.

الإيمان محق الشّح شيء. ثمّ قال: إنّ لهذا الشّح دبيباً كدبيب النّمل، وشعباً كشعب الشّرك»(١).

١٨ـ البخيل مبعّد من أن يكون وليّاً وخصوصاً في ولاية أمر المسلمين، ورد عن أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدّماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته»(٢).

١٩ـ البخل سبب من أسباب الفقر والفساد الاجتماعي، ورد عن أميرالمؤمنين﵇ أنّه قال: «إذا بخل الغنيّ بمعروفه، باع الفقير آخرته بدنياه»(٣).

٢٠ـ البخيل خارج عن ولاية الله ورسوله والمؤمنين، ورد عن الإمام الصادق﵇ أنّه قال: « ...ما آمن بالله ولا بمحمّدﷺ ولا بعليّ﵇ مَن إذا أتاه أخوه المؤمن في حاجة لم يضحك في وجهه، فإن كانت حاجته عنده سارع إلى قضائها، وإن لم تكن عنده تكلّف من عند غيره حتّى يقضيها له، فإن كان بخلاف ما وصفته، فلا ولاية بيننا وبينه»(٤).

س: لماذا هذه الحرب الشرعيّة التي بلغت أعلى ذروتها من كتاب أو سنّة على البخل والبخيل؟

ج:

١ـ التأثير العقائدي، فإنّ الإسلام أراد من الإنسان أن يعمق الإيمان في القلوب،

---

(١) الخصال: ٩٣/٢٦.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٣١/١٤.

(٣) نهج البلاغة ٤: ٣٧٢/٨٨.

(٤) مستدرك الوسائل ١٢: ١٤٥٤٦/٤٣٤.

والبخل يسير في الاتّجاه المعاكس.

٢ـ التكامل الأخلاقي، فإنّ الإسلام أراد من الإنسان أن يسير في طريق التكامل والنمو الروحي والأخلاقي والفكري، والبخل يسير بصاحبه عكس ذلك.

٣ـ حياة الأحكام الشرعيّة، فإنّ الإسلام يريد أن يبعث الحياة في الأحكام الشرعيّة من خلال حركة الإنسان المؤمن وامتثاله لها، والبخل يسير بصاحبه نحو إماتة الأحكام الشرعيّة في حركته.

٤ـ التقرّب من مفردات عالَم الغيب، فإنّ الإسلام أراد من الإنسان أن يتقرّب إلى الله ومعرفة مفردات عالَم الغيب والتّعايش معها، والبخل يبعد صاحبه من هذا الاتّجاه.

٥ـ أماتة الشرك، فإنّ الإسلام أراد من الإنسان أن يقرّبه إلى التوحيد الخالص وأن يبعده عن أيّ نوع من الشرك العقائدي أو العمل، والبخل يجرّ صاحبه إلى الشرك.

٦ـ حلّ أهم مشكلة اجتماعيّة، فإنّ الإسلام جاء ومن جملة أهدافه أن يحمل في طيّاته الحلّ لمشكلة الإنسان، ومن جملة ما يطرحه الإسلام ويهتمّ به هي المشكلة الماليّة ومحو الفقر عن طريق الإنفاق وفرض الضرائب الماليّة، والبخل يمنع حلّ هذه المشكلة ويكون معرقلاً لها وبالتالي يبقى الفقر هو الحالة المنتشرة في العالَم.

٧ـ بناء المجتمع بالمثُل العليا، فإنّ الإسلام جاء بشعارات ومفاهيم ومثُل عليا يريد أن يزرعها في قلوب ومسيرة وأفكار المجتمع، بينما البخل يسير بصاحبه بالاتّجاه المعاكس.

٨ـ عملية التّطهير، فإنّ الإسلام كما جاء بأشياء يريد من الإنسان أن يمتلكها من

المثُل العليا، فهو كذلك حذّر من أشياء ودعا إلى تطهيرها من النفوس والقلوب والأفكار والسيرة، والبخل يمنع عملية التطهير، بل هو يضيف قذارة إلى صاحبه.

س: كيف يشافي البخيل نفسه من مرض البخل؟

ج:

١ـ أن ينظر البخيل إلى صفات الله ليجد أنّ البخل منافٍ لصفات الله، والواجب على الإنسان المؤمن أن يكون ربّاني الصفة. ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أبعد الخلائق من الله تعالى، البخيل الغني»[1].

٢ـ أن يجد الإنسان المؤمن نفسه في الحياة الدنيا أنّه يسعى لكسب ما يحبّه الله، والبخل كسب في طريق مبغوضية الله، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إذا لم يكن لله في عبد حاجة، ابتلاه بالبخل»[2].

٢ـ أن يعمّق إيمانه بفعل الله وأنّه سبحانه كما يرزقه فهو يخلف الرزق ويجعله مستمراً وأنّه يعوّضه بأضعاف مضاعفة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إن كان الخلف من الله عزّ وجلّ حقّاً فالبخل لماذا؟»[3].

٣ـ أن يتطلّع على أثر البخل الاجتماعي في داخل أُسرته بالخصوص الذين هم أقرب النّاس إليه، وبين أصدقائه الذين يبتعدون عنه، ليجد أنّ الحالة التي يمتلكها من البخل هي حالة غير طبيعيّة.

---

(١) غرر الحكم: ٦٥١٨/٢٩٢.

(٢) وسائل الشيعة ٢١: ٢٧٨٣٨/٥٤٩.

(٣) الفقيه ٤: ٥٨٣٦/٣٩٣.

٤ـ ألّا يستهين بكرامة الناس ووجوب تقديم يد العون لهم، فإنّه كما يريد أن يُحترم ويُكرّم فلابدّ أن يحترم ويكرم الناس.

٥ـ ألّا يستهين بأثر العطاء وما يترتّب عليه في الآخرة.

٦ـ اللذين يستهين بالقرآن والسنّة اللذين يذمّان البخل.

٧ـ ألّا يستهين بما يعانيه من داخل نفسه من الذلّة والمسكنة والعزلة وعدم الراحة فيتغافل عنها، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «أقلّ النّاس راحة البخيل»[١]، وعن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «ليس لبخيل راحة»[٢].

٨ـ أن يحدّث البخيل نفسه بالكرم والإنفاق وأن تكون له الإرادة على ذلك وأنّه جزء من جهاد النّفس، ورد عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «مَن برئ من البخل نال الشّرف»[٣].

٩ـ أن يعلم أنّ النّار هي مثوى البخلاء وأنّ الجنّة حرام دخولها عليهم، كما ذكرنا قسماً من الروايات في هذا المعنى، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: « ...البخل شجرة في النار، أغصانها في الدنيا، مَن تعلّق بغصن منها قاده إلى النار»[٤].

س: مَن هم الذين جعلتهم الشريعة بحكم البخلاء على الرغم من أنّهم ليسوا بخلاء فعلاً؟

ج:

١ـ الذي لا يقدّم الحقوق الشرعيّة الماليّة من الخمس والزكاة وغيرها، ورد عن

---

(١) الفقيه ٤: ٣٩٤/٥٨٤٠.

(٢) تحف العقول: ٤٥٠.

(٣) تحف العقول: ٣١٦.

(٤) روضة الواعظين ٣٨٥.

الرسولﷺ أنّه قال: «إنّما البخيل حقّ البخيل، الذي يمنع الزكاة المفروضة في ماله، ويمنع النّائبة في قومه، وهو فيما سوى ذلك يبذّر»(١)، وورد عن أميرالمؤمنينؑ أنّه قال: «البخل بإخراج ما افترض الله سبحانه من الأموال، أقبح البخل»(٢).

٢ـ الذي لا يؤدّي الواجب العبادي أو لا يقتصر إلّا عليه، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «أبخل النّاس مَن بخل بما افترض الله عليه»(٣)، ورد عن الإمام الكاظمؑ أنّه قال: «البخيل، مَن بخل بما افترض الله عليه»(٤).

٣ـ الذي ذكر في حضرته اسم الرسولﷺ (محمّد) ولم يصلّ عليه، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «البخيل حقّاً مَن ذُكِرْتُ عنده فلم يصلّ عليّ»(٥).

٤ـ الذي تُقدّم له التحية والسلام ولم يرد السلام، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «إنّ أبخل النّاس مَن بخل بالسلام»(٦)، وورد عن الإمام الصادقؑ أنّه قال: «البخيل مَن بخل بالسلام»(٧).

س: ما هو الفرق بين البخل والحرص؟

ج:

---

(١) معاني الأخبار: ٤/٢٤٥.

(٢) غرر الحكم: ٦٥٨١/٢٩٤.

(٣) الأمالي للصدوق: ٤١/٧٣.

(٤) الكافي ٤: ٤/٤٥.

(٥) وسائل الشيعة ٧: ٩١١٩/٢٠٤.

(٦) وسائل الشيعة ١٢: ١٥٦٤٩/٦١.

(٧) وسائل الشيعة ١٢: ١٥٦٣٨/٥٧.

١ـ أنّ البخل في استعماله الحقيقي لا يكون إلّا حالة مرضيّة، بينما الحرص حالة ممدوحة طيّبة ناتجة عن دراسة للموضوع وعدم الإفراط في التطبيق. نعم، في بعض الحالات تكون الزيادة في الحرص مقدمة للبخل.

٢ـ أكثر استعمال البخل في المال، بينما الحرص أوسع من ذلك ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ ... مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؟

ج:

أولاً: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

عرض الدليل على علم الله بتحرّك الآخرين في أيّ حركة فهي مرصودة لله وأنّها تحت سمعه وبصره، وهاهم اليهود قد قالوا قولتهم الشنيعة على الله، وكان قولهم تحت سمع الله فينقله بنصّ ما قالوا به ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، ولم يعلّق الله على قولهم لوضوح بطلانه لأيّ عاقل، واكتفى الله بتدوينه عليهم وما قدّموه من العمل السيئ وأمّ الجرائم التي قام بها أسلافهم وحظيت عندهم بالقبول ألا وهي قتلهم لأنبياء الله ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وانتقال الله إلى تدوين ما قالوا به بصيغة المستقبل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ فيه الدلالة على

أنّه لا يتغيّر وأنّ غضبه عليهم قد دخل مرحلة التنجيز وهذا قمة الوعيد الذي ينتظره اليهود من الله.

هذا بالإضافة إلى قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ و﴿ذُوقُوا﴾ و﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، فأيّ غضب من الله سيشمل هؤلاء؟! وأيّ عذاب سيذوقه هؤلاء؟!، هذا بالإضافة إلى أنّ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ فيها دلالة أخرى على عدم تغيّر اليهود نحو الأحسن في المستقبل فلا تصدر منهم التوبة حتّى يصدر العفو منه سبحانه، فمستقبلهم من سيئ إلى أسوء وسيكتبه الله.

ثانياً: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

(ظلّام) صيغة تستعمل للنّسب أو للمبالغة والتكثير لتعدّد العذاب على تعدّد الأعمال، لا ينسب أحد الظلم إلى الله تعالى من قليل أو كثير، لأنّ الذي ذاته عدل لا يتّصف بالظلم، وإنّ الذي يمتلك مطلق الكمال والصفات الكماليّة لا يتّصف بالظلم، والذي حفظ الأعمال ورتّب عليها الجزاء المناسب لا يتّصف بالظلم، والذي ينهى بصدق عن الظلم ويحاسب عليه لا يصدر منه الظلم، فالكثرة من الوعيد وتعدّد العذاب وشدّته كان سببه نفس الإنسان وما قدّمت يداه من العمل، وهذه الحقيقة لم يخفها على أحد من النّاس، بل أوصلها إلى كلّ ذي سمع وبصيرة من خلال كلّ كتبه ورسله وأوصيائه، فلا وجه لنسبة الظلم إلى الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثالثاً: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

من جملة مبرّرات اليهود لعدم إيمانهم بالرسولﷺ هو عدم استجابة الرسولﷺ لهم بطلبهم المعجزة الخاصّة منه، والمعجزة الخاصّة ليست من طلبهم

ولا من أهوائهم، بل زعموا أنّه طلب الله وأمر وعهد ووصيّة منه إليهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾، بأن لا نؤمن لأحدٍ من الرسل إلّا أن يأتي بهذه المعجزة الخاصّة، وهي أن تقدّم قرباناً، أي ما تتقرّب به إلى الله وأن تضعه في بيت المقدس في طست خاص فتأتي نار من الله فتحرق القربان وتحوّله إلى رماد ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، فيجيبهم الله على لسان الرسول ﷺ بأنّ من لوازم إتيان المعجزة هو التصديق بذلك النبيّ والإيمان بما جاء به، فالأنبياء السابقون قد جاؤوا بمعاجز كثيرة وعظيمة ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾، والبعض منهم قد جاؤوا بالمعجزة التي تطلبونها ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾، فهل جزاء مجيء المعجز من قبل الأنبياء أن تقتلوهم؟!! فلو كنتم صادقين بطلبكم أن تسحبوا تأييدكم لأسلافكم الذين قتلوا الأنبياء من بعد ما جاءتهم البيّنات والمعاجز، وبقاؤكم على تأييدكم لهم يدلّ على عدم صدقكم في طلب المعجز الذي يراد منه التصديق بالنبي الجديد وأنّكم ملتزمون بطريقة أسلافكم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، وعملكم الإجرامي هذا يكشف عن أنّكم عاصون لعهد الله الذي تدّعون وجوده، ولا وجود لمثل هذا العهد، فهو كذب على كذب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ورد عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام فألزمهم الله القتل برضاهم بما فعلوا»(١).

رابعاً: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

خطاب تسلية للرسول ﷺ، وفضح لطريقة اليهود وتعاملهم مع الأنبياء، فلا تحزن بتكذيبهم لك بعدما جئت لهم بالبيّنات، فقد كذّبوا رسلاً من قبلك على الرغم

---

(١) الكافي ٢: ٤٠٩/١.

من مجيئهم بالمعاجز والبيّنات وهم يحملون الزُّبر والكتب التي تحمل النواهي التي تفصل الإنسان عن المعاصي والوقوع فيها، ويحملون الكتب المضاءة المنيرة لأحكامها وما تحمله من المواعظ والإرشادات وتبيّن لهم طريق الهدى، فلم تنفعهم تلك المعاجز ولا هذه الكتب، بل هم سائرون على عصيانهم ومصرّون على تكذيب الأنبياء ويبقون معاندين للحق أين ما كان.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أنّه قال: «الزُّبر هو كتب الأنبياء، والكتاب المنير الحلال والحرام»(١).

س: ماذا يكشف قول اليهود حين ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

١ـ أن يكون قولهم اتهاماً موجّهاً لله بصورة مباشرة على الرغم من أنّ هذا القول لم يقل به كلّ مَن آمن بالله، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أعلى درجات استهتارهم وشقاوتهم وتمرّدهم على الله واستهانتهم به.

٢ـ أن يكون قولهم تنكيلاً واستحقاراً منهم للمؤمنين وهم يشاهدونهم على تلك الحالة من الاستضعاف، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أنّه قال: «والله ما رأوا الله حتى يعلموا أنّه فقير، ولكنّهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا: لو كان غنياً لأغنى

---

(١) تفسير القمي ١:١٢٧.

أولياء، وفخروا على الله بالغنى»[١].

٣ـ أن يكون قولهم ليزرعوا الشك في عقيدة المؤمنين، فكأنّ قولهم هو: إذا كنتم أيّها المؤمنون تتوكّلون على الله وهو مُمدّكم وناصركم كما تزعمون فلماذا أنتم قليلون عدّة وعدداً؟ ولماذا محتاجون لجمع التبرعات؟ ولماذا تعانون الفقر والحاجة؟ فالله فقير حيث لو كان غنيّاً لأعطاكم. فاليهود يزرعون التّشكيك في عقيدة المؤمنين من خلال استعمال هذه المغالطات.

٤ـ أن يكون قولهم كاشفاً عن عدم إيمانهم بالله وبكلّ الغيب أصلاً وانغماسهم بعالَم المادّة وأسبابها ولا يعتقدون بغير ذلك، فهم لم يكتفوا بنسبة الفقر إلى الله بل نسبوا الغنى إلى أنفسهم فهم قد وقعوا في معصيتين عظيمتين بقولهم هذا على الرغم من أنّهم من حَمَلَة الكتاب السّماوي، وهذا ممّا يزيدهم مسؤوليّة وحساباً ولهذا كانت لهم خصوصيّة في شدّة الوعيد والعذاب.

٥ـ أن يكون قولهم لاستمالة المؤمنين إليهم، حيث هم الأغنياء ومستعدّون أن يعطوا الكثير من أموالهم إلى مَن ينظمّ إلى صفوفهم ويترك إيمانه بالرسول ﷺ.

٦ـ أن يكون قولهم مصداقاً من مصاديق اتّباع المتشابه في القرآن من قِبَل اليهود لابتغاء الفتنة، ورد في (الدّر المنثور): أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أنّه قال: ذكر لنا أنّها نزلت في حيي بن أخطب لما نزل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ قال: يستقرضنا ربّنا، إنّما يستقرض الفقير الغني[٢].

---

(١) تفسير القمي ١: ١٢٧.

(٢) الدر المنثور ٢: ١٠٦.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ كلّ نفس: كلّ مَن له حياة.

٢ـ الذائقة: وهي حاسّة اللسان لمعرفة طعم الطعام، وقد توسّعت في الاستعمال إلى أكثر من ذلك، مثل: ذاق الأمرّين، وهو مَن وقع في المعاناة والشدائد وتحمّل آلامها.

٣ـ الزحزحة: أ ـ الإزالة عن المقرّ والابتعاد عنه. ب ـ تكرار الجذب والدفع بقوّة وعجلة.

٤ـ الوفاء: العطاء الكامل.

٥ـ الغُرور: الخداع.

● **نظرات مشرقة حول الموت**

س: ما هو المحتمل في تفسير الآية المذكورة أعلاه؟

ج:

الموت حقيقة من الحقائق اليقينيّة، والموت مظهر من مظاهر الحياة اليوميّة التي يعيشها الإنسان، والموت لا يشمل الإنسان فحسب، بل يشمل كلّ ذي نفس من الإنس والجنّ والحيوان والنبات، وسيشمل جميع الملائكة، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي

الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨)، والموت حقيقة واقعة يؤمن بها الجميع على وجه اليقين فلا تحتاج إلى خطاب يكشف عنها، ومجيء الخطاب هذا من أجل تذكرة مَن تنفعه الذكرى، فذكر الموت يقلّل من حبّ الدنيا والانغماس في شهواتها، ويمنع بخل البخلاء، ويجعل الذين يهربون من القتال في رجعة إلى المشاركة فيه لأنّ الموت ملاقيهم، ويستنهض المؤمنين بالكثرة من زاد الآخرة، ويهدّد الكافرين بقرب حسابهم، ويجعل الإنسان المؤمن يتعامل مع الحياة على أنّها دار ممر وأنّها مزرعة الآخرة، وكلّ ما فيها فهو في طريقه إلى الزوال والفناء.

فمهما أُعطي الإنسان وما رزقه الله فهو ليس من وفاء الأجر؛ لأنّه عطاء ناقص بزواله، فوفاء الأجر يوم القيامة، حيث يوم القيامة هي دار البقاء فهناك اللذّة الحقيقيّة والوفاء بالأجر وتماميّته؛ لأنّه يعطى من دون نقص فيه من أيّ جهة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وهناك سينقسم الناس إلى قسمين فإمّا إلى جنّة أو إلى نار، ولا يوجد حدّ وسط بينهما، ولا يوجد نوع ثالث من النعيم أو العذاب غير الجنّة والنّار، فكلّ مَن تخلّص من النار ولو بمقدار دفعة من الحركة والزّحزحة فقد فاز ونجح وأُدخِل الجنّة ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، فلا تغترّوا بمتاع الحياة الدنيا؛ لأنّه عبارة عن زينة لا حقيقة من ورائها، وإنّ المتاع مفارق لكم كما أنتم مفارقون له، فالذي يتعامل مع هذا المتاع على أنّه باقٍ فقد وقع بغُرُور الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، فاحذروا الدنيا ومتاعها.

س: لقد ذكرت الآية ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾ وهناك آيات أُخرى تقول: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام:٦١) ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ (السجدة:١١)، فهل

عملية الموت تجرى من قبل الله بالمباشرة، أم من قبل ملائكته، أم من قبل ملك واحد وهو ملك الموت، أم هي عمليّة مشتركة؟

ج:

يجيب على هذا السؤال أميرالمؤمنين عليه السلام بما ورد عنه أنّه قال: «فهو تبارك وتعالى أجلّ وأعظم من أن يتولّى ذلك بنفسه، وفعل رسله والملائكة فعله، لأنّهم بأمره يعملون ...فمَن كان من أهل الطّاعة تولّت قبض روحه ملائكة الرّحمة، ومَن كان من أهل المعصية تولّت قبض روحه ملائكة النقمة، ولِمَلَك الموت أعوان من ملائكة الرّحمة والنقمة يصدرون عن أمره، وفعلهم فعله، وكلّ ما يأتونه منسوب إليه، وإذا كان فعلهم فعل مَلك الموت، وفعل مَلَك الموت فعل الله؛ لأنّه يتوفّى الأنفس على يد مَن يشاء...»[1].

س: ما هي المحتملات التي ترد في استعمال صيغة المبني للمجهول في كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾؟

ج:

استعمال المبني للمجهول معناه أنّ الزحزحة لم تكن من قِبَل نفسه وإنّما بواسطة شيء آخر، وهو يكمن في إحدى المحتملات:

١ـ أنّ الله هو الذي زحزحه من النار في الدنيا لسببٍ كان يتّصف به الإنسان أو لموقف وقفه أو لطلب منه إليه سبحانه.

٢ـ أنّ أحد المعصومين هو الذي زحزحه من النار في الدنيا لسبب كان يتّصف به الإنسان أو لموقف وقفه متّصلاً به أو لطلب منه إليه من باب كون المعصومين

(١) الاحتجاج ١: ٣٦٧.

هم وسطاء الله ووسيلته.

٣ـ أن يكون قبول الله شفاعة الشّافعين هي التي زحزحته من النار يوم الآخرة.

٤ـ أن تكون استجابة دعاء الغير له هو الذي صار سبباً في زحزحته من النار سواء في الدنيا أو الآخرة.

٥ـ أن يكون قد ترك شيئاً بعد موته فصار ذلك الشيء يدرّ عليه بالخير يعود له فصار سبباً في زحزحته من النار.

٦ـ أن يكون ما حصل له في عالَم البرزخ من العذاب كان كافياً في زحزحته من النار.

٧ـ أن يكون عمله هو الذي زحزحه عن النار، ورد عن الإمام الصادق‎ﷺ أنّه قال: «خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم، ومن خالص الإيمان البر بالإخوان والسعي في حوائجهم، وإنّ البار بالإخوان ليحبّه الرحمن، وفي ذلك مرغمة الشيطان وتزحزح عن النيران ودخول الجنان»(١).

س: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لقد حصر الله الحياة الدنيا بأنّها متاع الغرور والخداع، مع أنّ الحياة هي خلقه وهل يخلق الله ما هو غرور؟ وليس كلّ متاع الدنيا غروراً؛ لأنّ فيها كتب الله وأنبياء الله وبيوت الله وغيرها كثير، فهل مثل هذه الأمور غرور؟ وضّح المحتملات في الإجابة على ذلك.

ج:

أولاً: الدنيا من حيث هي خلق الله فلا غرور فيها أبداً، فكلّ نظام عناصرها ما

---

(١) الكافي ٤: ٤١/ ١٥.

يرى وما لا يرى قائم على الدقّة العلميّة، وكلّ عنصر من عناصر الحياة كما هو آية طبيعيّة فهو آية دينيّة تحرّك العقل نحو وجود صانعها الواحد الحكيم، وكلّ عنصر من عناصر الحياة كما هو خير في نفسه فهو خير في وجوده للأثر الإيجابي الذي يتركه على الغير لوجود العلاقة بين ما يحيط به، كلّ عنصر من عناصر الحياة له موقعه المناسب في فوقيّته أو تحتيّته في نوعيته وكثافته وفي كلّ ما يتعلّق به.

ولا أريد أن أفصّل في ذلك وإنّما كلّ الذي أريد أن أقوله إنّ الكون بماديّته قد حيّر عقول المكتشفين العلماء على ما هو عليه من النظام والصنع، فالحياة بما هي خلق الله لا غرور فيها، بل هي منسجمة مع خالقها بما تعطيك من الدروس التي تعكس صفاته سبحانه وتعالى.

ثانياً: الدنيا من حيث ما يجري فيها من القوانين الحاكمة عليها، وهذه هي الأخرى لا غرور فيها؛ لأنّها تجري على وفق قانون الأسباب والمسبّبات، وليس فيها عامل الجبر وسلب الاختيار في شيء من حركة الإنسان، بل على العكس فهي الخاضعة للإنسان واختياره وإرادته، ولم تُخفَ حقيقة من حقائقها. ففيها الأمراض وفيها الموت وفيها الكِبَر وغيرها من الأمور التي هي مكشوفة ومعروفة لكلّ مشاهد، بل في وضوح مثل هذه الأُمور بحيث أصبحت معرفتها بديهيّة حتّى عند الجاهل والأعمى، ولم تُخفَ فيها كُلّ الحقائق، فالظلم فيها قبيح والكذب كذلك، والصدق والعدل فيها ممدوح، وهكذا في كلّ قيمة أخلاقيّة تشترك فيه الإنسانيّة جمعاء التي أملتها الحياة عليهم وجوداً ووضوحاً وكما هو عليه من دون لفّ ولا دوران.

ثالثاً: الدنيا من حيث امتلاكها لعامل الجذب والزينة، وهذا هو الآخر لا غرور فيه، بل لولاه لما قامت علاقة بين الإنسان وأي عنصر من عناصرها، لا مع مائها ولا

مع ترابها ولا مع هوائها ولا مع سمائها ولا مع أرضها، فلو ظهر الماء على حقيقته من المكوّنات الغازيّة المرتبطة الجزيئات من جزيئتين من الهيدروجين وجزيئة من الأوكسجين فهل يبقى عشق الإنسان للماء بما هو سائل سيّاب وبمنظره الجميل؟ ولولا جاذبيّة الألوان والإنارة التي تغطّي الدنيا فهل تجد طعماً للحياة؟ ولولا زينة المناظر الطبيعة وجمالها الجذّاب ببحارها وأنهارها وسهولها وجبالها وزرعها وصحرائها فهل تطاق الدنيا من غير ذلك؟

وإنّ الزينة وعامل الجذب له مدخليّة فيما يصنعه الإنسان للناس ولنفسه، فإذا شُلِبَ منه عامل الزينة لا قيمة له حتّى لو كان مصنوعاً من المواد الأصليّة للشيء المصنوع، وهكذا الجاذبيّة تملأ الحياة في وحداتها الجزئيّة والكلّيّة لتزرع عند الإنسان عامل التفاعل مع الحياة لتستقيم الحياة وإعمارها من قبله، فعامل الجذب والزينة والجماليّة الذي يملأ عناصر الحياة لا يمثّل حقيقة الشيء، بل هو شيء زائد عليها، وبهذا العامل يقع الغرور، وبما أنّ هذا العامل يملأ الحياة وعناصرها فيكون كلّ متاع الدنيا غروراً؛ للجذب الذي يمتلكه عامل الزينة والجمال الذي يحيط بمتاع الدنيا، ولكن لا لوحده لأنّنا قلنا: انّ وجوده نعمة ولولاه لما استقامت حياة الإنسان على الأرض ولم تتكوّن له علاقة مع عناصر الكون والحياة.

نعم، يكون غروراً عندما يجتمع هذا العامل مع نظرة الإنسان الخاطئة له فيحسب ما كان زينة لها هو حقيقة لها وأنّه هو لا غير وأنّ فيه البقاء وأنّ حقيقة السعادة تكمن في الزينة وعامل الجذب هذا، وكلّما استسلم لهذا العامل كلّما كان عامل الجذب أقوى، وهنا يقع عامل ابتلاء الإنسان ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧).

ويلخّص أميرالمؤمنينعليه السلام كلّ ما قلناه بكلمته الرائعة، ذلك عندما سمع رجلاً

يذمّ الدنيا بأنّها هي التي خدعته وغرّته فقال له: «أيُّها الذام للدنيا المُغتر بغُرُورِها المنخدع بأباطيلها، أتغترُّ بالدنيا ثمّ تذمّها، أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك، متى استهوتك أم متى غرّتك، أبمصارع آبائك من البِلى، أم بمضاجع أُمّهاتك تحت الثرى، كم علّلت بكفّيك، وكم مرّضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطبّاء، غداة لا يغني عنهم دواؤك ولا يجدي عليهم بكاؤك، لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تسعف فيه بطلبتك ولم تدفع عنه بقوتك، وقد مثّلت لك الدنيا نفسك بمصرعه مصرعك، إنّ الدنيا دار صدق لمَن صدقها، ودار عافية لمَن فَهِم عنها، ودار غنى لمَن تزوّد منها، ودار موعظة لِمَن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله ومهبط وحي الله، ومتّجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة، فمَن ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً و ترهيباً، وتخويفاً و تحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدّقوا و وعظتهم فاتّعظوا»(١).

س: ما هو تعريفكم للموت؟

ج:

الموت: هو كون الشيء بحالة تفقده الإحساس والشعور والإرادة وتوقف عنده كلّ حركة في داخله، وهو يقع على مَن له مَلَكة الحياة.

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣١/١٣١.

س: ما هو مفهوم الموت في الشريعة؟

ج:

الموت: هو انتقال من حياة إلى حياة أخرى مع حفظ الروح وتلف البدن ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٢)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١)، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١)، وتوفّي النفس هو حفظها.

س: ما هو الفرق بين ذوق الموت وحقيقة الموت؟

ج:

أولاً: ذوق الموت يعني تسرّب الموت لجميع الجسم وانتشاره في خلاياه، كما يتذوّق الإنسان السّم فإنّه ينتشر إلى جميع بدنه، وذوق الموت معناه أنّه يقع تحت الحسّ والشعور، فيحس الإنسان بانفصال روحه عن بدنه ويشعر بمرارة الموت كما يشعر بمرارة الأشياء عند تذوّقها.

ثانياً: حقيقة الموت، هو انفصال الروح عن البدن، أمّا كيف يتمّ فصل الروح عن البدن، فهذا من العلم الذي منحه الله لِمَلَكِ الموت ولخاصّة أوليائه الذين يتحمّلون مثل هذا العلم.

ورد عن أميرالمؤمنين(ع) أنّه قال: «فإنّ الله تبارك وتعالى يدبّر الأمور كيف يشاء، ويوكّل مِن خلقه مَن يشاء، أمّا ملك الموت فإنّ الله عزّ وجلّ يوكّله بخاصّة مَن يشاء من خلقه، ويوكّل رسله من الملائكة خاصّة بمَن يشاء من خلقه تبارك

وتعالى، والملائكة الذين سمّاهم الله عزّ وجلّ وكلّهم بخاصّة مَن يشاء من خلقه، إنّه تبارك وتعالى يدبّر الأُمور كيف يشاء، وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسّره لكلّ النّاس؛ لأنّ منهم القويّ والضعيف، ولأنّ منه ما يطاق حمله، ومنه مالا يطاق حمله إلّا مَن يسهّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصّة أوليائه. وإنّما يكفيك أن تعلم أنّ الله المحيي المميت، وأنّه يتوفّى الأنفس على يدي مَن يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم..»(١).

س: هل العموم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يشمل مَلَك الموت باعتباره ذا نفس؟

ج:

أنّ هذا الخطاب مع خطاب ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(القصص: ٨٨) يثبت أنّه تأتي فترة الهلاك والموت على الممكنات جميعاً ليبقى الله وحده الحيّ ذاتاً، ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد، ثمّ يموت أهل السماء حتّى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل ـ قال ـ: فيجيء ملك الموت حتّى يقوم بين يدي الله عزّ وجلّ، فيقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا ربّ لم يبقَ إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل، فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا، فيقول الملائكة عند ذلك يا ربّ رسولاك وأميناك، فيقول: إنّي قد قضيت على كلّ نفس فيها روح الموت، ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ، فيقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا ربّ لم يبقَ إلّا ملك الموت وحملة العرش، فيقول لحملة العرش: فليموتوا، ثمّ قال: يجيء كئيباً حزيناً لا

---

(١) التوحيد (الصدوق): ٢٦٨.

يرفع طرفه فيقال له: مَن بقي ـ وهو أعلم ـ فيقول: يا ربّ لم يبقَ إلّا ملك الموت، فيقال له: مت يا ملك الموت، فيموت، ثم يأخذ الأرض بيمينه، ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟! أين الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟!»(١).

س: من جملة ما قلتم وأنتم تفسّرون الآية هو: (والموت حقيقة واقعة يؤمن بها الجميع على وجه اليقين فلا تحتاج إلى خطاب يكشف عنها، ومجيء الخطاب هذا من أجل تذكرة مَن تنفعه الذكرى)، فإذا كان الإنسان يحمل هذا اليقين بالموت فلماذا لم يتعامل الإنسان على طبق يقينه ليستعدّ لما بعد الموت؟

ج:

نعم، هو كما تقول، فالإنسان من حيث العمل متخلّف عن هذا اليقين الذي يحمله، فهو يتعامل معه معاملة ما يضادّ اليقين بأشكاله التالية:

١ـ الناسي للموت ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:١)، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عجبت لمن ينسى الموت وهو يرى الموتى»(٢).

٢ـ لا شعور يمتلكه نحو الموت، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «النّاس نيام إذا ماتوا انتبهوا»(٣).

٣ـ الشاك بالموت، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما رأيت إيماناً مع يقين أشبه

(١) الكافي ٣: ٢٥٦/٢٥.

(٢) نهج البلاغة ٤: ٣٠/١٢٦.

(٣) عوالي اللآلي ٤: ٧٣/٤٨.

منه بشك على هذا الإنسان، إنّه كلّ يوم يودع إلى القبور ويشيّع، وإلى غرور الدنيا يرجع، وعن الشهوة والذنوب لا يقلع..»[١]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لم يخلق الله عزّ وجلّ يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت»[٢].

س: هل يعني ذكر الموت دعوة إلى ترك الدنيا وما فيها واللجوء إلى الخمول وعدم الحركة والانشغال بالعبادة فقط مع أنّه توجد آيات أُخرى تحثّ على خلافة الأرض وإعمارها وبنائها نحو الأفضل؟

ج:

على العكس من ذلك، فإنّ القرآن أو السنّة عندما تجعل الموت نُصب عين الإنسان لتبعث فيه الأُمور التالية:

أوّلاً: تبعث في الإنسان روح الحيويّة نحو العمل، وتزيد نشاطه في الحركة نحو الحياة، وتركّز عامل الإخلاص في عمله، وتحثّه على الإبداع في إعمار الأرض والأحسن في العمل ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧)، وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أصلحوا الدنيا واعملوا لآخرتكم كأنّكم تموتون غداً»[٣]، وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك

---

(١) الجعفريات: ٢٣٦.

(٢) الفقيه ١: ١٩٤/٥٩٦.

(٣) كنز العمال ١٥: ٥٤٦/٤٢١١١.

كأنّك تموت غداً»[١].

نعم، ذكر الموت دعوة إلى الخمول وعدم الحركة نحو العصيان والعمل في الدنيا لأجل الدنيا وحبّها والرغبة فيها لا كونها طريقاً للآخرة.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الموت الموت! ألا ولابدَّ من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالرّوح والراحة والكرّة المباركة إلى جنّة عالية لأهل دار الخلود، الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم، وجاء الموت بما فيه بالشقوة والندامة وبالكرّة الخاسرة إلى نار حامية لأهل دار الغرور، الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم..»[٢].

ثانياً: تبعث في الإنسان روح الكمال وعدم نزوله وخضوعه إلى الشهوات التي تجعله بمستوى الحيوان، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ذكر الموت يميت الشهوات في النّفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله، ويرقّ الطّبع، ويكسر أعلام الهوى..»[٣].

ثالثاً: تبعث في الإنسان روح الصبر على الشدائد وتجعله يستصغر أعظم المصائب، ورد في الحديث: «ورد في الزّبور: مَن فزع نفسه بالموت هانت عليه الدنيا»[٤]. وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أكثروا ذكر الموت، ويوم خروجكم من القبور، وقيامكم بين يدي الله عزَّ وجلّ، تهون عليكم المصائب»[٥].

---

(١) مستدرك الوسائل ١٤٦:١/٢٢٠.

(٢) الكافي ٢٥٧:٣/٢٧.

(٣) مستدرك الوسائل ١٠٥:٢/١٥٥١.

(٤) سعد السعود: ٥٢ .

(٥) الخصال: ٦١٦.

رابعاً: تبعث في الإنسان روح اليقظة والحذر والتأهّب وعدم الغفلة، وبعبارة أخرى: أنّ ذكر الموت ينشّط الحركة العقليّة، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّ العاقل ينبغي أن يحذر الموت في هذه الدار، ويحسن له التأهّب قبل أن يصل إلى دار يتمنّى فيها الموت فلا يجده»(١)، وعنه أيضاً: «إنّ وراءك طالباً حثيثاً من الموت فلا تغفل» (٢)، ومن وصايا أميرالمؤمنين لابنه الحسن عليه السلام أنّه قال: « يا بُنيَّ أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجُمُ عليه وتُفضي بعد الموت إليه، حتّى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشدّدت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فيبهرك»(٣).

خامساً: تبعث في الإنسان روح القناعة وعدم الشرَه والطمع بما في أيدي النّاس، وبعبارة أُخرى: هو منظّم لغرائز الإنسان حتّى لا تلجأ إلى ما فيه الإفراط، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: « أكثروا ذكر الموت، فإنّه يمحّص الذنوب ويزهّد في الدنيا، فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم»(٤)، وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَن أكثر مِن ذكر الموت، قلّت في الدنيا رغبته»(٥)، وعنه أيضاً: «مَن أكثر مِن ذكر الموت، رَضي من الدنيا بالكفاف»(٦).

سادساً: تبعث في الإنسان روح الاستعداد لمستقبل الآخرة الذي عرف الإنسان ما يراد منه إليها، وتحثّه على التجهيز والتحضير لما يلائم سفره إلى الآخرة عبر الموت، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَن ارتقب الموت سارع في

---

(١) غرر الحكم: ٤٧٨/٥٤.
(٢) غرر الحكم: ٣١٣٢/١٦٢.
(٣) نهج البلاغة ٣: ٣١/٤٩.
(٤) كنز العمال ١٥: ٤٢٠٩٨/٥٤٣.
(٥) غرر الحكم: ٢٦٥١/١٤٦.
(٦) غرر الحكم: ٢٦٥٠/١٤٦.

الخيرات»[1]. عنه أيضاً أنّه قال: «استعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ...وما بين أحدكم وبين الجنّة أو النّار إلّا الموت أن ينزل به ...نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لا تبطره نعمة، ولا تقصّر به عن طاعة ربّه غاية، ولا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة»[2]. وعنه أيضاً: «هول ما تدري متى يغشاك، ما يمنعك أن تستعدّ له قبل أن يفجأك»[3]. وعنه أيضاً: «إنّ عيسى بن مريم قال: عليكم بالجدّ والاجتهاد، والتأهّب والاستعداد، والتزوّد في منزل الزاد»[4].

سابعاً: تبعث في الإنسان روح النظر إلى واقعه وواقع الحياة حتّى لا يعطي الدنيا بأكثر ممّا تستحق، وحتّى لا يسقط في عامل الغرور الذي يعني الانسجام بواقع لا يستحقّ هذا النوع من الانسجام ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١-٢)، وسيأتي إن شاء الله توضيح هذه النقطة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

ثامناً: تبعث في المؤمن بالخصوص روح الصبر ومقاومة المشاكل وتسهّل عليه جهد التكليف الذي يبذله في طاعة الله، فالمؤمن كلّ حركته في الحياة تكليف ومشقّة، فقد يصل إلى مرحلة يضيق صدره فيها أو يصيبه بعض الجزع ممّا هو فيه، ولكن عندما يذكر الموت يهون عليه كلّ شيء لأنّ المؤمن يرى المسافة بينه وبين الموت قريبة جدّاً وفيه راحته، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «الناس اثنان: واحدٌ

---

(١) نهج البلاغة ٤: ٣١/٨.

(٢) نهج البلاغة ١: ١١١/٦٤.

(٣) الجعفريات: ٢٣٥.

(٤) نهج البلاغة ٢: ٢٢٤/٢٣٠.

أراح، وآخر استراح، فأمّا المؤمن إذا مات استراح من الدنيا وبلائها، وأمّا الذي أراح فالكافر إذا مات أراح الشجر والدواب وكثيراً من الناس»(١).

س: ما هي الأسباب التي تجعل الإنسان يكره الموت؟

ج:

١ـ الجهل بالموت، حيث الإنسان بغريزته يحبّ البقاء ويكره أي عمليّة تغيّر نحو مجهول يخافه ولا يعرف مطبّاته، فبعض النّاس يفهمون الموت أنّه نوع من العدم، والبعض الآخر يفهم الموت أنّه نوع من الظلمات والغربة والوحشة ولا شيء وراء ذلك، بينما الموت هو كما قلنا ـ هو عمليّة انتقال من حياة مؤقّتة ناقصة إلى حياة البقاء والكمال، وقد خلق الله هذا الانتقال منسجماً مع فطرة الإنسان الذي يحب البقاء، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥)أي خلقهم الله بطريقة تنسجم مع رجوعهم إليه، فالذي يعي الموت على أنّه عمليّة انتقال إلى الأفضل يعيش حالة الاطمئنان والفرح له.

ورد عن علي بن محمدعليه السلام في (معاني الأخبار) أنّه قال: «قيل لمحمّد بن علي ابن موسى صلوات الله عليهم: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟ قال: لأنّهم جهلوه فكرهوه، ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله عزّ وجلّ لأحبّوه ولعلموا أنّ الآخرة خير لهم من الدنيا. ثمّ قالعليه السلام: يا أبا عبدالله، ما بال الصبيّ والمجنون يمتنع من الدواء المنقّي لبدنه والنافي للألم عنه؟ قال: لجهلهم بنفع الدّواء، قالعليه السلام: والذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً إنّ مَن استعدّ للموت حقّ

(١) الخصال: ٢١/٣٨.

الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء هذا المتعالج، أما إنّهم لو عرفوا ما يؤدّي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبّوه أشدّ ما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات»(١).

٢ـ كثرة الذنوب، ورد عن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «جاء رجل إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنّكم عمّرتم الدنيا وأخربتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»(٢).

٣ـ الجهل بالآخرة، ورد عن أميرالمؤمنين(ع) أنّه قال: «شوّقوا أنفسكم إلى نعيم الجنّة تحبّوا الموت وتمقتوا الحياة»(٣).

٤ـ الغنى وحبّ المال وعدم تقديم الواجبات الشرعيّة الماليّة منه، عن الإمام الصادق عن أبيه(ع) أنّه قال: «أتى النبيّ(ص) رجلٌ فقال: ما لي لا أُحبّ الموت؟ فقال له: ألك مال؟ قال: نعم، قال: فقدّمته؟ قال: لا، قال: فمن ثَمّ لا تحبّ الموت»(٤).

٥ـ عدم امتلاك الإنسان حصيلة من العمل بحيث تجعله مطمئناً برضا الله عليه فيخشى الموت، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٩٥)، ورد عن أميرالمؤمنين(ع) أنّه قال: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل ...يخشى الموت، ولا يبادر الفوت»(٥).

---

(١) معاني الأخبار: ٢٩٠/٨.

(٢) الكافي ٢:٤٥٨/٢٠.

(٣) غرر الحكم: ١٥٠/٢٧٦٠.

(٤) دعائم الإسلام ٢:٣٢٨/١٢٣٩.

(٥) نهج البلاغة ٤: ٣٨/١٥٠.

س: ما هو موقع تمنّي الموت من قِبَلِ المؤمن من الناحية الشرعيّة؟

ج:

١ـ تمنّي الخواص، وهو أن يكون الإنسان ممّن يمتلك اليقين برضا الله ودخوله الجنّة، فهنا يكون تمنّي الموت من الأمور المباحة بالنسبة إليه، وهذا مختصّ بالمعصوم وبعض أولياء الله الخاصّين، ورد عن الأصبغ بن نباتة أنّه قال: قلت لأميرالمؤمنين عليه السلام: ما منعك من الخضاب وقد اختضب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «أنتظر أشقاها أن يخضّب لحيتي من دم رأسي، بعهد معهود أخبرني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله»[١]. وورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «إنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً»[٢]. وعنه أيضاً وهو يصف أصحابه ليلة العاشر من المحرّم: « ...إنّهم يتلذّذون بالموت كتلذّذ الطفل بمحالب أُمّه»، وورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت إلاّ أن يثق بعمله..»[٣]، فيما كتب أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الحارث الهمداني أنّه قال: « ...ولا تتمنّ الموت إلاّ بشرط وثيق»[٤].

٢ـ تمنّي العامّة، وهو أنّ الإنسان لا يمتلك اليقين برضا الله ولا بعمله الذي يدخله الجنّة، فهنا يكون تمنّي الموت نوعاً من المحذور الشرعي غير الحرمة، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت»، وعنه أيضاً: «لا يتمنّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان ولابُدّ فاعلاً فليقل: اللّهم أحيني ما كانت

---

(١) وسائل الشيعة ٢: ١٥٥٩/٨٤.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

(٣) كنز العمال ١٥: ٤٢١٥٣/٥٥٤.

(٤) نهج البلاغة ٣: ٦٩/١٢٩.

الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»(١)، وورد عن أمّ الفضل أنّها قالت: إنّ النبيّ ﷺ دخل على العبّاس وهو يشتكي فتمنّى الموت، فقال: «يا عبّاس عمّ رسول الله، لا تتمنّ الموت، إن كنت محسناً تزداد إحساناً إلى إحسانك خير لك، وإن كنت مسيئاً، فإن تؤخّر تستعتب من إساءتك خير لك، لا تتمنّ الموت»(٢)، وسمع الإمام موسى الكاظم عليه السلام رجلاً يتمنّى الموت فقال له: «هل بينك وبين الله قرابة يحاميك لها؟». قال: لا، قال عليه السلام: «فهل لك حسنات قدّمتها تزيد على سيّئاتك؟». قال: لا، قال عليه السلام: «فأنت إذاً تتمنّى هلاك الأبد»(٣)، وورد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنّه قال: «لولا السجود لله ومجالسة قوم يتلفّظون طيب الكلام كما يتلفّظ طيب التمر لتمنيت الموت»(٤).

س: ماذا تعني سكرات الموت ولمَن تكون؟

ج:

أوّلاً: سكرة الموت: شدّة الموت التي تغلب على عقل الإنسان كالسكر من الشراب، وقد تكون عن غضب فتؤلم صاحبها، وقد تكون عن عشق فتريح صاحبها.

ثانياً: سكرة الموت يشعر بها صاحبها بالألم أو الراحة ولا يحسّ بوجودها الآخرون؛ لأنّها تجيء من عالَم غير عالَمنا، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(ق:١٩)، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «فإنّكم لو

---

(١) وسائل الشيعة ٢:٤٤٩/٢٦١٧.

(٢) الترغيب والترهيب ٤:٢٥٦/٥٠.

(٣) مستدرك الوسائل ٢:١١٩/١٥٩٢.

(٤) مستدرك الوسائل ٤:٤٨٤/٥٢٢٨.

قد عاينتم ما قد عاين مَن مات منكم لجزعتم ووهلتم، وسمعتم وأطعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يُطرح الحجاب..»[١].

ثالثاً: سكرات الموت التي تكون عن غضب فهي تشمل غير المؤمنين ولمَن خلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً، فتكون السكرات ما أشدّ ألمها عليه، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد:٢٧)، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «أدنى جبذات الموت بمنزلة مائة ضربة بالسّيف»[٢]، وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وإنّ للموت لَغَمَرَاتٍ هي أفضع من أن تُستَغرَقَ بصفة، أو تعتدلَ على عقول أهل الدنيا»[٣].

رابعاً: سكرات الموت التي تكون عن عشق ورحمة من الله فهي تشمل المؤمنين فقط، فتكون السكرات راحة وسروراً عليه، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «الموت ريحانة المؤمن»[٤]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن أحبَّ أن يخفّف الله عزَّ وجلّ عنه سكرات الموت، فليكن لقرابته وصولاً وبوالديه بارّاً، فإذا كان كذلك هوّن الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً»[٥]، وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّ أشد شيعتنا لنا حبّاً يكون خروج نفسه كشرب أحدكم في يوم الصيف الماء البارد ينتفع به القلوب، وإنّ سائرهم ليموت كما يغبط أحدكم على فراشه كأقرّ ما كانت عينه بموته»[٦]، في حديث المعراج: «وإذا كان العبد في حالة

---

(١) نهج البلاغة ١: ٢٠/٥٧.

(٢) كنز العمال ١٥: ٤٢٢٠٨/٥٦٩.

(٣) نهج البلاغة ٢: ٢٢١/٢١٠.

(٤) دعائم الإسلام ١: ٢٢١.

(٥) الأمالي للصدوق: ٦٣٥/٤٧٣.

(٦) تأويل الآيات ٢: ٨/٧٧٦.

الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كلّ ملك كأس من ماء الكوثر وكأس من الخمر يسقون روحه حتّى تذهب سكرته ومرارته ويبشّرونه بالبشارة العظمى ويقولون له: طبت وطاب مثواك، إنّك تقدم على العزيز الحكيم الحبيب القريب..»[١].

س: ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الموت أوّل عدل الآخرة»[٢] كيف يمكن لنا تصوير هذه الحقيقة؟ اذكر المحتملات في ذلك.

ج:

أوّلاً: أمّا أنّ الموت من عالَم الآخرة، فلأنّ بالموت ينقطع العمل وتُختم الدنيا ويبدأ الحساب، فيصبح الموت باب الآخرة وأوّل يوم من أيّام القيامة بالنسبة إلى الميّت، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ما له من خير أو شرّ»[٣].

ثانياً: أمّا أنّ الموت عدل الآخرة، فقد يكون نظراً للأمور التالية:

١ـ نظراً لشمولية الموت لكلّ إنسان على حدٍّ سواء، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(آل عمران:١٨٥)، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «بادروا أمر العامّة وخاصّة أحدكم وهو الموت، فإنّ النّاس أمامكم، وإنّ الساعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا تلحقوا، فإنّما يُنتظر بأوّلكم آخركم»[٤].

٢ـ نظراً للتوزيع المناسب لنوعيّة الموت على الإنسان، فموت غير المؤمنين يكون بوحشيّة وألم، وموت المؤمنين براحة وسرور، ورد في الحديث: قيل للإمام

---

(١) مستدرك الوسائل ٧: ٨٧٤٣/٥٠٠.

(٢) غرر الحكم:٣٠٨٤/١٦١.

(٣) إرشاد القلوب ١: ١٨.

(٤) نهج البلاغة ٢: ١٦٧/٨٠.

الصادقﷺ: صف لنا الموت، قالﷺ: «للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشد». قيل: فإنّ قوماً يقولون: إنّه أشدّ من نشر بالمناشير ! وقرض بالمقاريض! ورضخ بالأحجار ! وتدوير قطب الأرحية على الأحداق! قال: «كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين..»(١).

٣ـ نظراً إلى عالَم القبر الذي يكون للميّت إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، وأفضل العبادة ذكر الموت، وأفضل التفكر ذكر الموت، فمَن أثقله ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنّة»(٢).

س: كيف يحوّل الإنسان الموت من شَبَح يطارده إلى حبيب ينتظر لقاءه؟

ج:

الجواب الشافي لهذا السؤال أن يكون الإنسان من المؤمنين الملتزمين بإيمانه فحسب، ورد عن الإمام العسكريﷺ أنّه قال: «قيل لأميرالمؤمنينﷺ: ما الاستعداد للموت؟ قال: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتمال على المكارم، ثمّ لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، والله ما يبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه»(٣). وعن الإمام زين العابدينﷺ أنّه قال: «إنّما الاستعداد للموت تجنّب الحرام وبذل النّدى في الخير»(٤)، وورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال:

---

(١) معاني الأخبار: ١/٢٨٧.

(٢) جامع الأخبار: ١٦٥ .

(٣) مجموعة ورام ٢:١٥٨.

(٤) وسائل الشيعة ٩:٤٠١/١٢٣٣٤.

«شوّقوا أنفسكم إلى نعيم الجنّة تحبّوا الموت وتمقتوا الحياة»[١].

س: بالإضافة إلى ما مرّ ألقِ لنا نظرات حول الموت وأنت تبحث بين نصوصه الشرعيّة.

ج:

١ـ الانتقال من عالَم معاش ومأنوس ومعروف إلى عالَم مجهول المعرفة والمصير فيه وغريب عليه، من غير اختيار منه وإرادة، ومن دون رجعة. هنا لابدّ من أن يكون الإنسان في حالة نفسيّة مضطربة موحشة، وتنتهي هذه الحالة عند رؤية مَلَك الموت بصورته الجميلة إذا كان من المؤمنين، ورد عن الإمام الرضا؈ أنّه قال: «إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أُمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا..»[٢].

٢ـ لم يكن التوديع منحصراً على الأهل للمحتضر، بل التوديع يجري بين أعضاء المحتضر البدنيّة بعضها لبعض، ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «المسلم إذا حضرته الوفاة سلّمت الأعضاء بعضها على بعض، تقول: عليك السّلام تفارقني وأُفارقك إلى يوم القيامة»[٣].

٣ـ الموت ستر للإنسان وحفظ لكرامته وبالتالي هو صورة من صور رحمة الله تبارك وتعالى، ورد عن الإمام الصادق؈ أنّه قال: «إنّ قوماً أتوا نبيّاً لهم فقالوا:

---

(١) غرر الحكم: ١٥٠/٢٧٦٠.

(٢) عيون أخبار الرضا؈ ٢: ٢٣٣/١١.

(٣) كنز العمال ١٥: ٥٦٣/٤٢١٨٤.

ادعُ ربّك يرفع عنّا الموت، فدعا لهم، فرفع الله تبارك وتعالى عنهم الموت، وكثروا حتّى ضاقت بهم المنازل وكثر النسل، وكان الرجل يصبح فيحتاج أن يطعم أباه وأُمّه وجدّه وجد جدّه ويوضّيهم ويتعاهدهم، فشغلوا عن طلب المعاش، فأتوه فقالوا: سل ربّك أن يردّنا إلى آجالنا التي كنّا عليها، فسأل ربّه عزّ وجلّ فردّهم إلى آجالهم»(١).

٤ـ منذ أوّل يوم يولد فيه الإنسان حيّاً تتكوّن له علاقة قرب مع الموت، فكلّما قطع من عمره سنين أو أشهراً أو أسابيع أو أيّاماً أو ساعات أو لحظات، أو حتّى النَّفَس الذي يتنفّسه فهو محسوب كلّما قرب من الموت أكثر، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «نَفَسُ المرءِ خُطاه إلى أجله»(٢)، وعنه أيضاً: «ما أقرب الحيّ من الميّت للحاقه به، ما أبعد الميّت من الحيّ لانقطاعه عنه»(٣).

٥ـ المطاردة من قِبَل العدوّ القاهر كم تجعل المُطارَد يعيش حالة الفَزَع والخوف والانتباه والحذر من أيّ حركة مشكوكة، هل تعلم أيّها الإنسان أنّك مُطارَدٌ من قِبَل الموت الذي يمسك بك في يوم ما؟!، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (الجمعة:٨)، من وصيّة أميرالمؤمنين لابنه الحسن عليه السلام أنّه قال: «...وإنّك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولابدّ أنّه مُدركُه، فكن منه على حذر أن يراك على حال سيّئةٍ قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك»(٤)، وعنه أيضاً:

(١) الأمالي للصدوق: ٨٣١/٦٠٠.

(٢) غرر الحكم: ٣٢١٧/١٧٥.

(٣) نهج البلاغة ١: ١١٤/٢٢٥.

(٤) نهج البلاغة ٣: ٣١/٤٩.

«أنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظِلّكم، الموت معقود بنواصيكم»(١)، وعنه أيضاً: «إنّ الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يُعجزه الهارب»(٢).

٦ـ قد يكون أحلى ما يمرّ به الإنسان أيّام عُرسه، من بُشرى وزفاف وعطور واجتماع واهتمام الآخرين به والخدمات الّتي تُقدّم له وملابس جديدة لامعة وأنوار مضيئة، كلّ هذا وغيره ممّا يجعل الإنسان يمرّ بأحلى فترات حياته، هل يعلم الإنسان المؤمن بأنّ الموت أحلى من أيّام عُرس الأغنياء؟!، ورد عن الرسول ﷺ أنّه قال: «إنّ مَلَك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف الذليل من المولى، فيقوم هو وأصحابه لا يدنو منه حتّى يبدأ بالتسليم ويبشّره بالجنّة»(٣)، وعنه أيضاً: «أوّل ما يُبشّر به المؤمن روح وريحان وجنّة نعيم، وأوّل ما يبشّر به المؤمن أن يقال له: أبشر وليّ الله برضاه والجنّة ! قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيّعك، واستجاب لمن استغفر لك، وقَبِل مَن شهد لك»(٤)، ورد عن الإمام الصادق ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أنّه قال: «هو أن يبشّراه بالجنّة عند الموت، يعني محمّداً وعليّاً عليهما السّلام»(٥).

هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه في حديث المعراج وغيره من النصوص بين طيّات

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٢٨/٢٧.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢/١٢٣.

(٣) الفقيه ١: ١٣٥/٣٦٥.

(٤) كنز العمال ١٥: ٥٩٦/٤٢٣٥٥.

(٥) المناقب ٣: ٢٣.

البحث يعطي هذا المعنى فراجع تجد.

٧ـ يهرب الإنسان من الحيوان المفترس حتّى لا يكون له طُعمة، ويزرع ويصنع ويصطاد الإنسان أشياء لتكون له قوته ومأكوله اليومي، وهل يعلم الإنسان أنّه مأكول وطُعمَة وقوت الموت؟!، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لكلّ ذي رمق قوت، ولكلّ حبّة آكل، وأنت قوت الموت»(١).

٨ـ قد يخضع لك كلّ شيء في الحياة بعلاقة من العلاقات أو بفعل من الأفعال فيقدّم لك ما تريد من جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان إلّا الموت، فإنّه لا يصغي لأحد ولا يغيّر من موقفه لأحد، تودّدت إليه أم نصبت له العداوة وأحببته أم كرهته فعنده سواء، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما ينجو من الموت مَن خافه، ولا يُعطي البقاء من أحبّه»(٢).

٩ـ الاتصال والإخبار والإعلام والإذن كلّها وسائل تُعلم الإنسان مسبقاً ببداية العمل أو اللقاء وغيرها من الأمور التي تتعلّق بعلاقة الإنسان وحركته في الحياة إلّا الموت، فإنّ كلّ هذه الوسائل مفقودة عنده، فلا يعرف الإنسان متى يدخل عليه الموت، وإذا دخل فمن دون إذن، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَن عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت»(٣)، وعنه أيضاً: «موت الفجأة راحة المؤمن وحسرة الكافر»(٤).

١٠ـ كم يفرح المؤمن عندما يرى الرسول صلى الله عليه وآله أو أحد الأئمة الأطهار سلام الله

---

(١) روضة الواعظين: ٤٨٩.

(٢) نهج البلاغة ١: ٩٠/٣٨.

(٣) تحف العقول: ٤٩.

(٤) كنز العمال ١٥: ٦٧٨/٤٢٧٠٣.

عليهم في المنام، وكم يتمنّى أن يرى أحدهم في عالم اليقظة ولو من بعيد، هل يعلم المؤمن أنّ الموت طريق للّقاء المباشر مع هؤلاء القادة والسادة ويجري الحديث معهم؟ ورد في ذلك الكثير منه، عن الحارث الهمداني أنّه قال: أتيت أميرالمؤمنينعليه السلام ذات يوم نصف نهار، فقال: «ما جاء بك؟». قلت: حبّك والله، قال: «إن كنت صادقاً لتراني في ثلاث مواطن: حيث تبلغ هذه ـ وأومأ بيده إلى حنجرته ـ وعند الصراط، وعند الحوض»[١]، وورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «ما من مؤمن يحضره الموت إلّا رأى محمّداً وعليّاً حيث تقرّ عينه..»[٢].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) الدعوات: ٦٩٩/٢٤٩.

(٢) البحار ٧٩: ٨/١٧٤.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:١٨٦).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآية؟

ج:

١ـ الابتلاء: لا فرق بين الابتلاء والبلاء، وهو الاختبار بما يصعب تحمّله.

٢ـ الأذى: ما يتضرّر به الإنسان ويجلب له الألم.

٣ـ عزم الأمور: عقد القلب والجزم في العمل.

س: ما هو التفسير المحتمل لخطاب الآية المذكورة أعلاه؟

ج:

الخطاب موجّه للمؤمنين، ويقسم الله لحتميّة وقوع الابتلاء على المؤمنين سواء كان وقوعه سيحصل للمؤمنين الأوائل بأن يكون خطاب الآية على نحو القضيّة الخارجيّة، أو بوجودهم العام في الحياة باعتبار أنّ مثل هذا الابتلاء سمة حياة المؤمنين، وأنّهم سيبتلون بوحدة من الوحدات الابتلائيّة التي سنذكرها أو ببعض منها أو جميعها، ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، والابتلاء الذي سيواجهه المؤمنون على نوعين:

الأوّل: ابتلاء الفعل، كنقص الأموال والأنفس، وقلت بالنقص وإن كان يجوز بالزيادة إلّا أنّ استعمال الابتلاء في النقص أكثر منه في الزيادة، ونقص الأموال والأنفس قد يكون سببه الظالم بأن يتسلّط على أموالهم وأنفسهم، أو من خلال معركة قتاليّة تسلبهم أموالهم وأنفسهم، وقد يكون الابتلاء بالأموال مستقلاً عن

ابتلاء الأنفس، فابتلاء الأموال مثل القحط والجوع، وابتلاء الأنفس بالموت أو المرض، والأنفس قد تكون أنفسهم وقد يشمل غيرهم ممّن هو متعلّق بهم مثل الأطفال والآباء والأقارب ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

الثاني: ابتلاء القول، وقد فصله الله عن ابتلاء الفعل بِقَسَمٍ جديد مختصّ له لبيان أهميّته والالتفات لخطورته، وابتلاء القول على قسمين:

١ـ ابتلاء رحمة، وهو الابتلاء بالقول الصادق والممدوح وكلّ قول يكون سبباً لهداية الإنسان ويلزمه بأمور أو يزجره عن أمور، كقول الله وأنبيائه والأئمة عليهم السلام وأقوال العلماء الربّانيّين والدعاة إلى الله، والابتلاء بمثل هذا القول لا يجلب للإنسان إلّا الرحمة واللطف والسعادة والموعظة وغير ذلك من أمور الخير والصلاح.

٢ـ ابتلاء أذىً، وهو الابتلاء بالقول الكاذب والمذموم، كالكذب والنميمة والغيبة والإشاعات المغرضة والاتّهامات الباطلة وزور الحديث والسُخرية بالكلام وغير ذلك ممّا يتعلّق بالقول المذموم، والابتلاء بهذا النوع لا يجلب إلّا أذى للمؤمنين كما هو واضح، ويُقسِم الله أنّ هذا النوع من الابتلاء سيواجهه المؤمنون من قِبَلِ الذين أُوتوا الكتاب من قَبْلِكُم وهم اليهود والنصارى ومن قِبَلِ المشركين، فاليهود والنصارى مستعدّون لأن يقفوا جبهة واحدة مع الملحدين والمشركين ولم يكونوا مستعدّين أن يقفوا بجبهة واحدة مع المسلمين ضد الملحدين والمشركين، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عنادهم للحق وإنكارهم للإيمان بعالَم الغيب والدين وابتعادهم عن لغة الحوار المنطقي والعقلي.

كما يحمل هذا الخطاب دلالة أُخرى وهي أنّ المصائب والويلات التي جرت

على المسلمين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً سببها اليهود و النصارى، والمطلوب من المسلمين الصبر والثبات على ما هم عليه من الابتلاء والاستمرار في الاستقامة وفي تقوى الله، ولم تحصل التقوى والصبر بالتمنّي في مثل هذه الأمور الخطرة ولا تنشأ في مناطق ترف الفكر والقول، وإنّما تحصل من قناعة قلبيّة في وجوب النشاط والعزم على العمل الدؤوب في التخطيط والتنفيذ في الوحدة والبناء، فإنّ مواجهة العدو لا تأتي بالأمر الهيّن وإنّما هي من عزم الأمور العظيمة الشأن، ﴿ذَلِكَ﴾ التي هي اسم إشارة للبعيد لتعطي العظمة وضخامة العزم والأمر، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٧-١٨٩).

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

إنّ الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنصارى قد آمنوا بالكتاب وصدّقوا به على أنّه كتاب منزّل من الله والذي يلازمه أنّهم آمنوا بالله وأنبيائه، بمعنى آخر أنّهم ألزموا أنفسهم بما آمنوا به من مجموع ما اعتقدوا به وهو معنى الميثاق والعهد المؤكّد بينهم وبين الله، وأحد بنود الميثاق المذكور في التوراة والإنجيل هو وجوب تبيين كلّ ما موجود في الكتاب وتبليغه للناس وحرمة كتمان شيء منه على الناس في الوقت الذي يكونون في حاجة إلى إظهاره، فماذا عمل اليهود والنّصارى؟ إنّهم لم يلتزموا بوجوب ولا بحرمة وخالفوا حتّى الذوق الإنساني الذي يكره كتمان الحقّ، لا بل جعلوا الكتاب السماوي وراء ظهورهم بحيث نبذوه وتركوه وابتعدوا عن كلّ وجوب وحرمة وعن كلّ الكتاب، والتزموا بما تمليه أهواؤهم ليعيشوا حالة اللامسؤوليّة والحساب والمراقبة والالتزام، ومن أجل أن يحافظوا على مراكزهم

والأموال التي حصلوا عليها باسم الدين، فبئس هذا الاستبدال والشراء الناتج عن خيانة الأمانة والميثاق مع الله سبحانه وتعالى، وبئس هذه المعاوضة التي لا قيمة لها؛ لأنّها نتاج غشّ وتدليس وتزوير للحقائق، وبئس ما حصلوا عليه مقابل خسارة عطاء الآخرة. وليست عمليّة التبادل والشراء مختصرة على أُولئك الأوائل من اليهود والنصارى، بل هي حالة مستمرّة وصادقة حتّى على هؤلاء الذين يسيرون اليوم على خطاهم من اليهود والنصارى، ﴿يَشْتَرُونَ﴾ صيغة المضارع التي تفيد الاستمرار.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في محمّد صلى الله عليه وآله ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ إذا خرج لا تكتمونه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ نبذوا عهد الله وراء ظهورهم».

ثانياً: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

نفي لظن قد يدخل النفوس فليتحرّز المسلم منه، وكشف لصفتين ذميمتين وخطيرتين قد أصابت أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد يصاب بها المؤمنون، والصفتان هما:

الأولى: الفرح بما أتوا، مطلق الفرح الذي يصدر من العبد بما أتى على قسمين:

١ـ الفرح في خصوص الشّر والمعاصي، وهذا النوع من الفرح مذموم ولا يجري في محلّه أصلاً لكونه موجباً لعذاب الآخرة، كما هو فعل اليهود والنصارى في ميثاقهم وكتمانهم وتركهم لكتابهم السماوي وغيرها من الأفعال الشنيعة التي ارتكبوها، وكالعاصي والمنحرف من المسلمين الذي يفرح لمعصيته وانحرافه. ومقصود الآية هو هذا القسم ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً * إِنَّهُ

كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾(الانشقاق:١١-١٣)، ﴿...كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(غافر:٧٤-٧٥)، ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تُحرمونه؟!»(١).

٢ـ الفرح في خصوص الخير والطاعات التي يقدّمها المؤمن، وهذا النوع من الفرح لم تقصده الآية التي بين أيدينا، ولكن تقصده روايات فتجعله من الأمور الممدوحة، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَن سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو المؤمن»(٢)، وعن أميرالمؤمنين عليه السلام في كتاب له إلى عبدالله بن العبّاس أنّه قال: «أمّا بعد فإنّ المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذّة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حقّ، وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمّك فيما بعد الموت»(٣).

ولكن فليحذر المؤمن من زيادة الفرح لما يقدّمه من الخير والطاعات لخطورة عواقبه، فقد يوقعه في الرياء أو العُجب أو يرى الكثير فيما قدّمه أو يدخله في الضمان القطعي لقبول عمله عند الله لا في رجاء القبول فيأخذه الغرور، ولهذا نجد الإسلام قد ربّى أفراده على الخوف أكثر من الفرح وعلى أن يكون المؤمن متّهماً لنفسه أكثر من الضمان القطعي حتّى يرى الكثير أنّه قليل في الله،

---

(١) غرر الحكم: ١٤٥/٢٦١٠.

(٢) كنز العمال ١: ١٤٤/٧٠٠.

(٣) نهج البلاغة: ٤٥٧/٦٦.

ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبة وهو يصف المتّقين أنّه قال: «...الذين هم لأنفسهم متّهمون ...يحزنون به أنفسهم»(١).

الثانية: حب ثناء الآخرين لهم بما لم يفعلوا، إنّ من جملة ما تريده النفس وتحبّه وتميل إليه هو ثناء الآخرين على ما تقدّمه إليهم، وهذا النوع من الإرادة النفسية لو فُسِح لها المجال لصارت حالة أخلاقيّة مرضيّة فمنها يدخل العُجب والرياء وحب الظهور، وبالتالي تعكس هذه الصفة عدم الإيمان بالله واليوم الآخر الذي يُثاب فيه المحسنون، هذا كلّه إذا كان شيء موجود يقدّمه الإنسان، فكيف إذا هم يحبّون الثناء على شيء لم يفعلوه ولم يقدّموه؟!! فهو بهتان، وسرقة لجهود الآخرين الذين قدّموا ذلك الفعل وتلك المواقف، وهو نوع من المكر والخديعة والخيانة، وهو نوع من الغفلة عن الله المطّلع على حقائق الأفعال وفاعليها، وبهذا تكون هذه الصفة من أخسّ الرذائل الأخلاقيّة وهي حبّ الثناء والمحمدة على فعل خير لم يفعله.

وإذا كانت مثل هذه السرقة قد انطلت على بعض العامّة من الناس وجلبت لفاعلها المدح وثناء الآخرين وجعلته يتسلّق الرتب والمراكز الدنيويّة فهي ليست خافية على الله، ولم يكونوا على نجاة ومفازة من العذاب حيث ابتعدوا عن ولاية الله ومنهجه في النصر لأوليائه، فلا يكون أمامهم إلّا العذاب الأليم الذي ينتظرهم، فعلى المتصدّين للعمل السياسي والاجتماعي والجهادي الذين يكونون أقرب من غيرهم في الوقوع بهذه الصفة الرذيلة أن يحذروا هذه الصفة في أن يحافظوا على جهود ومواقف الغير في نسبتها لفاعلها لا لأنفسهم من أجل الكسب والربح الكاذب.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٦١/١٩٣.

ويجب على الآخرين من الناس وخصوصاً الإعلاميّين منهم أن يراقبوا هذا النوع من سرّاق المواقف والجهود والمتاجرة فيها حتّى لا يحمدوا ما لا يفعل وألّا لا يسلّطوا الأضواء الإعلاميّة عليهم ليساهموا في خداع النّاس ورفع مَن لا يستحق الرفع.

ورد عن الرسولﷺ أنّه قال: «احثوا في وجوه المدّاحين التّراب»(١). وحتّى يكون شكر النّاس وثناؤهم ينصبّ لفاعلين الفعل ولصانعي المواقف الخيّرة من باب «مَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»(٢). ورد عن الإمام الباقر في قوله: ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أنّه قال: «ببعيد من العذاب»(٣).

قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تكرار ـ بين الحين والآخر ـ مثل هذا الخطاب لتأكيد حقيقة المُلك والقدرة الإلهيّة في نفوس جميع الناس، وإنذار لكلّ معاند لله يسعى في الأرض فساداً سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم بعدم الإيمان به أو عدم تصديقهم للرسولﷺ أو عدم النصرة لدينه أو بخلهم أو كتمانهم أو ما نسبوا الفقر إليه سبحانه أو لكلّ حالة سلبيّة ذكرتها الآيات السابقة، إنّ الله لو شاء أن يجري قضاءه في أي مورد لفعل؛ لأنّ كلّ شيء هو ملكه حقيقة سواء كان في السماوات أو الأرض فله حق التّصرف فيه وله القدرة على كلّ شيء. فليس شيء سلبيّ ضدّ الله ورسوله ودينه يصدر من العبد قاهراً لله، فإنّ الله لا يقهره شيء ولا يعجزه شيء، ولكن شاء أن تجري الأمور ضمن أسبابها الطبيعيّة من أجل الابتلاء، فاتّقوا الله عباد الله.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٠٣/٢١٠.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٦٧١.

(٣) تفسير القمي ١: ١٢٩.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩٥).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ الاختلاف: التعاقب.

٢ـ الجُنُوب: أ ـ من الجَنْب وهي الجارحة. ب ـ الناحية والجهة كاليمين والشمال.

٣ـ قنا: خلّصنا.

٤ـ الخزي: الانكسار والاستخفاف.

٥ـ المنادي: ظهور الصوت ورفعه.

٦ـ التكفير: الستر والإزالة حتّى كأنّه لم يعمل.

٧ـ السيّئة: الفعلة القبيحة، وهي ما تقابل الحسنة.

٨ـ الأبرار: من البار الذي يوسع في عمل الخير.

٩ـ الضياع: الافتقاد.

١٠ـ حسن: المُبهج المرغوب فيه.

س: ما هو المحتمل في تفسير الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾

عرض إلهيّ يدعو الإنسان إلى التفكير وكشف أسرار الكون والحياة، دعوة عامّة للإنسان باعتباره يتميّز عن غيره بالعقل والإدراك والتفكّر، ودعوة خاصّة للعلماء وأصحاب الاختصاص لتنشيط حركتهم العقليّة واتّجاههم الفكري نحو الطبيعة وآياتها باعتباره علماً منحه الله للإنسان في أن يخوض في أعماق الكون أرضاً وسماء، وألّا يقف في دراسته وتفكيره على العناصر الماديّة للسماوات والأرض، بل عليه أن يلتفت للظواهر الطبيعيّة التي تحدث في السماوات والأرض والتي منها اختلاف وتعاقب الليل والنهار، وأن يكتشف ما هي علاقة كلّ شيء وارتباطه بالإنسان، والكلّ مدعوّون ألّا ينظروا إلى الطبيعة وما تملكه الحياة من دقّة علميّة في النظام والتشكيل وما تحمله من الأسرار الأُخرى، بل هناك نظر آخر وهو النظر

الديني والعقائدي الذي تعطيه الآية الطبيعية لما له الأثر في تعميق الإيمان بالغيب في قلوب النّاس، فما من كشف لأيّ عنصر من عناصر الطبيعة والحياة إلّا وهو يمتلك تلك الدلالتين الماديّة منها والمعنويّة، والذي يسير في الاتّجاه الواحد مع ماديّة عناصر الخلق فقط فهو تعامل ودراسة وكشف ناقص لا يعدّ صاحبها من أُولي الألباب وأصحاب العقول الخالصة والكاملة، فإنّ أُولي الألباب ممّن مدحهم الله لكونهم يستثمرون العقل في كلّ اتّجاهات التفكير التي تنفتح عليهم.

ثانياً: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

فأُولي الألباب ليس كلّ مَن اكتشف الأسرار الماديّة والعلميّة التي يحملها عنصر الخلق أو الظاهرة الكونيّة، بل هم الذين يؤكّدون على عنصره الغيبي الذي يعطيه عنصر الطبيعة بعد كشف أسراره، وإنّ انطلاقتهم الأُولى في كلّ عملية علميّة هو من أجل ذكر بالله وتعميق ارتباطهم به، فليس التفكير في آيات الآفاق إلّا وسيلة للتعميق، وإنّ دراسة آيات الآفاق ليس مطلوباً بالذّات، فحالة التوازن بين ذكر الله والتفكر في خلق السّماوات والأرض هي التي جعلتهم يتّصفون من أُولي الألباب، وإنّهم كُلّما يتفكّرون ويتوصّلون إليه في الكشف من أسرار الطّبيعة كلّما يزدادون ذكراً لله، لعلمهم أنّ طريق التفكر في آيات الطبيعة خير وأسلم وأصلح طريق لمعرفة الله؛ لأنّ طريق التفكر بذات الله لا يزيدهم إلّا رهقاً كما ذكرنا سابقاً في مبحث ذكر الله فراجع.

فهم بين نشاطين: النشاط العبادي والنشاط الفكري، آيات الآفاق وما خلق في السماوات والأرض، وكلّما زاد الثاني زاد الأوّل؛ لأنّ الثاني يرفد الأوّل بالعمق والوعي والحيويّة والترسيخ والأدلّة والحسّ والشعور ويترك آثاره الإيجابيّة على

قلوبهم فيجعلهم يذكرون الله بعملهم وعبادتهم بشكل مستمرّ وفي مختلف حالاتهم اليوميّة التي يعيشونها وهم في حالة اليقظة، فهم إمّا قائمون أو قاعدون أو مضطجعون على جنوبهم، فعندما يقفون على أيّ عنصر من عناصر الحياة ويجدونه على ما هو عليه من الدّقة والحكمة والصنع والتركيب يرون العَجَب وما يكون موقفهم عند ذلك إلّا زيادة في الاستسلام لشعورهم بكمال الخالق وكمال عجزهم، وإلا زيادة في تنزيه الله من كلّ نقص للكمال الذي أوجده في خَلْقِهِ الخالي من كلّ عبثيّة وزيادة مُبْطِرَة، وإلا زيادة في الخشية منه فيتوسّلون به بقولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ولهذه الحقيقة قال الله تعالى في حقّ هذا النموذج ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

سُئِلَ الإمام الحسين عليه السلام عن المسافة بين العبد ومعرفة الله، أنّه قال: «قدمان، قدم يضعها على الممكنات، وقدم يضعها في مقام العرفان».

س: كيف ينتقل العبد من التفكّر بالعنصر الكوني واكتشاف ما فيه إلى معرفة الله؟

ج:

١ـ من خلال قانون الأسباب والمسبّبات والعلّة والمعلول فيصل إلى معرفة علّة العلل وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا القانون يعرّف الإنسان أصل المُوجِد والخالق.

٢ـ من خلال قانون عدم استقلاليّة عنصر من عناصر الحياة بنفسه، بل لابدّ أن يكون مرتبطاً بغيره حاكماً عليه، فيعرف بذلك الكثير من صفات الله من التدبير والقيمومة والقوّة وأنّه سبحانه لا تأخذه سِنَة ولا نوم وأنّه عظيمٌ متفرّدٌ في

الخلق قاهر عزيز ...

٢ـ من خلال دقة التركيب والعلميّة التي يحملها ذلك العنصر، فيعرف أنّ المُوجد كان عالماً مدبّراً حكيماً خبيراً ...

ثالثاً: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

ويزداد أُولوا الألباب في التفكير فيزدادون ذكراً لله وخشية منه، فيتعمّقون في المواقف العقائديّة المرتبطة بعالَم الغيب ويوم القيامة وكأنّهم يرون الخزي والعار الذي يلحق مَن كان جزاؤه النّار، خزي لكونه رسوباً وفشلاً في النتيجة، خزي لكونه عذاباً في النّار، خزي لكونه مُبعداً عن الله الذي أغدق عليه تلك النعم التي لا تعدّ ولا تحصى فقابلها بالتمرّد عليه، خزي لكونه صار من زمرة الظّالمين تلك الصّفة التي ينفر منها كلّ إنسان، خزي حيث يتوسّل فلا ناصر له ولا معين، خزي لكونه ظلم نفسه وبسبب نفسه وأفعاله دخل النّار، فأُولي الألباب يستعيذون بالله ويتوسّلون إليه بألّا يجعلهم من زمرة هؤلاء.

رابعاً: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾

وأُولو الألباب كما يعيشون حالة الخوف يعيشون حالة الطمع بالتقرّب إلى الله والحصول على نعيمه في الآخرة، فهم يعرضون إيمانهم بالله ويؤكّدونه بإقرار منهم، وكانت بدايته عند أوّل سماعهم المنادي وهو ينادي للإيمان بالله ألا وهو نداء آيات النفس من الفطرة والعقل، نداء آيات القرآن، نداء الأنبياء، نداء التفكر بآيات الآفاق التي تناديهم بأدلّتها للإيمان بالله، فهم لا يقفون عند الدليل العقلي وما تعطيه آيات الآفاق، بل يخضعون للنقل وما تنادي به النصوص والأخبار، فهم في حالة توازن بين النقل والعقل اللذين هما أهم رافدين للإيمان، فكانوا مستجيبين لهذا النداء، ذلك

عندما أقرّوا وأعلنوا إيمانهم بربّهم، وباعتبار أنّهم يعيشون الحالة الاجتماعيّة التي لا تخلّصهم من سيّئات، فهم يتوسّلون بربّهم أن يطهّرهم منها لعلمهم أنّ الجنّة لا يدخلها إنسان إلّا بعد تطهيره من كلّ سيئة، فهم يتوسّلون بربّهم أن تشملهم عمليّة التطهير تلك وذلك عن طرق التكفير وذهاب السيّئات عنهم ليكون وجودهم منسجماً لأن يكونوا من أهل الجنّة ولاتقين أن يكونوا بصحبة الأبرار الذين لهم شأن ورعاية خاصّة عند الله في عالَم البرزخ ويوم القيامة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار:١٣)، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين:١٨).

خامساً: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

ويزداد طمعاً وتوسلاً أولو الألباب بأن يعطيهم ما قطعه الله بوعده، وإنّ وعده وإن كان لا يختلف ولا يتخلّف ولكن يعلمون أنّه منطلق من لطفه ورحمته لا إلزاماً عليه، فإتيانه يحتاج إلى دعاء وتوسّل لاستجلابه، ويزيدون إلحاحاً به بألّا يُخزيهم يوم القيامة لعلمهم بأنّ خزي يوم القيامة ليس بعده خزي وعار، وإيتاء الوعد الإلهي يشمل الدنيا حيث استخلاف الأرض ووراثتها من قبل المؤمنين والنصر في القتال وغير ذلك ممّا تحكي عنه الآيات، ويشمل يوم القيامة من الجنّة والمساكن الطيّبة وغير ذلك.

سادساً: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

قد شاهدنا أولي الألباب في موازنتهم بين التعبّد لله والعمل في الدنيا من خلال

التفكر في آيات الآفاق الذي يلازمه العمل وكلّه عبادة لله؛ لأنّه ـ كما قلنا ـ كان من أجل ذكر الله، وشاهدنا إخلاصهم في العمل والعبادة، وشاهدنا إخلاصهم في ارتباطهم بالله والإيمان به، وشاهدنا توسّلهم وتضرّعهم من خلال استماتتهم بالدعاء، وشاهدنا خوفهم من الله والطمع بما عنده وبما وعد به، فعلى مجموع ذلك رتّب الله الاستجابة المتحقّقة ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ التي تحمل (فاء) للترتيب مع صيغة الماضي التي تدلّ على فعليّة الوقوع والتحقق، وإنّ الاستجابة ناظرة للعمل لا على الإيمان فحسب ولا على الدعاء فحسب، فإنّ أعمالكم محفوظة وبعيدة عن الضياع والتلف، وإنّ الاستجابة شاملة لكلّ مَن كان مصداقاً لأُولي الألباب، سواء كان من ذكر أو أنثى لعدم الفرق لا في أصل الخِلْقَة ولا في أصل التكليف ولا في أصل التلبس في أيّ عنوان، فكما يكون الذَّكَر من أولي الألباب فكذلك الأُنثى بلا فرق ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٧١)، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(الأحزاب:٣٥).

ولهذا فإنّكم جميعاً متساوون في اللحاظ والعناية وترتّب الثواب.

نعم، تختلف العناية وترتّب الثواب بلحاظ نوع العمل الذي يقدّمه الإنسان، فكلّما كان أكثر إخلاصاً وأكثر معاناة وأوسع نوعيّة كالدفاع عن الإسلام وعن الأُمّة الإسلاميّة كان أكثر ثواباً وأعلى منزلة وأكثر تقرّباً، ولهذا ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ فحسن الثواب تابع للعمل الأحسن، والله لم يكشف حسن الثواب لعظمة شأنه وأنّ للجنّة درجات لا يعلم حقيقة نعيمها إلّا هو سبحانه وتعالى.

س: اذكر لنا ما نقلته الروايات التي تعكس فضل الاهتمام بهذه الآيات من حيث قراءتها والتدبر بها.

ج:

١ـ ورد عن معاوية بن وهب أنّه قال: سمعت أبا عبداللهﷺ يقول في صلاة النبيﷺ: «كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه، ويوضع سواكه تحت فراشه، ثمّ ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس ثمّ قلّب بصره في السماء ثمّ تلا الآيات من آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثمّ يستنّ ويتطهّر، ثمّ يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات على قدر قراءة ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، ويركع حتّى يقال: متى يرفع رأسه، ويسجد حتّى يقال: متى يرفع رأسه، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره في السماء ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد، ويصلّي الأربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثمّ يستيقظ ويجلس ويتلو الآيات من آل عمران ويقلّب بصره في السماء ثمّ يستنّ ويستطهّر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلّي الركعتين ثمّ يخرج إلى الصلاة»(١).

٢ـ ورد عن أميرالمؤمنينﷺ أنّه قال: «إنّ رسول اللهﷺ إذا قام تسوّك ثمّ ينظر إلى

---

(١) التهذيب ٢: ١٣٧٧/٣٣٤.

السماء ثمّ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾»(١).

٣ـ ورد عن ابن عبّاس أنّه قال: بتّ عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتّى انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل، ثمّ استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثمّ قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتّى ختم»(٢).

٤ـ ورد عن الرسول ﷺ لما نزلت هذه الآيات أنّه قال: «ويلٌ لمَن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل فيها»(٣).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) زبدة البيان: ١٤٠.

(٢) كتاب الموطأ ١: ١٢١/ ١١.

(٣) البحار ٦٦: ٣٥٠/ ٣٨.

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٩٦ـ ٢٠٠).

س: ما هو المعنى اللغوي لمفردات الآيات؟

ج:

١ـ التقلب: التحوّل من حال إلى حال.

٢ـ نزلاً: أ ـ مطلق الزّاد. ب ـ ما يهيّأ للضيف عند نزوله، من الزاد والمسكن وغير ذلك من أسباب الراحة.

٣ـ صابروا: المغالبة في الصبر.

٤ـ المرابطة: الملازمة والثبات.

س: ما هو التفسير المحتمل لمجموع الآيات المذكورة أعلاه؟

ج:

أولاً: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾

خطاب للرسول ﷺ باعتباره واسطة السماء وموجهاً للمؤمنين تسلية لهم وإلفات نظرهم إلى حقيقة وإن كانوا يعلمون بها وهي أنّ متاع الحياة قليل بالنسبة

إلى الآخرة، ولكن من الناحية العمليّة قد يسقط الإنسان في مورد على خلاف ما يعتقده لغفلته أو انخداعه فيأتي خطاب هذه الآية ليذكّر المؤمنين حتّى ينتشلهم من الوقوع في غرور ما يشاهدونه من تقلّب أهل الكفر والفساد في البلاد، وأنّ جميع الأرض بيدهم، يعملون كما يشاؤون ويسافرون متى يشاؤون ويحكمون كما يشاؤون وأنّ أسباب القوّة بيدهم، فقد ينخدع المؤمن بهذه الظاهرة فيأخذه الاستسلام لهم ومدّ يده إليهم أو يسلك مثل سلوكهم فيتّخذ طريقتهم في الحياة أو يرى أنّه لا حلّ إلّا من خلال هؤلاء الكفرة.

ثانياً: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

فهنا وبهذا الخطاب تأتي الحصانة الإلهيّة للمؤمنين من قِبَلِ الله، في أنّ المؤمن لابدّ أن ينظر إلى الموت الذي سيشملهم، وإلى حقيقة ما يملكون من حيث نسبته إلى الآخرة، وإلى حقيقة كلّ متاع الدنيا في أنّه قليل؛ لأنّه زائل، ولأنّه بالنسبة إلى ما يحصل عليه المؤمنون من الأجر والثواب الكثير وهم يصبرون على ما هم عليه من الابتلاء والمحن.

س: تذكير المؤمنين بالمتاع القليل في قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ هل يُراد منه تزهيد المؤمنين عن متاع الدنيا؟ اذكر المحتملات من الجواب.

ج:

الزهد: هو ألّا يَمْلِكُكَ المتاع وإنّما أنت الذي تملك المتاع وتضعه تحت خدمتك، وهذا من الأمور المهمّة، ولكنّه عطاء واحد من عطاءات الآية. فهذا القول من الآية له عطاءات أُخرى منها:

١ـ تحقير ما يمتلكه الكافرون في أعين المؤمنين حتّى لا يأخذهم الانبهار فيما

يمتلكون فتطمع النفوس، روى الواحدي في (أسباب النزول) في قوله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أنّه قال: إنّهم كانوا في رخاء ولين من العيش، وكانوا يتجرون ويتنعّمون، فقال بعض المؤمنين: إنّ أعداء الله تعالى في ما نرى من الخير، وقد أهلكنا الجوع والجهد، فنزلت هذه الآية[1].

٢ـ أن يكون إشارة إلى قضيّة حقيقيّة وهي أنّ متاع الدنيا قليل بالنسبة إلى الآخرة.

٣ـ أن يكون إشارة إلى ما يحصل عليه الكافرون من متاع الحياة ما هو إلّا قليل نسبة إلى ما سيفقدونه في الآخرة.

٤ـ أنّ متاع الكافرين منحصر بهم فلا يتعدّى إلى غيرهم من الناس، وهذا يكشف عن أنانيّتهم واهتمامهم بأنفسهم، فهو قليل لا أنّه كثير ومنتشر بين النّاس، فلا يغرنّك أيّها المؤمن إعلامهم عندما يسلّطون الضوء على متاعهم ويتركون الأضواء من أن تكشف المأساة التي يعيشها أغلب النّاس.

٥ـ أنّ الكافرين إذا حكموا البلاد وتقلّبوا فيها لا يحصلون إلّا على المتاع القليل نسبة إلى المؤمنين لو حكموا البلاد بدين الله والإيمان به، فإنّ حكم الكافرين لا يحصد إلّا المتاع القليل ويمنع بركات الأرض والسماء، بعكس حكم المؤمنين الذين ينشرون الإيمان وتقوى الله بحكمهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

قال: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) أسباب النزول:٩٣.

نُزُلاً مِنْ عِنْدِ الله وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾

وهذه صورة من الصور الكثيرة التي حصل عليها المؤمنون في الآخرة مقابل متاع الكافرين في الدنيا، فإنّ متاع الآخرة ليس كمتاع الدنيا في قلّته بل كثير، فإنّها جنّات تجري من تحتها الأنهار، ولم يكن متاع الآخرة كمتاع الدنيا في أنّه زائل بل خالدون فيها، وليس متاع الآخرة كمتاع الدنيا في أنّه يتمّ تحضيره من قِبَلِ الإنسان، بل هو تحضير ونزلٌ من عند الله، وإذا كان من عند الله فاعرف أيّها المؤمن مقدار متاع الآخرة ونوعه. هذا بالإضافة إلى أنّ هناك نِعَماً أخرى عند الله مذخورة للأبرار لا يمكن وصفها للإنسان، ويكفيها عظمة أنّها عند الله وقريبة منه سبحانه.

رابعاً: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

إنّ الآخرة لم تكن منحصرة للمسلمين، ولم يقل المسلمون أنّ الجنّة لا يدخلها إلّا مَن كان مسلماً، بل هي لعامّة أهل الكتاب مَن توفّرت بهم الشروط التالية:

١ـ الايمان بالله، بما هو عليه من الذات والصفات، إيمان ينفي كلّ نوع من الشرك ، فهو الايمان الخالص لله.

٢ـ الايمان بالقرآن الذي أنزله ﴿إِلَيْكُمْ﴾ كمحل لا كخطاب، وإنّما خطابات القرآن شاملة لكلّ النّاس، والايمان بالقرآن يلازمه الايمان بالرسولﷺ.

٣ـ الايمان بالكتب التي أُنزلت على أهل الكتاب بما هي، فالنصراني يؤمن بإنجيله الأصل، واليهودي يؤمن بتوراته الأصل.

٤ـ العبادة والخشوع لله على ما أمرهم به الله من الصلاة وطريق الخشوع إليه، أو هم يخشعون لله بقلوبهم ويراقبونه بأعمالهم خوفاً منه سبحانه.

٥ـ العمل بما يمليه عليهم إيمانهم من الابتعاد عن المحرّمات من أن يبيعوا دينهم من أجل الدنيا أو يكتموا الحق أو يبخلوا أو يؤذوا المؤمنين، فهم بعيدون كلّ البُعد عن المعاصي.

فلو جُمِعَتْ هذه الشروط لرأيتها هي الوحدة الجامعة بين جميع أهل الكتاب وعليها يرتّب الله أجره للعاملين من أهل الكتاب، ولم يؤخّر الله أجر عامل منهم؛ لأنَّ الله سريع الحساب، ورد عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أنّه قال: إنَّ الآية نزلت في النجاشي ونفر من أصحابه لمّا مات هو فصلّى عليه رسول الله ﷺ وهو في المدينة، فطعن فيه بعض المنافقين أن يصلّي على من ليس في دينه، فأنزل الله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ..﴾ الآية(١).

خامساً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

مسك ختام السورة بالنداء الإلهي للمؤمنين ليعرّفهم من خلاله على أهم وحدة ومفردة دنيويّة تنفعهم في الدنيا بالغَلَبة والنصر على أنفسهم الأمّارة بالسوء وعلى أعدائهم بالمواجهة والصمود أمامهم، وتضمن لهم النصر والفوز والفلاح بعطاء الآخرة، تلك المفردة هي الصبر والمصابرة والمرابطة فإنَّ جميعها ذات معنى واحد وهي الملازمة والثبات والمواظبة، ولكن إذا كانت على المستوى الفردي في مواجهة معصية أو على طاعة الله أو على مصيبة سمّيت صبراً، وإذا كانت مع

---

(١) تفسير الميزان ٤: ٩١.

الجماعة بحيث يكون أحدهما يصبّر الآخر ويوصيه بالثبات والملازمة سمّيت بالمصابرة سواء كانت جماعة المؤمنين في حالة سلم ورخاء أو في صراعهم مع أعداء الله أو أيّ كارثة تصيب المجتمع المسلم. وإذا كان الصبر في خصوص مواجهة أعداء الله لما يحتاج ذلك من المقاتلين وسدّ الثغور والثبات والملازمة والمواظبة على المواجهة والتمسّك بالولاية والقيادة الشرعيّة والحفاظ عليها واستمرار التمسك بها، فيسمّى بالمرابطة.

فالصبر مفردة من المفردات المهمّة التي تدخل في حركة العاملين في سبيل الله والتي لا تُنال إلّا بتقوى الله سواء دخل في مجاهدتهم لأنفسهم أو في عملهم الاجتماعي أو في مجاهدتهم لأعداء الله، وبها ينال المؤمنون رجاءهم بالفلاح في الدنيا والآخرة، وقد مرّ الحديث عن الصبر في مبحثه فراجع.

وأمّا المصابرة فهي بما أنّها حالة اجتماعيّة فتتجسّد بكلّ أمر إلهي قد كلّف الله الفرد به تجاه مجتمعه المؤمن والذي يصبّ في طاعة الله وبناء المجتمع المؤمن من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الثقافة والتعليم والدعوة إلى الوحدة والتعاون وإجراء أحكام الله.

وأمّا المرابطة فلم يأتِ هذا اللفظ إلّا في هذه الآية فقط ليلفت الله أنظار المسلمين إلى أهميّة الجانب الجهادي ودوره الكبير في حياة الأمّة وعزّتها.

ورد عن الإمام الصادق‰ في قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ أنّه قال: «اصبروا على المصائب، وصابروهم على التقية، ورابطوا على من تقتدون به»(١). وورد عن الإمام الرضا‰ أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ٢٠٧/ ٢١٣٧١.

الصّابرون؟ فيقوم فئام من النّاس، ثمّ ينادي: أين المتصبّرون؟ فيقوم فئام من النّاس». قلت: جُعلت فداك وما الصّابرون؟ قال عليه السلام: «على أداء الفرائض والمتصبّرون على اجتناب المحارم»(١).

صدق الله

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) تفسير القمي ١: ١٢٩.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الكتاب

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس آيات السور

سورة آل عمران

آية ٢٣ ـ ٢٥ .... ٧
آية ٢٦ ـ ٢٧ .... ١٢
آية ٢٨ ـ ٣٠ .... ٣٠
آية ٣١ ـ ٣٢ .... ٤٧
آية ٣٣ ـ ٤١ .... ٥٢
آية ٤٢ ـ ٦٠ .... ٨٧
آية ٦١ ـ ٦٣ .... ١٣٣
آية ٦٤ ـ ٧٨ .... ١٥٢
آية ٧٩ ـ ٨٠ .... ١٧٥
آية ٨١ ـ ٨٥ .... ١٨٠
آية ٨٦ ـ ٩١ .... ١٨٩
آية ٩٢ ـ ٩٥ .... ١٩٣
آية ٩٦ ـ ٩٧ .... ١٩٨
آية ٩٨ ـ ١٠٢ .... ٢٠٦
آية ١٠٣ ـ ١٠٩ .... ٢١٢
آية ١١٠ .... ٢٣١
آية ١١١ ـ ١١٢ .... ٢٤٦
آية ١١٣ ـ ١١٥ .... ٢٥١
آية ١١٦ ـ ١١٧ .... ٢٥٤

آية ١١٨ ـ ١٢٠ .... ٢٦٠
آية ١٢١ ـ ١٢٢ .... ٢٦٦
آية ١٢٣ ـ ١٢٩ .... ٢٨١
آية ١٣٠ ـ ١٣٨ .... ٢٩٦
آية ١٣٩ ـ ١٥٥ .... ٣٠٩
آية ١٥٦ ـ ١٥٨ .... ٣٣٦
آية ١٥٩ .... ٣٤١
آية ١٦٠ .... ٣٦٧
آية ١٦١ ـ ١٦٤ .... ٣٧٠
آية ١٦٥ ـ ١٦٨ .... ٣٨١
آية ١٦٩ ـ ١٧٥ .... ٣٨٧
آية ١٧٦ ـ ١٧٧ .... ٣٩٧
آية ١٧٨ .... ٤٠٠
آية ١٧٩ .... ٤٠٣
آية ١٨٠ ـ ١٨٤ .... ٤٠٧
آية ١٨٥ .... ٤٢٨
آية ١٨٦ .... ٤٥٤
آية ١٨٧ ـ ١٨٩ .... ٤٥٧
آية ١٩٠ ـ ١٩٥ .... ٤٦٢
آية ١٩٦ ـ ٢٠٠ .... ٤٧١

فهرس البحوث

● مبدأ التقيّة وولاية الكافرين ٢١
● حبّ الله ٤٧
● امرأة عمران وزكريا ويحيى عليهم السلام ٥٣
● اصطفاء مريم عليها السلام وعيسى عليه السلام ٨٨
● المباهلة وأهل البيت عليهم السلام ١٣٣
● الوحدة نداء الله ٢١٣
● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٣١
● معركة أحد ٢٦٦
● معركة بدر الكبرى ٢٨٤
● دروس إلهية من معركة أُحُد ٣١٠
● الشورى وأثر التشاور في الأمر ٣٤٥
● البخل وأثره على الفرد والمجتمع ٤٠٨
● نظرات مشرقة حول الموت ٤٢٨

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی